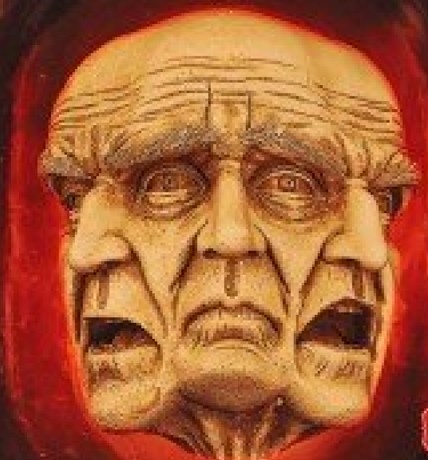
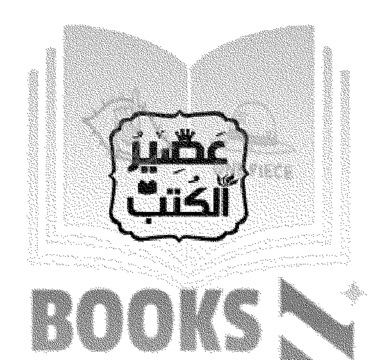
د. أحمد خالد مصطفى

الشيطان يحكي

رواية



الشيطان يحكي



إهداء إلى: د. نبيل فاروق.

بين كُتيبات صغيرة ذات مظهر قديم كان هناك عملاق يولد دون أن ينتبه إليه أحد، فقط أعين الشباب كانت تعرف أنه عملاق، تراهم يدخلون المكتبة فلا يعنيهم سوى رف واحد تتراص عليه تلك الكُتيبات الصغيرة بلا ترتيب، الشغف في أعينهم ودقات قلوبهم تكاد تسمعها وهم يقلِّبون الكُتيب ويقرؤون ذلك المكتوب خلفه ثم يخرِجون من جيبهم الخلفي تلك الأرباع القليلة التي ادَّخروها كثيرًا لأجل هذه اللحظة، ثم يرمون الأرباع للبائع وينطلقون في لهفة.

وقبل أن يأتي المساء يلتهمونها التهامًا، يقرؤون الكتيب الواحد عشرات المرات حتى يصدر الكتيب التالي فينطلقون لاقتناصه في نفس اليوم. أحيانًا يخفون هذه الكتيبات الصغيرة بين صفحات كتب الدراسة أو تحت لحاف السرير.

نفس أولئك الفتية الصغار كبروا وهم لا يحبون أفلام الخيال العلمي أبدًا ولا أفلام جيمس بوند على الرغم من نجاحها في كل الدول الأجنبية، السر هو أن هذا الكاتب العملاق وضعهم في عالم بدا فيه كل مخرجي هوليوود تلاميذ بسطاء لا يشبعون تلك اللذة التي يقدمها لهم في كل قصة من قصصه.

في عالم نبيل فاروق كنا نشاهد أفلام الخيال العلمي ونقول لبعضنا: انظر! هذا الفيلم مأخوذ من قصة كذا من ملف المستقبل.

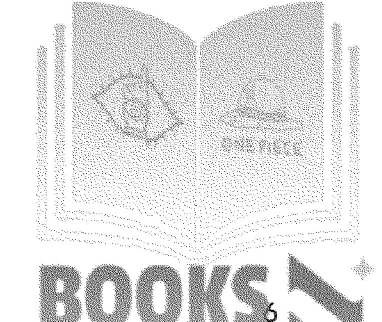
وأي شيء هو جيمس بوند بالنسبة إلى أدهم صبري، المقاتل النبيل الذي لا يشرب الخمر ويتعفف عن الحرام ويحب مصر حتى سقانا إلى النخاع بحب مصر، وليس فقط مصر، بل رأيناه يقاتل مع المقاومة الفلسطينية ويذيق جنود إسرائيل أشد العذاب، بطل يحمل القضية العربية ويزرعها في قلب كل شاب عربي منا حتى تشرَّبناها وكبرنا ونحن نعلم أن لدينا نحن العرب عقولًا

تنافس من حولنا بل تتفوق، ولدينا عمالقة حقيقيون في كل مجال بانتظار أن يكتشفهم أحد يومًا ما.

عندما قابلتُ دكتور نبيل فاروق جلست معه ساعة لم أجرؤ خلالها أن أخبره أنني كاتب، فأنت في حضور عملاق، فقط اجلس وتعلم.

هناك نجوم في هذه الدنيا تصعد قليلًا ثم تنطفئ، ونجوم تبقى إلى الأبد، ولقد صعدت نجمة نبيل فاروق وأصبحت كائنة في السماء تضيء ما حولها، وسيذكر العالم أن تلك النجمة وُلدت من أرض مصر وعاشت في مصر وصعدت من مصر، وسيعرفها العالم كما عرفناها وسيعشقونها كما عشقناها.

أحمد خالد مصطفى



أنفاس حارة بشرية لا تطيق بعضها..

طائرة ضيقة كعلبة سردين نجلس فيها كتفًا بكتف...

أقدامنا تتلامس، وزفراتنا تتداخل، ورائحة اللحم الذي لم يستحم تزكم الأنوف...

حبات عرق تنحدر على الجباه، هناك عطل في المكيف كما يبدو لكنه أظهر عطلًا في نظافة البشر...

رحلة جوية رخيصة تأخذني وأنا شيخ سلفي من بلقاس لزيارة رومانيا ولم يكن يزعجني عطل المكيف، بل الفتاة الجالسة بجواري وكتفي العريضة تلامس كتفها وهي تهز قدمها شبه العارية في ضجر وتتأفف كل حين...

نظرات الناس إلى لحيتي تحمل مزيجًا من الكره والخوف؛ الكره لمظهري الإسلامي والخوف من أن أفجر نفسي في وجوههم، الصورة النمطية لكل رجل أسمر له لحية، على الرغم من أن رهبانهم الذين يهبونهم الغفران لهم لحى أطول!

انحنت المضيفة علينا بتلك الابتسامة التي يرسمنها على وجوههن جميعًا حتى لو كانت الطائرة تحترق، وقالت شيئًا باللغة الرومانية لتلك الفتاة الخالعة لرداء الحياء والجالسة بجواري، اعتذار يتعلق بالمكيف كما يبدو من نظراتها...

حاولتُ الاسترخاء على المقعد اليابس لأنال قسطًا من النوم، فما زال أمامنا بعض الساعات للوصول إلى براشوف.

لم يكن استجلاب النعاس سهلًا، لكنه أتى وأحضر معه ذلك الكابوس الذي عشته يومًا بكل تفاصيله التي تقبض القلب...

رأيتني أقف في غرفة صغيرة أمام سرير يهتز بعنف وحولي أناس يعاونونني في حرب اخترت أن أخوضها وأتحمل نتائجها، كنت أنظر إلى

فتاة ملقاة على السرير ووجهها لم تعد له علاقة بالفتيات، بل صار أشبه بالضواري، عيناها بيضاء تمامًا، تعلوها ظفرة مخيفة وتنظر إليَّ في تحدٍّ وينبعث منها صوت مكتوم غاضب كأنه رغاء الضباع.

كنت أقرأ عليها قرآنًا وشفتاها تنفرجان في سخرية وهي تقاوم سلاسل كبَّلنا بها يديها ورجليها على السرير...

الدماء التي على الحائط والجروح على وجهي أنا وجميع الرقاة تخبرك أي شيطان لعين كان يسكن فيها، بتلك العين التي ينظر بها وهو يلف رأسها ناحيتي ببطء ثم يـ...

استيقظت فزِعًا أنظر إلى أعين الركاب فسمعت شيئًا ما كأنه سُبة بلغة رومانية من تلك التي تجلس بجواري، نظرت إلى ناحيتها بضيق وأنا أتذكر الموقف الأغرب في حياتي والذي أخرجني من بلدي الحبيبة مصر إلى بلاد الأغراب.

كنت خارجًا من المسجد حين أتاني أحد تلاميذي القدامى الذين أعلمهم القرآن وأعطاني مظروفًا عليه أختام كثيرة بلغة أوروبية شرقية.

فتحت المظروف وأخرجت رسالة مكتوبة بخط أنيق جدًّا وأسلوب مهذب تدعوني أنا الشيخ خالد موسى الراقي والمعالج بالقرآن لحضور مؤتمر عالمي يُقام في براشوف برومانيا، ولم يتركوا لي حجة للرفض، فقد أرفقوا تذاكر الطيران وحجز الفندق ومبلغًا كبيرًا بالدولار لشراء احتياجات السفر كافة، بل إنهم ذكروا أن التأشيرة جاهزة باسمي وأن عليَّ فقط التوجه للسفارة بجواز سفري لاستلامها.

الدعوة مقدَّمة من المحفل الأعلى للعلوم الماورائية والفنون الروحانية، والحق أني لم أسمع به من قبل ولا أدري كيف سمع بي أصلًا، ربما بسبب تلك الحلقة التي ظهرت فيها بالتلفزيون وأنا أحكي تجاربي الناجحة في طرد الجن في بلقاس؟ لكن ما الذي يدعوهم للاهتمام بنا هناك في رومانيا؟!

وعلى الرغم من كراهيتي للسفر إلى بلاد الكفار، فإنني وجدتها فرصة لنشر شيء من دين الله، فرصة محفوفة بالقلق.

*

مطار براشوف بكل ما فيه من زجاج يعلو إلى أقصى ارتفاع لبصرك، أجانب أغراب، شقر الشعور، عراة السيقان نساء ورجالًا، يروحون ويجيئون وأنا أمشي بلحيتي الكبيرة بينهم أغض بصري عن نسائهم وعن أعينهم التي يعتريها القلق من هيئتي.

لعن الله الخوارج أصحاب اللحى الذين خرجوا لقتل الأبرياء وتفجيرهم باسم الإسلام حتى نفرَ الناسُ من مجرد ذكرِه. كنت أنظر بين الوجوه لعلي أجد من ينتظرني ها هنا، رأيت كثيرًا من اللافتات مرفوعة بأسماء أشخاص ليس من بينها اسمي، حتى رأيت لافتة عرفتها من شعار المحفل المميز الذي دعاني...

كان يحملها رجل خفيف الشعر، نحيل كعود الكبريت، له ملامح أرهقتها الحياة أو الدخان كما يظهر من أسنانه، نظر لي بعينين زرقاوين فيهما بريق الشباب على الرغم من هيئته المتعَبة، وأطلق ابتسامة سريعة لم تتجاوز زاوية فمه وهو يقول بلغة إنجليزية تفوح منها اللهجة الروسية:

- مرحبًا قداسة الشيخ.

رددت عليه بطلاقة ولهجة إنجليزية صحيحة:

- مرحبًا بك، ما هو اسمك؟

مد يده وأمسك بحقيبتي وهو يقول:

- إيفان، إيفان سوكولوف.

مشيت وراءه وأنا أطلق عيني فيما حولي وأقول في نفسي: أين أنت يا بلقاس وأين ناسك بكل دفئهم؟ فالناس هنا أصابهم برد في أرواحهم فيما يبدو!

قادني الروسي إلى سيارة متوسطة الحال وانطلقنا ولم يكن يتحدث كثيرًا، فبادرته بالسؤال:

- أين هو مكان المؤتمر؟

قال لي وهو ينظر إلى الطريق:

- الفندق في دراجوس، وهي بلدة على سفح جبال فاراجاس، على بعد ساعة ونصف من هنا.

مططت شفتي في تفهم، حتى أسماء بلادهم تبدو أسطورية. تذكرت أمرًا فقلت له محاولًا كسر حاجز الثلج:

- أنتم لديكم قلعة دراكولا، صحيح؟

ضيِّق عينيه للحظة ونظر إليَّ في المرآة ثم عاد ينظر إلى الطريق وقال:

- نعم، لكنها بعيدة في بلدة مجاورة بنفس إقليم ترانسلفانيا الذي نحن فيه.

تنهدت وأنا أنظر من النافذة إلى رومانيا، هناك طابع من العصور الوسطى يلف كل شيء، قال لي بلهجة جادة:

- هل تدخن؟

نظرت إليه بضيق وكأنه سبني وقلت:

- لا بالطبع.

ظننت أنه يتهيأ ليطلب مني أن أسمح له بالتدخين لكنه لم يفعل، وبقي صامتًا كالقبر طوال الطريق إلى الفندق.

بدأ الطريق يتحول شيئًا فشيئًا من المباني والزحام إلى الأراضي الخضراء الواسعة والجبال المفروشة بالأشجار، ثم اختفت المباني كليًّا ولم يبقَ إلا السهول والوديان، هؤلاء القوم لديهم جنات في الدنيا حقًّا. انحرفت السيارة عن الطريق الممهد ودخلت في طريق شبه ممهد وبدأت ترتج بين لفيف من التلال الخضراء حتى توقفت أمام الفندق الذي سيكون مقامنا، ورفعت حاجبي تعجبًا.

هذا ليس فندقًا، بل هو أقرب إلى نُزُل، ثلاثة أدوار من الخشب يعلوهم سقف مثلث أحمر كجميع الأسقف الأوروبية، وأرض خضراء واسعة تحيط به، وجبال تعزله عن كل شيء تقريبًا.

كان له منظر مقبض بتلك الأشجار متساقطة الأوراق التي تتناثر أمامه. رأيت اسم النُّزل مكتوبًا على واجهته بأحرف صغيرة نسبيًا، PURGATORIUM، ولم أعتنِ كثيرًا بالاسم.

نزل الرجل وفتح لي باب السيارة وأخرج حقيبتي ومشى أمامي إلى النزل وفتح الباب ودخلت وراءه، وسكتت كل الأصوات لدخولي.

بشر من جميع الأجناس تقريبًا، رجال ونساء، ينظرون إليَّ في رهبة، بعضهم جالس وبعضهم واقف كأنما ينتظرون أحدًا، لا يبدو من إعراض وجوههم عني أنهم كانوا ينتظرونني. حييتهم بتحية الإسلام ومشيت إلى مكتب الاستقبال الخشبي ناظرًا إلى ملامح هذا النزل الذي يبدو قديمًا جدًّا بأرضيته الخشبية التي تحدِث صريرًا مع كل خطوة.

***

خلف مكتب الاستقبال وقفت امرأة سمينة جدًّا تبدو في الستينيات، وتضع مكياجًا يكفي قبيلة من النساء وتربط رأسها بطريقة الريفيات، قالت لي بإنجليزية ذات لهجة نوردية:

- في وقتك أتيت أيها الشاب الصغير الوسيم، سنحتفظ بجواز سفرك لحين مغادرتك.

ابتسمت مجامِلًا وأعطيت لها جواز سفري، فأخرجَتْ سجلًّا كبيرًا وكتبت اسمي في الخانة الثانية عشرة، إذن نحن لدينا اثنا عشر ساكنًا هنا بوجودي. نظرت إليهم وأحصيتهم بعيني، أغلبهم رجال مختلفو الطبائع والطبقات الاجتماعية كما هو واضح، وبعضهم يظهر عليه طابع العلماء، وفيهم ثلاث نساء: امرأة محجبة تجلس ناظرة إلى الأرض كأن هموم الدنيا فوق رأسها، وامرأة هندية بتلك النقطة الحمراء على جبينها، وأخرى صغيرة السن تبدو آسيوية. نظرات الجميع لي حذرة وغير مرتاحة في العموم، وكذلك كانت نظراتي لهم.

هززت رأسي تحية لموظفة الاستقبال واستدرت أمشي إلى لوحة كبيرة كانت هي الشيء الوحيد المميز في ديكور الفندق البسيط...

لوحة من عصر النهضة أو نهاية العصور الوسطى على ما يبدو تظهِر رجلًا قصيرًا سمينًا يقف على طاولة ويرفع يده بشيء ما، وتقف أسفل الطاولة ثلاث نساء ريفيات تجلس أمامهن امرأة بالغة الثراء بذلك الفستان المفروش و...

- كيف حالكم يا شيخ؟

لغة عربية بلهجة لم أعرفها جيدًا لكنها محببة إلى النفس. التفتُّ بذهول لأجد رجلًا أسمر سمح الوجه مبتسمًا يقول:

- معك أخوك طويبة من اليمن.

فرحت كأنما هو صوت من الجنة أتاني وسط جحيم الأغراب الذي أنا فيه، نظرت إليه كالظمآن الذي وجد في الصحراء ماء وقلت:

- أنت أكثر من أسعدتني رؤيته منذ أن نزلت هذه الأرض يا طويبة. اسمك جميل، ما معناه؟

ابتسم بسماحة أهل اليمن وقال:

- يعني طيب، طيب يا شيخ.

أشرق له وجهي وقلت:

- وأنت تبدو لي طيبًا.

قال لي:

- أنت تشبه ذلك الممثل الأمريكي يا شيخ، جون ترافولتا، الفرق أن عندك لحية طويلة.

ضحكتُ على دعابته واطمأنت نفسي لما هو آتٍ حتى سمعنا صوت خطوات تنزل على السلم فنظرت ونظر الجميع واتسعت حدقتاي قليلًا في دهشة، وكذلك بقية الأعين التي شاهدت باستغراب ذلك الشخص الذي ظهر على السلم...

أصلع الرأس، شديد البدانة، قصير القامة، يرتدي حلة فاخرة، له وجه أملس يخلو تمامًا من أي شعرة إلا شعر حاجبيه الخفيف، نظر إلينا بعينين زرقاوين حادتين، وابتسم بطريقة تشبه الثعبان وقال:

- نحن استجلبناكم من جميع البلاد إلى رومانيا لتحضروا هذا الاجتماع السنوي، وإن قلبي سعيد بوجودكم.

ونزل درجات السلم وهو يكمل:

- نحن سنهب لكم منبرًا تشهدون به على تجربتكم، ونشهد عليكم، ونتباحث في حديثكم ليعرفه العالم ويعلم أنكم حق.

كان صوته هو واللحية سواء، وأنظار الناس له بين مبهور وقلق، وهو يقف أمامنا ويقول:

- إنه الاتحاد الدولي الأول لجمع العلوم الطبيعية والميتافيزيقا مع العلوم الروحانية في بوتقة واحدة.

وعمل بيده كشكل القبة المتشابكة الأصابع وقال:

- سيكون لقاؤنا بعد العشاء. زوِّدوا أجسامكم بالطاقة، فهي ستحتاج إليها كثيرًا.

ثم أحنى ظهره وقال:

- اسمي هو شارلوتان، وأنا مضيفكم الذي أتيت بكم إلى هنا وآمنت بكم كما لم يؤمن أحد.

ثم عمل حركة مسرحية وانصرف تاركًا قلوبنا تدق من غرابة أسلوبه ومظهره وطريقة كلامه، وتابعناه وهو يتوجه إلى مكتب الاستقبال ويتشاغل بالحديث مع تلك الموظفة.

بدأ الضيوف يصعدون إلى المطعم في الدور الثاني وصعدتُ معهم، تبعتنا موظفة الاستقبال السمينة ودخلت إلى المطبخ بينما كان ذلك الروسي الذي جاء بي يرتب الطاولات، ويبدو أنه لا يوجد في هذا النُّزل أحد يعمل غيرهما.

جمع الروسي الطاولات جميعها في طاولة واحدة طويلة وهرعت أساعده ومعي طويبة وهو ينظر إلينا في استغراب، ثم أجلس الجميع وانصرف، ثم جاء ذلك الأصلع الشبيه ببيت الثعابين وقال:

- لا ينبغي أن تقلقوا من الطعام، فمنكم يهود مثل صديقنا ميخائيل هناك، ومنكم مسلمون كقداسة الشيخ خالد والأستاذ طويبة، لا يوجد هنا لحم خنزير أو أي أطعمة بحرية.

نظرت إلى ذلك اليهودي الذي أشار إليه بعينه في أثناء حديثه، فوجدت رجلًا نحيلًا قصير اللحية بارق العينين يبدو عدائيًّا، نظر إليَّ بطرف عينه ثم انشغل بالطاولة، فنظرت إلى طويبة وبادلني النظرة ذات المغزى، إن لدينا حساسية حقيقية من اليهود، حساسية لن يبطلها حتى مرور ألف عام.

بعد انتهائنا من الطعام مررت موظفة الاستقبال علينا أقداحًا من الشاي الساخن، وعرفت من خطاب الناس لها أن اسمها ليزا.

دقائق وجاءنا مضيفنا الأصلع شارلوتان يحمل في يده كيسًا أسود، أخرج منه شيئًا مغلفًا وقال:

- هذه هدية من المحفل؛ أساور طاقة أصلية، وهذه لا يمكن أن تجدوها أصلية في أي مكان، فقد أصبحنا في التسعينيات الآن وكل التجار يبيعون الصينية. ارتدوها على معاصمكم وستُخرِج من أجسامكم كل الطاقة السلبية وتهبكم التوازن المطلوب في هالة الطاقة التي تنبعث حولكم.

بدأت موظفة الاستقبال ليزا توزع الأكياس علينا، ورأيت كيف أن أعين الناس شغوفة جدًّا بهذا الشيء. أذكر أن واحدًا من الإخوة في المسجد كان يرتدي شيئًا كهذا في يده ويتحدث عن الطاقة، ولما نهيته عن التشبه بالغرب قال إنه يخفيها أصلًا تحت كمه وأن فائدتها عظيمة. أخرجت الإسورة من الكيس وكانت ذات معدن صلب فاخر وصناعة متقنة، وضعتها على معصمي الأيمن ونظرت إليها وهي تغلق على نفسها محدِثة صوتًا معدنيًّا، ثم أخفيتها في كمي. قال أحد الرجال وكان ضخم الجثة جدًّا أجش الصوت:

- يبدو أن هذه أصلية فعلًا، لقد رأيت أكثر من واحدة مزيفة ورميتهم كلهم في القمامة.

ابتسم له الأصلع شارلوتان وقال:

- أنتم الذين علمتمونا الكهرباء والطاقة يا دكتور هاتشيسون.

أطرق الرجل الضخم خجلًا وتشاغل بالنظر إلى إسورته، نظرت إليه بلا اهتمام وقمت مع القائمين متوجهًا إلى غرفة المؤتمرات التي هي في الدور الثالث...

كانت غرفة واسعة تتوسطها طاولة كبيرة بيضاوية حولها ثلاثة عشر كرسيًّا، جلس شارلوتان عند رأس الطاولة وجلس بقيتنا على الكراسي بلا نظام، واختار طويبة الكرسي الذي بجواري. انتظر شارلوتان حتى جلسنا وانتظمت أنفاسنا ثم قال:

- لقد اخترناكم بعناية فائقة، كل واحد منكم لديه قصة تكشف سرًّا علميًّا استعصى على البشرية حله، أو سرًّا روحيًّا تحتاج إليه البشرية لتفهم وترتقي، وبعضكم لديه سر يتعلق بمؤامرة تُحاك ضد جنسنا الإنساني، وحتى يستفيد الكل سيكون لدينا متحدث واحد في كل يوم، يعني لكل شخص منكم دوره، سيخبرنا بما اكتشف أو عرف، بالطريقة التي يحبها، ولا يجب أن يُخفي أحدكم شيئًا، فما يُقال هنا ليس كما يُقال في الخارج.

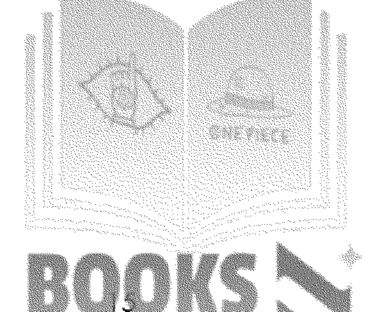
وزعت ليزا علينا أكواب الماء بعناية حتى انتهت وانصرفت، فنظر شارلوتان إلى ناحية كرسي معين وقال:

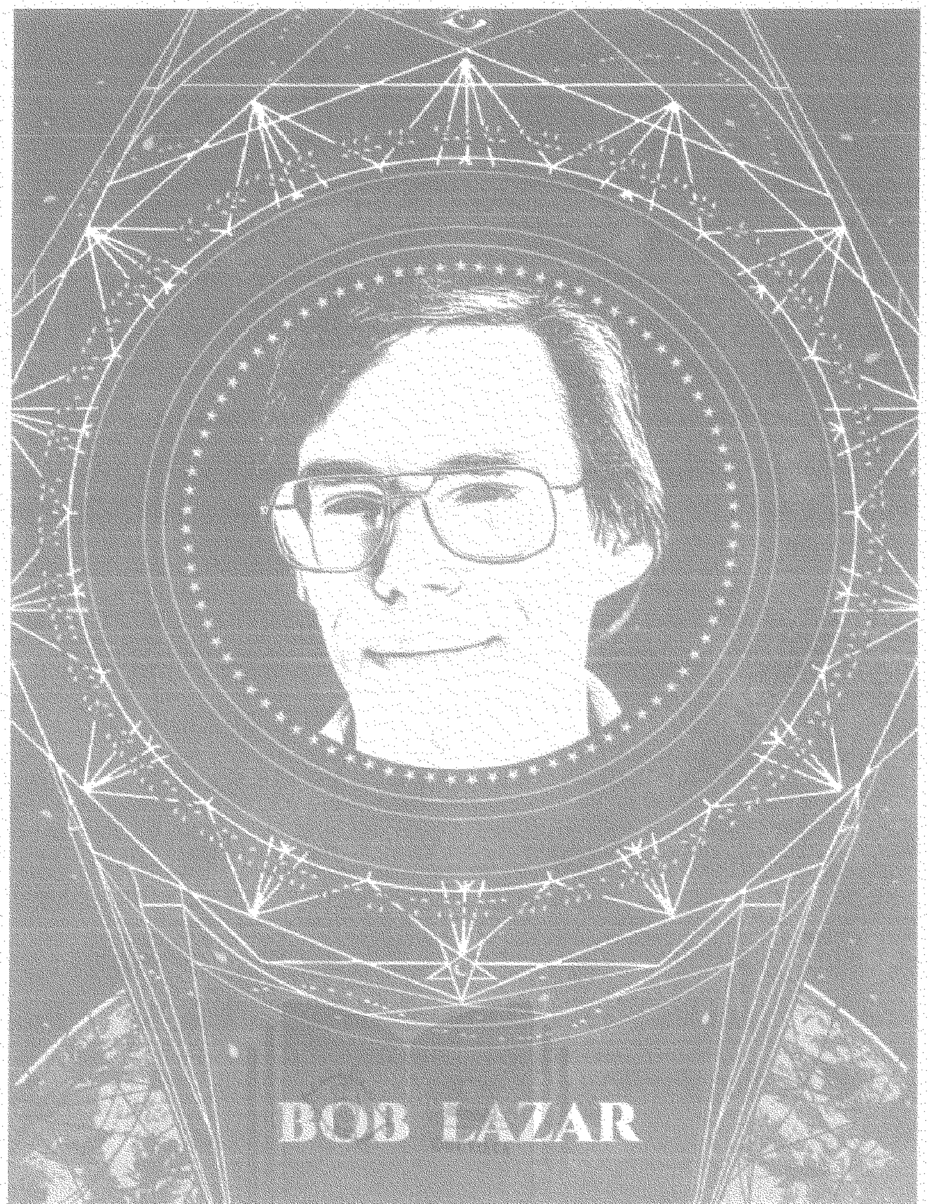
- اليوم الأول لم أجد أحدًا أجدر به منك يا لازار، فأنت قلبت العالم رأسًا على عقب.

نظرت إلى الرجل محاولًا تذكر أين رأيت ملامحه، كان شابًّا ناعم الشعر، يرتدي نظارات مربعة وملابس بسيطة، وله ابتسامة بريئة. قال شارلوتان:

- أقدم لكم يا سادة، بوب لازار.

تنحنح بوب لازار وهو يسمع صوت شهقات مبهورة من بعض من يعرفه، ولم يكن يستغرب، فقد قلب العالم كله بالفعل منذ بضعة أشهر.




BOB LAZAR

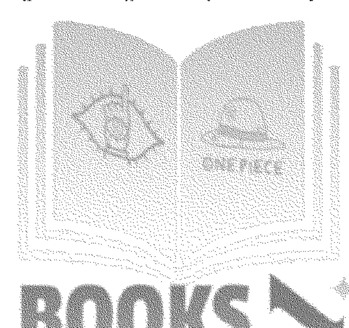
1

حكاية المنطقة 51

يرويها: بوب لازار

«من الأسئلة التي تسألها لنفسك عندما تصبح رئيسًا هي: ما الذي يحدث حقًّا في المنطقة 51؟ أعتقد أنني الرئيس الوحيد الذي ذكر اسم المنطقة علنًا».

باراك أوباما رئيس أمريكا في خطاب مفتوح.



الخريف الأخير في حقبة الثمانينيات بكل ما فيها، أوراق شجر تذروها الرياح لتصنع مشهدًا ختاميًّا لحقبة امتلأت بالجنون والفنون، لكن الثمانينيات وضعت يدها في معطفها الأسود الجلدي القصير لتلقي إلينا بشيء أكثر جنونًا من كل ما سبق، لقطة ظهرت بين ثنايا أخبار الخامسة، لقطة لرجل لا يبدو من وجهه شيء، أقام الدنيا كلها رأسًا على عقب.

كادر تصوير غريب أن يظهر في الأخبار، رجل جالس في جو مظلم مصنوع عمدًا لإخفاء هويته، كان في سيارة وتظهر سماء الليل من النافذة مع مشهد الأوراق التي تذروها الرياح، نظر الرجل إلى الكاميرا بترقب والمذيع يقول بلهجته الإذاعية الاحترافية: «المنطقة 51 أو كما نسميها بركة الجروم، هي مكان سري في هذا الكوكب شمال نيفادا حيث تتم تجربة أسلحة شديدة السرية والخطورة، ويزعم الساكنون قرب حواف المنطقة أن هناك أجسامًا طائرة غريبة تظهر في السماء كل حين، واليوم معنا عالم فيزياء شاب يقول إنه عمل بالفعل داخل بركة الجروم، وقد طلب أن يتم إخفاء هويته.

- سيدي، كيف نعرف أنك كما تقول عن نفسك وأن لديك علمًا بما يحدث في بركة الجروم؟
- لا أظن أن هناك طريقة لتعرف، ليس هناك طريقة لإثبات هذا دون أن أظهِر هويتي وأدخل نفسي في مشكلات أكثر من التي أنا فيها.
- قل لنا بالضبط؛ ما الذي يحدث هناك؟
- حسنًا هناك العديد من... في الواقع 9 أجسام طائرة من مصدر غير أرضي، يتم عمل التجارب عليها.
- تقول إن هناك 9 أجسام طائرة؟ حسنًا، كيف تتم هذه التجارب؟
- ماذا تعني؟
- يعني أسألك هل هي تجارب ناجحة؟

- بعض هذه الأجسام سليمة تمامًا وتعمل كما يجب، والبعض الآخر تم تفكيكه، وأنا كنت مسؤولًا عن واحد منها.

- كيف حصلنا على هذه الأطباق؟ كيف وصلت إلى يد الحكومة؟

- ليس عندي أدنى فكرة، والمعلومات لا يعطونها لأي أحد، فقط أعطوني المعلومات الضرورية لعملي.

- ألا يمكن أن تكون حكومتنا هي التي صنعتها بدلًا من أن نرجعها إلى مصدر غير أرضي؟

- هذا مستحيل تمامًا، التكنولوجيا التي تعمل بها هذه الأشياء غير موجودة على الأرض أصلًا، هذا هو السبب الذي أنا هنا لأجله، لأن هذه جريمة، ليس ضد الشعب الأمريكي فقط، بل ضد المجتمع العلمي.

- ما الذي سيحدث لك إذا علمت الحكومة أنك تعطينا هذه المعلومات؟

- أي شيء يمكن أن يحدث، لا أدري، ليس لدي أدنى فكرة.

- أنت ذكرت أن هناك مشكلات مررت بها؟

- نعم، لقد حذروني أنهم سيتهمونني بالتجسس، وتم تهديدي بالقتل، ولا أدري ما الذي سيحدث بعد هذا.

- شكرًا لك على أن كنت معنا، لديك معلومات مسلية حقًّا، شكرًا لك سيدي. أعزاءنا المشاهدين، سنعود إلى الأخبار بعد ثوانٍ، دعونا نرجع إلى بيجينج من السي بي إس، مراسلنا من الصين يقول إن...

كان التسجيل لا يزال مفتوحًا على الرجل الجالس في الظلام الذي أدار وجهه بعد الجملة غير المكترِثة ليفتح باب السيارة ويغادر، وجواب حاله يقول شيئًا على طراز «فليعد العالم إلى اللهو والبوب، ولتحل اللعنة فقط على من يحاول إنذار الغافلين»، وعادت صورة المذيع وبجواره المذيعة المبتسمة، وأصبحا يتحدثان عن أمر آخر بنفس الحماس الأدائي وكأن كل أخبارهم الغافلة مهمة.

هناك أوتار إذا مسستها بطريقة معينة فستشعل ثورانًا في المجتمع، ولم تنقلب أمريكا وحدها يومها، بل انقلب العالم أجمع، شاشات التلفاز في كل بيت من بيوت العالم أصبحت تعرض صورة ذلك الرجل الجالس في الظلام وتتحدث عنه بمختلف اللغات، فترى المذيع الروسي يتحدث بلهجته الباردة

عن بركة الجروم السرية وما تصنعه أمريكا فيها، ويدس وسط كلامه إشارات بأن تلك المنطقة فيما يبدو هي التي زيفوا فيها صعودهم الأمريكي المزعوم لسطح القمر. وترى المذيع الياباني يعبِّر بامتعاض أن تلك المنطقة يتم فيها اختبار أسلحة نووية أمريكية ويظهر في عينيه شيء من التذكر الحزين لهيروشيما.

آلاف من البشر توافدوا كالجراد من كل مكان إلى أقرب بلدة من المنطقة 51 وبدأ البحث عن الرجل الذي كان جالسًا في الظلام... وأصبحت كل الأضواء تبحث عنه بشراهة، وكان اسمه بوب، بوب لازار.

***

يقول بوب لازار:

أنت لم تعد الشخص الذي هو محور الكون، أنت مجرد شيء ضمن أشياء كثيرة ربما بلايين غيرك في أرجاء الكون، هذه فكرة مرعبة في حد ذاتها وتخدش الغرور الإنساني الذي يظن أن هذا الكون قد صُنِع له بأكمله. أُدعى روبيرت لازار، وهو الاسم الذي كدت أنساه، حتى أمي تناديني بوب، وإذا غضبتْ تناديني روبيرت. كانت تغضب بسبب تلك الانفجارات التي أحدِثها في الحديقة طيلة الوقت، الشغف بالألعاب النارية قد يكون قاتلًا لطفل، لكنني لم أكن أكف عنه، إن الشيء الذي ينتِج هذه الكمية من الطاقة هو شيء رائع حتمًا. لست عنيفًا بطبعي، بل كنت من ذلك الطراز من الأطفال غريبي الأطوار Weirdo الذين يرتدون نظارات كبيرة تجعل الآخرين يهزؤون بهم، وتجعل أصحاب العضلات يلطمونهم ويتسلون عليهم، كنت من ذلك الطراز من الأطفال الذي إذا لطمته وكسرت نظارته يبحث عنها في مظهر أبله ثم يضعها على وجهه ويكتم البكاء ليتجرع ما تبقى من كرامته ثم ينصرف لا يلوي على شيء.

كبرت و -كما هو متوقع من الذين هم على شاكلتي- تخرجت بدرجات عالية بشكل مبالغ فيه وعملت في معمل بحثي. أمثالي يخبؤون ضعفهم الجسدي بالقوة في مجال الدراسة. عملت في أكبر معمل أبحاث نووية في أمريكا، لوس ألاموس، الكل هنا مثلي من أصحاب المواهب الذين يهربون من فشلهم في كل شيء بالنجاح الباهر في الشيء الذي لا يحتاج منك أن تكون قويًّا أو لبقًا، أو أن يكون لك لسان أصلًا، فقط أنت وعقلك، وحتى هؤلاء

كنت مميزًا وسطهم بأنني الرجل ذو السيارة الغريبة، حتى إن لوس ألاموس وضعني في الصفحة الأولى في جريدته الرسمية وكتب فيها: «أحد علماء لوس ألاموس يضع محركًا نفاثًا في سيارته الهوندا فتصبح سرعتها 400 كيلومتر في الساعة». ووضعوا صورتي وأنا أركب سيارتي وأبتسم ببلاهة، لم أكن أعلم أن هذه الجريدة ستكون سببًا في قلب حياتي على عقبها بعد دقائق معدودة.

كان لوس ألاموس بكامل طاقمه واقفًا على ساقه في ذلك اليوم، لأن العالم العبقري «إد تيلر» الأب الروحي للقنبلة الهيدروجينية قد جاء ليلقي محاضرة، وكان هذا هو نفس يوم صدور الجريدة، نظر إليَّ تيلر بعينيه اللتين تشبهان عيني آينشتاين وقال من وراء نظارته وهو يمسك بالجريدة في رضا:

- هل أنت الذي صنع هذا؟

قلت له وأنا أعدل نظارتي الكبيرة على وجهي أن نعم. طلب مني وهو يتهيأ للانصراف أن أرسل له سيرتي الذاتية في أسرع وقت.

تسارعت حياتي بعدها كأنما ضغطت زر التقديم في مسجل الفيديو. تم إعفائي من العمل في لوس ألاموس وطلبوني للعمل على المحركات في مكان بعيد، بعيد جدًّا، هذا كل ما قالوه، كانت المقابلة في شركة AG&G الخاصة، وهي الشركة التي تعمل على تصنيع أكثر أسلحة أمريكا حساسية وخطورة.

توقعت أن تكون هناك اختبارات صعبة، لكن كانت الأسئلة تافهة بينما عينا المحاور الذي يسأل كانتا تبحثان بداخلي عن شيء ما ولم تجداه فيما يبدو، لكنه وقَّع أوراق تعييني بسبب كفاءتي. مكان العمل بعيد جدًّا وسري جدًّا، لا يريدون أن يخبروني تحديدًا، مررت بأيام مثقلة بأطنان من العمل الورقي، أظن أني قدمت مئة ورقة ووقعت على مئة مثلها، مع كثرة الأوراق كنت أوقع حتى دون أن أقرأ.

في النهاية أعطوني بطاقة ممغنطة عليها الكثير من شعارات الدولة، بطاقة ولوج إلى المنطقة الأكثر سرية في العالم أجمع، المنطقة 51.

***

رنين مقبض يأتي من مكان بعيد، كأنه أجراس تنادي روحك لتصحو من غفلتها، رنين يقطب له جبيني في غمرة النوم ورفض ذهني أن يستجيب،

رنين علا صوته واقتحم كل الأجواء فأصبح تجاهله مستحيلًا، وانحلت له عُقد النوم جميعًا فصحوت في فزع، نظرت بطرف عيني المتعبة إلى عقارب الساعة، إنها الرابعة فجرًا، استمر الرنين الطويل المستفز ومعه عدة أصوات غير راضية من زوجتي النائمة بجواري، قمت أترنح ساخطًا لألتقط السماعة في غضب حقيقي، كان الطرف الثاني مقتضبًا مستفزًّا، بضع ثوانٍ من حديثه أوقفت الشَّعر في جنبات جسدي، نظرت إلى زوجتي التي قامت من نومها ناظرة بتساؤل مرتاب، تلعثم لساني وأنا أخبرها أن هذه مكالمة عمل وأنه يجب علي أن أخرج الآن، شرعت أبحث عن أفضل سترة عندي، أسئلة كثيرة ألقتها زوجتي ولم أعرف لها ردًّا، هل أقول إن الحكومة الأمريكية قررت الاتصال بي في الرابعة فجرًا لتبلغني باقتضاب أن هناك طائرة ستقلع بي بعد ساعتين إلى مكان غير معروف؟ لم يكن مصرحًا لي أن أتحدث مع مخلوق عن عملي في المنطقة 51. بدأت الأسئلة تتخذ طابع الأنثوية وبخاصة وهي تشاهدني أرتدي أحسن ما أملك.

لم أكن أحب زوجتي، أو ربما أنا أحبها لكن داخَلني الملل، كنت أجيب عن كل سؤال بحماقة تشعل فيها الكثير من الارتياب، لو أنهم صرحوا لي بالحديث لها لكان أكثر أمنًا، وكيف أجيبها بشيء يرضيها وأنا لا أقدر أن أجيب نفسي؟! هل العمل في بركة الجروم يستدعي أن يتصل بك رجل عسكري الطراز قرب الفجر ليخبرك أنه يجب أن تكون في مطار مكارين في التو واللحظة ثم يغلق الخط متعمدًا قبل أن تسأل سؤالًا واحدًا؟

عشرات المسافرين يقفون في طوابير في المطار بشكل طبيعي بينما تجاوزت أنا هذا كله عندما أخبرتهم باسمي، انتقلت إلى قاعة عسكرية خاصة تقلع منها طائرات حكومية تابعة لشركة AG&G.

طائرة خاصة ذات علامة حمراء مقبضة انطلقت بي على الفور ومعي بضعة أشخاص مدنيين عاديين يجمعهم طابع واحد، هو الصمت المطبق، والاعتياد، كأنهم يقومون بهذه الرحلة دوريًّا. كان واضحًا أنني الوحيد المتوتر الذي ينظر من النافذة كل حين. العبارات المقتضبة التي ألقوها كانت تشير إلى أننا مسافرون إلى منطقة بعيدة غير معروفة. لم يكن يظهر من النافذة شيء إلا الصحراء وثنيات الجبال.

كل ما كنت أعرفه عن المنطقة 51 هو أنها منطقة اختبارية عملاقة جدًّا في ولاية نيفادا الشاسعة تماثل حجم دولة سويسرا، وهي مترسة بالأماكن الاختبارية، ففيها مكان للاختبارات النووية، وآخر لاختبار الأسلحة الكيميائية، وثالث لاختبار الطائرات العسكرية السرية وهكذا، ولكن لم يكن هناك أي أثر يدل على وجود أي مبنى حتى عندما بدأت الطائرة في الهبوط.

نزلنا من الطائرة إلى مهبط مصنوع وسط الجبال فيه مبنى صغير لا يتجاوز حجرتين، وتم تفتيشنا جميعًا أمام هذا المبنى في زمن يزيد على الزمن الذي استغرقته الرحلة نفسها. وعلى الرغم من أنني لا أعتني بملاحظة أي شيء، فإن عينيَّ كانتا ترصدان كل تفصيلة وتحاولان أن تبنيا وتستنتجا. صعدنا إلى عدة سيارات دفع رباعي مضت بنا بين صخور الجبال متجهين إلى منطقة يسمونها S4، وهي تبعد عشرين ميلًا عن المنطقة 51 كما قدَّرتُ.

كلما مشت بنا السيارة في الجبال، تكونت فكرة في ذهني بدأت تتأكد شيئًا فشيئًا وأنا أنظر حولي حتى تأكدت تمامًا من الفكرة عندما وقفنا بالسيارات أمام عدة مبانٍ، لم تكن مباني عادية بأي حال، كانت مباني مدسوسة في بطون الجبال، كأنهم نحتوا الجبال وصنعوا المباني بداخلها، مبانٍ يستحيل أن تراها من أي طائرة حتى لو طارت على مستوى منخفض.

بدا لي خاطر أشعرني بالرهبة، هل من الممكن أن تكون هذه المباني مجرد بوابات؟ وأن يكون كل شيء في المنطقة 51 هو في الحقيقة تحت الأرض؟ اتضح هذا في الدقائق التالية بعد أن دخلنا أحد تلك المباني المتوارية في سفح الجبل.

***

في البداية تجد المبنى كأي مبنى حكومي عادي؛ شعار وزارة الدفاع معلق هناك يجاوره شعار الولايات المتحدة، وهناك جنود بملابس عسكرية يجوبون المكان بوجوه صارمة جدًّا، ثم تبدأ كل قطعة في قلبك في الهبوط عندما تدخل إلى المصعد وترى عدد الأزرار التي تعبِّر عن عدد الأدوار، لم يكن في الحقيقة مصعدًا، بل مهبطًا لو جاز لنا أن نسميه هكذا. ضغط الجندي الذي معنا الرقم 7 وترك قلبي يهبط مع المصعد.

بدأت أدرك أننا بداخل كيان عملاق تم بناؤه بالكامل تحت الأرض، لاحقًا عرفت أن الأمر أكبر من هذا، فالمشكلة ليست في عدد الأدوار هنا، فإنما هذا مبنى واحد من مئات المباني تحت الأرضية فيما يشبه المدينة الكاملة المبنية في جوف الأرض، وتتصل المباني بعضها ببعض عبر سكك حديدية سفلية مثل سكك حديد المناجم.

ما أثار فزعي هو أن الرفاق المدنيين الذين كانوا معي في الطائرة قد ذهبوا عني في الأدوار الأولى وبقيت وحدي مع الجندي يهبط بي في المصعد أكثر وأكثر، كنت قد أريته بطاقتي، والذي فهمته أن هذه البطاقة اسمها «الماجيتسك»، وهي تتيح لي من ضمن أفراد قليلين جدًّا في المنطقة 51 الدخول إلى المكان الذي يأخذني إليه، وعلى الرغم من أن هذا يشعِر بالغبطة، فإنها غبطة محفوفة بالفزع، فلا أحد في الدنيا يعرف بوجود هذا المكان أصلًا في أمريكا، بل وفي العالم كله.

انفتح باب المصعد ودخلت إلى ما يشبه قاعة الانتظار الصغيرة، كل شيء هنا يبدو معدنيًّا جدًّا، ولا عجب، فبناء هذا الكيان لم يكن بالطوب على أي حال. جاءني رجل يرتدي زيًّا عسكريًّا ذا لون أبيض تام، ولم أرَ في حياتي زيًّا عسكريًّا بهذا اللون. أعطاني الرجل عدة أوراق للتوقيع عليها وكان متعجلًا جدًّا، لم تكن هناك فرصة لقراءة شيء قبل التوقيع عليه، لكني فهمت كل شيء من بعض السطور التي وقعت عليها عيناي. كنت أجفف عرقًا وهميًّا وأنا أوقِّع، هذه الأوراق تقول إنه لو تم بأي حال من الأحوال اختراق قواعد السرية المحيطة بالمكان فإنك لن تقدَّم للمحاكمة، وإنما سيتم القبض عليك وتُرمى في السجن عشرين عامًا.

لا أدري لمَ تذكرت زوجتي في هذا الحين، بتلك النظرة التي تبديها وهي تغار، كم تبدو بعض أشيائك التي تهتم بها مهمة حتى تتعرض لشيء حقيقي فتعرف أن كل هذا كان سخفًا. أعطاني الرجل ذو الزي الأبيض بعض الأوراق الأخرى المغلقة في ظرف مختوم بعناية وطلب مني قراءتها كاملة فجلست على الكرسي المعدني الذي بدا باردًا حقًّا وفتحت الظرف وبدأت أتصفح الأوراق.

كانت عبارة عن مختصرات تشرح المهمة التي أنا هنا لأجلها، والحقيقة أنني قرأتها أكثر من مرة لأتأكد أن ما فهمته صحيح وأنني لا أهذي، كان لدي

ما يشبه اليقين أن هذا الشيء الذي أقرؤه ليس حقيقيًّا أو ربما ليس كاملًا، أو هو خدعة من نوع ما، لقد سمعت أنهم إذا أرادوا أن يختبروا شخصًا معينًا في إفشاء الأسرار، يلقون إليه معلومات معينة كاذبة لا يلقونها لشخص غيره، فإذا فُشيَت فهو الوحيد الذي أفشاها، لأنه هو الوحيد الذي قيلت له، هذا كان ما أتى على ذهني وأنا أقلب في الأوراق وأقرؤها مرات ومرات، فالمكتوب هنا أشبه بالهذيان العلمي. الحكومة الأمريكية تريدني وبعبارات مقتضبة جدًّا وحكومية جدًّا أن أعمل على فهم واستنساخ تكنولوجيا غامضة موجودة في طبق طائر.

***

مشى بي الرجل ذو الرداء الأبيض بين ممرات وأبواب تفتح باستشعار اقترابك منها حتى وقفنا أمام بوابة تبدو مختلفة، من سمكها والأجهزة التي على الحائط بجوارها تفهم من النظرة الأولى أن هناك كارثة وراء تلك البوابة. أخبرني هذا الرجل أن المكان الذي أنا داخل إليه الآن هو مكان خاص يُسمح فقط لـ 22 شخصًا في المنطقة 51 بدخوله، هذا قبض قلبي نوعًا ما، أحيانًا لا تعطي لنفسك قدرها حتى وأنت ترى بنفسك تقدير الناس لها! قال لي الرجل أن أضع كفي ها هنا، وأشار لي إلى ما يشبه المنصة الصغيرة البارزة من الحائط تخرج منها دبابيس سميكة قائمة، لم أعرف في البداية كيف أضع يدي على هذا الشيء ثم فطنت أنها خمسة دبابيس قائمة ويجب أن أضع أصابعي بينها. برز نور ماسح في اللحظة التي وضعت فيها يدي، كنت أنظر وأنا أعدل نظارتي بتوتر. تذكَّر أننا في الثمانينيات، وماسح البصمة لم يكن قد اختُرِع بعد. فهمت من الرجل أن هذا جهاز يمسح الكف ليعرف تموضع العظام وحجمها فيعرف الشخصية، ثم انفتحت البوابة ببطء ونظرت إلى الماسح نظرة أخيرة، لم أكن أعلم أن هذا الماسح سيكون يومًا ما أحد دلائل صدقي أمام العالم.

مكتب كبير مليء بالطاولات والأجهزة والأوراق المبعثرة، ورجلان منهمكان في شيء ما، استدارا لنا فور دخولنا، أحدهما كان مبتسمًا سمح الوجه ذا لحية حمراء قصيرة وشعر أحمر، والآخر متجهم الوجه ذو شعر ذهبي مصفف بعناية. كان السمح هو «باري» زميلي في المعمل، والمتجهم هو «مارليوني» قائد المعمل وهو يبدو كقائد كتيبة ولبس قائد علماء. قال لي دون أن يرحب:

- باري، خذ زميلنا هذا وعرفه كل شيء ممكن ولاقياني بعد ساعة في «الهانجر».

ثم انصرف من البوابة دون سلام، فقال لي باري بوجه باسم وصوت دافئ:

- نفس التعبير الذي كان على وجهي لما رأيته أول مرة، ستعتاد مارليوني، أنا أقدِّر الرهبة التي في نفسك من المكان والإجراءات، لكن تأكد أن ما نعمل عليه هنا يستحق كل هذا وأكثر.

قلت له وقد بدأت نفسي تهدأ:

- وما هو الذي نعمل عليه بالضبط؟

تبسم ابتسامة ذات مغزى وقال:

- ألم تقرأ؟

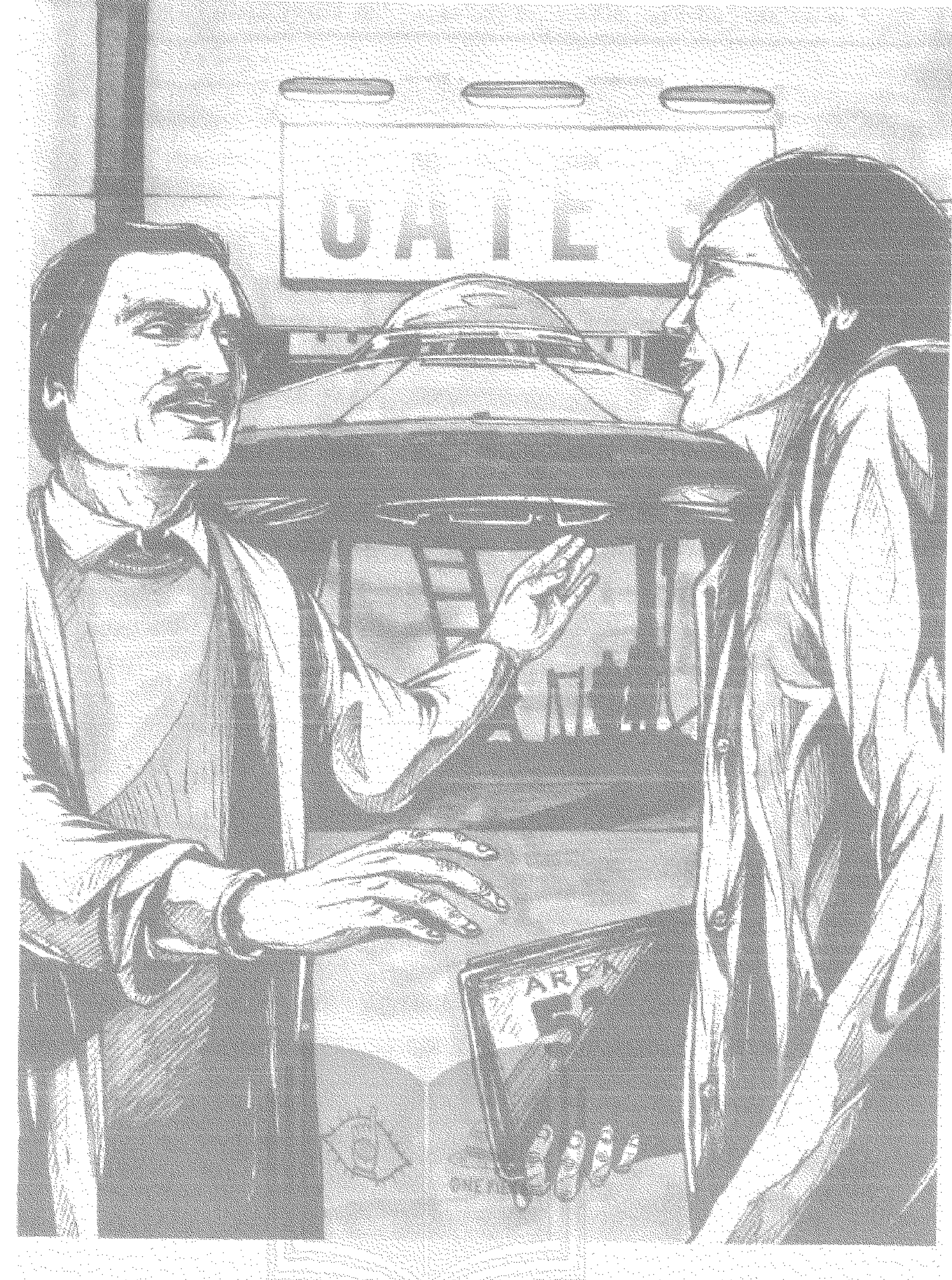
ابتسمت بحرج، كان باري من النوع المتحدث ولكنه لا يخرِج معلومة واحدة لا تحق لي، وكان متحمسًا لوجودي جدًّا، وكلما سألته سؤالًا يقول لي إنني سأعرف كل شيء بنفسي، فهمت منه أنه تم تعييني هنا كبديل عن زميل مات هنا في هذا المعمل، وحتى عندما سألته لماذا مات ابتسم ونظر إلى الأرض وقال إنني سأعرف كل شيء بعد قليل.

كان الفضول يقتلني وأنا أسمع ثرثرة باري عن الأمور غير المهمة الأخرى حتى قال لي:

- والآن يا لازار، دعنا نذهب إلى «الأطفال».

خرج بي يمضي في الممرات إلى مصعد خاص ارتفع بنا إلى الدور الأرضي، ثم خرجنا منه إلى ساحة واسعة وسط الصحراء مبني فيها «هانجر» كبير. والهانجر هو ذلك المكان الذي تبيت فيه الطائرات، وهو يشبه بيتًا عملاقًا من صفائح معدنية مفتوح من أحد جهاته. وحانت لحظة رأيت فيها ما بداخل الهانجر فتسمرت قدمي في موضعها كأنها ترفض التقدم خطوة واحدة.

خواطر أتت على بالي وأنا أرى مشهدًا استدعى إلى ذاكرتي البصرية مزيجًا من أفلام الخيال إلى بعض التجارب العلمية الفاشلة، فوسط الهانجر وبين ذهول عيني ودقات قلبي التي أكاد أسمعها، وفي هذا المكان الذي تجعله الحكومة الأمريكية شديد السرية، كان يرقد طبق، طبق طائر.



تقدمت بخطوات بطيئة ناحية بوابة الهانجر، كانت عيني قد ظهر فيها بعض من نور الفهم، لحظة التجلي تلك التي تهبط عليك فجأة عندما تفهم شيئًا كان مستحيل الفهم، قلت لنفسي إذن هذا هو سبب ظهورات الأطباق الطائرة الغريبة هنا وهناك كل حين، إنها الحكومة اللعينة تعمل على تطوير هذه الأشياء هنا.

نظر إليَّ باري واتسعت ابتسامته وهو يقول هازئًا مقلدًا الكلام الذي لا بد أني أقوله لنفسي:

- اللعنة، إنه طبق طائر فعلًا.

اقتربت أكثر، تذكرت «الأفروكار»؛ أول طبق طائر رسمي صنعته الحكومة الأمريكية وهو حاليًّا موجود في متحف الطيران والفضاء الوطني، كانت تجربة شبه ناجحة، فقد نجح أن يطفو بضعة أمتار فوق سطح الأرض، ما زلت أذكر الفيديو الذي عرضوه لتجربته لكنه لم ينجح في الطيران عاليًا.

انشرح قلبي وأنا أقترب من الطبق الذي يبدو حديثًا وأملس ومختلفًا تمامًا عن الأفروكار، كان حجمه متوسطًا مثل حجم كوخ صغير، قلت لنفسي إن حكومتنا هذه تدبر كمية من الأمور لا يصدقها عقل.

وضعت يدي ولمست الطبق لأول مرة، كان سطحه باردًا، مما يعني أن المادة المصنوع منها فيها معدن ما، ترى هل نجحت الحكومة في الطيران بهذا الشيء؟

ظهر لي خاطر جعلني أجفل قليلًا، ما معنى استنساخ التكنولوجيا الذي كتبوه في الأوراق التي أعطوني إياها لقراءتها؟ لو كانوا هم صانعوه فلماذا يريدون استنساخ التكنولوجيا؟ هل هو طبق طائر صنعته دولة أجنبية كروسيا مثلًا؟

كان هناك ملصق صغير في أعلى الطبق، ملصق علم الولايات المتحدة الأمريكية، نعم ها هو ذا، إن حكومتنا هي التي صنعته. وضع باري يده في مكان ما فانفتحت بوابة في الطبق ولوَّح لي بكفه بعلامة تدعوني للدخول، وبالفعل شرعت في الدخول، ولقد كان ما بالداخل شيئًا حطم بداخلي كل فكرة بنيتها أو كنت أتخيل أنني سأبنيها يومًا.

***

في بعض الأحيان ينتابك شعور بالغربة عن مكان ما، لأن فيه طريقة من البناء غير معتادة في مدينتك، لكن أن تشعر أن المكان الذي تنظر إليه لا علاقة له بأي منظر قد رأته عين على الأرض من قبل، فهذا يجعلك ترتجف. سأحاول أن أصف ما رأيته بالداخل قدر استطاعتي على استحضار الكلمات، فإن لهذا المكان غربة عن الكلمات، مبدئيًّا وقبل أن أتحدث لا يوجد هنا شيء اسمه ألوان، كل شيء داخل هذا الطبق له لون موحد كأنما نزلت مسحة رمادية اصطبغ بها كل شيء، درجة لون داكنة مقبِضة كأن من يركب هذا الشيء لا يحتاج إلى ألوان. لا توجد لوحة تحكم، ولا زجاج للرؤية، ولا أضواء ولا حمامات، ولا شيء للديكور أو للزينة، فقط 3 كراسي صغيرة جدًّا الواحد منها لا يجلس عليه إلا طفل صغير.

كل شيء بالداخل فيه منحنيات، لا توجد زوايا، حتى في التقاء الكرسي بالأرض، كأن هذا الطبق مصبوب صبة واحدة وليس مركبًا تركيبًا قطعة قطعة كما هي العادة في صنع أي شيء. لكن لفت نظري أن هناك أحد الجدران كأنه شفاف، فأنا أرى منه باري والعمال بالخارج بوضوح وهم لا يرونني، ليس هذا الجدار من زجاج، بل هو من معدن ما، المشكلة أنه في الثمانينيات لم يكن أمر الزجاج الذكي معروفًا. هناك شعور عام انتابني للحظات ثم سيطر على كل كياني، هذا الجو بالداخل ليس أرضيًّا، حجم الطبق من الداخل لم يكن مناسبًا على الإطلاق لحجم شخص بالغ، هذا الكيان العجيب لم يتم صنعه ليقوده بشر على أي حال. استجمعت كياني وأنا أفتح كوة في الأرضية يُفترض أنها تؤدي للمحرك، وهذه كانت قصة أخرى.

ثلاثة مكعبات تتموضع على شكل مثلث حول مكعب في الوسط، المكعبات الأربعة مصنوعة من شيء لم أعهده يومًا في أي مركبة على كثرة المحركات التي رأيتها وتعاملت معها وتخيلتها. سمعت صوت باري يقول شيئًا من الخارج وكنت قد اكتفيت من الجو المقبض لهذا الشيء، وتراكمت في عقلي أسئلة من النوع الوجودي الذي يحتاج إلى إجابات عاجلة، فخرجت من الطبق بحال غير الذي دخلته به، وكان هذا واضحًا على قسماتي. قال لي باري بلهجته المازحة:

- ماذا ترى يا سيد بوب لازار؟

تلعثمت وأنا أعدل النظارة وأنا أرى الجميع ينتظرون ما سأقول، فقلت ببطء:

- هذا الشيء... احم، اختباري فيما يبدو، فليس فيه أجهزة تحكم ولا ألوان تزيِّن أي شيء، كأن من صنعه هو شخص عملي جدًّا، وذو ذوق سيئ جدًّا، ويبدو أن تحت يده أنواع جديدة من التكنولوجيا يجربها.

قال باري:

- أو أن من صنعه له مدى رؤية يختلف عن مدى رؤيتنا البشرية.

قلت وقد جف ريقي:

- مـــ... ماذا تعني بالضبط يا باري؟

قال لي بنوع من الجدية:

- الفضائيون.

تقطب جبيني احتجاجًا وقلت له:

- كف عن هذا المزاح يا باري وأخبرني بحقيقة الأمر.

قال باري بهدوء:

- ليس هذا مزاحًا، إن زميلنا في المعمل المجاور عالم الفيزياء النووية بوشمان يقسم (على الرغم من السرية المطلقة التي تحيط بكل شيء) أن هناك فضائيين صنعوا هذه الأطباق، ليس هذا فحسب، بل يقول إن هؤلاء الفضائيين معنا هنا في هذه المنطقة 51، لكننا لم نرَ شيئًا، لكننا نسميهم «الأطفال»، ومن المؤكد أنك فهمت معنى هذه التسمية لما رأيت حجم الأشياء بالداخل.

تجرعتُ كلامه بصعوبة وأردت أن أعلق على كلمة واحدة، فقلت له:

- باري، هل قلت أطباق؟

قال مبتسمًا:

- تسعة أطباق يا لازار، يقبع كل واحد في هانجر مثل هذا.

وقبل أن أتفوه بكلمة ضغط باري زر شيء في يده فانفتح الباب الخلفي للهانجر ببطء كاشفًا أنه يتصل بسلسلة متلاصقة من الهانجرز في كل واحد

منها يرقد طبق بنفس حجم طبقنا تقريبًا. أطباق ذو أشكال مختلفة، أحدها مثل قبعة القش، والآخر يشبه قالب الجيلي، ولم تعد بي قدرة على وصف البقية، ففي تلك اللحظة سقطتُ مغشيًا علي.

***

كنت ممددًا على سرير معدني بارد، جسدي منزوع القوى كأنما جفت سوائل العزم من عضلاته فلا يقدر على الحركة إلا بضعة مليمترات بجهد كبير. هناك اثنان ينحنيان أمام رأسي ولا يظهر من ملامحهما شيء، الضوء خافت جدًّا والصمت يسود كل شيء، كان يبدو من حركة رأسيهما أنهما يتحدثان عني لكني لا أسمع لهما صوتًا. فكرت لحظة أنني فقدت السمع، لكني أسمع ضربات قلبي بوضوح كأنها دقات ساعة رتيبة. اقترب أحدهما بوجهه مني فتسارعت الضربات حتى بلغت أقصاها واتسعت عيناي وبذل جسدي جهدًا رهيبًا ليتحرك أي حركة لكن لم أقدر، كان الفزع يسيل من وجهي بين قطرات العرق، فوجه الكائن الذي ينحني علي لم يكن وجهًا عاديًّا، رأيت عينيه بوضوح لما اقترب ولم أرَ بقية ملامحه، عين لامعة كأنها بلورة سوداء كبيرة لا تدري أين تنظر بالضبط، عميقة مثل بحر أسود لا تعرف كنهه، لكنك تعلم أنه لا يريد بك خيرًا، كان ينظر إليَّ بكل تلك العين، بكل جزء فيها، ظللت أواجه تلك العين بلا حراك وهي تقتحم كياني حتى مد يده إلى رقبتي وتنـــ...

صوت باب ينفتح بسرعة أيقظ كل حواسي من نومها، كانت نومة على المكتب بطريقة غير مريحة تبينت آثارها في جبهتي، رأيت باري داخلًا من الباب ومعه بعض الأوراق وهو يقول:

- يبدو أنك رأيت كابوسًا يا بوب، لقد أجهدت نفسك في العمل، لكن أبشِّرك؛ إنهم سيسمحون لنا بإجازة لمدة أسبوع قريبًا ثم سنعود مرة أخرى.

كنت أنظر إليه ونظارتي مائلة على وجهي فحاولت تعديلها وهندامي. قال لي باري ونظرته أسِفة على حالي:

- بالمناسبة، لقد جاءت الآن نتيجة تحليل المادة التي بداخل محرك الطبق، لن تصدق ما وجدنا، انظر بنفسك.

أخذت الورقة ونظرت فيها بضع لحظات وقمت من مكاني واقفًا، هذا مستحيل، قال باري:

- أرأيت؟ إنه 115.

التفتُّ برأسي بعيدًا عن الورقة مفكرًا، العنصر 115، عنصر بهذا العدد الذري لم يتم اكتشافه بعد، بل إن تحضيره أصلًا مستحيل، فهو عنصر غير مستقر وخطر. في الثمانينيات التي كنا فيها لم يكن هذا العنصر قد فكر أحد في تحضيره أصلًا، ولم تنجح البشرية في تحضيره إلا في 2003 وبكميات ضئيلة جدًّا لا تتعدى بضع ذرات واحتاجت إلى تكلفة رهيبة، ففكرة أن يكون هناك محرك في الثمانينيات يستخدم العنصر 115 وهو مستقر وبكميات كبيرة تصلح كوقود فهذا أمر مستحيل.

دخل علينا في هذه اللحظة مارليوني بشعره المصفَّف المرتفع وقال بلكنته القريبة لرجال المارينز:

- باري، خمس دقائق بالضبط وتعال مع بوب إلى الهانجر، فستتم التجربة الثالثة للطيران بالطبق.

انصرف مارليوني بسرعة وجهَّز باري أغراضه للتحرك ثم خرجنا إلى الهانجر والفضول يتساقط من عيني على كل شيء، كان مارليوني يقف أمام الطبق هو واثنان من العمال، تقدم باري وفتح باب الطبق وتعجبت أنه هو الذي سيقود الطبق بنفسه، ولقد تساءلت ألف مرة كيف يمكن لشخص بالغ أن يقود شيئًا كهذا، لا بد أنه سيرقد على ركبتيه.

كنت أتوق لرؤية هذا الكيان العجيب يرتفع وأصبحت أصغي السمع والبصر وكل حاسة أملكها، وفجأة ارتفع الطبق...

كل آلة في هذه الدنيا تحدِث صوتًا، أي محرك يجب أن يصدر صوتًا يعبر عن تحرك أجزائه أو احتراق وقوده، ومحركات الطائرات خاصة حتى ترتفع عن الأرض لا بد أن تبذل جهدًا دافعًا، لكن هذا الشيء فقط ارتفع، وأصدر صوتًا كأنه الهمس، لا تسمعه إلا إذا أصغيت. وما بَهَرَ عينيَّ هو ظهور هالة زرقاء دائرية أسفله ما لبثت أن اختفت بعد عدة ثوانٍ. وحتى تتخيل الأمر عليك أن تعرف أنني أتحدث عن شيء بحجم كوخ يرتفع عن الأرض بلا أي هدير.

كان مارليوني يتحدث مع باري عبر الراديو والطبق يرتفع إلى السماء بشكل عمودي حتى أصبح عاليًا كفاية، ثم التفت مارليوني لي وقال:

- تعال يا بوب سأريك شيئًا.

مشيت وراءه بضع خطوات حتى أصبحنا أسفل الطبق مباشرة، نظرت إلى أعلى وصدرت مني سبة بذيئة، ونفضت رأسي ثم نظرت مرة أخرى فأطلقت عدة لعنات، هذا الطبق اختفى تمامًا كأن لم يكن! أخذني مارليوني من يدي فمشينا بضع خطوات مبتعدين ثم أشار لي لأنظر إلى أعلى، فنظرت وارتفع حاجباي فأصبحا كقوسين. الطبق موجود في مكانه، لم يكن هناك شيء منطقي وأصبح ريقي يزداد جفافًا حتى قال مارليوني:

- إنهم يصنعون الجاذبية يا لازار.

برقت عيناي من الفهم ونظرت إلى الطبق وأنا أعض على شفتي.

في الوضع العلمي الذي نحن عليه في الثمانينيات والذي بقينا عليه حتى الآن، الجاذبية هي شيء غير مفهوم بشكل كامل، لكنها تخرج من الأجسام العملاقة مثل الأجرام والكواكب، لا بد أن يكون لديك كتلة هائلة كالكوكب لتنتج جاذبية، أما أن تصنع أنت بحجمك الصغير قوة الجاذبية فهذا أمر خارج حدود العلم المعروف، هذا الشيء ليس فقط نجح في إنتاج الجاذبية، بل إنه يتحكم بها فتكون مضادة لجاذبية الأرض فيستخدمها بكل سهولة.

كان مارليوني قد أخذني أسفل الطبق لأرى بنفسي، هذا الشيء يصنع الجاذبية من أسفله تحديدًا، وهذه الجاذبية تحرِّف عنها كل شيء حتى موجات الضوء التي تحتاج إليها لتنظر إليه من الأسفل، ثم لما تبتعد عنه وتراه من الجانب لا تكون هناك مشكلة، لأن المحرك الذي يصنع الجاذبية هو أسفل الطبق مباشرة، تلك المكعبات الأربعة.

أشعل مارليوني سيجارة وضيَّق عينيه ناظرًا إلى الطبق وقال:

- في الوضع الطبيعي يجب أن تخرِج شيئًا من الخلف حتى يدفعك للأمام، هكذا تعمل كل المحركات، لكن هذا مختلف تمامًا كما ترى، هذا شيء يتحكم بالفضاء المحيط به، كأن الفراغ المحيط به ينحني له، الأمر كما تضع كرة بولينج في منتصف سريرك ثم تضغط بقبضتك على السرير

بجوارها فتنزل الكرة إلى الانحناء الذي صنعته بيدك، هذا هو بالضبط ما يصنعه هذا المحرك، هو يصنع انحناءً في الفراغ الذي أمامه فيجعل الطبق يتحرك إليه، ولا يمكن أن تصنع انحناءً كهذا إلا بإنتاج الجاذبية.

بدأ الطبق يتحرك في السماء ولاحظت أنه يجب أن يميل حتى يندفع إلى الجهة المعاكسة. هذا مفهوم، فالمحرك في أسفل الطبق يصنع جاذبية تدفع الطبق في الجهة المقابلة، وعلى الرغم من أنني أحكي الأمر بكلمات أحاول أن أجعلها بسيطة، فإن مشاهدة هذا الشيء على الواقع يعطيك شعورًا بمدى التخلف الذي نحن فيه، بمحركاتنا العملاقة التي تصنع هديرًا وتحرق وقودًا وأموالًا، إذا أمكننا يومًا ما أن نصنع الجاذبية سيمكننا أن نفعل أي شيء. كل تلك الأشياء في الخيال العلمي ستصبح حقائق، سيمكن للإنسان العادي أن يطير وسيمكنه أن يمد يده فقط فيلتقط الأشياء عن بعد.

المرعب أنه إذا أمكنك صنع الجاذبية فسيمكنك أن تؤثر حتى في الزمن.

هبط الطبق إلى الأسفل بنعومة شديدة وأنا أنظر إليه بشرود، لقد كان باري محقًّا، هذا الشيء ليس أرضيًّا بأي حال، هذه التكنولوجيا لم يتوصل إليها أهل الأرض بعد، ولن يتوصلوا إليها إلا بعد حينٍ من الزمن، أو ربما ستبتلعهم الأرض قبل أن يصنعوها.

خرج باري من الطبق وأخذ يحادث مارليوني بشيء وهما يمشيان عائدين إلى المعمل، ومشيت وراءهما وعقلي يكاد ينفجر من دوران الأفكار.

وبينما أنا أمشي بهذا الشرود إذ حانت مني التفاتة إلى أحد المعامل التي تُرك بابها مفتوحًا، ورأيت هناك منظرًا جعلني أتوقف عن المشي: عاملان من عمال المكان يرتديان الرداء الأبيض يتحدثان وهما ينحنيان كأنهما يتحدثان لكيان صغير، كيان يظهر بعضه من بين الفرجات الصغيرة بين جسديهما! أطلقت شهقة وبدأت أتراجع، هذان العاملان يتحدثان إلى...

أحدثتْ شهقتي صوتًا واضحًا، فالتفت العاملان إلي بأعين مدهوشة وأنا أنظر من بينهما بعينين منفتحتين عن آخرها إلى الشيء الذي كانا يتحدثان إليه، ثم أخذت عيناي في العودة إلى طبيعتهما ووضعت يدي على رأسي على مدى حماقتي، لقد صنع هذان الرجلان دمية بنفس الحجم المقترَح أنه يركب هذا الطبق وكانا ينحنيان إليها ويتحدثان مع بعضهما. لم أتفوه لهما بكلمة،

فقط استدرت ومشيت وأنا أطلق عدة مسبات في سري، لقد لاحظت أنني أصبحت كثير السباب وليس هذا من عادتي ولا أفعلها إلا بيني وبين نفسي، لكنها لا تكثر بهذا الشكل إلا إذا كان الأمر جللًا، والحقيقة أن هذا الأمر هو أكثر شيء في هذه الدنيا جللًا.

***

شهور مضت وأنا أعمل في هذا المكان، نجحنا في إخراج المحرك من الطبق وتفكيكه ودراسته قطعة قطعة، هذه المكعبات إذا حاولت لمس واحد منها من أعلاه فإن يدك لا تستطيع الاقتراب كأنما تضع القطبين المتنافرين للمغناطيس، لا توجد أي أسلاك في الطبق كله، لا سلك يصل أي شيء بأي شيء، هذا يشعرك بأننا نعيش في العصور الوسطى الآن تقريبًا، وأننا في وادٍ سحيق من الجهل والتأخر. الأمر مثل أن تأخذ مفاعلًا نوويًّا محمولًا وتضعه أمام أناس من العصور البدائية فيروا الطاقة المنبعثة منه فينبهروا ثم عندما يقتربون يموتون. الأمر هنا مشابه، فنحن ليست لدينا أي فكرة عن الفيزياء التي تعمل تحت هذا الشيء، لكن ما يخيف حقًّا هو أن الشخص الذي كان قبلي في المعمل وجئت أنا بديلًا عنه مات في أثناء تعامله مع أحد هذه المحركات في واحد من التسعة أطباق.

ما لاحظته في المنطقة 51 هو أنهم يكتمون كل شيء، من الطبيعي أن يكون هناك مجموعة علماء يعملون على فهم شيء كهذا ويكون النقاش مفتوحًا، ولكن هنا ممنوع إلقاء الأسئلة على أي أحد، ولم يكن أمامي سوى باري أتحدث معه، ومارليوني لا نراه كثيرًا، كان جدول العمل يقتضي أن نعمل 10 أيام ثم نعود إلى منازلنا في إجازة لمدة 10 أيام، وهكذا، وبالطبع كان محظورًا علينا تمامًا أن نتفوه ببنت شفة عن أي شيء رأيناه في المنطقة 51، عرفت من باري أنه لا بد أن هاتف المنزل مراقب وبالتأكيد هناك أشخاص يتابعوننا دوريًّا.

كانت هناك فكرة تختمر في ذهني بعد نحو 6 أشهر مكثتهم في هذا المكان، فكرة أتتني وأنا في الطائرة عائدًا إلى لاس فيجاس؛ إن ما يحدث في المنطقة 51 هي جريمة علمية في حق المجتمع العلمي كله، أن يكون لديك شيء كهذا وتخفيه عن البشر أجمعين ولا يعرفه إلا أشخاص معينون محظور

عليهم أن يتحدثوا عن أي شيء، والنتيجة هي السجن بالطبع. المشكلة أنني من ذلك الطراز من الأشخاص الذين تسيطر المبادئ على كل جزء من كيانهم، يمكنني أن أفعل أي شيء لكن يستحيل أن أفعل شيئًا ضد مبادئي، الفكرة التي كانت تختمر في ذهني خطرة جدًّا، العالم من حقه أن يعرف كل شيء، لا بد أن أحكي كل شيء.

في المنزل نظرت إلى زوجتي بهيئتها المعتادة التي فضلت ألا تغيرها منذ سنوات طويلة وقررت أن أخبرها بكل شيء، وهذا ما حصل، وإني أذكر انفعالات وجهها في كل مشهد أصفه لها، فلقد كانت منتمية إلى المجتمع العلمي مثلي، من الصعب أن تثير شغف زوجتي بأي شيء لأن مثلها كان مقتنعًا أنه رأى كل شيء. فكرت معها أن نخبر صديقنا «جون لير» وبالفعل ذهبنا لنخبره ولم يكن لديه نفس حماس زوجتي، بل كان متشككًا وهو ينظر إليَّ كل حين بريبة. قلت له إن هناك جدولًا لتجارب الطيران بهذه الأطباق حول المنطقة، وهذه التجارب هي السبب في الظهورات التي يقسم أصحابها أنهم رأوا أطباقًا طائرة ولا أحد يصدقهم.

كنت بالفعل قد اطلعت على جدول تجارب الطيران التي يجرونها بهذه الأطباق، كانوا يطيرون بهذه الأطباق في يوم الأربعاء لأن الطريق المجاور للمنطقة 51 يكون أقل شيء ازدحامًا يوم الأربعاء. وبيقيني هذا ذهبت مع زوجتي وجون لير بعد منتصف الليل إلى قرية «راتشيل» وهي أقرب مكان للمنطقة 51، ومن القرية اتخذنا سبيلنا في الصحراء حتى وصلنا إلى مكان معين كنت أعرفه، وهو مكان شديد الخطر لأنه قريب جدًّا من منطقة الحظر العسكري، حتى إن زوجتي فزعت لما وجدت لوحة قريبة مكتوب عليها تحذير شديد اللهجة بأن هذه منطقة عسكرية وأن إطلاق النيران سيتم على أي شخص يحاول تجاوز هذا الخط. وكان المكان الذي أنشدُه خارج هذا الخط لكنه قريب بما يكفي لرؤية الأطباق.

جلسنا على الأرض نراقب السماء، وكانت زوجتي قد أحضرت الكاميرا الخاصة بي تجهيزًا لتصوير أي شيء بالفيديو.

مرت بعض الساعات وأعيننا قد اعتادت توزيعات النجوم في تلك السماء حتى كدنا نحفظها، ثم قمت من مكاني فجأة وأنا أقول بصوت حاد هامس:

- ها هو ذا، إنه الطبق اللعين.

كانت هناك بقعة من ضوء برزت فجأة في سكون الليل، وعلى الرغم من أن هذه الأطباق لا يصدر عنها أي أضواء، فإن نور القمر ينعكس على سطحها الأملس بسهولة فتظهر في السماء كأنها جرم طائر.

أخرجت زوجتي الكاميرا وبدأت التصوير على الفور بيدٍ تحاول الحفاظ على اتزانها وقد بلغ بها الحماس مبلغًا عظيمًا. وجهز جون لير نفسه ليعترض على شيء ما كعادته، لكنه توقف وصمت تمامًا وهو يشاهد طريقة طيران الجرم الطائر، لم تكن هذه طريقة طيران تصلح لأي طائرة أرضية معروفة، فالجرم المنير يطير أفقيًّا ثم فجأة ينحرف رأسيًّا وبطريقة متعرجة مستحيل حدوثها بأي شيء صنعته أيدي البشر. الأمر مثل أن تأخذ قلم ليزر وتلعب به يمينًا ويسارًا بلا هدى، لا يوجد شيء يطير بهذا الشكل.

صوَّرنا كل شيء، وكان هذا التصوير من أكبر الأدلة على صدقي فيما بعد، لكن قلوبنا لم تنعم كثيرًا بهذا الحماس، فمن بين ظلمة الليل حولنا والتي تشبه الكحل برزت بقعة ضوء خضراء غشت على أعيننا وصرخت زوجتي فزعًا، فمن كل جانب حولنا كان يقف حراس يرتدون مناظير ليلية كبيرة ويمسكون أسلحة ثقيلة مصوبة إلى وجوهنا، وفي ثوانٍ كانوا قد قبضوا علينا وقيدونا بالأغلال وأخذونا إلى أقرب نقطة عسكرية خاصة بحراسة المنطقة 51. وهناك رأيت وجهًا غاضبًا لم أحبه يومًا؛ وجه مارليوني.

***

- بوب لازار، اللعين الذي لا يقدر أن يكتم سرًّا يخص الأمن الوطني بينما نحن نكتم أسراره ونحفظها.

نظرت إلى مارليوني وهو يقول هذا الكلام وأنا أحاول أن أفهم ما يعنيه، لكنه لم يكن من النوع الذي يتركك لتفكر، فقال وهو ينظر إلى زوجتي:

- لقد كنا نراقب هاتفك طوال الشهور الماضية، ونسمع بكثير من الشغف الأحاديث الغرامية الجنسية بين زوجتك وبين واحد من أحب أصدقائك.

هبط قلبي إلى الأرض التي أرقدوني عليها، نظر مارليوني إلى جون لير وقال:

- لا تقلق، ليس هو جون لير، فهو بريء، بل هو دينيس.

أحيانًا يكون الدمع الساخن هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعبر عما بداخلك، لم أكن من الطراز الذي ينفعل ويقول كلمات درامية، وإن كانت الكلمات التي ألقاها مارليوني قد شقت روحي شقًّا، لم أنظر حتى إلى زوجتي مدهوشًا، ربما لم أجدها حتى تستحق النظر. كنت أصبِّر نفسي عن هذا الألم بالتفكير في السجن وكيف سأحتمله وأستمع إلى كلمات مارليوني القاسية المتواصلة، ولقد أصابتني الدهشة حقًّا وهو يقول كلمته الأخيرة.

- جميعكم ستخرجون وستعودون إلى منازلكم، وإن تجرأتم وأخبرتم أحدًا بما عرفتموه من حكايات هذا الخائن للأمانة فاعلموا أن الحكومة الأمريكية بكل قواها ستعمل على إيداعكم السجن في خلال أيام حتى تتعفن أجسادكم.

افترقنا بعد هذه الليلة، ولم تحظ زوجتي مني بكلمة ولا نظرة، فقط أخذتُ أغراضي ورحلت، لقد حافظتُ على مبادئي ولم أخن هذه الإنسانة يومًا على الرغم من كل شكوكها، لكن يبدو أن الشخص الذي يشك كثيرًا إنما يعكس ضعفًا لديه هو، وأنه لو أتيحت له الفرصة سيخون ألف مرة بعدد مرات الشك التي يلقيها على الآخرين.

كانت جفوني تزن أثقالًا من الهم يشعر به كل من يراني، المشكلة ليست في جلب المعلومات، ولكن في أن تحتملها عندما تعرفها، وإن حمْل سر مثل هذا يثقِل الإنسان وهو ينظر إلى البشر يأتون ويروحون ولا يدرون شيئًا عن الحقيقة، والعلماء يجتمعون في مؤتمراتهم ومعاملهم ويحملون الجوائز وهم غافلون عن أمور ستفتح لهم فتوحات لا يحلمون بها، وستقلب طريقة معيشة الناس رأسًا على عقب.

ما فهمته هو أن من يعلم حقيقة المنطقة 51 أصلًا هم أشخاص قليلون جدًّا في أمريكا في مناصب حساسة، وليس أي شخص حتى بداخل المنطقة نفسها، وربما الرئيس نفسه يعلم أو لا يعلم، أو ربما هو يعلم بعض الحقيقة.

السر الذي أنا مثقل بحمله هو أن هناك الكثير من التكنولوجيا غير معلن عنها ويتم إخفاؤها عمدًا، ولن تخرج إلا في وقت معين، حتى لا يصل أحد لنفس هذه التقنيات ويسبقهم في الثراء، وعندما أراد تيسلا جعل الكهرباء

لا سلكية تمت مقاومة فكرته لأنها تؤذي أصحاب المصالح، لأن الكهرباء اللاسلكية ليس هذا وقتها. تيسلا المجنون كان يريدنا أن نأخذ الكهرباء هكذا من الهواء، وكيف سيمتص أصحاب الأموال عرق الشعوب، ويستنزفون موارد الدول يا تيسلا.

وجدت أن بطاقة هويتي ليست في منزلي، ولما حاولت استخراجها مرة أخرى كان هناك تعنت وصل إلى حد المنع التام، كانوا يريدون أن يمحوني من هذا الوجود. معمل لوس ألاموس لما كلمتهم لأعود إلى العمل قالوا إنهم لا يعرفون أحدًا باسم بوب لازار.

وفي يوم من الأيام أثقلني حمل هذه الأسرار حتى انهار ظهري وعجز عن حملها ورفعت سماعة هاتف من كابينة عمومية وكلمت أكثر شخص محظور عليَّ أن أكلمه في هذه الأثناء؛ «جورج ناب»، وهو من أشهر رجال الإعلام في أمريكا، وكان من النوع الذي يهتم بالتحقيقات.

وكان جورج هذا أكثر شخص متشكك أعرفه، لأنه كما يقول سمع كثيرًا من هراء الفضائيين هذا، وقد وضعني على جهاز كشف الكذب وتأكد أن كل حرف أقوله حقيقي تمامًا، وأنا أعلم أن هناك وكالات للتشويش على المعلومات يسمونها Disinformation Agency، هذه الوكالات عادة تخرِج قصصًا بلهاء عن أشياء معينة مثل الفضائيين لتبقيهم في المنطقة الحمقاء من المخ، بينما يكون الأمر وراءه حقيقة من نوع ما، لا يود لك أحد أن تعرفها اليوم.

أخبرت العالم بقصتي كاملة ولم أترك تفصيلة واحدة إلا قلتها ولأحترق بعد ذلك لم يعد يعنيني، ولقد تسببت في أزمة حقيقية، لقد أصبحت قرية راتشيل هذه مزارًا سياحيًّا يأتيه محبو الفضائيين من كل مكان ويقبعون فيه أيامًا ينظرون إلى السماء ليروا الأطباق الطائرة التي حكيت عنها. وأخرجت عني بعض الوكالات الإعلامية إشاعات عن أنني دجال وأنني أدير بيت دعارة وأتاجر في المخدرات وغيرها من التهم التي يرمونها في وجوه الناس كل حين حتى لا يصدقني أحد، لكنني أعلم أن الحقيقة تصل إلى القلوب على الرغم من كل شيء، وإن ما قلته هو الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان.

ولقد ظهر صدقي عبر السنين؛ تم اكتشاف العنصر 115 هذا وسموه الموسكوفيوم، وتم الكشف عن جهاز ماسح الكف ذاك الذي يقيس حجم

العظام، وحتى لوس ألاموس الذين أنكروا أي علاقة لهم بي، أخرجوا أمام العالم ذلك العدد من الجريدة الدورية التي يصدرونها والتي عليها صورتي في الصفحة الأولى وهم يحتفون بي، أما التكنولوجيا التي تحدثت عنها فسأقول لكم كلمة أخيرة: إن مثل هذه التكنولوجيا ستظهر يومًا ما ولن تكون فقط عسكرية تُصنع بها الطائرات، بل ستكون في كل بيت، نعم، سنحرك الأشياء عن بعد كما نغير قنوات التلفاز، وسنرتفع في الهواء كلما أردنا هذا وبأدوات بسيطة، لكن دعهم أولًا يشبعون من البترول وإحراقه واستخراجه والأموال التي يصنعها، ثم سيفرغون لتنفيذ هذه التكنولوجيا الجديدة، وربما يشهد الجيل الذي يليني هذا في حياته.

***

انتهى بوب من حديثه وطفق يعدل نظارته كعادته هروبًا من أعين الناظرين الذين كان بعضهم يحدق إليه كأنه هو ذاته مخلوق فضائي. لم أكن أهتم بموضوع الفضائيين هذا حتى رأيت أعين هؤلاء القوم الشغوفة جدًّا، قال شارلوتان وهو يعود بكرسيه للوراء:

- أطباق طائرة تخص فضائيين وهي في يد الحكومة الأمريكية، وأنت كشفتها، وهم تركوك، أهذا ما تحاول قوله؟

قال لازار معترضًا:

- أنا لا أدري من تخص هذه الأطباق بالضبط، لأنني لم أر مخلوقات فضائية تتنزه هناك، لكني أقول وبقوة، هذه التكنولوجيا هي من مكان آخر تمامًا لا علاقة له بالبشر، وإن لم يكن الفضائيون هم صانعوها فالحكومة الأمريكية صنعتها، وهذه جريمة أعظم لأنهم بهذا يحتكرون العلم ويسربونه للناس بالتدريج حسب مصالح الكبار، لكن معذرة! من أخبرك أنهم تركوني وشأني؟

ضيَّق شارلوتان عينيه وقال:

- قلتَ إنهم هددوك فقط على ما أذكر؟

قال لازار بتوتر:

- هم أصبحوا متخبطين بعد ظهوري المفاجئ، فبعد أيام من إذاعة الحلقة فجروا الإطار الخلفي لسيارتي وأنا أسير بها حتى يظهر موتي طبيعيًّا، ثم كفوا عن هذا لما رأوا أن قتلي سيحولني إلى بطل قومي وهذا ضد رغبتهم في أن أبقى عند الناس في خانة المخابيل.

سأله ذلك اليهودي ذو اللحية بعينيه الواسعتين:

- تقول إن إخفاء الحكومة لأطباق فضائيين هي جريمة، لماذا أصلًا هي جريمة؟ من حقهم أن يعدوها أسرارًا حربية يمتلكونها قبل غيرهم من الأمم، فكما تعلم، الأكثر تسلحًا هو الفائز في النهاية.

قال لازار:

- بل هي جريمة نكراء، لأن السؤال الوجودي «هل نحن وحدنا في الكون» هو من الأسئلة الكبرى، ولو أن هناك أشخاصًا يعلمون إجابة هذا السؤال ويخفونها فهي جريمة.

قلت له أنا متدخلًا:

- أنت قلت إن كثيرين يعملون في المنطقة 51، أأنت الوحيد الشجاع الذي تكلمت؟ أين المئات الآخرون؟

مط بوب شفتيه وقال:

- كل عامل في بركة الجروم يتم حقنه شهريًّا بمادة غريبة تدخِله في حالة هلوسة مؤقتة، ثم يخوفونه تخويفًا قاسيًا وهو منوَّم أن يتحدث عن هذا الشيء، وعندما يفيق لا يتذكر إلا أنه يخشى التحدث، وهي لعبة نفسية حقيرة يجيدونها، مكثت كثيرًا وأنا أخاف من كشف السر حتى فطنت للعبتهم بالصدفة، فكنت أحقن نفسي بمادة مضادة دون أن يشعروا.

تنهد شارلوتان وطرق على الطاولة وهو يقول:

- فليكن. هكذا نكون انتهينا من الجلسة الأولى، وإني أدعوكم لحفل الشاي في الحديقة بالأسفل، سيكون الجو ساحرًا.

قام الناس وقمت مرافقًا طويبة إلى الحديقة ننظر إلى سمائها في شاعرية حتى رأينا تجمعًا حول بوب لازار من أولئك الشغوفين به فاقتربنا. كان بوب يقول لأحدهم وهو يشير إلى السماء:

- ستعرف أنك ترى طبق طائر يوفو حقيقيًّا عندما يكون في السماء جسمان مضيئان وليس جسمًا واحدًا، يتحركان بتوازٍ حركة واحدة شديدة الغرابة، وهي تكنولوجيا معقدة للتمويه العسكري، حيث يكون أحد الجسمين مجرد ظل للجسم الحقيقي، لكن هذا نادر، أغلب الظهورات للأجسام الطبقية في السماء ما هي إلا طائرات حربية سرية تجربها الحكومات.

كان يقف معنا ذلك الرجل الضخم طويل الشعر، فقال ناظرًا إلى الأعلى:

- هذا صحيح، أمريكا لديها طائرات لو شاهدتها في السماء من زاوية معينة ستقسم أنها أطباق طائرة، طائرات الشامو النحيفة المربعة مثلًا، أو طائرات الدارك ستار الطبقية، أو الشبح الأسود التي تبدو مثل طائرة باتمان.

قال طويبة وهو يبتسم لدعابة باتمان:

- سيد بوب، هل تظن أن هناك كائنات، مثلًا يعني، مخلوقات فضائية في هذا العالم؟

ابتسم بوب لازار وقال:

- بالطبع، لكني لا أظن أن رؤوسهم بيضاوية أو لهم قرون، فهذه صفات من خيال البشر المريض.

قلت معلقًا على كلامه:

- الله يخلق أحسن الخلق في أحسن صورة، أما البشر فلما يتخيلون مخلوقات في أفلامهم تجدها دومًا بشعة ومخيفة.

هز لازار رأسه موافقًا وقال:

- سأخبركم سرًّا، هذه الأطباق التي رأيتها في بركة الجروم، منها واحد قديم جدًّا مكتشَف بين طبقات صخرية عمرها آلاف السنين، الحكاية

قديمة يا سادة، هؤلاء الفضائيون موجودون منذ القدم وليسوا خيالًا حديثًا كما كنا نظن.

قال الرجل الضخم:

- أليست أمريكا عملت مشروع الكتاب الأزرق الذي سجلوا فيه كل مشاهدات الأجسام الغريبة في السماء لأنهم شكوا أن تكون طائرات تجسس روسية؟ سمعت أنهم سجلوا 12 ألف مشاهدة من الأهالي لهذه الأجسام.

ابتسم بوب ابتسامة مريرة وهو يقول:

- لا تصدق هذا يا دكتور، مشروع الكتاب الأزرق ما هو إلا تغطية أو شاشة من الدخان تحجب وراءها ما تفعله الحكومة الأمريكية من تطوير لطائرات حربية وأطباق طائرة، حتى إذا رآها شخص صدفة في السماء يخبره الكتاب الأزرق أنها مجرد تفسيرات خاطئة وخداع بصري لظواهر طبيعية في السحب والنجوم وغيرها بينما هي أصلًا تجارب عسكرية.

أخذنا الحديث إلى جوانب أخرى كثيرة، وبوب لازار هذا على الرغم من أن كلامه قليل، فإن كل كلمة يكون فيها كنز.

انتهت الليلة الساحرة وذهبنا إلى غرفنا للنوم وكان لكل واحد غرفة منفردة، شعرت أني بدأت أحب المكان، ونمت تلك الليلة بعمق.

اجتمعنا في مساء اليوم التالي في غرفة الاجتماعات ووجدت كرسي بوب لازار فارغًا، فقال شارلوتان:

- السيد بوب لازار استأذن اليوم صباحًا بسبب مشاغل عنده وغادر رومانيا.

قال ذلك اليهودي:

- خسارة، كنت أود أن أسأله عن تلك المدينة تحت الأرضية التي قال إنها مبنية في المنطقة 51.

قال شارلوتان بصوته الأشبه بالثعبان:

- ليست مدينة واحدة فقط، بل إن هناك 120 قرية تحت أرضية مبنية ومجهزة للحياة في أمريكا وحدها.

ارتفع حاجباي دهشة وقلت:

- ولماذا يريد الناس أن يعيشوا تحت الأرض؟

قال لي اليهودي بلهجة لم تعجبني:

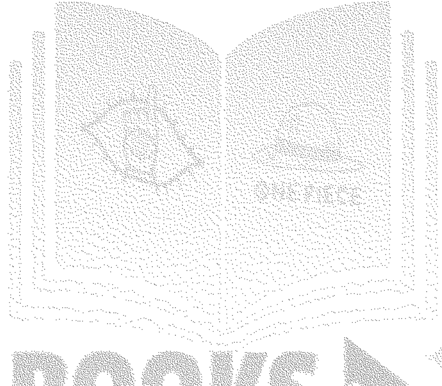
- الذكي فقط من يصنع هذا، العالم اليوم فيه 14 ألف رأس نووي، فالحرب النووية وشيكة جدًّا، لو لم تصمم ملاجئ كهذه فأنت أحمق.

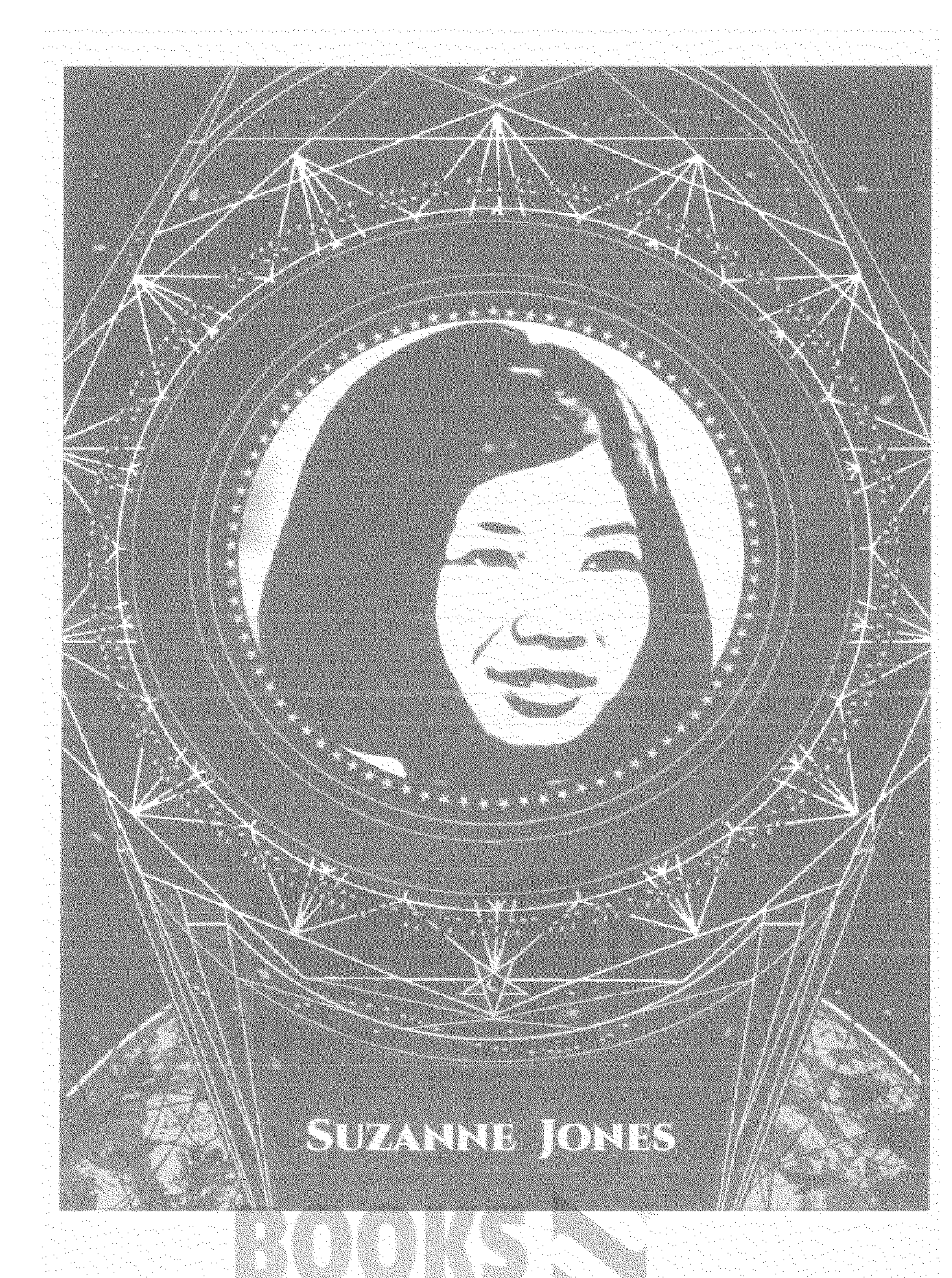
كدت أن أرد عليه لكن شارلوتان قال:

- دعونا ننتقل إلى السر الثاني، وهو ليس سرًّا علميًّا هذه المرة، بل هو سر روحاني، أقدم لكم سوزان جونز، بنت القس المجنون جيم جونز.

أصابت الجميع لسعة من المفاجأة ونسوا الأطباق الطائرة تمامًا وهم ينظرون إلى تلك الفتاة الآسيوية الضعيفة، أهذه ابنة جيم جونز؟ المخبول الذي أنشأ قرية كاملة وعيَّن نفسه حاكمًا عليها وتبعه ألف شخص أقنعهم بالانتحار الجماعي؟ نظرت إلى الفتاة التي كانت تبدو مهمومة جدًّا وهي تقول:

- هناك مناطق في الحكاية لم أشهدها بنفسي لكنني عرفتها من أبي جيم جونز وأمي، فسأحكي كل شيء من بدايته إلى نهايته المأسوية، لعل العالم يعرف الحقيقة المرة.




SUZANNE JONES
BOOKS

2

حكاية السيطرة على العقول

ترويها: سوزان جونز

«عليك أن تؤمن بما تراه، إذا رأيتني صديقًا فأنا سأكون صديقك. إذا رأيتني كأب لك فسأكون لك أبًا.
إذا رأيتني كمخلص فسأكون مخلصًا،
وإذا رأيتني إلهًا، فسأكون إلهك».

القس المجنون جيم جونز.



طفل عارٍ تمامًا كما ولدته أمه التي يكرهها، يسير بجسمه الصغير في طرقات قرية أمريكية وضيعة لا تذكرها الخرائط، فقير لا يجد حتى ثمن كسرة خبز، لكنه يجد كثيرًا من نظرات الشفقة من أمهات القرية فيرمون له ما تبقى من طعام أولادهن كما ترمي للقطة، له أب مريض قعيد منذ أن انفجرت فيه قنبلة في الحرب العالمية، وأم من الهنود الحمر بخيلة في مالها وبخيلة في حنانها، لم تحتضنه مرة واحدة في حياتها، حتى الشفقة بخلت بها فأصبح يبحث عنها في أعين الأمهات، وتكون له غذاء يغنيه عن فضلة الطعام الذي يرمينه كل حين. رأته ذات يوم زوجة القس الليدي ميرتل ممددًا على باب الكنيسة يزوم ويرتجف من برودة روحه، وعينه متألمة غاضبة حاقدة كأن الشيطان يسكن فيها، فحملته وأدخلته بيتها وغطته بأثقل غطاء وحضّرت له أدفأ شراب وسكبت على قلبه أدفأ كلام، ثم ذهبت به إلى بيته وتكلمت مع أمه كلامًا عنيفًا فلم يزدها هذا إلا كراهية لابنها ولليوم الذي ولدته فيه.

اعتنت به الليدي ميرتل كثيرًا، فكان يقضي في بيتها أكثر مما يقضي في بيته، ولاحظت أنه دومًا صامت كالقبر، وعينه تتخذ شكلًا معينًا ممتلئًا بالعداء للعالم بأكمله. لكنها لاحظت أنها عندما تقرأ عليه الكتاب المقدس ينتبه ويهتم ويفتح عينيه بشكل لا تدري أهو اهتمام أم دهشة، فبدأت تعلمه آيات الكتاب ومبادئ المسيحية، وكان يظهر قدرة عظيمة على الحفظ، لكنه كان حفظًا من النوع الذي يسكن في خلايا العقل ولا يتجاوزه إلى القلب، فكان إذا شبع من طعامها وحنانها خرج من عندها إلى السوق فيمكث فيه بضع سويعات ليصرخ الباعة بعدها غضبًا وغيظًا من ذلك الشيطان الذي سرق أشياءهم، وليته يسرقها ليأكلها، بل هو يسرقها ليرميها ويهشمها على الجدران. كان الصغير يدعى جيمي، وسيعرفه العالم بعد ذلك باسم قميء لا يحب العالم أن يتذكره؛ جيم جونز.

أخذته زوجة القس ذات مرة إلى الكنيسة فرأى الأب يخطب ببلاغة وحماسة فيأسر أعين الناس، ولم يكن جيمي ينظر إلى شيء إلا إلى أعين الناس المبهورة المتأثرة، وعاد جيمي إلى بيته وهو يتقمص طريقة القس ويردد كلامه بنفس نبراته الحماسية، فخرجت له أمه تمسك حزامًا فقيدت معاصمه بيد واحدة وانهالت على ظهره ضربًا بجلدة الحزام وهي تقول بغل:

- أما زلت تذهب إلى تلك المأفونة ميرتل؟ قل لي أيها الحقير ماذا تفعل بك هاته المنحرفة؟

لم يكن جيمي يرد، ولم يكن يبكي، بل لم يكن حتى يظهر ارتعاد الأطفال عندما تمسكهم لتضربهم، وكأن جسمه قد تيبس وقلبه ومشاعره، فكانت تضربه وعلى عينه تلك النظرة التي رسمتها الأيام، نظرة الكراهية.

لم يكن جيمي صالحًا قط، على الرغم من كل آيات الكتاب المقدس التي حفظها وكل تعاليم المسيح التي تعلمها، بل إنه أصبح خبيثًا إلى درجة غير معتادة في هذه السن، فكان كلامه بذيئًا على الدوام، سافلًا بغير داعٍ، وكان يفعل الخبائث خفية في كنيسة القرية، ففي مرة سرق الكتاب المقدس من الكنيسة ووضع بدلًا منه روث البهائم، وفي مرة أخرى استبدل بالماء المقدس كأسًا من بوله، ولم تكن أعينه يرتسم عليها شيء من الجذل، بل هي الكراهية ولا شيء غير الكراهية.

بقوة من كلمة القس وزوجته دخل جيمي للمدرسة، وكان طفلًا مشاغبًا لا يجلس إلا في الصف الأخير، والغريب أن علاماته تكون دومًا كاملة، يحفظ كل شيء ويردده بسهولة، وعلى الرغم من تفوقه، فإن أي طالب يتعرض له كان يندم على اليوم الذي دخل فيه إلى المدرسة، فذات يوم كسر ذراع طفل من النوع المتنمر بثنيها وراء جذعه إلى أكثر مما تحتمل، فتعرض للفصل من المدرسة بسبب الأذى المتكرر لزملائه، لكن زوجة القس كانت تعيده دائمًا، ولم تدرِ هي نفسها لماذا كانت تفعل هذا معه، لم آمنت به حين نبذه كل أحد حتى عائلته!

في يوم التخرج من الصف السادس، عقدت المدرسة حفلًا كبيرًا وكان جيمي هو الأول على الفصول كلها، لكنه كان يقف في فناء المدرسة وحيدًا، وكل أم تحتضن ابنها وتقبله، وكل أب يحمل ولده عاليًا في السماء، أما هو

فلم يكن معه أحد، في ذلك اليوم أحس أنه يمكنه أن يقتل أبويه، لكنه فقط لا يمتلك القوة.

ومرت الأيام وكبر الصغير الذي كانت أمه تجرعه شراب القسوة حتى فار الشراب من الكأس في وجهها وكانت هي ضحيته الأولى، فخرجت من تحت يديه ذات يوم والدم يسيل من وجهها وعينيها، ولم تعد تقدر على رفع صوتها عليه. كثير من الشكاوى كانت تأتيها عن تغير ولدها في مراهقته إلى شخص منحرف، لكنها لم تقدر أن تنظر في عينيه وكأنها تعلم أن هذا ما غرست، وهذا ما حصدت.

تحول فساد طفولته إلى ممارسات منحرفة جدًّا مع الأطفال، فكان يجمعهم ويعلِّمهم الجنس ويتعامل معهم بسادية لا يجوز الحديث عنها، ولم تجد عائلات الأطفال حيلة إلا الشكوى لزوجة القس التي أمرت جيمي بالكف عن هذا العيب ولم يكن يسمع إلا منها.

وفي الثانوية أصبح (بدعم من زوجة القس) شديد التعلق بالكتب، فأصبح يقضي بقية النهار بعد المدرسة في المكتبة العامة ويعود إلى البيت في المساء محملًا بكتب فلسفية ودينية يكمل قراءتها ودراستها.

لم يكن يعرف أحد لماذا كان جيم يدرس ويقرأ ويتعلم الكتاب المقدس بهذا الجد، وربما كان يفعلها من أجل الليدي ميرتل، فالإنسان طوع لمن يهبه الحنان في أشد وقت احتياجه للحنان، وعدو لمن يسقيه القسوة بلا سبب ولا هدف. وعلى الرغم من أن جيمي توقف عن السفالة مع الأطفال، فإنه أصبح يؤدي معهم أشياء في غاية الغرابة، أشياء تتعلق بالموت.

كان مهووسًا بالجنائز وطقوسها وموسيقاها، وبالتوابيت وأشكالها، فكان يجمع الأطفال عندما يموت لهم قط مثلًا أو كلب ويؤدي جنازة كاملة لهذا الكلب ويخطب خطبة جنائزية من حفظه. وإذا لم يجد حيوانًا ميتًا ليقيم عليه الجنازة كان يقتل قطًّا ثم يقيم عليه الجنازة ويدعو الرب ليغفر خطايا القط. وكان يقول دائمًا بعد الجنازة: «أنا مرسل من عند ملاك الموت». لم يكن هذا مجرد طفل منحرف، بل لقد كان هذا جيم جونز، وإن التاريخ سيتذكره بكلمته هذه وسيفهمها فيما بعد.

***

ذات صبيحة في ملعب البيسبول حدثت واقعة أثرت في نفس جيم تأثيرًا استمر معه بقية حياته، حينما فوجئ بتنمر من مجموعة من البيض على فتى أسود نحيل كان يحضر اللعبة وحيدًا، قالوا كلامًا بشعًا جعل جونز يقوم من مكانه ويحول وجوههم إلى زرائب، وتم طرد جونز من الملعب هو وذلك الفتى الأسود، وحينما شكره الفتى عرض عليه جونز أن يكون صديقه، ففرح وصارا صديقين يأتيان معًا ويروحان، حتى دعاه جونز يومًا إلى بيته، وهناك كان الموقف الذي جعل جونز يغادر منزل عائلته إلى الأبد.

ففور أن رأى والد جيم ذلك الفتى الأسود يدخل إلى البيت هب من موضعه غاضبًا وتحدث بكلام قبيح لا يخرج من فم إنسان، عن الرجس الذي يريد جونز أن يدخله للمنزل وغيرها مما لا تستحل النفس بيانه، فوالد جونز كان عضوًا قديمًا في فرقة الكو كلوكس كلان الإرهابية الدموية العنصرية التي كانت تطارد السود في أمريكا وتقتلهم، وبعد شتائم وصفعات نزلت من كف جيم على وجه أبيه المريض، أخذ جيم كل ما كان له في المنزل وانصرف إلى الأبد.

سافر جيم إلى بلومنجتون بإنديانا والتحق بالجامعة هناك، وأصبح يعمل بعد حصص الجامعة في مستشفى ريد الكبير كمشرف على دور كامل، وأظهر قدرة غير عادية على تنظيم الناس وإدارة الأزمات التي كانت تحدث كل يوم في المستشفى، وبين الممرات البيضاء والمعاطف التي تركض لإنقاذ البشر ظهرت مارسلين، كانت تدفع إحدى المحفات وكل حنان الدنيا يتساقط من عينيها على المريض الراقد على المحفة، وتوقف جيم محله ينظر إلى هذه الملامح والعينين واللهفة التي تسقيها مارسلين لشخص لا يربطها به شيء، وإن الإنسان ذليل لما حُرم منه، فتعلق جيم على جدار حبها.

وببضع نظرات وكلمات أحبته مارسلين وتحطم جدارها وأصبحت تتنفسه كما تتنفس النسيم، لكنه كان ساديًا معها مولعًا بالسيطرة، يحمل في عينيه جنون العظمة، فكان يذلها بحبها له ويستغلها ويأمرها وينهاها ويحرمها ثم يعطيها، وكان خبيرًا في أداء طريقة سيئة في السيطرة على الأنثى التي تحب، يلقي إليها كل حين مشكلة تافهة ويغضب ويعنفها عليها فيبقيها مشغولة

تجري لإرضائه، وإذا رضي يرضى ببخل، وحبها له يبقيها متعلقة بحبال عشقه لا تريد أن تخرج.

بقي جونز على تواصل مع الليدي ميرتل التي استمر دعمها النفسي والحياتي له بأن توسطت له ليعمل في الكنيسة ويكون شماسًا متدربًا بما له من علم في أمور الكتاب المقدس وحفظ لآياته، وبما كان له من حضور مستمر للكنيسة معها ومع زوجها القس، وكان هذا خطأ لن يغفره العالم لها ولو بعد حين.

كان أول شيء عمله بعد حصوله على هذه الوظيفة هو شيء ليس متوقَّعًا بالمرة، جهَّز ملعبًا كاملًا في أرض خالية من ماله الخاص وسماه الملعب المفتوح لأجل أن يدخله الأطفال من كل الأعراق، لا فرق بين أبيض وأسود وأصفر، وتوافد عليه الأطفال الملونون الذين كانوا يضطَّهدون في إتاحة اللعب في الملاعب، وكان ينظر إلى ابتسامتهم ويبتسم وينظر إلى السماء في رضا.

وذات مرة حاول جيم أن يتوسط لفتى أسود حتى يعمل شماسًا في الكنيسة فرفضوا على الرغم من توفر الشروط كافة في الفتى، فترك جيم الكنيسة وأصبح ينتقدها وينتقد مذهبها ويصفها بالعنصرية، وانتقل للعمل في كنيسة ذات مذهب مغاير، وكأن نفس جونز تحوي بداخلها إنسانًا وشيطانًا، أو ربما كانت الشيطنة في عهد الصغر ثم انصرفت، أو كمنت إلى حين.

***

صعد القس جيم جونز على المنبر ولم يكن يعرفه أحد، خطب خطبة واحدة فامتلأت الكنيسة عن آخرها، حتى المارقون في الشارع أتوا ليسمعوا، خطبة حركت قلوب كل من استمع إليها، ذلك النوع من الخطب الذي يصيبك بقشعريرة تتحول إلى لسعة على شعرات جسدك فتقوم من موضعها وتشعر بطاقة لا تدري تصنيفها، مزيج من الاندفاع والحب الغامر ينسكب على نفسك كالماء البارد فتفيق وتشعر أنك كنت تضيع وقتًا كثيرًا من حياتك قبل أن تستمع إلى هذا الرجل، كأنه ساحر أو عازف كمان يعزف على أوتار مشاعرك فيعرف متى يشد الوتر ومتى يرخيه، ومتى يرفع النبرة ومتى يجعلها حنونة، حركات يده كانت تتناغم مع كلماته، حتى إنك إذا كتمت الصوت يمكنك أن

تفهم الكلام من حركة اليد وحدها، كان القس جيم جونز صاحب لسان، وليس أي لسان.

لا أحد يدري كيف هبطت عليه هذه القدرة دون أي دروس في الخطابة، كيف أسر القلوب من الخطبة الأولى بل من الخمس دقائق الأولى فيها. وإن القس الأكبر في الكنيسة لاحظ هذا الأمر فعيَّنه رئيسًا على حركة الشفاء الحي Healing Revival، وهي حركة مسيحية استعراضية برزت وانتشرت سريعًا بين الكنائس، تختص بجمع الناس ليشاهدوا بأعينهم على المسرح كيف يشفي القس أصحاب الأمراض المستعصية كالتلبس وآلام المفاصل المزمنة وغيرها، فيهتف الناس ويضجون وتعلو في الشارع كلمات الثناء على المسيح والروح القدس، وعندما أمسك جيم جونز رئاسة هذا الأمر في الكنيسة، كنت كأنك أعطيت السمكة اليابسة ماء فارتوت وجرت فيه لأنه موطنها، كان «الاستعراض» هو موطن جيم جونز.

الشيطان يمتلك لسانًا حلوًا، الشيطان يلقي في صدرك كلامًا عذبًا، الشيطان يرقص حول روحك فتسعد ثم يرقص حول قبرك فتهلك.

أخذ جيم جونز عروض الشفاء الحي إلى مستوى آخر تمامًا، فكانت تصعد على المسرح امرأة ذات ساق مكسورة منذ كذا وكذا من السنين، فيضع يده عليها أمام الناس ويتكلم بطريقته التي تأخذ القلوب ويهتف بالدعاء ويطلب الروح القدس ويطلب روح المسيح النازلة، فتقوم المرأة عن كرسيها وتمشي متعكزة على أكتاف الناس لدقائق، ثم تمضي وحدها على المسرح أمام الأعين المبهورة والأفواه الفاغرة والأرواح الغافلة.

أول خطوة تخطوها ناحية قلوب الناس هي أن تريهم ما لا يستطيع أحد أن يريهم إياه، فالناس تعيش بالعاطفة والدين، وإذا ألقيت على أسماعهم كثيرًا من الدين وقناطير من العاطفة سيلقون قلوبهم عند قدميك.

بلغت شهرة جيم جونز الواعظ المؤيَّد من عند الله إلى حد أن حركة المرور كانت تتعطل أمام الكنيسة يوم الأحد من تزاحم الناس، تلك القلوب الجائعة للرب، ولحنان الرب، ومعجزات الرب، وكل هذا وأكثر يعطيه لك جيم جونز ويضعه في داخل عينيك إن كنت لا تصدق.

ترك جيم الكنيسة التي يعمل بها وافتتح كنيسة خاصة به سماها أجنحة الشفاء Wings of Healing، وأصبح الناس يتوافدون إليها كما يتوافدون إلى الحج، المرأة العمياء تقوم مبصرة، الرجل الذي أهلكه السرطان يضع الواعظ الجليل يده على رأسه ويشفيه، ثم يرفع السرطان في يده أمام الناس ليروه بأم أعينهم كلحم ميت خبيث، فيتهارج الناس والنساء يبكين وينتحبن، أن قد نزل الروح القدس، ونزل المسيح من سحابته الجليلة ونظر إلينا بعين العطف.

لم يكتفِ جونز بالنجاح الباهر الذي حققه كخطيب، فالخطبة قد تؤثر في الأسماع ساعة ثم تطير مع ملاهي الحياة، بل نزل إلى الميدان وأعلن عن نفسه كمحارب للعنصرية التي يتم ارتكابها ضد السود والملونين في أمريكا.

كان يعرف القاعدة الأولى لكسب آذان أي شعب؛ اجلب المستضعفين من الناس وذكِّرهم كيف أنهم ذوو قيمة، لامس الوتر الذي يؤلمهم حتى يخرِجوا لك آهاتهم وينظروا إليك بامتنان، والمستضعفون يشكلون طبقة كبيرة في أي مجتمع تكون هي أساسه غالبًا.

ذات مرة تناقل الناس قصة الواعظ جيم جونز الذي دخل إلى المستشفى بعد نوبة أصيب بها، فتم وضعه في جناح السود بالخطأ وكان ذلك المستشفى من المستشفيات العنصرية في أمريكا، يفصل السود عن البيض، فأتت الممرضة إلى جونز تعتذر وتبلغه أنه سيتم نقله فورًا إلى جناح البيض، فهب جونز من كرسيه وألقى كلمات لو سمعها ميت القلب لانتفض حيًّا، كلمات طالت لها رقاب السود في الجناح وخفقت لها أعينهم. رفض جونز الانتقال وأصر على البقاء في هذا الجناح، وعندما خرج من المستشفى قاد حملة شرسة ضد المستشفى حتى أجبرهم أن يتحولوا إلى مستشفى غير عنصري لا يفصل البيض عن السود.

ثم أسس منظمات مجتمعية تباغت المطاعم والمؤسسات التي في البلدة وتختبرهم، فإذا اكتشف أن أحدهم يرفض تشغيل السود تكون فضيحة للمؤسسة لا بأس بها، وتزايد عدد المقبلين على كنيسته من الملونين حتى زاحموا البيض، وأنت إذا كسبت المستضعفين وأقررت أعينهم ستكسب أيضًا قلوبًا أخرى من الطبقة الأعلى التي تتعاطف مع المستضعفين، قد يكون لك

كارهون لكنهم من سود القلوب أصحاب المصالح وهم قليلون في المجتمع على الرغم من أنهم هم الطاغون.

وحتى لا يُقال إنه صاحب استعراض تبنى جونز خمسة أطفال ملونين، كل طفل بلون مختلف وعرق مختلف، وسمى عائلته الصغيرة هذه «عائلة قوس قزح»، ورباهم كما يربي ابنه ستيفان وابنته سوزان، وعلى الرغم من أن مارسلين كانت تعاني في حبها له في السابق، فإنه بعد أن أطلق خيوط خبراته التحكمية على المجتمع تخففت هي منها كثيرًا، ونقص الضغط الذي كان يمارسه عليها، فصارت له داعمة بكل شيء تقدر عليه، وعلى الرغم من أنها ممرضة بسيطة لا تحسن الكلام ولا الوعظ ولا هذه الأمور، فإن قلبها كان يسع ألف روح ثائرة مثل جيم جونز، فكان يستلقي في حضنها ليحتفل بما أنجزه وبما أسره من قلوب.

***

وآخرون لا تعنيهم المواعظ والعواطف كثيرًا، فإنها لا تسد جوعهم وفقرهم وهوانهم على الناس، وهؤلاء كثر لكنهم مختبئون، في مواضع لا تصل إليها الأعين الهانئة، مواضع ربما تراها غير صالحة للمعيشة الآدمية، لكنهم اتخذوها مساكن، وعدوها لهم موطنًا. من أجل هؤلاء بدأ جيم جونز يلعب لعبة زادت عدد المتأثرين به أضعافًا، طبق فكرة الحساء الشعبي والبقالة المجانية، كان يمكنك أن تأتي إلى الكنيسة وتأكل وتشرب وتأخذ حاجتك من الزيت والأرز واللحم وتنصرف، كان يعتمد على تمويل الممولين وهبات المحبين، وغيَّر اسم كنيسته إلى اسم سيتذكره العالم بعد ذلك؛ معبد الشعوب.

وبعد سنوات من الشعبية الجارفة أصبح معبد الشعوب ثلاثة معابد شعوب، وصعد جيم جونز من قلوب الناس إلى موائد الكبار، فإن حملاته ضد العنصرية لفتت أنظار السياسيين الكبار الذين رأوا فيه وسيلة رائعة لكسب الناخبين، وأي شخص أفضل منه ليجلب لك ناخبين ويخطب خطبة تمجد اسمك فتصعد على أكتاف البسطاء إلى ما تريد الصعود إليه. والتعاون مع الكبار كان بالنسبة إلى جونز استفادة مشتركة، فهذه الإمبراطورية من الحب تحتاج إلى أن يحميها أحد، فإن سياسيًّا واحدًا بنفوذه يمكن أن يجعلها هباء منثورًا والناس تنسى سريعًا.

أصبح جونز يصنع حول نفسه هالة من المهابة، فلم يكن يمشي إلا بحرس شخصي مسلح ونظارة شمس كبيرة يرتديها حتى في الليل ويروح ويجيء بملابس ذات زخرفات ملكية، فكما امتلكت القلوب يجب أن تملأ الأعين، فالناس تحب ذلك الفخم الثري المتواضع الذي يهب حياته لمساعدتهم، لكن جونز عمل معهم فجأة نظامًا عجيبًا، وكأنه كان يخبئه إلى حين.

جونز يعشق الاشتراكية، بل يمكن أن نقول بلا مبالغة: يعبد الاشتراكية، يرى فيها العدل والرسالة الحقيقية بعيدًا عن جميع رسالات الكنيسة وتعاليم المسيح أو أي دين آخر، لكنه لم يصرِّح بمذهبه هذا قط على العلن، بل كان يصرح به متنكرًا في رداء الدين ويُلبسه ملابس كنسية. في البداية جعل الهبات التي يتبرع بها الأعضاء إجبارية من أجل الله ولتحقيق بركة الروح القدس، وإن الذي كان يعطيك من تلقاء نفسه دون أن تطلب سيعطيك جميع نفسه إذا طلبت.

ثم جعل متبعيه يعيشون بطريقة اشتراكية دون أن يعلموا أنهم يفعلون ذلك، فيهبون أموالهم للكنيسة وأملاكهم للكنيسة، ثم توزع الكنيسة الأموال على مريدي الكنيسة بالتساوي، فلا يكون بينهم غني وفقير، بل يكون الجميع سواسية، وتفاعل الناس مع هذا الأمر غير عالمين أنه اشتراكية، وأن الناس التي تجهل الشيء سيتأثرون بالشيء مثل الذين تأثروا به أول مرة.

سمى مذهبه التشاركية الرسولية، وهي كلمة معناها اشتراكية لكنه لا يريد أن يلفظها فأصبح يدور حولها، واستمر في أداء الشفاء العلاجي المسرحي الذي كان يستعين فيه بممثلين يدَّعون أنهم مرضى ثم شُفوا، ويبكون في تمثيل متقن يوقع قلوب الناس ثم يقبضون من جونز كثيرًا، وبسبب هذه المسرحيات كانت قلوب الناس مهيأة تمامًا لاستقبال الكلمة التي سيلقيها عليهم جونز في خطبة خاصة لا ينساها أحد، خطبة كشفت عن الوجه الذي يختفي وراء كل هذا، وجه الشيطان.

قال في تلك الخطبة إن جوهر الله يمكنه أن يتجسد في واحد من مخلوقاته، وأنه هو جيم جونز أحد تجسدات الخالق، لهذا يقدر أن يشفي ويعيد البصر للأعمى، وعلى الرغم من هذا فإن هذا المعتقد كان يلقيه جونز فقط في خطاباته التي يحضرها أناس محدودون من أخلص أتباعه سماهم «لجنة التخطيط»، وجعلهم مسؤولين عن تجنيد المزيد من الناس لاتباع المذهب الجديد، ومسؤولين عن الإشراف على تطبيق المذهب على الأعضاء الحاليين.

دماغ جونز الذي سكب فيه أحدهم موهبة فهم عقلية الجموع كان يعرف أنه حتى تحافظ على أتباعك مخلصين لا بد أن تستثيرهم بشيء، تخلق لهم عدوًّا مشتركًا يخافون منه كلهم، وتتأكد أنهم جميعًا يعرفون هذا العدو ويعدون العدة من أجله ولا يتفرقون أبدًا عن بعضهم حتى لا يقضي عليهم، وهذا العدو بالطبع كان الرأسمالية التي عبَّر عنها جونز بأمريكا العنصرية التي ستحيل حياة الملونين إلى جحيم فيما سيأتي من السنين.

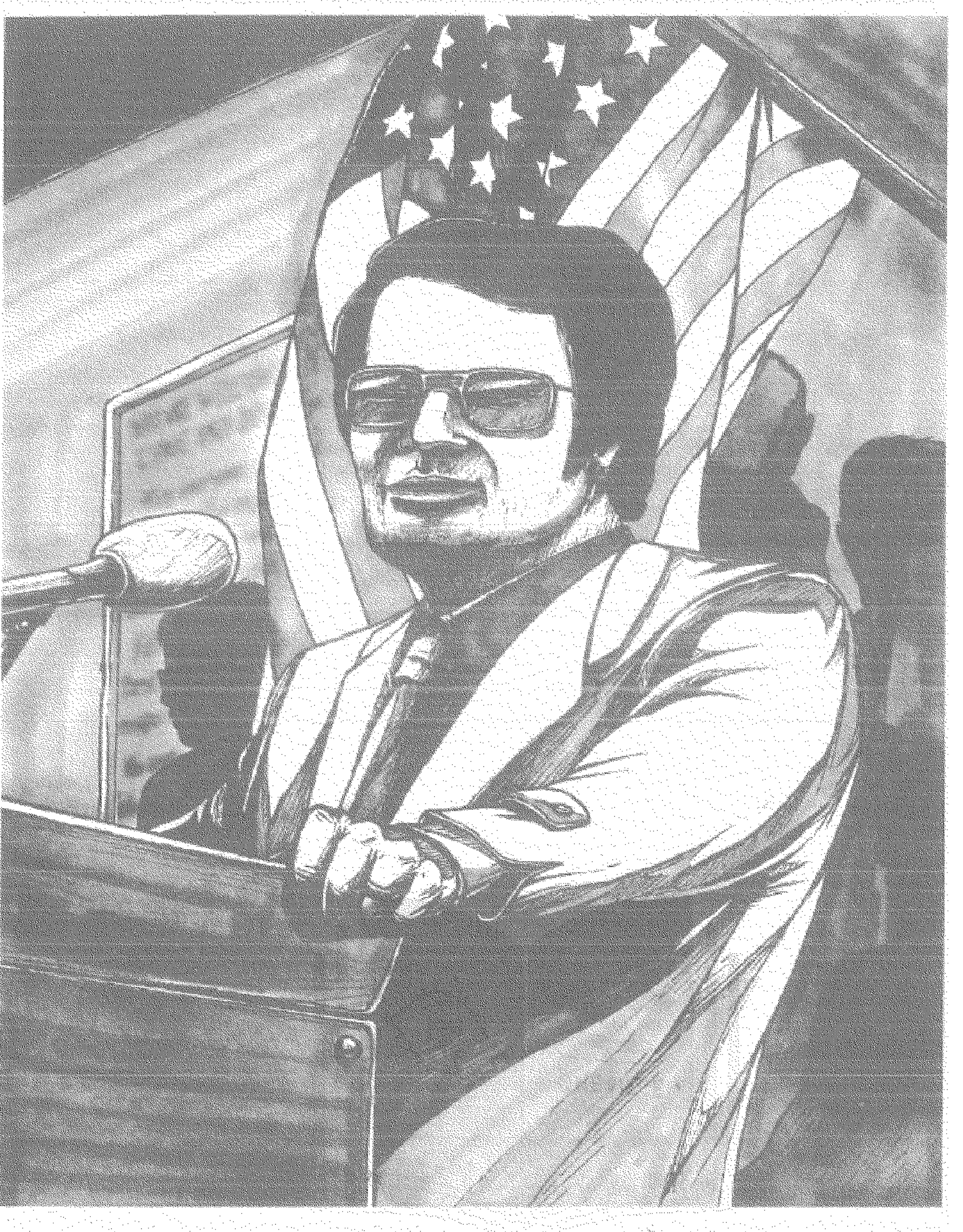
***

في أحد خطاباته الرنانة التي تذيب القلوب قام الشيطان ورمى الكتاب المقدس على الأرض وقال بصوت عال: «لا بد أن ندمر هذا المعبود الورقي»، والغريب أن الناس ضجوا بالهتاف تأييدًا له كأنه رمى الرجس، وإن الشيطان لا يصل إلى هذه المرحلة إلا إذا أذاب عقلك حتى تهتف بحماسة وأنت تشاهد من يرمي معتقداتك على الأرض.

كان جونز قد ألَّف كتابًا يهاجم فيه الكتاب المقدس نسخة الملك جيمز، ويقول إن الملك جيمز أصلًا كان لديه عبيد وأنه رأسمالي وهو الذي حرَّف الكتاب المقدس الحقيقي، والنسخة التي بين أيدينا هي نسخة كاذبة تسببت في خضوع المساكين لطواغيت الرأسمالية قرونًا. وأصبحت خطابات جونز موجهة في فترة كاملة ضد المسيحية التقليدية، وتدعو لاعتناق الديانة الجديدة التشاركية الرسولية التي جاء بها من عند الله الذي بعثه مسيحًا للأرض ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وزادت شعبية الشيطان حتى إنه ذات مرة حضر مناسبة مع سيدة أمريكا الأولى روزالين كارتر زوجة الرئيس جيمي كارتر، وحصل ظهوره على تصفيق وهتاف أكثر من ظهورها، لكن الشيطان الواعظ صحا ذات يوم على مصيبة لم تكن في الحسبان.

يقال إنك إذا أردت تقويض شيطان أطلق عليه شياطين مثله، ولقد وجد جونز نفسه محاطًا بشياطين الإعلام الذين لم يفكر يومًا في شراء ولائهم، وهذا أكبر خطأ يمكن أن يقع فيه إنسان يريد أن يحرك المجتمع أي حركة سواء إلى الظلام أو إلى النور، فخرجت فجأة ضد جونز مقالات صحفية متتالية ساخنة أحدثت ضجة كبيرة ألجمته في مكانه.



بدأت المقالات بداية عادية تتهمه بالدجل في العروض الشفائية المسرحية التي يقيمها كل حين وأنه يشتري ممثلين، ونُشرت في المقالات لقاءات مع أعضاء سابقين في معبد الشعوب وممثلين اعترفوا أن جونز يفعل كل هذا بالحيل، فعملوا مقابلة مع تلك المرأة ذات القدم المكسورة التي جعلها جونز تمشي، فقالت إن كل هذا كان عرضًا فقط. ومقابلة أخرى مع الرجل الذي عولج من السرطان وأخرج جونز منه لحمة ميتة ادعى أنها سرطانه، فقال الرجل إنه لم يكن به أي مرض أصلًا وأن الأمر كان مجرد خدمة للكنيسة.

ثم تصاعدت حدة المقالات بنشر مقابلات مع أعضاء منشقين من معبد الشعوب عددهم يقترب من العشرة اعترفوا لأول مرة بوجود ممارسات شاذة جدًّا تحدث وراء الكواليس، فجيم جونز يدعي أنه إله وأن نطفته تعادل في قوتها نطفة المسيح، وأنه بهذا المبدأ الذي أدخله إلى قلوب النساء من متبعيه كان يحصل على خدمات جنسية منهن، ولم تتوقف المقالات عند هذا الحد، بل ارتفعت حرارة الكلمات حتى قالوا عن جونز إنه خطف طفلًا من أطفال أحد تابعيه وادعى أنه ابنه، وأنه في الحقيقة يحتفظ بهذا الطفل في محرابه الخاص في الكنيسة ليقيم معه علاقات جنسية شاذة.

كان الشيطان يعرف تمامًا أنه إذا انطلقت في وجهك منصات الإعلام فهذا يعني أن الحكومة نفسها لا تريدك، وأنها تحرك عرائسها الصحفية بالخيوط من وراء الكواليس، فعمل جونز أول خطوة صحيحة في مواجهة هذه الأزمة؛ السكوت التام وعدم الرد ولا التعقيب ولا التبرئة، لأن البنزين إذا لم يجد نارًا فإنه سيبقى ملقى في الطريق ولن يشتعل، كذلك المقالات الصحفية إذا لم تجد ردًّا وهجومًا عليها فإنها تؤثر تأثيرًا محدودًا، أما إذا وجدت تفاعلًا منك فسترد على ردك وتصعد الأمر ثم تصعد أنت معهم حتى يسقطوك من فوق أعلى مكان صعدت إليه.

ثم أطلق جونز تابعيه لشراء كل نسخ الجرائد التي نشرت المقالات، ولم يكن هذا حلًّا جذريًّا، بل كان مؤقتًا لتجفيف بعض منابع وقود الشياطين، ثم تحرك جونز لتنفيذ الحل الجذري الذي سيعرفه به العالم وسيتحاكى عنه حتى هذه اللحظة.

فكر في الخروج، ليس من إنديانا، بل من أمريكا كلها، وليس الخروج وحده، بل الخروج مع أتباعه، مثل خروج بني إسرائيل من مصر إلى أرض جديدة تكون هي الفردوس الذي يعيشون فيه إلى الأبد.

وارتفع صوت جونز في خطاباته يتغنى بأرض الميعاد التي سنعيش فيها كلنا بسلام، ويفعل كل إنسان فيها ما يحب، دون عنصرية، ولا طبقية مجتمعية بغيضة، لنعيش في سلام نحن وأطفالنا، بعيدًا عن أمريكا العنصرية المجرمة التي يزيد فيها الفقراء فقرًا ويزيد الأغنياء غنى، أما هناك، في الفردوس، فلا أحد أفضل من أحد، الكل سواسية، والكل متحابون والكل إخوة.

وهذا ما حدث، فجأة غادر جيم جونز البلاد وسافر إلى دولة في أمريكا الجنوبية لا يعرف عنها أحد أي شيء، دولة اسمها جويانا، واختار مكانًا وسط غابات كثيفة لا يكاد يراه أحد، واشترى فيه أرضًا وبنى عليها مساكن، وخرجت وسط قرى العالم قرية جديدة من العدم اسمها جونزتاون، بلدة جونز، الفردوس الاشتراكي والحلم الرائع الذي سيهز أرجاء العالم بالصدمة بعد قليل.

ألف شخص تركوا ديارهم وأموالهم وأهاليهم وسافروا وراء الشيطان إلى أرض الميعاد، وهناك وجدوا كل ما وعدهم به حقًّا، أو هكذا ظنوا. كانت جونزتاون قرية تحيط بها أميال من الغابات فيها أكواخ كثيرة منتظمة وفي وسطها كوخ كبير واسع هو المبنى المركزي، وفيها عيادة ومدرسة وملعب كرة سلة ومسرح، الرجال يعيشون في أكواخ والنساء والأطفال في أكواخ أخرى، والمتزوجون في أكواخ ثالثة، والكوخ الواحد يعيش فيه 10 أشخاص ينامون على أسرَّة ثنائية الأدوار مثل أسرة السجون، وأكواخ المتزوجين تكون السرائر منفصلة عن بعضها بحاجز. الكل هنا يعملون من شروق الشمس إلى غروبها، ويأكلون ثلاث مرات في اليوم، وفي المساء يغنون ويرقصون وينظرون إلى السماء في رضا.

***

فجأة انتفض أحدهم في أمريكا، الرجل الذي سرق جونز ابنه الصغير وادعى أنه ابنه واتخذه دمية جنسية، كان اسمه تيموثي ستون، ومن بين كل العائلات التي غادرها أحبابها وهاجروا مع جونز قرر تيموثي أن يخوض حربًا شعواء لإعادة ولده، فمر على كل بيت هاجر منه فرد إلى أرض الجحيم التي صنعها جونز، وعمل جماعة سماها «الأقارب المعنيون»، فيها كل أقارب الضحايا، وجمعوا كل المستندات والاعترافات من أعضاء المعبد السابقين التي تدين جونز وتلقي به إلى السجن ألف سنة على الأقل، وأخذ تيموثي كل هذا وسافر إلى واشنطن وذهب بكل جرأة إلى الكونجرس الأمريكي حالفًا ألا يغادره إلا إذا تحركت الحكومة الأمريكية.

صنع تيموثي ضجة كبيرة في الكونجرس وتحمس لقضيته عضو كونجرس ذو قلب عطوف ووجه سمح اسمه ليو رايان، وقرر أن يشعل الدنيا في وجه جيم جونز.

قامت أمريكا ولم تقعد في تلك الليالي وضجت الصحافة والتلفزيون وأصبح الكل يصرخ ويطالب الحكومة الأمريكية أن تتحرك، وبالفعل أصدر الكونجرس أمرًا أن يسافر مجموعة من المحققين مع عضو الكونجرس ليو رايان ومعهم كثير من الأقارب المعنيين وكثير من الصحفيين والمصورين لاستطلاع الأوضاع في جونزتاون، البلدة المخفية وسط الغابات التي كانت في تلك الأيام تعيش أيامًا لم يسجل التاريخ مثلها حتى هذه اللحظة.

فهناك في قلب جونزتاون كان جونز يقوم خطيبًا كل حين كعادته، ولكنه هذه المرة كان يغسل الأدمغة ويسقيها بأفيون كلامي من نوع خاص، نوع قاتل، كان يصرخ فيهم ويذكّرهم:

- كيف كانت حياتكم في أمريكا أيها الملونون؟ كيف كان الناس ينظرون إليكم هناك من طرف أعينهم المتقززة من مناظركم! هل شاهدتم يومًا حياة كريمة كالتي تعيشونها هنا؟ هل شاهدتم قلبًا أحبكم مثلما أحببتكم؟ عطف عليكم وآمن بكم كما آمنت؟ إني رسول الله إليكم، أتيتكم بنفحة من الروح القدس، لتذكركم أنكم بشر محبوبون عند خالقكم، أما هذه الدولة التي لفظتكم فإنها ستقيم الدنيا ولا تقعدها

حتى يأتوا ويجروكم من شعوركم مجددًا إلى الساقية الدامية التي يدورون في فلكها هم وشعبهم العنصري، أفستذهبون معهم يا أحبابي؟ أفستصدقونهم يا شعبي؟

فيصرخون ويقولون لا وتنهمر أعينهم بالبكاء.

- ادعاءات خسيسة يلفظونها عني بألسنتهم القذرة، مثل الادعاءات التي لفظوها على المسيح وصلبوه، أفستجعلهم يصلبوننا يا أبناء المعبد؟

فتصرخ الجموع أن لا...

- سيأتون إلى هنا ببذلاتهم الأنيقة ووجوههم المزيفة ويسألونكم عما تشعرون، سيخبرونكم أن أمريكا الأم الرحيمة تهتم لشأنكم، تلك الأم التي أبادت الهنود الحمر ذات يوم ثم ادعت أنها بلد الحرية، الأم البشعة التي رأيتم الويل والسواد في أرجائها سنين حياتكم، أفتعلمون ماذا سنقول لهم؟ سنقول لهم اذهبوا إلى الجحيم.

ويضج الناس بالتصفيق...

- أنا أعرف أمريكا وألاعيبها القذرة، فعندما ينصرف أصحاب البذلات من هنا سيحركون جيشهم البغيض وسيهبط على رؤوسكم رجال من نوع آخر، رجال يمسكون السلاح في أيديهم ويقتلونكم أنتم وأطفالكم كما فعلوا في فيتنام.

وأنا اليوم سأخبركم ما الذي سنفعله إذا أتوا ليدمرونا ويكسروا شوكتنا، هل تعلمون ماذا سنفعل؟ سنجعل العالم أجمع يحكي سيرتنا، ليس كإرهابيين منشقين كما يخططون أن يكتبوا في جرائدهم بعد القبض علينا، بل كأبطال يتعلم منهم التاريخ كيف يصنع مجتمعًا فاضلًا بالحكم العادل، وبجعل الناس كلهم سواسية، وإلغاء التمييز المالي والعرقي، هذا هو الدين الحق وليس الدين الذي يصرخون به على المنابر.

هل تعلمون ماذا سنفعل إذا أتوا ليدمرونا؟ هل تعلمون كيف سنرد عليهم ضربتهم دون أسلحة ولا عنف؟ نحن لن نسمح لأحد أن يأخذ حياتنا بيده

القذرة ثم يكتب عنا أبشع الكلام، نحن الذين سنأخذ حياتنا بأنفسنا، نحن الذين سنقتل أنفسنا.

ويضج الناس بالهتاف وتغلي دماؤهم من الحماس.

هكذا تنوم ألف شخص مغناطيسيًّا وتجعلهم يهتفون باسمك وأنت تأمرهم أن يقتلوا أنفسهم، هل تعلمت؟ بل إن جونز كان يدربهم كيف يقتلون أنفسهم دون ألم، كان يعقد لهم تدريبات من نوع خاص، فإذا انتصف الليل شغَّل أجراسًا مثل تلك التي تُقرَع في الحروب وصاح في الميكروفونات بكلمة، ليل أبيض، ليل أبيض، فيقوم الناس من رقادهم ويتجهون إلى المنطقة المركزية حيث يرونه قائمًا على المنبرِ ليخطب فيهم ويقول:

- إذا حكمت الظروف علينا واضطررنا إلى قتل أنفسنا فإن هذا يجب أن يكون موتًا ثوريًّا، لأجل خلاص العالم، ولن يكون موتًا مؤلمًا أبدًا، بل نحن سنشرب هذا الشراب اللذيذ بنكهة التوت المخلوط بسم السيانيد، وسنموت ونحن نمسك بيد بعضنا بعضًا كما نحن الآن، سنموت أرقى موتة عرفها الإنسان، سنموت دون أن نشعر.

وكان الغافلون على الرغم من كل هذا، يهتفون.

وعلى الرغم من هذا الحماس الذي كان يعم الجميع، فإن مارسلين كانت قلقة على ابنها ستيفان الذي أنجبته من جيم جونز في بداية زواجهما وهو الآن في الثامنة عشرة من عمره، فعلى الرغم من أن ابنتها سوزان تركت جونز مؤخرًا لما عرفت أنه مختل شيطان، فإن ستيفان كان يعيش معهم في جونزتاون وكان يحب كرة السلة حتى جعله أبوه كابتن فريق السلة لجونزتاون، بل إنه رتب لفريقه أن يلعب مباريات رسمية مع فريق جورجتاون كخطوة أولى تمهد للاعتراف بجونزتاون كمدينة.

كان الفريق قد لعب عدة مباريات رسمية بالفعل، وستيفان يحضِّر نفسه هذه الأيام للعب مباراة نهائية حاسمة. جاءت مارسلين إلى ابنها ستيفان وقالت له أن يغادر المكان في أسرع وقت هو وجميع اللاعبين في فريق السلة بحجة أن يلعبوا المباراة، قالت له إن كل شخص على هذه الأرض سيموت،

وإني لا أريدك أن تموت يا ولدي، يجب أن تعيش، أنت ولدي. وعلى الرغم من معارضة جونز لمغادرة ولده وتركهم في هذه المرحلة، فإنه سمح له بالسفر مع فريق السلة ليلعب المباراة.

***

نزل عضو الكونجرس ليو رايان ومجموعته من المتحمسين إلى جونزتاون بعد رحلة مضنية في الغابات، رحلة تجعلك تفهم تمامًا أن الذين بداخل جونزتاون هذه لا يبدو أن لديهم رفاهية الخروج منها أصلًا. وجدوا أهل جونزتاون متجمعين في الكوخ المركزي يرقصون ويغنون كعادتهم، ووسط الغناء والعشاء والشرب كان رايان والمحققون الذين معه يجالسون الناس هنا وهناك ويسائلونهم عن كل شيء: هل تجدون هذا المكان سيئًا؟ هل يحتجزكم أحد ضد رغبتكم؟ هل يعذبكم أحد أو يعاملكم بشكل سيئ؟ وكانت الإجابات من كل الناس هي أن هذا المكان هو أفضل مكان حظينا بالعيش فيه أصلًا، بل إننا نريد أن نموت فيه.

سجل الصحفيون والمصورون لقاءات فيديو مع هذا الشعب السعيد، ولم يكن يصدق الصحفيون كيف يمكن أن يقول هؤلاء إنهم سعداء على الرغم من كل البلايا التي خرجت ضد جونز في أمريكا، غير عالِمِين أن جيم جونز هو ملك غسل الأدمغة، وأن جملتين في خطبة واحدة من خطبه تعادل شهرًا من مقالاتهم التي يحاولون غسل الأدمغة بها في اتجاه آخر.

كان جونز لديه حرس مسلحون وضعهم لحماية الأمن في جونزتاون وسماهم اللواء الأحمر، وكانوا ينتشرون في الحفل ومعهم أسلحتهم ينظرون إلى الناس بأعين تحمل أعتى نبرات التهديد أن يقولوا أي حرف قد يسيء لجونزتاون أمام أمريكا المجرمة، وعلى الرغم من أن كثيرًا من الشعب هنا كان مغسول الأدمغة، فإن البعض كان يشعر أنه محتجَز وأن جونز هو مجرد لسان كبير سيؤدي بهم جميعًا إلى الهاوية.

وبينما كان واحد من المحققين يمضي بين الجموع يسأل هذا وهذا إذ اصطدم به شخص صدفة بدت في ظاهرها أنها بالخطأ، فنظر المحقق ليرى

ذلك الشخص ينحني على الأرض ويلتقط ورقة ويعطيها للمحقق بطريقة موحية ويقول له:

- معذرة سيدي، لقد أسقطت هذه.

وابتسم ابتسامة خائفة وانصرف، فتح المحقق الورقة فوجد فيها: «أرجوكم أخرجوني من هنا، أنا وفتاتي مونيكا» التوقيع (فيرنون).

هرع الرجل إلى عضو الكونجرس رايان وأعطاه الورقة خلسة وأشار له خفية إلى الرجل الذي أعطاها له والذي يبدو أن اسمه فيرنون، اقترب رايان من فيرنون وسط الجموع ووقف بجواره وابتسم ابتسامة دبلوماسية كأنه يقول كلامًا مجاملًا لكنه كان يقول لفيرنون:

- هل أنت حقًّا تريد أن تذهب من هنا؟

قال له فيرنون وهو ينظر وكأنه يستمتع بالحفل:

- نعم بالطبع، أرجوكم أخرجوني أنا وفتاتي.

قال له رايان وهو ينظر إلى الأرض:

- ستكونان معنا في الطائرة التي ستغادر في الصباح.

قال الفتى بخوف:

- لا يمكننا أن ننتظر إلى الصباح، أنت لا تشعر أنك هنا في خطر عظيم، هذا المكان... إنه جحيم.

وعلى الرغم من كلماته الخائفة فإن الليلة انقضت بسلام وطلع الصباح على جونزتاون ومارسلين تمشي في جولة أخيرة مع بعض المحققين لتشرح لهم مميزات جونزتاون، وخصوصًا العيادة والحضانة والمدرسة، كانت تتكلم بفخر عن أن الأولاد هنا يختلفون عن بقية الأولاد، فحتى المناهج هنا متطورة، ثم رأت جونز يمشي مع عضو الكونجرس رايان وعلى وجهه تجهم تعرفه جيدًا، كان رايان يقول لجونز في هذه الأثناء:

- إن هناك 15 شخصًا من عشيرتك أفادوا أنهم يريدون المغادرة معنا يا جونز، كيف تشعر حيال هذا الأمر؟

قال له جونز بصوته القوي:

- دعهم يذهبون، هم لن يجدوا طريقة للعيش أفضل من جونزتاون، هل ترى هذا الشخص هناك يا سيد رايان؟

نظر رايان فوجده يشير إلى فيرنون، الشخص الذي مرر له الورقة، قال جونز:

- إن فيرنون هذا جاءنا هو وابنه الصغير ليعيش معنا في جونزتاون، ولقد طلب منك اليوم أن يغادر المكان هو وحبيبته، ولكن ما لا تعلمه أن فيرنون هذا فضَّل أن يترك ابنه هنا معنا، هل تعلم لماذا ترك ابنه؟

نظر إليه رايان بتساؤل حقيقي فقال جونز:

- لأنه يعلم أن حياة ابنه ستكون جحيمًا في أمريكا، فإن أمامكم كثيرًا من الوقت حتى يتعلم الناس هناك نبذ العنصرية، وطفل ملون مثل هذا لن تكون له فرصة ليعيش بكرامة.

وضع رايان يده على كتف جونز وقال:

- إني أشعر بالحزن ينبعث من كلامك يا جونز، لماذا تحزن؟ لقد غادرك فقط 15 شخصًا من أصل ألف شخص، أنا سأعود إلى الكونجرس وأخبرهم أن الستين شخصًا الذين سموا أنفسهم الأقارب المعنيين قد جاؤوا إلى هنا معي ولم يرجع معهم أحد من ذويهم، ولا حتى واحد، وسأخبرهم أن كل شيء في جونزتاون بخير، وأنك شخص خيِّر يا جيم جونز.

وانصرف ليو رايان مع فريقه ومعه خمسة عشر شخصًا نفدوا بجلدهم، خمسة عشر إنسانًا صحا دماغه من بين ألف إنسان.

***

وقف جونز على ذلك المنبر ليسكب المزيد من الشراب المسكر في أسماع الغافلين، قال لهم:

- ها قد جاءت الحكومة وانصرفت، وأخذوا من أبنائنا خمسة عشر إنسانًا، أتدرون ما الذي سيفعلونه معهم هناك؟ سيحاكمونهم ويرمونهم في

السجون الأمريكية حتى يتعفنوا، وما هي إلا أيام وستجدون هذه السماء قد هبط منها جنود لن تقدروا على إحصاء عددهم، وسيطلقون علينا النار كأنهم يعدمون مجموعة من الخنازير، وسيقولون لشعبهم العظيم إنهم أتوا ليحررونا فوجدونا إرهابيين فاضطروا لقتلنا حفاظًا على سلامة العالم. أنتم أحب شيء عرفته في حياتي وأعظم شيء، هذه المقابلات التي سجلها الصحفيون معكم ستغزو العالم ليتعلموا كيف يمكن أن ينشئوا مدينة جميلة فاضلة ليس فيها نفاق وليس فيها أغنياء ملاعين ولا مجرمون، بل هو مجتمع جميل بسيط سعيد لا تحاقد فيه ولا تلاعن.

جاءه شخص وهمس في أذنه بشيء ما، فاعتدل ثم أكمل خطبته وتحول صوته إلى الحدة ليرفع درجة التأثير إلى أقصاها، قال لهم جونز:

- اليوم، في هذه اللحظة يا شعب جونزتاون، وبينما نحن نتحدث، وبينما يغادر وفد الكونجرس ويتهيؤون لركوب الطائرة إذ وقف أفراد اللواء الأحمر من أبنائنا المخلصين صفًّا وأطلقوا النار على الوفد هم ومن معهم من المنشقين وقتلوهم جميعًا بمن فيهم عضو الكونجرس المتعجرف، وإنهم ساقطون مضرجون في دمائهم عند أرجل الطائرة، أتدرون لم فعلنا هذا؟

صمت مشوب بأنفاس قلقة عم المكان، فقال جونز:

- حتى لا تفكروا مرتين، ولا يوسوس لكم ذلك الصوت في نفوسكم أن هناك بديلًا عن تلك النهاية التي اتفقنا عليها جميعًا، فبعد هذه المقتلة لوفد الكونجرس لن تُسقِط أمريكا علينا جنودًا من السماء، بل ستسقط قنابل، فنحن اليوم أصبحنا نعادي دولة كاملة، ولقد فعلت هذا لأنني أعلم علم اليقين أنه حتى ولو لم نكن قد قتلنا منهم أحدًا كانوا سيعطوننا نفس الميتة، لأننا -يا شعبي- الوحيدون في هذا العالم، بل في هذا التاريخ بأكمله، الوحيدون الذين وقفنا وقفة رجل واحد في وجه الرأسمالية المتوحشة التي تأكل كل شيء، وقفنا وتركنا ديارنا

وأبناءنا وأموالنا من أجل قضية واحدة نؤمن بها، ومجتمع واحد نؤمن به، مجتمع جونزتاون، ونحن سنعلِّم التاريخ درسًا لن ينساه.

اليوم يا جونزتاون هو يوم النهاية العظيمة الخالدة التي سنكتبها جميعًا، وستحلق أرواحنا بعدها ببركة الروح القدس وتدخل إلى ملكوت السماوات وأيدينا في يد بعضنا، وفي يد أطفالنا الذين سيموتون معنا، و...

صرخت مارسلين صرخة عندما سمعت الكلمة الأخيرة وحاولت أن تقول شيئًا، لكن الحرس كمموها بأيديهم وسحبوها سحبًا وألقوا بها في غرفة وأغلقوا الباب، فعلى الرغم من أنها كانت موافقة على الميتة الجماعية لكن ليس على الأطفال، لم تكن روحها قد تشوهت لحد أن تقتل الأطفال، وإن مشهد تقييد مارسلين ورميها بهذا الشكل أرسل رسالة لكل من يسمع الخطبة أن الميتة لو لم تكن بشراب التوت المسموم فإنها ستكون على أيدي هؤلاء الحرس، وكانت نقطة قوة للخطاب.

وجاءت براميل شراب التوت المخلوط بالسيانيد يحملها رجال جونز المخلصون ووضعوا البراميل حول الكوخ المركزي وبدأ الحفل.

كان يجب أن يموت الأطفال أولًا قبل الكبار، وتصاعد نحيب الأمهات وشهقاتهن وهن يوقفن أطفالهن طابورًا، والأطفال يتقافزون ويلعبون ظنًّا منهم أنها لعبة جديدة، وكان أحد الغافلين يضع الكوب في برميل الشراب ويعطيه للطفل الذي في أول الطابور ليشرب، ولما يشرب الطفل ويقفز فرحًا ويقول عن الشراب إنه لذيذ تأخذه إحدى الغافلات لترميه بعيدًا عن أعين بقية الأطفال وبعيدًا عن عين أمه التي تكون في حالة ترغب فيها في أن تشرب السم ألف مرة حتى لا تعيش لحظة واحدة إضافية حزنًا على ولدها.

ثلاثمائة طفل سكتت ابتسامتهم في ذلك اليوم وصعدت أرواحهم إلى بارئها الذي هو أرحم بها من جهالة آبائهم، ثم انتظم الرجال والنساء صفًّا صفًّا، ولو أن هذه لوحة سريالية لما نجح أحد في رسمها على الإطلاق. أجناس ملونة من جميع الأعراق يقفون بين غابات مجهولة وعددهم يقارب

الستمائة إنسان، يشربون شراب التوت السام ويتساقطون متكومين بعضهم على بعض بعد أن قتلوا أطفالهم.

ووسط هذه الطوابير كان الشيطان يخطب ورأسه إلى السماء، قال:

- إن الأنبياء من قبله جميعًا قالوا إنه لا يمكنك أن تأخذ حياتي مني فهي ملك لي، وإذا مددت إليَّ يدك لتنهي حياتي فسأنهيها أنا بنفسي خيرًا لي من أن أعطيها لك وأنت لا تملكها. لقد أتينا هنا واجتمعنا في هذا الجمع العظيم ونحن ننشد السلام، لم نأتِ هنا للحرب ولم نأتِ للعنف ولا الكراهية، بل أتينا هربًا من هذا كله، لكنهم لم يتركونا في حالنا، بل خانونا كما خانوا المسيح، وسنصعد اليوم كما صعد المسيح وسنقف أمام الرب مع أطفالنا، ضعوا أيديكم في أيدي من تحبون، وموتوا معًا، ولا تترددوا.

كان هناك من يرفض الشرب بالطبع، لكن هؤلاء كانت تنطلق في رؤوسهم طلقات تفجرها من الحرس، فيخاف البقية ويفضلون الموت بالسم على التفجير بالرأس، وإن الإنسان كان ظلومًا، وإنه كان جهولًا ولا يزال...

بدأت الأعداد تنقص في جونزتاون والجميع يسقط تباعًا وجونز يقول بصوت متهدج:

- لا تعتنوا بأي صراخ تسمعونه ولا بأي بكاء ونحيب، إن الموت أفضل مليون مرة من الحياة عشرة أيام في هذه الحياة التي يريدونها لنا، أنتم تعلمون ماذا ينتظرنا عندهم من مهالك، يجب أن تسعدوا بما أقدمتم عليه الآن، لا تسمحوا لأحد أن يأخذ حياتكم، إذا كنا لم نقدر على أن نعيش في سلام، فلنمت في سلام.

خرجت مارسلين من تلك الغرفة وهرعت إلى جونز لترى ما هو حاله، فوجدته واقعًا على الأرض فاغرًا فاه وفي رأسه حفرة دائرية من طلقة مسدس قريبة، ونظرت إلى الجموع من حولها، مئات متكوِّمين على الأرض، البعض تمكنوا من الهروب إلى الغابات، ولا صوت يُسمع في الجوار، الميكروفونات التي كانت تبث السموم سكتت فلم تعد بها حاجة، فالكل سقط مسمومًا.

وضعت مارسلين الكوب في البرميل وتجرعت مذاق التوت كما تجرعت دموعها، وسقطت على أرض جونزتاون آخر جثة من ألف جثة غافلة، وكتب الشيطان نهاية هذه القصة بخط يده ومهرها بتوقيعه.

صمت تنزَّل على ألسنة الجميع، دموع نزلت من أعين النساء وترقرقت في أعين الرجال، وعلى الرغم من أني سمعت عن الأمر من بعيد، فإن سماع الحكاية من شخص قريب من الطاغية يجعلك تفهم كل شيء، لكن هذه الحكاية أحدثت مشكلة، بل معضلة نفسية رأيتها في نظرات الجالسين الحائرة بين التعاطف مع جونز وكراهيته، ارتجفت من داخلي وأنا أرى تعابيرهم، البشر عاطفيون حقًا، يمكن أن تكسبهم باللسان، وأي شيء مثل اللسان، قالت المرأة الهندية من بين دموعها:

- أنا لا أصدق كيف يمكن لامرأة من البشر أن تقتل طفلها، وليس امرأة واحدة بل كثيرًا، أي جنون أصابهن؟! بل أي شيطان؟!

قالت سوزان:

- صدقيني يا سيدتي، أنا عشت في جونزتاون هذه وتعاملت مع هؤلاء الناس، وهم أكثر فئة يمكن أن تريها بساطة وطيبة وجمال ورضا عن الحياة، أنا أعدهم ضحايا.

لم أحتمل السكوت فقلت:

- عن أي طيبة تتحدثين؟ هؤلاء فجار مجرمون قتلة لأطفالهم وإنهم ليحترقون الآن في الجحيم إلى الأبد.

نظرت إلي سوزان والدموع تترقرق في عينيها وقالت:

- لا تحكم عليهم، أنت لم تعش معهم، هؤلاء كانوا مسالمين جدًّا لا يحدث بينهم حتى الشجار العادي، وكثير منهم قتلهم الحراس ولم ينتحروا.

تدخل شارلوتان لتغيير الموضوع وسألها:

- سيدة سوزان، أنتِ قلتِ إن أباكِ وُجد مقتولًا بطلقة في رأسه، هل هو انتحر أم قتله أحد؟

نظرت سوزان إلى الأرض في حزن وقالت:

- أبي لم يكن صالحًا بالمرة، بل كان جبانًا، كلما سمع اسم الحكومة يتغير وجهه ويتوتر، لو كانت لديه شجاعة الإقدام على الانتحار لشرب من التوت المسموم، فهي ميتة غير مؤلمة مقارنة بطلقة في الرأس، أرجح أن أبي أراد أن يهرب بعد كل هذا فقتله أحد حراسه.

تذكرت آية من كتاب الله حضرت في ذهني مع نهاية جملتها: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [سورة الأنفال، 48]

أكملت سوزان بحزن وهي تتذكر أمرًا:

- كان أبي يقول عني دومًا منذ أن تبناني من الملجأ «ابنتي الملعونة التي لا تصلح لشيء»، كنت أرجف من مجرد سماع صوته من آخر الرواق، ولما كبرت بقيت معهم قليلًا ثم تركتهم عندما وجدت أن الأمر فيه كذب ودجل، ضربني أبي وحاول منعي بالقوة عن المغادرة حتى اضطررت لاستخدام الحيلة.

قامت الهندية ووضعت يدها على رأس سوزان تهدّئها. نظرتُ تلقائيًّا إلى تلك الفتاة المحجبة التي معنا والتي لم نسمع صوتها ولا تعليقها على أي شيء ولا نراها إلا في حالة شرود حزين، كانت على حالها الشارد لكن عينيها بدتا شديدتي التأثر بحكاية سوزان، كان بجوارها رجل في الستينيات ذو شعر ناعم فضي، نظر إلى سوزان وقال:

- ما الذي رأيتِه هناك في جونزتاون وجعلك تهربين يا سيدتي؟ أليس من المفترض أن جيم جونز بنى فيها نظامًا اشتراكيًّا يكفل العدالة للجميع وأن الناس كانوا يعيشون سعداء هناك؟

جففت سوزان ما بقي من دموعها وقالت:

- نحن وجدنا الحراس في جونزتاون يوجهون أسلحتهم إلينا ويتعاملون بعنف شديد عند أي خطأ أو تكاسل في العمل، على الرغم من أن معظم

السكان من كبار السن والأطفال، ولم يكن أبي صادقًا حتى في أصل دعوته، سمعته مرة يتحدث إلى أحد المسؤولين من الحزب الشيوعي ويقول له إنه ملحد لا يعترف بدين، بينما كان يقول للناس إنه جوهر مبعوث من الله، وكان يعمل مصائب جنسية أخجل من الحديث عنها مع نساء جونزتاون وذلك الطفل الذي اختطفه من أمه، وهذا هو الجزء الذي جعلني أثور وأغادر المكان كله.

ثم تنهدت وقالت:

- في جونزتاون أنت معزول عن العالم الخارجي تمامًا، لا هواتف ولا تلفزيونات، الصحة والتعليم والطعام محدودون جدًّا، أحباب جونز من لجنة التخطيط وعائلته يحصلون على الوجبات الأفضل والرعاية الأكبر، لكن المشكلة الحقيقية كانت هي أبي نفسه، بدأ يظهر تعاطيه للمخدرات، حتى إن خطاباته بدأت تتحول إلى كثير من التلعثم والبطء والكلام غير المفهوم وغير المترابط، كأنك تسمع خطبة من شخص أبله، وأصبحت تصرفاته غريبة، فكان مثلًا يتبول في العلن وأصبحت صحته سيئة لدرجة أنه لم يعد قادرًا على المشي إلا بمساعدة.

طرق شارلوتان على الطاولة وقال:

- فليكن يا سادة، هذا ختام جلستنا، قلوبنا جميعًا معك يا سوزان ومع أهالي الضحايا الذين لا بد وأنهم أكثر الناس حزنًا.

تفرق الناس إلى حيثما تفرقوا ونزلتُ إلى الحديقة لأتنفس بعض الهواء النقي، قال لي طويبة بعتاب:

- يا شيخ، ما قلت هناك كان خطأ، هؤلاء مساكين مخدوعون، كيف تقول إنهم في النار يا شيخ؟

نظرت إليه بغضب وقلت:

- أتتحدث بحديثهم يا طويبة؟ هؤلاء كفرة كلهم في نار جهنم، ألم يقل ربك: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران].

قال لي بحدة:

- يبتغي يا شيخنا، يعني يطلب غير الإسلام دينًا، هؤلاء ما عرفوا إسلامًا حتى يطلبوا غيره، هؤلاء جهلة غرهم الشيطان، أنت لا تملك مفاتيح الجنة والنار يا شيخ.

قلت له ونفسي تتهيأ للغضب:

- أنا أقول ما قاله الله فقط ولا أزيد.

واستدرت مبتعدًا عنه ماشيًا بين تلك الأشجار.

تجاوزت الحديقة في مشيتي حتى أرى ما بعدها، وكان منظرًا غاية في الجمال، بركة كبيرة ذات مياه نقية تظهر في وسطها صورة القمر، وقفت عليها متفكرًا فيما سمعت، لست أدري متى يأتي دوري لأتحدث، إذا كانوا يرتبون الناس حسب تسجيلهم في الفندق فسأكون أنا الأخير.

- كيف ترى الرأسمالية يا قداسة الشيخ؟

عرفته من صوته ذي البحة القريبة من الحية، نظرت إلى جواري فوجدته يقف متطلعًا إلى مياه البركة في تأمل، قلت له بصدق:

- الرأسمالية نظام فاشل يجعل الأغنياء أكثر غنى والفقراء أشد فقرًا.

نظر إليَّ بعينيه الزرقاوين اللتين شعرت أنهما مضيئتان في الظلام وقال:

- والاشتراكية تعجبك؟

قلت له:

- نظام أفشل من الرأسمالية؛ يجعل الأغنياء يهربون من البلد لئلا يأخذ أحد أموالهم دون وجه حق.

اقترب مني ونظر إليَّ نظرة من الأسفل إلى الأعلى وهو يقول:

- وهل لديك أنت الحل؟

سقط قلبي وجلًا من طريقة نظرته، وتراجعت خطوة وقلت بتوتر:

- طبعًا، النظام الإسلامي؛ الزكاة وترك الربا.

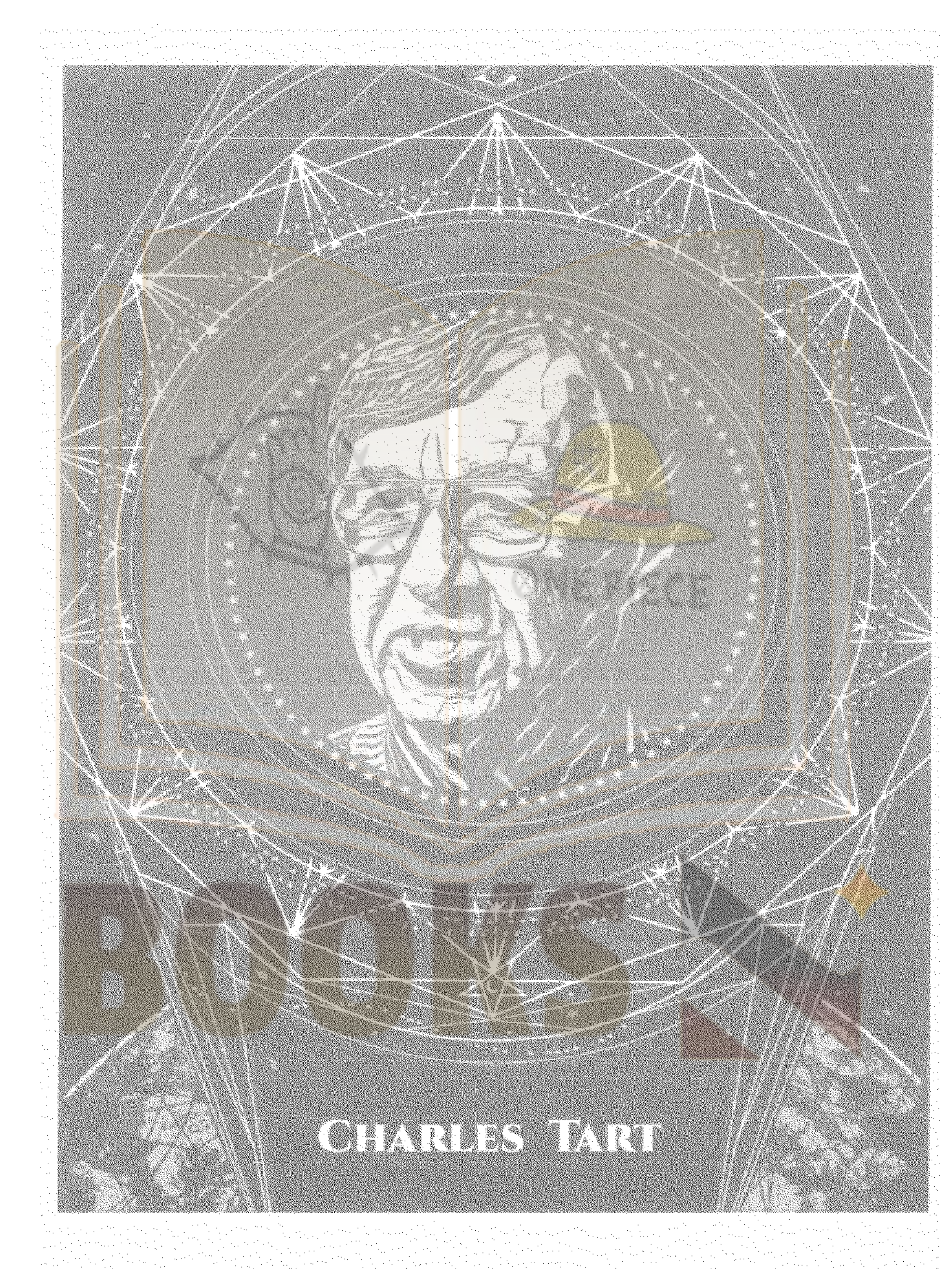
ثم استأذنت بقلق وانصرفت. أي نوع من النظرات هذا؟ الرجل يملك وجهًا عاديًا لكن نظراته تورث القلق في النفس، حتى طريقته في الحديث أحيانًا تشعر معها أنه شاذ وأحيانًا يكون جادًا وقويًا، نفضت عن نفسي التفكير به وذهبت لغرفتي لأقضي ما بقي من الليل.

في اليوم التالي تأخرت قليلًا عن حضور المؤتمر لاكتشافي أنه لديهم في هذا الفندق مكتبة، دخلت قاعة الاجتماع لأجدهم بانتظاري جميعًا ولم يبدؤوا. نظر إليَّ شارلوتان نظرة غاضبة فأحنيت رأسي اعتذارًا وألقيت نظرة سريعة على الجميع، كان كرسي سوزان فارغًا، قال لي شارلوتان:

- السيدة سوزان أيضًا غادرت المكان اليوم، ولقد كنت أقول لهم من يرِد أن ينصرف بعد أن يحكي قصته فلا مشكلة، لا حاجة إلى حضور المؤتمر لنهايته.

أومأت برأسي موافقًا، تنهد شارلوتان ونظر إلى ذلك الرجل الستيني ذي الشعر الفضي وقال:

- اليوم يومك يا سيد تارت، والقصة عن سر روحي عظيم تصبو إليه جميع النفوس؛ الإسقاط النجمي.


CHARLES TART

3

حكاية الإسقاط النجمي

يرويها: تشارلز تارت

«كنت أتساءل طوال تجاربي على الإسقاط النجمي، هل وصلت حقًّا للقدرة التي كان يمتلكها الأنبياء؟».

لحظات من الخدر اللذيذ تسلقت على ثنايا روحي بينما أرخي جسدي تمامًا على الكرسي المعدني في المستشفى وقدماي ممدودتان على الكرسي المقابل مستعدًّا لأسرق تلك الساعات الليلية من مناوبتي اليومية، ولا أدري ما حاجة هذا المستشفى بإدارته الغبية إلى طبيب نفسي مثلي يناوب بعد منتصف الليل! المشكلة أنني لست طبيبًا عاديًّا، بل قد تعديت مرتبة الدكتوراه إلى درجة البروفيسور والمفترض أن...

بدأ وعيي يذهب مع سلطان النوم فاستسلم جسدي وانفرجت شفتاي ثم انتفض جسدي كله حتى سقطت من الكرسي وأنا أسمع صوت إنذار يعم أرجاء المستشفى مع نور أحمر يومض فوق كل باب، وكان هذا لا يعني سوى مصيبة، كنت أترنح وأنا أنتعل حذائي بسرعة وأفتح الباب لأجد كل إنسان في المستشفى يتجه إلى مكان واحد بخطوات متعجلة، توجهت معهم تلقائيًّا، هناك زائر غريب قد سقط ميتًا فجأة من تلقاء نفسه في غرفة المريض العجوز السيد إيشيدا، كاميرات المراقبة أظهرت الزائر يقترب بحذر من سرير السيد إيشيدا النائم في غيبوبة، ثم تصلب الزائر محله وجحظت عيناه وخرجت الدماء من فمه وسقط على الأرض جثة هامدة بعينين يملؤهما الذعر، كأنهما قد رأتا شيطانًا رجيمًا.

ضرب مفتشو الشرطة كفًّا بكف، فالفحوص التي تمت على الزائر الميت كلها سليمة تمامًا وليس في جسده أي علة تؤدي إلى موته بهذه الطريقة التي لا تحدث في العالم الطبيعي أصلًا. لقطات الكاميرا التي أعادوها مئة مرة لم تظهِر شيئًا يتحرك في الغرفة سوى صدر السيد إيشيدا الذي يتنفس ببطء في غيبوبته الطويلة التي لم يفق منها لأكثر من سنة كاملة، وإيشيدا هذا ملياردير ياباني عجوز أمواله تكفي لشراء هذا المستشفى بمن عليه.

قُيدت القضية ضد مجهول ووُضعت في الملفات المنسية حتى مرت بضعة أيام وجاء لزيارة السيد إيشيدا رجلان يابانيان يدفعان أمامهما كرسيًّا متحركًا عليه امرأة يابانية عجوز. كنا ننظر إليهم في كاميرا المراقبة وهم يقفون بجوار سريره ويتحدثون مع بعضهم في شيء من الحدة، ثم ينصرفون من الغرفة، وفي أثناء نزولهم إلى بهو المستشفى للخروج تجمد الطاقم الطبي بأكمله وهم يشاهدون الرجلين يتوقفان عن دفع الكرسي ويسقطان وهما يهتزان في نوبات صرعية غير مفهومة، والمرأة العجوز التي على الكرسي يهبط رأسها على صدرها في مظهر ميت، وبالفعل تبين أن الثلاثة قد ماتوا في نفس الثانية، واشتعلت القضية حتى إنك لو نظرت إلى المستشفى في الساعات التالية ستظن أنه تم احتلاله من كثرة رجال الشرطة والتحقيقات.

جاء خبير ياباني نحيل لينظر إلى تسجيل الكاميرا ويصغي إلى ما كان يقوله الثلاثة باليابانية في أثناء حديثهم لبعضهم في حدة في غرفة العجوز، وكتب حديثهم على ورقة، ملخص الحديث أن تلك المرأة هي أخت السيد إيشيدا، وهذان الرجلان معها هما ابناها، والرجل الذي زاره وحده قبل أيام ومات هو أخوه الأكبر، والكل يتمنى موت إيشيدا ليرث أمواله بينما العجوز الثعلب حسب تعبيرهم يتمسك بالحياة بإصرار عجيب. ولما فرغ الخبير النحيل من كتابة الحديث رأينا عليه ارتجافة هو الآخر وجلس على الكرسي يستجمع نفسه، وكنت أنا أول من تكلم معه بصفتي طبيبًا نفسيًّا عتيدًا، فقال لي قولًا عجيبًا!

قال إنه سمع عن السيد إيشيدا من أحاديث الناس ولا يوجد سوى تفسير واحد لهذا الموات الذي نزل بكل من يزوره مؤخرًا. التراث الياباني يقول إنه عندما يكون هناك شخص ما يحمل ضغينة شديدة لشخص آخر فإن جزءًا من روحه يخرج من جسده ويجيء عند الشخص الآخر ويؤذيه، الجزء الذي يخرج من الروح ويؤذي الناس اسمه «آيكيرو» وهو معتقد يشبه الحسد، وقصة أبناء إيشيدا معروفة، فإخوته هؤلاء تآمروا ونجحوا في قتل ابنه الوحيد ليخلو لهم ميراث الثروة، ولقد ذكروا هذا في حديثهم أمامه في الغرفة، ويبدو أن روح الآيكيرو الخاصة بإيشيدا خرجت وقتلتهم جميعًا، فالأسطورة تقول إن

الآيكيرو تنشط في حالات المرض الشديد أو الإغماء، وهذا ينطبق على روح السيد إيشيدا.

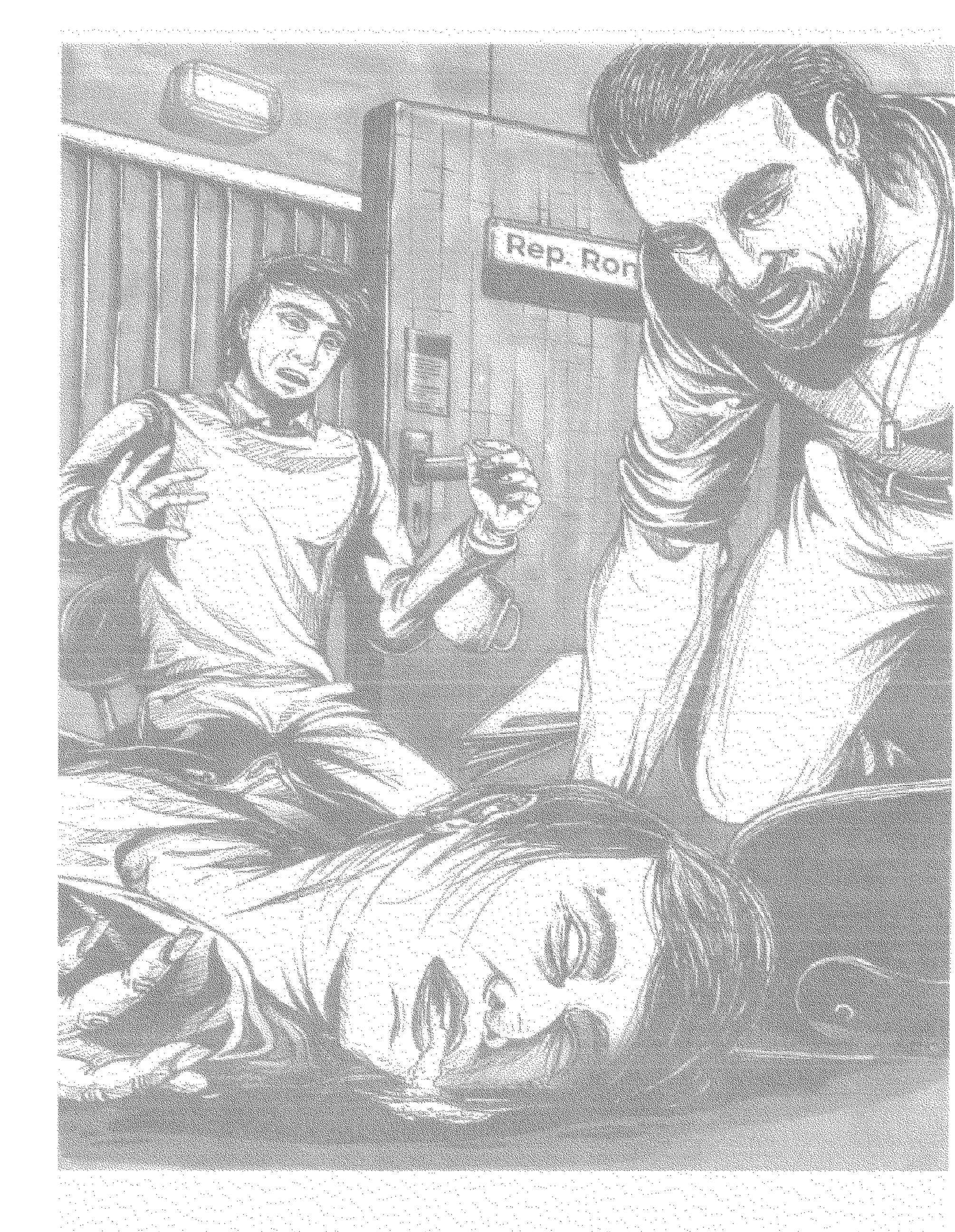
ربت المحققون على كتف الخبير الياباني النحيل بطريقة من يسمع كلامًا أحمق لكنه يتعاطف معك، ثم صرفوه ولم يكتبوا حرفًا في تقريرهم من الترهات التي تفوه بها حسب تعبيرهم، ومرة أخرى قُيدت القضية ضد مجهول ووُضعت في الملفات. لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد حدثت مشادة بيني وبين الممرضة الجميلة «زويا» التي كانت تضحك على كلام الآيكيرو هذا بينما أنا أجادلها أن الأمر يمكن أن يكون فيه شيء من الحقيقة، وفي النهاية قلت لها بوضوح وصرامة:

- إن كنتِ حقًا تؤمنين بسخافة الأمر كله لم لا تذهبين الآن إلى السيد إيشيدا وتقفين أمامه وتقولي بعض الكلمات الكارهة له والتي تتمنى موته لأنك تعبتِ من متابعته التي لا فائدة منها مثلًا؟

ولم توفر زويا وقتًا، فقد تركتني على الفور وانطلقت لتدخل إلى غرفة السيد إيشيدا النائم في سلام ونظرت إليه وقالت كلامًا سيئًا كثيرًا ثم استدارت بثقة العلماء وخرجت من الغرفة وجاءت إلى غرفة الكاميرات التي كنت فيها مع المراقبين وهم ينظرون بتوجس خائف، ثم اطمأنت قلوبهم مع دخول زويا إلى غرفة المراقبة وهي تمسك كوبًا من الشاي وترشفه في بطء وانتصار علمي.

جلست زويا معنا وثرثرت كثيرًا عن تسرب الأساطير إلى العقول العلمية والوعي الجمعي للبشر، ثم صمتت تمامًا وصمتنا بدورنا ونحن ننظر إلى عينيها اللتين بدأتا ترتجفان، ورقبتها التي أصبحت تتقلص من بعض أجزائها، ويدها التي تهتز في رعب، ثم انقلبت عيناها إلى اللون الأبيض الشبحي، وتشنج رأسها حتى قمنا من مواضعنا نلتصق بالجدار في هلع حتى خرجت من فم زويا رغوة بيضاء وانكبت على وجهها ميتة.

***


Rep. Ron

في حياة كل إنسان منا لقطة واحدة لا تعود الحياة بعدها كما كانت قبلها، لقطة واحدة تغير تفكيرك وربما معتقداتك كلها، وكانت لقطة زويا هذه هي لقطة حياتي، أذكر أن ذلك اليوم كان هو آخر عهد لي بذلك المستشفى وأي مستشفى آخر، وأنني جلست في منزلي طويلًا أتأمل النافذة في شرود بكل ما فيها من قطرات الندى التي تتكون ثم تتبخر، حتى قررت قرارًا ليس مثلي يتخذه عادة، قررت أن أعود إلى الدراسة، وأي دراسة يمكن أن يفكر فيها المرء بعد أن وصل لدرجة البروفيسور وأصبح راتبه الشهري يكفي عائلة كاملة لمدة سنة، تركت كل هذا وقررت البدء في دراسة شيء مختلف لم يهتم به شخص قبلي، لأنه في العلم المادي لا يوجد عالِم بكامل قواه العقلية يمكن أن يفرغ شيئًا من وقته لدراسة هذا الشيء الهلامي الذي يتناوله الناس في أحاديثهم وأديانهم ويتجاهله العلم كليًّا ولا يقبل حتى مجرد التفكير في وجوده، يسمونه ببساطة الروح.

الروح تتحدانا كعلماء، عندما يكون الجسد مسجى أمامنا وكل أجهزته الحيوية تعمل بكفاءة تامة وتندفع في خلاياه جميع السوائل الحيوية الممكنة للحياة، لكن الشخص ميت، سيقول لك كل كتاب طب على وجه الأرض إن هذا الشخص أو هذه الماكينة الحيوية لا بد أن تعمل، فكل شيء فيها ينبض وحالتها ممتازة، لكن شيئًا واحدًا يغيب في ثانية فينتهي كل شيء، شيء اسمه الروح، ولو اجتمع أطباء الأرض على أن يعيدوا إحياء هذا الجسد الذي ما زالت أجهزته تنبض فلن يقدروا منه على شيء، ولو تدخلت أجهزتهم لتحريك القلب لينبض صناعيًّا ثم بثوا في كيانه كل مستخلصات الطاقة الحيوية اللازمة لكل شيء، سيبقى الرجل ميتًا.

انقطعتُ لدراسة الروح متجاهلًا كل القواعد المادية التي يسير عليها العلم، فلتذهب نظريات المنظرين إلى الجحيم هم وأهواؤهم. ولقد استمرت دراستي هذه سنوات قرأت فيها كل شيء عن الأمر، ثم التحقت بمكان فيه علماء على شاكلتي اسمه مركز دراسة علم النفس الروحاني، وهو مركز يعاديه علماء المادة ويصفونه بمركز تضييع الوقت، وكانت دهشتهم كبيرة أن يأتي إليهم رجل بدرجتي العلمية فوضعوني على رأس المركز كله لأقود جميع التجارب التي تتم لاكتشاف الروح، وبرزت حملات من المجتمع العلمي

لإغلاق المركز حتى اضطررنا إلى تغيير اسمه إلى «جامعة صوفيا» وأصبحنا نقدم فيه دروسًا ومحاضرات إلى جانب التجارب.

وفي وسط المحاضرات التي كانت مجرد واجهة وهمية كنت أجري تجارب حقيقية لاكتشاف الروح، وبما أن المركز هو طبي في الأصل فكنا نستقبل فيه الحالات المنومة الميؤوس منها طبيًا. أجريت تجربة أولى مجنونة، تتبعت حالة عرفنا أنها ستموت اليوم بشكل مؤكد، فوضعت المريض على ميزان فائق الحساسية ووزنت جسده قبل أن يموت ثم وزنته بعد أن خرجت روحه، كنت آمل أن يكون وزنه بعد خروج الروح قد نقص ولو بمقدار واحد من الألف من الجرام، ولكن هذا لم يحدث وبقي وزن الرجل كما هو، كأن هذه الروح ليس لها وزن يمكن قياسه أصلًا.

تتبعت حالات أخرى في أثناء موتها وراقبت الغرفة بالأشعة فوق البنفسجية مرة لعلي أرصد خروج الروح فلم يظهر أي شيء، وراقبت خروج روح مريض آخر بالأشعة تحت الحمراء ولم أصل لشيء، ثم استخدمت المناظير الحرارية والمغناطيسية ولم أرصد اختلافًا أو حتى شبهة اختلاف، كأن هذه الروح ليست لها طبيعة يمكن أن تُرى بأي جهاز من أجهزة البشر، ثم برزت في ذهني فكرة أشد جنونًا، فوضعنا بعض الحيوانات في الغرفة التي تخرج فيها روح المريض، فلو كانت الأجهزة لا ترى فربما ترى الحيوانات الروح كما يُشاع، وراقبنا الحيوانات وسلوكها بكل طريقة ممكنة فلم نصل لشيء، لم يحدث أي اختلاف، وكان الإحباط يخيم على المركز بأكمله.

فطنت إلى أن كشف اللغز لا بد أن يكون بطريقة غير تقليدية وغير معتادة، فكرة من خارج الصندوق كما يقولون، وقد وجدتها ذات يوم. قررنا فتح المركز لاستقبال أولئك الذين يدَّعون أن لديهم تجربة تسمى تجربة الاقتراب من الموت، فبعد أن كانت الجرائد الصفراء هي التي تستقبلهم وتحدِث لهم ضجيجًا أصبح هناك مركز علمي يستقبلهم بل ويجري عليهم التجارب الجماعية العلمية لدراسة ما يقولون بعناية.

كنا ننظر في أقوالهم ونستخرج الشيء المتفَق عليه، فمن المستحيل أن تتفق مجموعة من البشر على رواية شيء واحد ويكون هراء في النهاية، وجدنا أن في أحاديثهم شيئًا مشتركًا يجمعون عليه بلا خلاف، إنهم في

قصصهم المختلفة عن اقترابهم من الموت يقولون إنهم يرون أنفسهم خارج أجسادهم شبه الميتة ويرون البيئة المحيطة بوضوح، وكثير منهم رأى نفسه خارج جسده واقفًا عند زاوية غرفة العمليات ينظر إلى الأطباء وهم يجاهدون لإحيائه بالصعق، بل إن البعض سمع إعلان الأطباء خبر موته، وسمع نواح أهله خارج الغرفة.

شيء آخر في غاية العجب اتفقوا على روايته، يقولون إنهم يرون أنفسهم يدخلون في نفق طويل في آخره نور، بعضهم يمر في النفق حتى نهايته وبعضهم لا يستطيع أن يكمله، ولو عددنا أن هناك جانبًا من الكذب الإنساني في هذه الحكايات، فلماذا يجمع الكل أنه نفق؟ لماذا لا يقول أحدهم إن هناك بابًا مثلًا أو نافذة؟ لماذا يصرون على النفق باختلاف أجناسهم وثقافاتهم وحالاتهم المادية وطبائعهم؟

بصفتي مسيحي فإني أظن أن هذا النفق الذي يراه الجميع هو الحبل الفضي المذكور في الكتاب المقدس الذي أوصانا بأن يتذكر الإنسان ربه قبل أن ينفصم حبل الفضة الذي يربط بين الروح والجسد، وإني أظن أن الروح في رحلتها خارج الجسد تدخل في هذا الحبل وتخرج من نهايته إلى وفاتها.

كنت أسجل كل هذا في بحث علمي عتيد مؤصل مفصل ولم أذكر بالطبع حرفًا عن حبل الفضة، لكني سجلت أقوال جميع الحالات والتطابق فيما بينها، والحقيقة أنني انتهيت من كل هذه البحوث ولم أصل لشيء أقدر أن ألمسه بين يدي، فكل هذه الحكايات من الذين اقتربوا من الموت إنما هي بالنسبة إلى العلم مجرد حكايات، ولا يوجد ما يرفعها إلى درجة الوثوق، لأنه لا يمكن اختبارها بالتجريب، وبهذا قررت أن أصعد بتجاربي إلى مستوى أعلى: الإسقاط النجمي.

***

هؤلاء الذين اقتربوا من الموت خرجت أرواحهم من أجسادهم رغمًا عنهم ونظروا إلى أجسادهم وإلى أهليهم، لكن هناك في هذا العالم بشرًا يستخرجون أرواحهم من أجسادهم بإرادتهم متى شاؤوا ويرجِعونها إلى أجسادهم متى شاؤوا، بل هم -كما يدَّعون- يتجولون بأرواحهم داخل منزلهم وخارجه كأنما حصلوا على قدرة الشياطين، يسمون قدرتهم هذه الإسقاط

النجمي، وإن مجرد موافقة مركزنا على طلب هذه النوعية من الناس لعمل الاختبارات عليهم وضعتنا في خانة أصحاب العلوم الزائفة، وشهدنا بأعيننا بعض المقالات الساخرة في بعض المجلات العلمية على تفاهة مركزنا ولم يؤثر هذا في عزمي درجة واحدة، بل أصبحت أكثر إصرارًا.

وبصراحة أقولها: العينات التي أصبحت تتوافد إلى المركز كانت تتسق تمامًا مع وصفنا بالمخبولين، فكنت تجد شبابًا يأتوننا من أولئك الذين يرتدون السواد والحلقان، ورجالًا من الذين يضعون الكحل، ونساءً من اللواتي يضعن المكياج الأسود، هل تعرف هذه النوعية؟ كنا نضع أيدينا على وجوهنا كثيرًا من سخافة ما نسمع من حكاياتهم عن قدراتهم اللامحدودة وعند التجربة العلمية يفشلون فشلًا ذريعًا. مشكلة هؤلاء أنهم يعتمدون في خداع الناس على الإيهام النفسي وبث رسائل إلى العقل الباطن للرجل البسيط الذي يعرضون عليه قدراتهم في الشارع أو على المسرح، أما عند مواجهتهم مع تجربة علمية وأجهزة قياس يتضح لك أنهم مجرد هراء بكل ضجيجهم وسواد مناظرهم.

لم أكن أول من خاطر من علماء الأرض وعمل تجارب علمية على مدعي الإسقاط النجمي، بل سبقتني بعض التجارب التي تعد على اليد الواحدة وكلها تجارب أثبتت كذب المدعين، أشهرها تجربة الكروت المخبأة، حيث استدعى العلماء فريقًا من هؤلاء الإسقاطيين النجميين ووضعوا لهم بطاقات في أماكن لا يصل إليها نظرهم وطلبوا منهم معرفة ماهية البطاقات وطبعًا فشلوا في معرفة الكروت، بل إن المجتمع العلمي لا يمكن أن ينسى ذلك الشخص الذي خرج ليدعي أمام العالم قدرته على الخروج من الجسد لدرجة أنه يقدر أن يزور الفضاء، فأتى به العلماء وطلبوا منه أن يصف كوكب المشتري الذي لم يكن قد عرف العلماء مواصفاته بعد، وبدأ الرجل يصف الكوكب ويقول أمورًا شديدة الدقة، ثم عندما كشف العلماء مواصفات الكوكب بالمسبار الفضائي اكتشفوا أن ثلاثة أرباع ما قاله الرجل عن الكوكب هي معلومات خاطئة، والربع الباقي معلومات صحيحة لكنه كان يمكن أن يصل إليها بالاستنتاج أو التوقع.

أكملت التجارب على الرغم من كل شيء، واستدعيت عينات أكثر وحدث ما كنت أرجوه؛ حصلت على تجارب ناجحة، ولأن الصدف في هذه التجارب

قد تلعب دورها فلا بد حتى تكون التجربة العلمية ناجحة أن تكون قابلة للتكرار، وبالفعل كررت التجارب الناجحة ونجحت مجددًا ومجددًا، حصلت على أشخاص يخبرون بدقة عن أشياء توجد في الطابق العلوي وهم لم يصعدوا يومًا إليه، ولقد وضعنا فيه أشياء غير معتادة لا يمكن الوصول إليها عن طريق الظن.

ركزت تجاربي على هؤلاء الناجحين وكررت الاختبارات بطرق مختلفة وبدأت بعض النتائج تكون مخيبة للآمال، لكن شخصية واحدة فقط من بين كل هؤلاء كانت تنجح في أي اختبار مهما كانت صعوبته، سيدة في الأربعينيات رفضت أن تعطينا اسمها، ولم توضح الأسباب مهما حاولنا، سميناها السيدة زد، ذلك لأننا وجدناها ترتدي سلسلة عليها حرف Z باللغة الإنجليزية.

كنت أستحلفها بكل غالٍ أن تخبرني بأي معلومة عن كيفية وصولها لهذه القدرة، فكانت تبتسم وتنظر إلى الأرض وتقول إن العالم لو عرف شيئًا عن هذه القدرة فإن كثيرًا من المشكلات ستحدث وسيستخدمها ضعاف النفوس، حاولت إقناعها بكل طريقة حتى قلت لها ذات يوم:

- سيدة زد، أتعلمين أن هذا الإسقاط النجمي لو استطعنا أن نثبت وجوده، سيكون هو الدليل العلمي الوحيد على وجود الروح؟ أنت ستسهمين في إيمان بشر كثيرين بالله الذي خلق الروح.

قالت لي بطريقتها التي فيها شيء من الحدة:

- لو أنهم يقرؤون الكتب المقدسة لعلموا أن المسيح كان يخبر الناس بما يدخرون في بيوتهم، وسيعلمون أن هذا الإسقاط النجمي حق، وأن هذه القدرة يهبها الله لمن يشاء من البشر.

لم تكن السيدة زد هذه مسيحية، بل كانت تضع حجابًا يشبه حجاب المسلمات، فهي مسلمة على الأرجح لكنها رفضت أن تدلي بأي شيء، لاحظت أن الإلحاح عليها يجعلها تخرج بعض المعلومات وسط الكلام، معلومات في غاية الأهمية يكاد يذوب المرء ذوبانًا في البحث حتى يجدها، فمثلًا وجدتها قالت ذات مرة:

- أعظم العقول وأعقدها كانوا يعملون هذا الإسقاط ويخرجون أرواحهم لتطفو فوق أجسادهم، ولقد أوصلهم هذا إلى أعظم الأفكار التي غيرت

البشرية، آينشتاين، وأديسون، وحتى الفنان غريب الأطوار العبقري سلفادور دالي.

كانت السيدة زد بخيلة جدًّا في المعلومات، ولقد كاد ينكسر ظهري وأنا أنحني على جميع الكتب التي سردت حياة آينشتاين وأديسون ودالي حتى وجدت ما كانت تتحدث عنه هذه السيدة حقًّا، هؤلاء الثلاثة كانوا يدخلون أنفسهم في حالة سموها اسمًا علميًّا غريبًا، هو Hypnagogia وهي حالة خارج الوعي وخارج النوم، وادعى ثلاثتهم كل على حدة أن هذه الحالة يحصل منها الإنسان على أعظم الأفكار العملية والفنية.

أديسون مثلًا كان ينام جالسًا على كرسي واضعًا دلوًا حديديًّا على حجره وقطعة معدنية فوق رأسه، فإذا سقطت القطعة المعدنية من رأسه وقعت في الدلو وأحدثت صوتًا أعاد له بعضًا من وعي عقله في أثناء النوم، ثم يستيقظ بعد نصف ساعة وهو قد وصل إلى هذه الحالة.

سلفادور دالي رسام الغرائب كان يدخل نفسه في حالة وسطية يسميها بارانويا يحصل بها على رؤى غريبة يستلهم منها لوحاته الغريبة، كان ينام واضعًا مفتاحًا في يده وتحته طبق، فإذا دخل في حالة من النوم العميق يقع المفتاح على الطبق فيستيقظ عقله وسط النوم.

هذه المعلومات على الرغم من أنها كاشفة وغريبة، فإنها لم تروِ العطش الذي تنامى بداخلي، ولقد اختبرتُ السيدة زد هذه اختبارًا يستحيل على من يتجاوزه أن يكون كذابًا بأي حال من الأحوال، جعلتها تنام وخبأت لها في السقف ورقة تحوي رقمًا طويلًا من عشر خانات، ولما استيقظت السيدة زد بعد نحو الساعة رددتْ الرقم المكتوب على الورقة بدقة متناهية. عندها انحنيت على قدميها أكاد أقبلهما لتخبرني بأي شيء يدلني فقالت لي قولة زادت حيرتي:

- لو عكفت ألف سنة على المكتوب لديكم في الكتب المادية لن تصل لشيء ذي قيمة، فالروح تختلف عن مادتكم، وإن أردت أن تبحث عنها فلا أحد في هذه الدنيا يعلم عن هذه القدرة العلم الحق إلا رجال من تنظيم سري صوفي يختفون وسط جبال التبت يسمون أنفسهم أخوية سارمونج.

***

بين قيظ الصحراء ووحشة الجبال كنت أسير تاركًا علوم الجامعات للبحث عن شيء كأنه الوهم، أمامي رجل أصلع من التبت يركب على جمل ويرتدي رداء أحمر، ولو أن شخصًا آخر غير السيدة زد تحدث عن تنظيمات سرية صوفية تختفي في الجبال وتملك علمًا مخبوءًا لرميته بحذائي، وهأنذا أركب على جملي وراء هذا التبتي العصبي قليل الكلام الذي يدعي أنه يعلم موضع الأخوية بالضبط، وأنه سيدلني عليه مقابل الكثير من الذهب، فهؤلاء القوم لا يعترفون بالنقود الورقية.

قصة عثوري على هذا الرجل التبتي ليست مهمة الآن، وربما أحكيها لاحقًا، لكن دعني أقول إن هؤلاء السارمونج ينتشر متبعوهم في أنحاء الأرض ولهم أسماء مختلفة غير السارمونج، وهم دومًا مسلمون ذوو مذهب صوفي شاذ عن بقية الصوفية المسلمين، وقبول أحدهم أن يدلك على مركز السارمونج مشروط بشيء في غاية الغرابة، هو أن تكون روحك نظيفة ولست خبيثًا، ولا تحاول التذاكي، فهيئة روحك ظاهرة لشيوخهم، لا أدري كيف يحددون هذا بالضبط لكن هذا ما يبدو أنني في الطريق لمعرفته.

تعلمت من الغوص في بحار الكتب الروحانية أن أشخاصًا قليلين في هذا العالم يقدرون على الخروج من أجسادهم لكنهم لن يخبروك بالطريقة، وكل الطرق المنتشرة في الكتب الصفراء جربتها ووجدتها هراء، طريقة أديسون وآينشتاين جربتها وهي تدخلك في حالة من الخدر النومي ترى فيها بعض الرؤى، هم كانوا يستفيدون من هذه الرؤى في خلق أفكار غير معتادة، لكن ما زال الأمر طورًا من أطوار الحلم، وليس هو ما أبحث عنه.

أفقت من أفكاري على مشهد الرجل وهو يتوقف بالجمل فجأة ويلتفت لي ويشير إلى مكان بين جبلين، نظرت إليه متسائلًا فلم ينطق واستدار بالجمل وانطلق عائدًا، هذا يعني أن هذا هو المكان، نزلت عن راحلتي وربطتها في نتوء بالجوار وقبل أن أتهيأ للتحرك خرج لي من بين الجبلين رجال يرتدون ثيابًا بيضاء وأغطية رأس بيضاء أصغر من العمائم، كانوا شبابًا تعلو وجوههم البسمة والترحاب، فذهب كل ما في نفسي من قلق وهواجس، والحق أقول إنني كنت قبل هذا المشهد رجلًا، وبعده رجلًا آخر تمامًا.

***

صَرح مُشيَّد بعناية وسط صخور الجبل، ليس مبهرجًا ملونًا كالقصور، من النظرة الأولى تعرف أنه ليس مبنيًّا ليعيش فيه شخص واحد بل لتعيش فيه جماعة. دخلنا إلى ساحة كبيرة وسط الصرح يتناثر فيها رجال يرتدون الأبيض وتتحدث كل مجموعة منهم معًا وبعضهم يحمل كتبًا، بدا كأنه جامعة، وهناك فتيات أيضًا يرتدين الأبيض الواسع والحجاب ويتحادثن في زاوية ما.

أخذني الرجلان إلى مكان مفروش بسجادة خضراء فاخرة وطلبا مني أن أخلع حذائي وأدخل، لم أكن قد دخلت مسجدًا في حياتي لكن كان يمكنني أن أعرف المسجد إذا رأيته، ربما رأيت واحدًا أو اثنين في الأفلام. بالداخل وجدت مجموعة من الشباب يجلسون متحلقين ويتلون نصًّا بصوت جماعي، ويمسكون في أيديهم كتيبات يقرؤون منها، ولاحظت أنهم يميلون جذعهم للأمام والوراء في أثناء التلاوة.

كانت هناك راحة نفسية غير مفهومة اجتاحت كياني منذ دخولي إلى هذا المكان، ربما السبب هو بساطة الناس وابتسامتهم، أو ربما هو اللون الأبيض الذي يرتدونه، لست أدري، لكنني وجدت المتحلقين للتلاوة ينهونها سريعًا ويقفون ناظرين إلى مكان واحد بلهفة، فنظرت إلى حيث ينظرون فرأيته لأول مرة، إمام هذا التنظيم بأكمله، كان يخلع نعليه ويدخل إلى المسجد والناس من الداخل والخارج يزدحمون حوله ويطمحون فقط إلى تقبيل يده.

كان الرجل أبيض الوجه شديد الجمال، وإني في حياتي الطويلة لم أر رجلًا بهذا الجمال الباهر، حتى في هوليوود، لكنه كان متواضعًا يسحب يده إذا حاول أحد تقبيلها ويبتسم للجميع، كان يسلم على الناس بطريقة فيها توقير لم أره من قبل، فإذا مد له أحدهم يده فهو يسلم عليه بطريقة عادية ثم بعد انتهاء السلام يقبل يده التي سلمت على الرجل.

كنت أتابعه بلهفة وهو ينظر إليَّ كل حين من بين أتباعه ويبتسم ويقترب مني وهو يحاول إنهاء السلام على الجميع بود، وعندما اقترب مني مددت له يدي فسلم علي ثم سحب يده وقبلها بتلك الطريقة التي تشعرك أنه فخور بالسلام عليك، هذا كان كفيلًا بإنهاء أي توتر بقي في نفسي من أي شيء.

أخذني الرجل إلى ما يشبه الشرفة أو التراس الذي يطل على مشهد بين الجبال والغروب الذي على وشك النزول، ونظر إليَّ باهتمام وتكلم، كان كلامه من الطراز القليل الذي يدل على الكثير، قال لي:

- أنت جئت من أقصى الأرض تبحث عن علم نخبئه، فما حاجتك به؟

قلت له بنفس قد هدأت:

- لا بد للعلم المادي أن يعترف بالروح، هذا أول طريق للمصالحة بين العلم والدين، لكن السيدة زد قالت إن هذا العلم الذي لديكم خطر وليس ينبغي أن يُعطى لأي أحد حتى لا يسيء أحد استخدامه.

تبسم الرجل وقال:

- هذا العلم لا يمكن أن تحققه إلا الأرواح الطيبة، مثل روحك، أما الخبيث فلا يقدر على مصالحة روحه، فضلًا عن أن يتحكم بها.

قلت له بشيء من اللهفة:

- وهل سأقدر أنا على عمل الإسقاط النجمي؟

نظر إلى الأرض بابتسامة العليم وقال:

- انسَ هذه المسميات كلها، وانسَ كل ما سمعته عن هذا أو قرأته في أي كتاب، فكل ما قيل عنه تحريف، أما أنت فستخرج من هنا وأنت تتقن ما تسميه الإسقاط النجمي كما تتقن التنفس، لعل هذا يفتح للعلماء الطبيعيين فتحًا يجعلهم يعرفون الكيانات النورانية كما يعرفون المادية.

***

سبعة أشهر كاملة وأنا في هذا المكان أتعلم حتى فهمت وأتقنت الإسقاط النجمي، وأصبحت قادرًا على أدائه كل يوم، بل إني استطعت أن أفعل ما كانت تفعله السيدة زد وأكثر. وعرفت السبب الذي يجعل العلم التطبيقي يتعذر عليه كشف أو اختبار الروح بأي طريقة، وذلك لأن الروح ليست مادة أصلًا، بل إن قواعدها تعلو على قواعد الزمان والمكان. ولقد أذن لي إمام السارمونج بأن أحدِّث بطريقة الإسقاط النجمي للعامة، وكان هذا الإذن ضروريًّا لأنه لم يكن بإمكاني إجراء التجارب العلمية عليها دون أن أصرِّح بها للعالم.

وسيكون ما يأتي من حديثي تعليمًا كاملًا لأداء الطريقة، وهي صالحة أن يؤديها أي شخص ذي روح طيبة.[1]

هذه الطريقة تغسل كل ما سبق أن قرأته من طرق وتوضح زيفها بأجمعها.

في البداية يجب أن تزيل كل شعور بالذنب في نفسك، لأن الشعور بالذنب يثقِل الروح عن السمو، وأقصد هنا الذنوب الروحية، أما الذنوب المادية كالجنس وغيره فسأتحدث عنها بعد قليل. الذنوب الروحية التي يجب أن تزيلها من نفسك هي مثل الكبر أو الغرور، إذا كنت تشعر بشيء منهما فتحلل وتواضع، وإذا كانت في نفسك ضغينة لأي شخص قريبًا كان أو بعيدًا فأزل هذه الضغينة من نفسك مباشرة وسامحه وتسامح، فإن الضغينة تثقِل الروح، وإذا كنت تؤذي شخصًا ما أو تظلمه فتوقف عن ذلك لأن هذا يورِث الذنب في العقل الباطن ويثقِل الروح، وإذا شعرت بنفسك أنك تحسد شخصًا ما فتوقف عن ذلك في الحال، فالحسد أخطر شيء يثقِل الروح، وأخيرًا الغضب، إذا أغضبك شيء فسيطر على نفسك وتمكن منها لأن الغضب يثير الروح ويجعلها غير مستقرة.

ستقرأ أو تسمع في الكتب أن الوصول للفتح الروحي يتطلب منك الانقطاع عن شهوات الجسد تمامًا حتى تسمو روحك، والحقيقة أن الانقطاع التام عن رغبات الجسد يولِّد في الجسد ألمًا، لأنه يطلب هذه الرغبات يوميًّا وانقطاعك عنها يجعلك في مجاهدة دائمة للجسد، وهذه المجاهدة تشغلك عن التفرغ للروح، والصحيح أنه يجب أن تؤدي رغبات جسدك كلها، ولكن فقط ما يكاد يكفيه وليس أكثر من ذلك مثقال ذرة، هذا مهم جدًّا، لأن الزيادة في تأدية رغبات الجسد تجعله يطلب المزيد بطمع ويشغلك عن التفرغ للروح.

أعظم شهوتين هما شهوة الأكل والجنس، والمطلوب هو الوصول للأداء الطبيعي الكافي فيهما حتى تسمو الروح وليس الانقطاع التام، لا تأكل أبدًا إلا عندما تشعر بالجوع، وإذا بدأت في الأكل يجب أن تشعل في داخلك حساسات دقيقة تجعلك تتوقف عن الأكل بالضبط عندما تشبع ولا تزِد لقمة واحدة.

---

(1) لا يُنصح بقراءة هذا الجزء لمن هم دون الـ 18 سنة

أما الجنس فإن كنت متزوجًا فلا تمارسه إلا إذا شعرت بالاحتياج، لا تفعله كل يوم ولا تنقطع عنه للقدر الذي يشعل الرغبة في جوانبك كل حين، ولا تفعله شراهة أو نهمًا أو جشعًا، وإذا كنت أعزب فلا تفعله بالزنا، لأن الزنا يورِث الذنب في القلب، ومجرد الشعور بالذنب يجعل روحك تهبط ولا تسمو. ولا تفعله بالاستمناء لأنه أيضًا يورِث الذنب في القلب، بل اجعل شهوتك تفرغ في وضعها الطبيعي في أثناء النوم بالاحتلام، وإذا كنت لا تحصل على الاحتلام عادة فسيكون هذا بسبب كثرة أدائك للاستمناء، فتوقف عنه تمامًا حتى تحصل على الاحتلام الذي سيتكرر بشكل طبيعي حسب رغبة الجسد دون تدخل منك. كذلك توقف عن النظر إلى النساء لأن ذلك يورِث الشهوة ويورِث الذنب.

ابتعد تمامًا عن الخمر أو أي شيء يسكِر العقل مثل الحشيش والمخدرات، لأن إسكار العقل يذهب بالوعي، وأنت في تجربة الإسقاط النجمي تحتاج إلى الوعي بشكل كامل.

عندما تفعل كل هذا يمكننا أن نقول إننا قد أزلنا كل شيء يمكن أن يثقل الروح، ويمكننا الانتقال للمرحلة التالية، وهي مرحلة ترقية الروح.

وحتى ترقي روحك ينبغي أن تتدرب على أداء القيلولة كل يوم، والقيلولة هذه هي غفوة لمدة ربع ساعة بالضبط تُحسب منذ أن تغفو وليس من لحظة رقودك على السرير. هذه القيلولة هي رياضة للروح، وهي التي كان يفعلها أديسون وآينشتاين ودالي ليحصلوا على الإلهام، فيجب أن تفعلها كل يوم.

أما النوم العادي فيجب أن تجعله في الليل وليس في النهار أبدًا، ويجب ألا تزيد مدة نومك على ست ساعات بأي حال من الأحوال.

بعد أن تعتاد الغفوة اليومية، تدرب على الانقطاع للتأمل في الليل، يمكن أن يكون الانقطاع في غرفتك، ولا تفعل أي شيء في أثناء التأمل، لا تقرأ ولا تفتح الهاتف الجوال ولا تكلم أحدًا، فقط اترك لعقلك العنان للتفكير، ولا تجبر عقلك على التفكير في أمر معين مثل الكون أو غيره، فقط اجعل عقلك حرًّا يفكر فيما يريد أن يفكر فيه، ولا تزِد مدة التأمل على نصف ساعة ولا تقللها عن ربع ساعة يوميًّا.

الغفوة والتأمل اليومي ضروريان حتى تجعل الروح تتدرب على السمو إلى درجة أولى ضرورية حتى تؤدي الإسقاط النجمي.

***

بعد أن تسمو روحك في الخطوات السابقة يجب أن تسمو علاقتك بأحلامك، لأن الأحلام هي المدخل الوحيد للإسقاط النجمي، ولا يوجد مدخل آخر للكشف الروحي إلا من خلالها، كل الناس تحلم كل يوم، ولو استيقظت وظننت أنك لم تحلم بشيء فإنما أنت نسيت ما حلمت به، هذه قاعدة علمية مثبَتة، بل إنه حتى الحيوانات تحلم، وأول خطوة لدينا هنا هي أن تتعلم أن تتذكر الأحلام التي تحلمها بتفاصيلها.

فور أن تستيقظ ستكون لديك ذاكرة قصيرة للحلم الذي حلمت به للتو، وسرعان ما ستختفي هذه الذاكرة بعد دقائق من استيقاظك وستنسى كل شيء، ركِّز جيدًا على هذه الذاكرة القصيرة واكتب ما تذكره مباشرة قبل أن يذهب طي النسيان، وإذا استيقظت مؤقتًا في منتصف الليل اكتب سريعًا بعض الكلمات المفتاحية عما حلمت به لتوك، ثم عد إلى النوم. ستفعل هذا لمدة شهر على الأقل، وفي نهايته ستجد تذكرك للأحلام قد أصبح أقوى، بهذه الحيلة البسيطة سنكون قد طورنا صلة من نوع ما بين الحلم والوعي، فبعد أن كان الوعي ينسى الأحلام أصبح يعرفها، وهذا أول اتصال مهم بين العالمين؛ عالم الوعي وعالم الحلم.

بعد أن تصبح عندك أحلام شهر كامل مكتوبة، ارجع وادرسها جيدًا، ستلاحظ شيئًا غريبًا، في أثناء حلمك بهذه الأشياء كنت تتقبلها على أنها أمور طبيعية مهما كانت غريبة، فإذا رأيت في الحلم مثلًا سيارة حديثة تجرها ثمانية خيول خضراء وتمضي في الشارع، فعلى الرغم من أن هذا المنظر غريب جدًّا، فإنك في الحلم سترى هذا المنظر في لحظة ثم تمضي إلى بقية الحلم كأنه شيء عادي جدًّا، بينما لو رأيته في الحقيقة طبعًا ستتوقف وتلاحظه وتفكر في أن هذا عرض دعائي مثلًا وربما تضحك وتصوِّره. فلماذا أنت في الحلم لا تهتم به كثيرًا ولا تتعجب أصلًا؟

الحق أن هناك شيئًا في حياتك الحلمية يجعلك لا ترتجف ولا تتعجب مهما كانت غرابة الأمر الذي تشاهده، هذا الشيء ببساطة هو غياب الوعي الذي

يجعلك تفكر في الأشياء وتتعجب منها أو تتفاعل معها. في الحلم أنت مجرد قطة مسلوبة الإرادة موضوعة أمام شاشة سينما، وهي تشاهد كل شيء ولا تبدي أي انفعالات، ثم تغادر القاعة وقد نسيت كل شيء.

أما الآن فقدرتك التي طوَّرتها في الشهر الماضي على تذكر الأحلام جعلت هناك جسرًا مبدئيًّا بين الوعي والحلم، فالقطة لم تعد تغادر قاعة السينما ناسية كل شيء، بل متذكرة كل شيء.

الحيلة التالية التي سنعملها هي حيلة الوعي بالحلم، أن تعرف في أثناء الحلم أنك تحلم، ستلاحظ أن هذا الأمر يحدث بشكل طبيعي معك في بعض الأيام، لا بد أنك تذكر مرة أو مرتين أنك رأيت حلمًا معينًا وفي أثنائه كنت واعيًا أنه مجرد حلم، هذه اللحظات ثمينة جدًّا يا صديقي، فهي لحظات من الوعي داخل الحلم، وهي التي ستتدرب على عملها في هذه المرحلة.

الحيلة كالتالي: كلما استيقظت في منتصف الليل أو حتى في نهاية النوم، حاول أن تعود إلى الحلم مرة أخرى، بالطبع أنت حاولت فعل هذا عدة مرات في حياتك ونجحت، ولكنك لم تفهم ساعتها أن هذه هي أول مرحلة من مراحل الإسقاط النجمي.

إذا وعيت أنك تحلم في كل حلم تراه فقد نقلت جزءًا من الوعي إلى داخل الحلم، ولن تعود قطة مسلوبة الإرادة تشاهد فيلمًا على الشاشة، بل ستتحول هذه القطة إلى إنسان يعرف أنه يشاهد فيلمًا غير حقيقي، إنسان يعرف أنه يحلم.

حتى تتقن هذا عليك أن توقظ نفسك كل يوم بالمنبه في منتصف أعماق النوم، وأن يكون هذا الاستيقاظ قصيرًا لا يتجاوز نصف دقيقة، ثم عد إلى النوم عازمًا على العودة إلى الحلم، اضبط المنبه ليوقظك ثلاث مرات في أثناء النوم تحاول في كل مرة منها أن تعود للحلم، وهكذا كل يوم، مع الوقت ستتطور لديك القدرة على فعل هذا.

ثم عليك أن تجعل الأمر أصعب قليلًا، في كل مرة من الثلاث مرات التي توقظ نفسك فيها في منتصف النوم، عليك أن تجعل مدة الاستيقاظ تزيد على الدقيقتين، ثم عد مرة أخرى إلى الحلم، هذا سيحل عقد النوم ويخرجك من الحالة النومية وستكون العودة للحلم أصعب، لكنه تدريب مهم، فإذا استطعت

أن تعود إلى الحلم بعد دقيقة من الاستيقاظ سيمكنك أن تعود للحلم بعد دقيقتين من الاستيقاظ، ولا أظن أنك ستصل إلى هذه المرحلة إلا بعد شهرين من التمرين اليومي.

فإذا فعلتها فقد تعلمت أن تخلق وعيًا بداخل الحلم، والخطوة التالية هي أن تتعلم كيف تستخدم هذا الوعي.

***

عندما يكون لديك وعي داخل الحلم بأنك تحلم، فعندما ترى سيارة حديثة تجرها خيول خضراء سيبدأ عقلك بالتفكير داخل الحلم والتعليق على هذا الحدث والتعجب، ومعنى التعجب هو أن لديك وعيًا. ستلاحظ في البداية أنه كلما تعجبت في أثناء الحلم فإنك ستستيقظ، عندها يجب عليك في الأيام القادمة أن تتدرب كيف تتعجب ولا تستيقظ.

بعد أن تتحول إلى شخص واعٍ يشاهد شاشة سينما ويتعجب ولا يستيقظ، فحان الوقت ألا تكتفي بالمشاهدة بل تتحرك، حان الوقت لأن يقوم هذا الشخص الذي يشاهد الشاشة ويدخل إلى الشاشة بنفسه.

حاول ألا تركز على المشاهد التي يريها لك الحلم، بل انظر يمينًا أو شمالًا لترى باقي المنظر الذي وضعك الحلم فيه. الأمر مثل أن تشاهد شخصًا يلعب لعبة فيديو جيم وأنت مجبر على أن تشاهد تحكُّمه هو بالشخصية، ثم تأخذ أنت يد التحكم منه وتبدأ في النظر يمينًا وشمالًا لترى بيئة اللعبة من حولك.

لا تتحرك وتحاول التجول أبدًا في هذه المرحلة، فقط ركز في النظر إلى البيئة من حولك وأنت في مكانك، كأنك في دولة غريبة أو في أرض غريبة، ثم ابدأ النظر إلى نفسك، إلى يديك وقدميك وملابسك، فقط انظر إليهم وتفحصهم.

أنت الآن في بداية الإسقاط النجمي، وإذا أردت يمكنك أن تنظر إلى الحبل الفضي الذي يربط نفسك بنفسك الأخرى في الحلم، وهو خيط غير مادي ولكنه مثل طيف من الوعي، وإذا كنت لا تراه فإن عليك أن تتخيله حتى تقدر أن تراه.

قبل أن تبدأ التجول في هذا العالم الحلمي لا بد أن تنقل إليه حواسك الخمس لتكون مجهزًا بها. البصر واللمس هما أسهل حاستين في نقلهما، لأنهما ينتقلان بشكل تلقائي للعالم الحلمي، لكن السمع يجب أن تعمل عليه، حاول أن تصغي بأذنك وأنت واقف في مكانك وتسمع أي صوت من أي شيء في المنظر يمكن أن يحدِث صوتًا، كسيارة تمر أو أناس يتكلمون.

إذا نجحت في نقل حاسة السمع فتنبه جيدًا، فإنك ستسمع أصواتًا غريبة لم تعتد سماعها، أنواع مختلفة من الضجيج تتراوح بين العادية إلى الأصوات الانفجارية، وربما تسمع أصوات حيوانات أو أصوات أشخاص ينادون بأسماء قد يكون فيها اسمك. ومهما كنت مستعدًّا لهذا الأمر فإنك ستخاف، وقد تشعر أنك في عالم شيطاني، هذا طبيعي جدًّا، فهذا العالم الحلمي مليء بالأصوات، ومع الوقت ستصبح هذه الأصوات أقل حدة، ولو كان اسمك ينادى فستعتاده وستسمعه ينادى بشكل ألطف. مع الوقت لن تلقي بالًا للأصوات وستتحول إلى همسات في الخلفية في جميع رحلاتك القادمة.

اعمل على نقل حاسة الشم والتذوق بنفس الطريقة، حاول أن تشم أي شيء يمكن أن تصدر منه رائحة أو تتذوق أي شيء يمكن أن يكون له مذاق، وتذكر أنك في عالم غريب تمامًا عليك ولا تعرف قواعده، فلا بد أن تتعلم هذه القواعد أولًا مثلما تعلمت قواعد عالمنا هذا في طفولتك وأنت لا تذكر أنك تعلمتها.

قبل أن تبدأ في التحرك بجسدك والتجول في العالم الحلمي عليك أن تختبر المادة النجمية التي صُنع منها هذا العالم الغريب، ستجد أن هناك آلاف الذرات النورانية تكون كل شيء، وإذا ركزت في هذه الذرات النورانية ستجد أنها تتحرك حركة نبضية خفيفة لكنها ملحوظة.

لا تتعجل التجول، أريدك أن تبقى أسبوعًا كاملًا تراقب فيه العالم وتفاصيله من مكانك وتتأكد أن كل حواسك تعمل، ستلاحظ أن الحلم يعرض مشهدًا مثلًا وأنت في داخل هذا المشهد لكنك تغض النظر عنه وتنظر حولك في تفاصيل البيئة كأنك أنت الذي معك الكاميرا وتحركها لاستكشاف المكان.

والآن ابدأ بالتجول، حاول أن تخرج من الغرفة التي يظهرها لك الحلم إلى الغرفة المجاورة لها، ستلاحظ أن هناك بعض المناظر تتكون في أثناء نظرك

إليها، وكأن الأمر مثل لعبة فيديو جيم تلعبها على الإنترنت، ثم تأتي مرحلة يكون الاتصال فيها بطيئًا، فتلاحظ أن النقاط المكونة للبيئة تتكون في أثناء تحركك في اللعبة.

تذكر أن هناك إدمانًا سيحدث بعد أن تفعلها أول مرة، الإسقاط النجمي إدمان، وها أنا قد حذرتك، لكن عمومًا دعني أخبرك أن هناك مستويات من الإسقاط وأنت ما زلت في المستوى الأول.

ستلاحظ بعد حين أنك وصلت إلى نقطة لا تقدر على التحرك بعدها، وأن قدمك عاجزة عن الحركة، وربما ترى شيئًا تريد التفاعل معه ولا تقدر، وفي أثناء محاولتك تجاوز هذا المكان أو التفاعل مع هذا الشيء ستستيقظ.

ما حدث هنا هو أنك توغلت في عالم الإسقاط، وكلما توغلت ابتعدت أكثر عن جسدك الحقيقي الذي خلق لك هذا العالم الحلمي، وإذا كان لديك منظار يمكن أن ترى به الروح، فإنك ستشهد أنه كلما توغلت بعيدًا في عالم الحلم، خرجتْ روحك وارتفعتْ عن جسدك النائم.

إذا وصلت لتلك المنطقة التي لا تقدر على التجول بعدها، فأنت في الحقيقة وصلت إلى حد فاصل بين مستويين من مستويات الإسقاط النجمي، وينبغي أن تغيِّر طريقة حركتك، فإذا كنت لا تقدر على المشي، يجب أن تجرب الارتفاع لأعلى، يعني الطيران، وستُذهَل من أن جسدك في هذا العالم يمكنه الارتفاع عن الأرض والطيران، وستلاحظ أن الطيران يوصلك إلى مستوى أعلى، وحتى تتقنه في البداية حاول القفز قفزات خفيفة إلى أعلى، وارغب من داخل نفسك في الصعود، وستصعد طيرانًا إلى الأعلى.

جسدك في هذا العالم يقدر على فعل أشياء لا تتخيلها غير الطيران، فيمكنه مثلًا أن يدخل عبر الحوائط ولا يحتاج إلى أبواب، بالضبط مثل مشاهد الأشباح التي تراها في الأفلام، وهذا يحتاج إلى تدريب، فإذا وجدت بيتًا في الحلم مثلًا، حاول الدخول عبر بابه ثم اخرج وحاول الدخول عبر الحائط نفسه، وستتقن هذا بسهولة.

وحتى بعد أن اكتسب جسدك هذه القدرات الجديدة ستصل إلى مستوى جديد من الإسقاط لا تقدر على تجاوزه، ستصل إلى منطقة تختفي فيها المادة

النجمية المكوِّنة للعالم وتحل محلها أنوار ذات ألوان عجيبة، كأن هناك عطبًا قد حدث في الشاشة وأصبحت تنتج ألوانًا متداخلة لا ترى عبرها أي شيء.

***

لا تحاول أن تتجول بين هذه الألوان المتداخلة، فقط عد إلى المستوى الذي كنت فيه واصبر، فلن تقدر على التجاوز إلا في مرحلة متقدمة.

دعنا الآن ندخل إلى مرحلة خطرة جدًّا، وهي المرحلة التي تم فيها تحريف علم الإسقاط النجمي وتحويله إلى علم شيطاني وستفهم ما أعنيه بعد لحظات.

بعد أن أصبحتَ قادرًا على التجول في المكان ومعاينة المادة النجمية التي تصنع كل شيء، ينبغي لك أن تتعلم كيف تصنع أنت الأشياء، والأمر بسيط جدًّا هنا على الرغم من غرابته، فأنت حتى تصنع شيئًا ينبغي لك فقط أن تتخيله، فستجده يُخلق أمامك على الهيئة التي تخيلته فيها. ابدأ بتخيل أن هناك خنجرًا في يدك، وسيتكون في يدك خنجر. هذا الشعور رائع جدًّا بالمناسبة، وخلق الأشياء بالتخيل ليس صعبًا كما تظن، بل يحتاج إلى قليل من المران.

انظر إلى السماء الحلمية وتخيل أن هناك نجمة في السماء، وستتكون نجمة، حاول تخيل نار تشتعل في مكان ما في المشهد، اقترب منها وحاول الشعور بحرارتها، ثم ابدأ في تخيل مناظر كاملة بداخل المنظر الذي أنت فيه، مثلًا انظر إلى السماء وتخيل منظر الفجر، حتى يتكون منظر الفجر، وتخيل هبوب الرياح، حتى تهب الرياح، وهكذا...

والآن يجب عليَّ تحذيرك، فأصحاب التنظيمات السرية العتيدة مثل الروزيكروشن الذي هو أصل جميع التنظيمات الماسونية يعلِّمون أتباعهم الإسقاط النجمي كما علَّمته لك، لكنهم عند هذه المرحلة يقولون لأتباعهم أن يؤدوا طقوسًا وينادون أسماء معينة، احذر من هذا الهراء، فهذه أسماء شياطين وهم يأخذون الموضوع إلى جانب كفري لا تحتاج إليه على الإطلاق في عمل الإسقاط، إنما هم يحتاجون إليه لإرضاء أسيادهم ونفوسهم المريضة.

سيقولون لك مثلًا انطق باسم يوروس وتخيل الرياح حتى تأتيك، سيبررون هذا بأن يوروس هو اسم الرياح في هذا العالم، والحقيقة أنه اسم شيطان ولا تحتاج إليه في شيء، فقط تخيل الرياح وستأتيك.

واحذر كل الحذر، فإنك إذا ناديت الشياطين في هذه المرحلة فإنهم سيأتونك ويتلاعبون بك، ولن تصل لأي شيء تريده، وسيحولون تجربتك هذه إلى شيء آخر مليء بالرعب وبيع النفس للشيطان، فتجاوز هذه النقطة واستمر.

الآن أريد منك أن تتخيل مشاهد كاملة، ابدأ بتخيل حيوان معين حتى يتكون أمامك، ثم تخيل هذا الحيوان يفعل شيئًا ما، يأكل مثلًا من الشجرة المجاورة، وإذا وصلت قدرتك على إنتاج هذا المشهد البسيط فاعلم أنك قد وصلت إلى درجة من الدرجات النهائية وأصبحت جاهزًا للخروج من الجسد.

مشكلة الخروج من الجسد هي أنك تخرِج روحك ذاتها وتبعدها عن جسدك، وهذا خطر جدًّا، فلو أيقظك أحد وروحك بعيدة جدًّا فربما لن تجد الوقت للرجوع إلى جسدك وستموت على الفور، لكن لا تقلق، هناك طريقة للتجول كما تريد دون أن تخرِج روحك من جسدك.

سنعمل حيلة جديدة، وهي خلق كيان كامل هو نسخة منك، كيان اسمه «الحميم».

أغمض عينيك في الحلم وتخيل صورة كاملة لنفسك أنت، ما يحدث هنا أنك تخلق صورة داخلية لنفسك داخل الصورة الحلمية التي أنت فيها، وهو شيء معقد لشرحه، لكن أنت في هذه المرحلة لا بد أن يكون قد مر عليك ستة أشهر على الأقل، لا تذهب إلى الخطوات التالية قبل هذا لأنك ستُصاب بخيبة أمل وتترك كل شيء.

الهدف الذي نريد الوصول إليه هو أن تصل لمرحلة أن تغلق عينيك وترى جسدًا كاملًا لك يؤدي ما تريده.

كلما أخذت وقتًا أطول في إتقان هذا التخيل، كان تحكمك أكبر فيما يأتي، هذا الجسد الذي تخيلته لنفسك هو جسد مصنوع من نفس ذرات النور التي صُنع منها هذا العالم، واسمه «الحميم»، وبإمكانه أن يندمج مع هذا العالم النجمي تمامًا ويتعامل معه بسهولة.

والآن تخيل كرسيًّا ليتم صنعه أمامك ثم اجلس عليه وأغمض عينيك وتخيل الحميم، وأحضره ليقف أمامك وأنت جالس على الكرسي، ثم تخيل نفسك

تنقل حواسك إلى هذا الحميم، هذا ضروري جدًّا، وليس سهلًا، وستحتاج إلى عدة محاولات لإتقانه.

سيمكنك بكثير من التمرين أن تدخل إلى هذا الحميم وترى من خلاله، انقل حواسك الأخرى إليه بنفس الطريقة التي نقلت بها حواسك إلى العالم النجمي أول مرة حتى يصير امتدادًا لك.

سأعلن لك الآن أهم حقيقة في علم الإسقاط النجمي بأكمله: لكل شيء في الدنيا قرين في العالم النجمي، الأشخاص لهم قرين في العالم النجمي، والجمادات وحتى الأماكن، فمثلًا بيتك الذي تعيش فيه له قرين في العالم النجمي، وجامعتك أيضًا لها قرين نجمي، والحقيقة التي لا تعرفها هو أنك عندما كنت ترى هذه الأماكن في الحلم إنما أنت كنت تذهب إلى قرينها النجمي، ولم يكن الأمر مجرد صورة في خيالك.

الأشخاص الذين تراهم في الحلم من معارفك إنما أنت ترى قرينهم النجمي، ألا تلاحظ أنك ترى أشخاصًا في الحلم لم تقابلهم يومًا أصلًا؟ تراهم بملامحهم وصوتهم ثم ربما تقابلهم في الحقيقة يومًا. أنت إنما كنت قد رأيت قرينهم النجمي في العالم النجمي وهم أشخاص حقيقيون وليسوا خيالات صنعها عقلك.

كل ما عليك أن تفعله الآن باستخدام الحميم هو أن تتخيل غرفتك التي أنت نائم فيها الآن وستجدها قد تكوَّنت أمامك، هذا هو القرين النجمي لغرفتك، يمكنك أن تتجول فيها وترى أغراضك كما هي ثم يمكنك أن تخرج منها وسترى بيتك الذي تعرفه، ولو خرجت سترى شارعك الذي تعرفه ومدينتك التي تعرفها، ويمكنك التجول فيها كما يحلو لك بحرية ولا خطر عليك من ابتعاد روحك عن جسدك، لأن من يتجول الآن هو الحميم وليس أنت.

ستشعر بقوة غير طبيعية وأنت تتجول بالحميم، فبإمكانه الطيران وبإمكانه تجاوز الجدران ودخول البيوت والأماكن التي لم تكن تتخيل أنك تقدر على دخولها يومًا، ويمكنك أن تسافر إلى أي بلد تريد.

يمكنك أن تستعمل الحميم كمراقب، يراقب لك شيئًا ويعود لك بمعلومات عنه، وإذا دخلت بيتًا باستخدام الحميم فليس ضروريًّا أن ترى الأشخاص

الذين بداخل البيت، فربما يكون قرينهم النجمي في هذه اللحظة يحلم بحلم آخر وهم حاليًّا في مكان آخر.

فربما مثلًا إذا ذهبت إلى بيت صديقك يكون هو يحلم الآن أنه في اليابان، عندها لن تجده في بيته، ولكن إن ذهبت إلى اليابان بالصدفة في العالم الحلمي ستراه وستحدثه وسيراك هو في حلمه، وسيظن أنه مجرد حلم بينما هو لا يدري أنه قابل حميمك الذي أنت تتحكم به.

ربما تحدِّثك نفسك أن تتجاوز الجدران وتطَّلع على عورات النساء والبيوت، ولكن إذا خطر هذا الخاطر فقط في بالك فإن هذا يورِث في نفسك الشعور بالذنب وستجد العالم النجمي كله قد تلاشى وعدت إلى جسدك النائم الشهواني. العالم النجمي ليس فيه شهوات على الإطلاق ما دمتَ تتجول فيه بصورتك النجمية، لأنك حتى تصل إلى هذه الحالة الروحية تحللت من كل ذنوب نفسك وشهواتها، فإذا دخلتْ الشهوة في الموضوع ذهب كل شيء.

آخر شيء أريد أن أحذرك منه هو أنك ستسمع بعض غلاة الصوفية يقولون إن هذا الحميم أو الجسد النوراني -كما يسمونه- يمكنه أن يشفي شخصًا ما، وذلك بنقل أوجاع ذلك الشخص إلى الحميم فيشفى الشخص ويمرض الحميم، ثم سيقولون عليك تخيل أن الحميم في حالة جيدة بعد مرضه فسيعود بحالة جيدة. سيقولون لك إنه يمكن للأولياء الذين يصنعون هذا الجسد النوراني أن يحصلوا على قدرات إلهية فقط بالتخيل والإرادة مثل إنزال المطر وتقسيم الرزق. سيقولون لك ستحتاج إلى كثير من التدريب لتصل إلى هذه الحالة، والحقيقة أن كل هذا دجل وهراء، ولا أحد يصل إلى تلك الحالة لأنها غير موجودة من الأساس، كل جولاتك وصولاتك في العالم النجمي لا تقدر على التأثير في العالم المادي على الإطلاق.

العالم النجمي هو مجرد عالم موازٍ تحدث فيه الأحلام، ومهما فعلت فيه فأنت في الحقيقة في حلم، ولا يؤثر الحلم على الواقع أبدًا، فلا يخدعنك أحد. قد يقولون لك إن الأنبياء كانوا يصنعون المعجزات باستخدام هذا العلم، وهو دجل وهراء وتدخل الشياطين في الكتب لإفقاد الناس الثقة في معتقداتهم.

أقصى ما يمكن أن تفعله هو أن توحي بفكرة معينة إلى القرين النجمي لشخص ما، فيجد الشخص الحقيقي نفسه يفكر فيها في أثناء نومه، الأمر

مثل وسوسة الجن، حينما تأتيك فكرة من مكان ما وتظن أنها فكرتك لكنها وسوسة من جني، ومثل أن الجن لا يقدرون على التأثير في العالم المادي فكذلك حميمك غير قادر على التأثير عليه.

كان شارلوتان في هذه الحكاية شديد التركيز والتأثر، وليس متشككًا كما هي عادته على الرغم من أني أراها حكاية أسطورية، فمن ذا الذي يتحكم بالروح وهي من أمر ربي؟ قال شارلوتان:

- ذلك العجوز إيشيدا استطاع أذية الآخرين بروحه، كيف تقول إن الروح ليس لها تأثير مؤذٍ؟

اعتدل تارت وقال:

- الآيكيرو اليابانية هي الجسد، ولا علاقة لها بالإسقاط النجمي، لكنها كانت المفتاح الذي أشعلني شغفًا بهذا العالم.

بدا طويبة اليمني في حالة سارحة مفكرة وهو يطيل النظر إلى تارت ثم قال:

- معذرة، أنا صوفي من الطريقة العلوية في حضرموت ولم أسمع بالسارمونج هؤلاء قط.

التفتُّ ناحية طويبة بحدة، صوفي؟ يبدو أن ارتياحي الأول لك يا طويبة كان زائفًا، رمقته بنظرة مختلفة وهو يسأل تارت قائلًا:

- عندنا الأولياء يعملون معجزات غير طبيعية، يعني هم كلهم يعملون إسقاطًا نجميًّا؟

هز تارت رأسه نفيًا وقال:

- في الكتب الكاذبة عن الإسقاط النجمي يقولون إن كل شيء في الدنيا له جوهر داخلي هو اللب الحقيقي للشيء، بينما الهيكل الخارجي مجرد وعاء، ويزعمون أنه يمكنك التأثير في الهيكل الخارجي إذا أثَّرت في هذا اللب الداخلي. يقولون إنه يمكنك أن تتعلم هذا بالتواصل مع الملائكة العليا، وهذا كله هراء في الحقيقة.

قال طويبة باهتمام:

- أنا أتذكر الحركات الجماعية التي كنا نعملها في أثناء الذكر، بعد مرور خمس دقائق أجد ذهني كأنه انفصل شاعرًا أنني دخلت في وعي الجموع فصرت معهم كيانًا واحدًا، وهذا يعطي قوة لكلمات الذكر نفسه.

قلت له بغضب حقيقي:

- كفى، هذا هراء، لا يوجد هذا الشيء في الإسلام، هذا بدعة سيئة ما أنزل الله بها من سلطان.

نظر إليَّ شارلوتان بحدة وضيق عينيه قائلًا:

- إذا اعترضت بهذه الطريقة مرة أخرى سيتم طردك من المؤتمر كله، إذا كان لديك سؤال فاسأل وإلا فاصمت تمامًا.

سكت الجميع بعد هذه الكلمات التحذيرية التي قالها شارلوتان بأسلوب آمر ولهجة قاسية متخليًا عن اللطف الذي كان يظهِره كل حين. تشاغلتُ في النظر إلى الطاولة في غضب فتنحنح تارت كاسرًا حاجز الصمت وقال:

- السارمونج لديهم رقصات جماعية أذهلتني عندما رأيتها أول مرة، هم يتحركون جماعيًّا بطريقة تختلف عن أي فرقة منظمة رأيتها في حياتي، يعملون ما يشبه اللوحة الكونية، إذا رأيتها تشعر أنها تمس شيئًا بداخلك كأنها تعبر عن شيء ما في هذا الكون أو شيء في النفس البشرية.

قالت الهندية وهي تبدو في غاية التأثر من الحديث كأنما اكتشفت كنزًا:

- قل لي يا سيد تارت، ما أغرب شيء استطعت فعله بذلك الحميم؟

ابتسم تارت وهو يتذكر شيئًا وقال:

- أغرب شيء هو عندما أمشي والحميم بجانبي في الحلم، أشعر أن لدي كيانين منفصلين، لا أعرف وصفًا لهذا الشعور لكن دعيني أخبرك، لقد كشفت ما هو أغرب، لقد أمكنني تحويل هذا الحميم إلى حيوان يمشي بجواري، فمرة حولته إلى ذئب وأصبح يمشي بجانبي، وكلما قابلني أحد في العالم النجمي يتراجع خائفًا وذلك الذئب يموء ويتعامل كالذئاب تمامًا.

قال شارلوتان وهو يشبك يديه أمامه ويستند عليها:

- هل رأيت السجلات الأكاشية؟

ابتسم تارت ابتسامة العليم وقال:

- على كثرة ما سمعت عنها لم أجدها في أي مكان.

قال طويبة بحذر:

- ما هي هذه السجلات الأكاشية؟

قال شارلوتان وهو ينظر إلى تارت:

- هي سجل لكل الأحداث والكلمات والمشاعر التي حدثت في الكون سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وهي ألواح أبدية من نور مسجلة فيها كل الأحداث مصورة وكأنها فيلم، هي مثل اللوح المحفوظ عندكم، ويقال إنه يمكن الوصول إليها بالإسقاط النجمي فتعرف أسرار الماضي وترى المستقبل.

نظرت إلى شارلوتان في غضب وقلت:

- اللوح المحفوظ عند ربنا الرحمن، وليس لفلان أو علان أن يطَّلع عليه.

قال شارلوتان وبعض الجذل يظهر في عينيه:

- ألم يطلع عليه إبليس قبل خلق آدم وعرف منه أنه سيفسد في الأرض؟

قلت له بغضب:

- لا يوجد عندنا شيء كهذا، هذه إسرائيليات.

نظر إليَّ اليهودي بعينيه البارقتين وقال:

- ليس كل ما لا يعجبك تقول عنه إسرائيليات، نحن ليس عندنا لوح محفوظ أصلًا.

طرق شارلوتان تلك الطرقة التي تعبر عن انتهاء الجلسة وقام فقمنا جميعًا وكأننا نريد الفكاك من هذا النقاش، هؤلاء القوم أصابتهم لوثة في أدمغتهم فيما يبدو، وأنا مصدوم في طويبة أيضًا، رأيته ينزل بجواري على السلم فقلت له:

- ظننتك عاقلًا يا طويبة، أتقول لهؤلاء إنك ترقص وأنت تذكر الله؟ ماذا سيقولون عن ديننا؟ هل تريدهم أن يظنوا أننا مجموعة من المخابيل المشركين مثل شيوخك؟

توقف طويبة محله فجأة وبانت في عينيه نظرة حادة وهو ينظر إليَّ ويقول:

- إياك أن تقول هذا عن شيوخي، أتدري ما مشكلتكم يا شيخ؟ أنكم تنسون أن رسول الله أقسم في حجة الوداع قائلًا «إني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»، بينما أنتم يا شيخ وهبتم حياتكم للبحث عن الشرك في قلوب المسلمين.

رفعت عيني دهشة وقلت:

- نحن؟

قال لي:

- أنت تعلم جيدًا ما أقصده، إن ربكم ابتلاكم بداء عضال هو النظر إلى الناس وأعمال الناس، كل جلستي معك وأنت تقول انظر إلى هذا كيف يشرب الخمر وإلى هذه المحجبة كيف تخرج شعرها من الحجاب. اسمع كلام الإمام مالك يا شيخ، يقول «لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية».

مر بجوارنا ذلك اليهودي فرمى علينا إحدى نظراته الساخرة ثم أكمل في طريقه. قلت لطويبة:

- إنما نحن مأمورون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تكثر الجدال معي، ألا يكفي أنك صوفي؟

قال طويبة وهو ينظر إلى اليهودي:

- أخاف عليكم أن تنافسوا فيها يا شيخ، تذكر هذا جيدًا.

في صباح اليوم التالي توجهت إلى المطعم للإفطار وكان الكل موجودًا كالعادة، ملأت طبقي ولم أجلس بجوار طويبة، بل جلست في أول مقعد فارغ وجدته.

كان المقعد أمام تلك الهندية ويجلس بجوارها رجل نحيف الوجه ذو ملامح بائسة نوعًا ما. لاحظت شيئًا عجيبًا في تلك الهندية وهي تأكل، هل تملك أنيابًا طويلة قليلًا أم أنني أهذي؟ نفضت عن نفسي هذا الخاطر وتذكرت كلام طويبة، هل أنا أشغل نفسي كثيرًا بالنظر إلى الناس؟ قال الرجل النحيف البائس بجدية:

- هل لاحظتم أن السيد تارت غير موجود؟ يبدو أنه غادر كما غادر السيد لازار والسيدة سوزان.

قلت له وقد تذكرت أمرًا:

- لقد قال ذلك الشارلوتان إن من يرِد أن يغادر بعد قصته فليفعل.

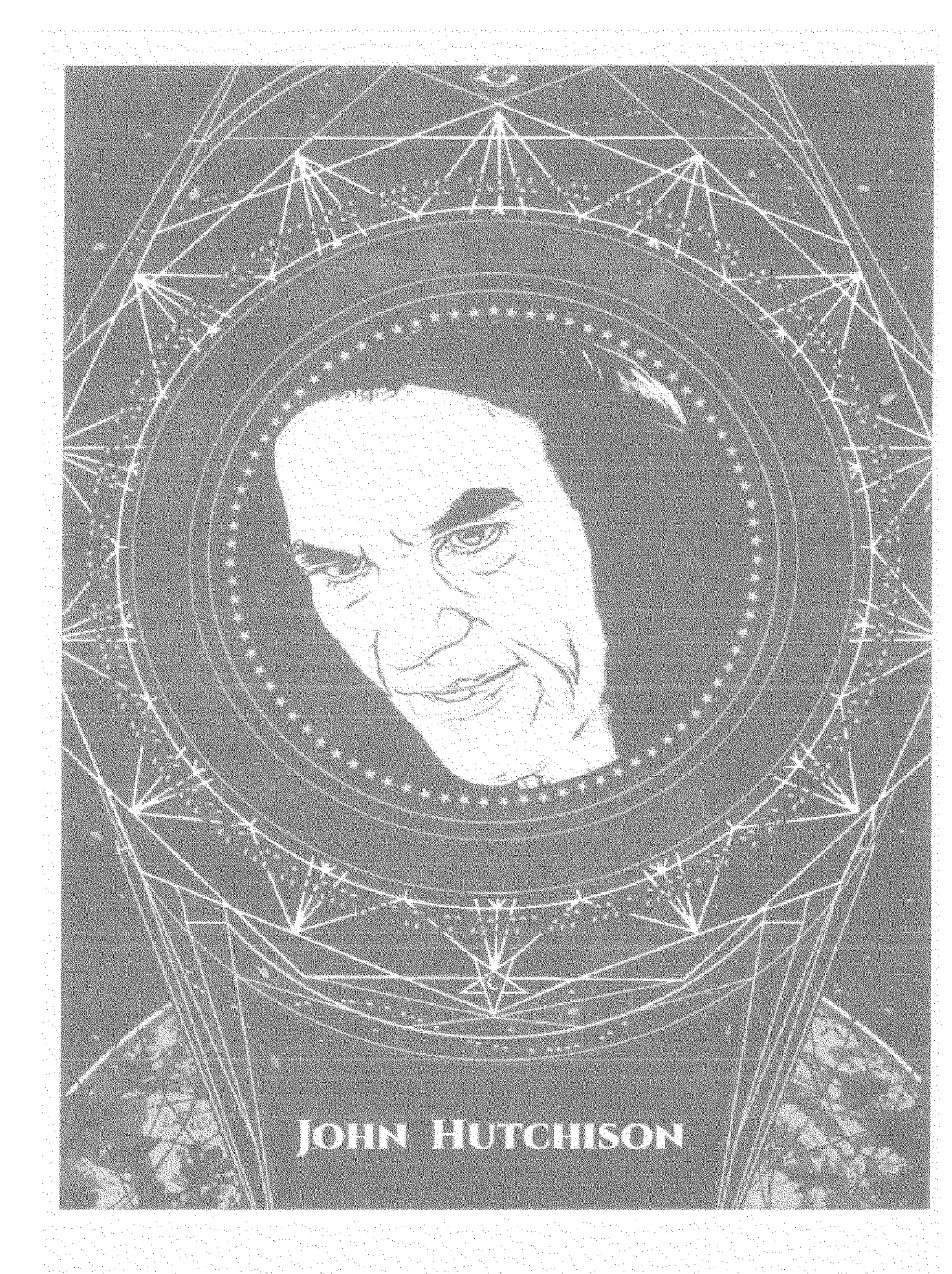
قال الرجل البائس بعينيه الشبيهتين بالمحققين:

- لكن لماذا لا يودعنا أحد، لماذا يغادر الكل هكذا فجأة؟

لم أعلق على حديثه ولم أهتم كثيرًا، فمن أراد المغادرة فالباب مفتوح.

في المساء حضرت المؤتمر ونظرت بطريقة تلقائية إلى مقعد تارت فوجدته فارغًا، ولم يهتم أحد. قال شارلوتان:

- الجلسة الرابعة ستكون من نصيب الدكتور العظيم هاتشيسون، وهو صاحب سر علمي أثار مشكلة حقيقية عند طرحه على الملأ. تفضل يا دكتور.


JOHN HUTCHISON

4



حكاية مثلث برمودا

يرويها: جون هاتشيسون

«نحن نسمي هذه الأشياء التي تحدث في برمودا بما وراء الطبيعة والحقيقة أنها من الطبيعة ونحن الذين وراءها».

بارجة كل شيء فيها عملاق، عشرون ألف طن من الصلب تجري في بحر برمودا المديد ويسكن فوقها أكثر من ثلاثمائة إنسان ينقلون حمولة ضخمة إلى أمريكا، لها اسم عملاق كهيئتها «سايكلوبس» أصل جنس العمالقة باليونانية. فيها قبطان يكرهه الجميع لقسوته وبذاءة لسانه، كابتن جورج ذو الشارب الضخم والقوام الممشوق والبذلة العسكرية التي لا تفارقه، وبجواره ابنته الصغيرة الشقراء «لورا»، التي تخشع لها ملامحه دونًا عن كل شيء في هذا الوجود. كانت تتعلق بذراعه وهو يستند إلى سور البارجة وينظر إلى البحر. قالت له:

- ألن تأخذني إلى السماء يا أبي؟ نحن كل يوم في هذا البحر.

قال لها في شرود:

- نعم، سآخذك يا صغيرتي بالطبع إلـ...

قاطعه واحد من الطاقم صارخًا:

- سيدي، لقد مات «كينيث»، المراوح فتكت بجسده فتكًا، والدماء في كل مكان. أنت يا سيدي أمرتنا بتشغيل المراوح وتعجلتنا دون أن نتأكد إن كان أحد بالداخل.

تحولت عينا وورميل لتصنع تعبيرًا مرعبًا وهو ينظر إلى الرجل ويقول:

- اللعنة عليك، كلمة واحدة من لسانك القذر عن الموضوع وسألقي بك إلى غمرات البحر. اجمعوا الجثة ونظفوا المكان و...

شدت لورا ذراع أبيها بقوة وهي تقول:

- أبي، السماء، أبي...

رد عليها بصبر:

- سنذهب يا لو...

قاطعه ذلك الشخص من الطاقم قائلًا:

- السماء، السماء يا كابتن.

نظر إليه وورميل بتعجب برهة ثم انتبه إلى شيء ينظر إليه الجميع في السماء، فنظر بدوره، وكانت تلك النظرة هي آخر عهدهم بالدنيا. ففي ذلك اليوم من عام 1918، اختفت البارجة سايكلوبس بكل من فيها وما فيها من على صفحة المحيط، وعلى الرغم من كل البعثات التي ذهبت للبحث عنها، فإن أحدًا لم يجد أثرًا واحدًا يمكن أن يدل عليها كأنها لم تكن، واستمع الناس إلى الرئيس الأمريكي وهو يقول بحزن: «فقط الرب والبحر يعلمان أين اختفت البارجة سايكلوبس».

***

سرب من الطائرات الحربية ينتظم في السماء عند زاوية برمودا يقومون بمهمة تدريبية عسكرية بقيادة الكابتن تشارلز الذي قضى ثلاثة آلاف ساعة من حياته طائرًا في السماء حتى عرفها وعرفته، كانت مهمة تدريبية كعشرات المهمات التي يقودها لكنها كانت المرة الأولى التي يدخلون فيها هذه المنطقة من المحيط. لاحظ بطرف عينه أن البوصلة في الطائرة تتحرك كأنما أصابها مس من الجن، فأطلق سبة وفتح الراديو وأخذ ينادي مركز الاتصال.

كان صوت الأثير عاليًا يغطي على صوت الرجل الذي يكلمه من مركز الاتصال، ظل تشارلز ينادي أكثر من مرة ويكرر أن بوصلة الطائرة قد أصابها عطب وأنه يريد أن يعرف أين هو موقع السرب في هذه اللحظة. جاءه صوت الرجل بالكاد يسمعه وهو يقول:

- هذا مركز الاتصال، ما هي مشكلتك؟

عض تشارلز على شفته وكرر الجملة للمرة العاشرة:

- تعطلت البوصلة اللعينة، لقد فقدت الاتصال بباقي السرب ولا أراهم، لا أعرف كيف أعود إلى المركز.

ووسط تشويش مزعج كان الرجل يقول:

- اجعل الشمس عن يمين الجناح وانطلق، فهذا اتجاه الشمال.

وقبل أن يضع تشارلز يده على المقود ليغير اتجاهه خفق قلبه حتى إن صوت دقاته أصبح يعلو على صوت الراديو وقال وهو ينظر إلى السماء من النافذة:

- اللعنة، أي شيء لعين هذا؟!

وفي تلك الليلة من عام 1945 اختفى سرب الطائرات كاملًا بكل من كان فيه من طيارين، وانطلق سرب آخر من الطائرات يبحث عنهم بكل الأدوات الممكنة والمعدات، فاختفى السرب الثاني كما اختفى السرب الأول، كأنما ابتلعهما البحر، أو السماء.

***

كابتن وورميل تعرف أنه قبطان حتى لو لم تكن رأيت قبطانًا في حياتك، الشعر المجعد الأبيض، والعينان الزرقاوان الصافيتان كالبحر، والأسنان غير المنتظمة والتي تندس وسطها سن ذهبية، والجسد الضخم، والصوت الأجش. كان في سفينة شراعية اسمها كارول ديرينج تجري إلى مصيرها في برمودا، وكعادة القبطان الذي من طراز وورميل، كان يتعامل بشدة مع الطاقم، فالشدة تجعلك شديدًا، والشدة تجعلك قائدًا، هكذا تعلموا في البحر. صرخ وورميل في واحد من الطاقم:

- أين الأحمق مكليلان؟ لو أنه سكر ثانية سأحطم على رأسه كل زجاجة خمر جرعها.

قال الرجل وهو ينظر إلى الأرض:

- إنه بالأسفل، وهو يغلق على نفسه الحمام منذ مدة.

أظهر القبطان امتعاضًا وهو يقول:

- هذا الأحمق لولا تدخلي لبقي في السجن فترة لا بأس بها، ألم أخبرك كيف القصة عندما استرحنا يومًا في باربادوس ووجدته قد أخذوه من الحانة سكران ووضعوه في السجن؟ في ذلك اليوم...

كاد وورميل أن يسرد نفس القصة على مسامع الرجل، والتي سمعها منه كثيرًا حتى مل منها، لكن وورميل توقف لما رأى مكليلان خارجًا على سطح السفينة يترنح وبيده زجاجة خمر ويبدو في أشد حالاته سكرًا. كان الكابتن

وورميل إذا غضب يقبض يده ويفتحها وهو يفردها إلى جواره، وهذا يعني أنه في أشد حالاته ثورة وأنه سيقدم على عمل شيء جلل، لكن مكليلان وسط ترنحه رفع رأسه ببطء إلى السماء ونظر ببلاهة ودهشة حقيقية وظل ينظر إلى نقطة واحدة حتى نظر الجميع إلى حيثما ينظر، وكانت نهاية السفينة كارول ديرينج في 1919، والتي أصبحت أشهر ضحية لبرمودا، ذلك لأن سفينة كارول ديرينج كانت الوحيدة التي لم تختفِ تمامًا مثل مئات الحوادث الأخرى، بل تم العثور عليها بعدها بأيام، وكانت فرصة العالم ليفهم كل شيء.

***

1975

كل شيء في المجتمع العلمي كان يجري كما يُراد له أن يجري حتى ظهر هاتشيسون، العالم الكندي غريب المظهر والأطوار، كان يعيش في شقة صغيرة مكدسة بالأجهزة والأوراق، له شعر طويل غير مصفف ووجه كبير وجسد قوي كالمصارعين، تشعر في الوهلة الأولى أنه مطرب روك مغمور، لكنك تكتشف عندما تحدِّثه أنه على عكس هذا المظهر، شديد الهدوء وفي عينيه بريق روح ذكية. استيقظ هاتشيسون فجر ذلك اليوم على أريكته مرهقًا بعد أن سرقه النوم في أثناء دراسته لمسألة معقدة تتعلق بالطول الموجي الطولي للعالِم تيسلا، أزاح الأوراق التي فوق صدره بإجهاد ونظر إلى الأجهزة المكدسة في شقته والتي لا يكاد يجد في وجودها موضعًا للمشي، كانت أجهزة حضَّرها مسبقًا لأجل تجربة استثنائية يعمل عليها بكد منذ أيام.

لم يغسل هاتشيسون حتى وجهه، بل شرع يفتح الأجهزة واحدًا تلو الآخر، حتى انتهى من ذلك واستبدل رداءه سريعًا وخرج من الشقة ذاهبًا إلى عمله تاركًا كل الأجهزة في وضع التشغيل، كانت جميعها مولدات تنتج مجالات كهرومغناطيسية بأطوال موجية مختلفة، مثل لفائف تيسلا، ومولدات جراف ومولدات التردد اللاسلكية وغيرها من الأجهزة من التي يمكن الحصول عليها بأموال قليلة.

وفي العصر عاد هاتشيسون إلى شقته ورمى معطفه على الأريكة بإهمال واستعد لخلع ردائه، لكنه تسمر مكانه وتصلب جسده وهو يمسك كتفه في فجع، فقد ظن أن فأرًا قد قفز فوقه، لكنه تراجع في ذهول حقيقي، فذلك

الذي ضربه في كتفه لم يكن فأرًا، ولم يكن حشرة، بل كان قلمًا معلّقًا طافيًا في الهواء يتحرك كأنه دبور. للوهلة الأولى أطلق هاتشيسون صرخة خائفة واستحضر في ذهنه بعض المشاهد السينمائية المرعبة وبدأ ينظر حوله بتوجس، وهنا تحول الخوف إلى ذهول حقيقي، لم يكن القلم وحده هو الذي جن جنونه، بل حتى الأوراق وبعض ملاعق الطعام التي كان يلقيها عادة بجوار الأريكة. ولو حدث هذا الشيء لشخص آخر غير هاتشيسون للاذ بالفرار من الشقة ولهرع إلى الكنيسة لطلب شخص يخرِج الأرواح الشريرة من منزله. لكن عين هاتشيسون تحولت إلى نظرة لم تحدث في هذا العالم كثيرًا، تلك النظرة التي نظرها أرشميدس ونيوتن وآينشتاين، نظرة من نور العلم. ففي ذلك اليوم، كشف هاتشيسون شيئًا مخبوءًا من ثنايا بحار العلم، كشف القدرة على تحريك الأشياء عن بعد، بلا سحر ولا تسحير، بل بالعلم وحده.

***

1920

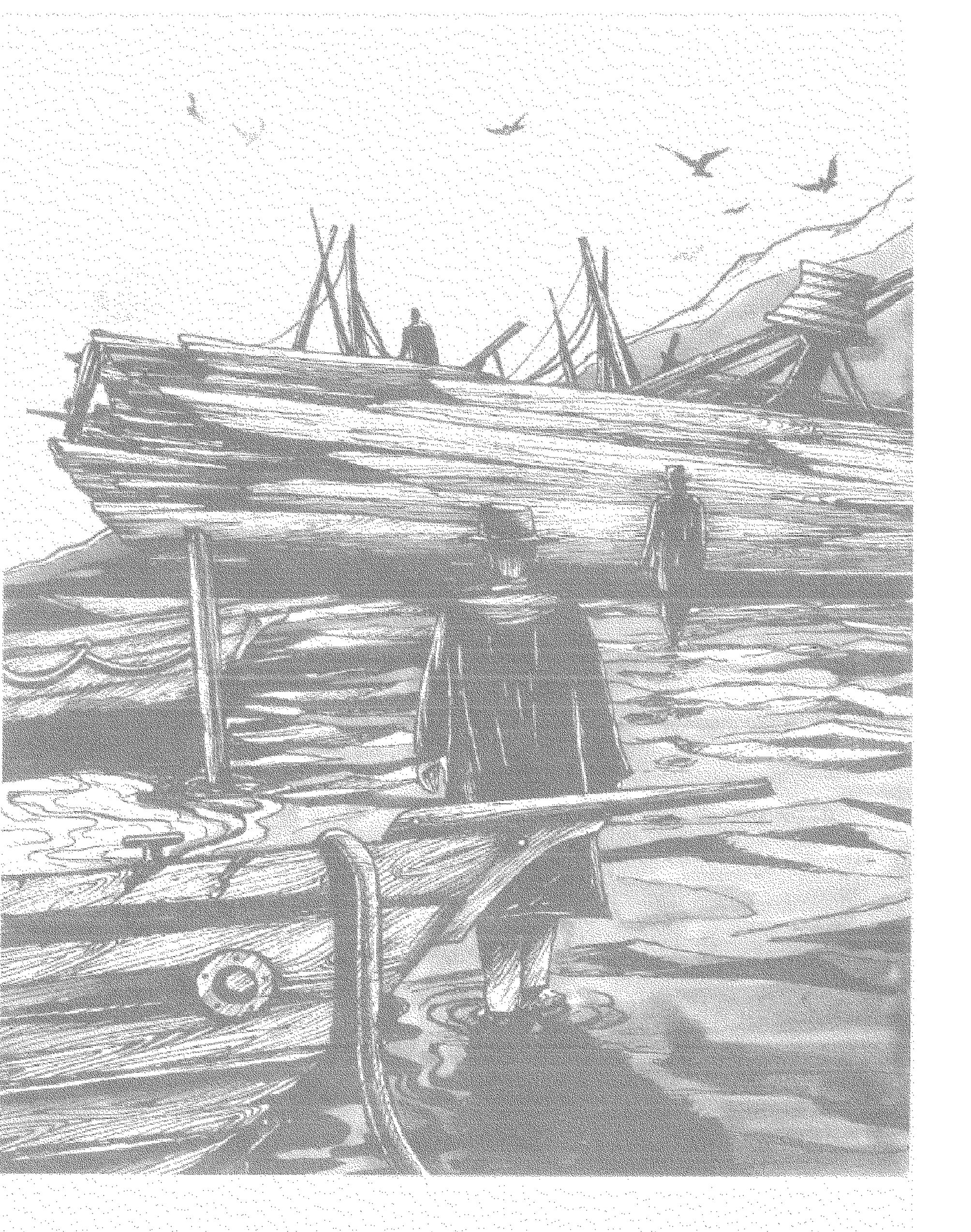
جمهرة من رجال البحر والمحققين يقفون على زورق يقترب بحذر من الموضع الذي عثروا فيه على السفينة كارول ديرينج بعد بضعة أيام من فقدانها، وهو أسوأ موضع يمكن أن تجد فيه سفينة؛ جزء ضحل من البحر يسميه البحارة مقبرة الأطلنطي، لأنه موضع ملعون عُثر فيه على أكثر من خمسة آلاف سفينة محطمة كلها جرتها تيارات المحيط إلى المقبرة. كان من بين الرجال فتاة تظهر في عينيها اللهفة والحزن وتترقرق عيناها بالدمع، فالكابتن وورميل صاحب الشعر الأجعد والعينين الزرقاوين قبطان سفينة كارول ديرينج المفقودة كان أباها، وقد جاءت اليوم وفي قلبها بعض الأمل الذي يغالب قترة اليأس، أن أباها لم يمت.

وقف الرجال في القارب طويلًا يتناقشون في كيفية الاقتراب من السفينة وسط هذه المقبرة الضحلة، و «لولوا» ابنة القبطان المفقود لا تعتني بأحاديثهم، فقط تنظر إلى السفينة من بعيد وتمسح دمعها. قرر الرجال الإبحار بالقارب ببطء شديد في المقبرة، فالمشكلة أنه عندما تكون هناك منطقة ضحلة وسط منطقة عميقة فإن السفن بسرعتها ترتطم بالأرض الضحلة، وبخاصة أن أرضها غير ظاهرة على الإطلاق، كما أن السباحة في

المقبرة مستحيلة، لأنه تكون هناك عدة تيارات شديدة ودوامات غير متوقعة. وبعد الكثير من الاقتراب الحذِر والدوران في طرق متعرجة حول السفينة، وصلوا إليها أخيرًا عند هبوط الليل.

وعلى نور القمر الذي يختبئ خلف ركام السحب صعد الرجال إلى السفينة وساعدوا لولوا على الصعود، نظر الجميع داخل السفينة بشيء من الرهبة، فإن صبغة من ظلام الليل واختباء القمر كانت تصبغ كل شيء بلون رمادي، ومع ارتطام الموج وصرير الأخشاب وسط هذا السكون، نزلت على المكان ستارة من المهابة تقبض القلب، ووسط هذا الجو الكئيب كانت لولوا هي الشيء الوحيد الذي يبدو حيًّا في هذا المكان، بمشاعرها التي فاضت من عينيها ولهفتها وهي تنظر هنا وهناك بحثًا عن أي شيء يدل على والدها.

كان البحارة يمنون أنفسهم بكشف عظيم، فهي المرة الأولى بعد مئات الحوادث التي يلقي لنا برمودا بسفينة أبحرت من خلاله، لكنهم كلما مشوا في السفينة أكثر صغرت فكرة الكشف العظيم في نفوسهم حتى اختفت تمامًا، فهذه السفينة ليس فيها خدش واحد يدل على تعرضها لأي نوع من أنواع العواصف أو المطر أو حتى الاصطدام بأي صخر، السفينة سليمة تمامًا من كل أرجائها، بل إن المطبخ فيه براميل موضوعة على الأرض بشكل عادي لم تسقط مثلًا من جراء صدمة أو تغيير مسار مفاجئ. بدأ المحققون في البحث بشكل أكثر دقة في كل شبر، بينما لولوا تبكي وحدها في غرفة القبطان التي كانت فيها ملابس أبيها وأحذيته وصورة لولوا موضوعة على الكومود لم تتضرر. كانت تذكر صوته وعينيه الحانيتين وشعر معصمه الذي كانت تحب تقبيله وهي صغيرة، ولم يعد أي شيء من هذا باقيًا. كانت كلما نظرت في شيء هنا تتأكد أن والدها لم يمت، فهناك قارب نجاة مفقود، لقد ترك السفينة هو والطاقم لسبب ما لكن لا شيء هنا يدل على تعرضهم لأي مشكلة.



صعدت إلى السطح واستندت إلى سور السفينة تبكي وتسقط دمعها في البحر، فسمعت جوارها صوت رجل كبير من البحارة يمتلئ حكمة ويبدو قائدهم، قال لها:

- لا تبكي يا بنيتي، فإن والدك سيذكره التاريخ، فإن أممًا من البحارة جاؤوا هنا قبل أبيك وابتلعهم برمودا ولم يجد لهم أحد أي أثر، أما والدك فإن سفينته نجت من برمودا، ويبدو أنه هو أيضًا قد نجا.

تفتحت منابت قلبها وازدهر وجهها ناظرًا إليه بلهفة وهو يطيِّب خاطرها ويقول:

- أتعلمين يا بنيتي؟ إن والدك هو ثاني إنسان يهزم برمودا بعد كولومبوس، أتدرين أن كريستوفر كولومبوس هو أول من أتى إلى برمودا؟

بدأت تمسح دموعها وهي تستمع له في أمل:

- كان كولومبوس مع رجاله على أعتاب برمودا ينظرون من سطح سفينتهم إلى الأفق مثلما ننظر أنا وأنتِ إلى الأفق، ورأوا عمودًا من نور يرتفع في السماء بشكل لم يتم تفسيره إلى الآن، وعلى الرغم من أن الطاقم كان يشتكي من ضعف الرياح في الصباح، فإنه بعد هذا النور ارتفع بهم البحر عاليًا جدًّا وحمل سفينتهم بسرعة دون أن تكون هناك رياح، قال كولومبوس إن البحر كان عاليًا بطريقة لم يسمع بها إلا في قصة خروج اليهود من مصر.

بقيا صامتين ينظران إلى الأفق المظلم حتى جاء أحد الرجال بجهاز الراديو وهو يقول:

- سيدي، هناك شيء يـــ...

كان هناك صوت مذعور في الراديو يبلغ بيأس عن حالته، كان يقول:

- إلى المركز 406، هذا نولان، هناك غشاوة ضبابية تلف كل شيء، البو... البوصلة لا تعمل، هل يسمعني أحدكم؟ اللعنة، إنها ليســ...

أشاح الكابتن بوجهه وهو ينظر إلى الأفق ويقول:

- دعك من هذا يا مارك، إنها نداءات الأولين.

امتقع وجه الرجل وهو يقول:

- سيدي، لقد استقبلنا هذا النداء على هذا الراديو الآن، ما الذي...

قاطعه الكابتن وهو يقول بتنهيدة:

- أنت ما زلت صغيرًا في البحر يا مارك، المركز 406 قد تدمر منذ زمن طويل جدًّا. أتعلم يا مارك أن الطيارين في حرب فيتنام كانوا يستمعون على الراديو إلى رسائل استغاثة غير منطقية كأنها آتية من زمن آخر؟ وبعد التحقيق وجدوا أنهم كانوا يسمعون رسائل لطيارين من الحرب الكورية، طيارين ماتوا منذ عشرين عامًا.

هبطت قلوب الرجال الذين يسمعون هذا واقتربوا من الكابتن ليستزيدوا أكثر. قال الكابتن بلهجته الحكيمة:

- الشيء الذي يقوله العلماء هو أن رسائل الراديو تلك تعلقت في الأثير لسبب ما منذ ذلك الوقت، وعندما تحررت كان ذلك بعد أعوام كثيرة، فاستقبلها جهاز راديو ما.

قال مارك الذي يحمل الراديو وهو يتطلع حوله في شيء من الفزع:

- سيدي، أتعني أن هذه الرسالة هي من شخص مات هنا في الماضي؟ تعني هذه رسالة من شبح؟

قال الكابتن بنصف ابتسامة:

- إنها المرة الأولى التي يبيت أحد في مقبرة الأطلنطي كما فعلنا اليوم، ولقد تحطمت هنا آلاف السفن، وصعدت آلاف الأرواح، وأُرسلت مئات الاستغاثات بالراديو، فماذا تتوقع أن تسمع وأنت هنا؟ هيا اذهب من هنا، وإياك أن تغلق هذا الراديو حتى لا نفقد الاتصال بالمركز.

وعلى الرغم من لهفة لولوا على أبيها، فإنها انضمت إلى طائفة القلوب المنقبضة من أثر هذه السفينة.

***

1975

نسيَ هاتشيسون أن هناك شيئًا يُدعى النوم، كان في شقته ينكب على العديد من المعادلات بشعره الطويل الأجعد، كان يبدو مثل العلماء الذين يظهرون في أفلام الخيال العلمي، أولئك الذين تنفجر الأشياء في وجوههم،

لكن هاتشيسون لم يكن خيالًا، بل كان حقيقة ستقع على المجتمع العلمي كالصاعقة بعد أسابيع.

كان قد تعلم الفكرة، كان هناك عالم اسمه دكتور إيروين موون استطاع قبل سنوات أمام الكاميرا أن يمرر تيارًا كهربائيًّا في جسده مقداره مليون فولت، وذلك فقط لأنه غيَّر تردد الموجات الكهربية، أما هاتشيسون فكانت فكرة تجربته الجديدة هي تغيير تردد الموجات الكهرومغناطيسية. لاحظ في البداية أن الأشياء الخفيفة ترتفع عن الأرض، ثم استطاع أن يتحكم بهذه الأشياء حتى تمكن من أن يحرك عودًا من المطاط في الهواء كأنه حية وينزله إلى أعلى وأسفل، بل وتمكن من أن يطلق الأشياء في الهواء بسرعات لا بأس بها، لكنه دومًا في كل تجربة يجد ضبابًا كثيفًا أبيض يغلف كل شيء تتخلله ألسنة من شرارات كأنها الرعد، ضباب لم يستطع إزالته بأي طريقة، ويبدو أن تحريك الأشياء لا يمكن أن يتم إلا من خلاله، وكان حلق هاتشيسون يجف مع كل كشف يكشفه وسط هذا الضباب، فهذه الأشياء التي يفعلها لم تُدرَّس له في الجامعة ولا رآها في أي كتاب من قبل.

في الأيام التالية حدثت أشياء في غاية الغرابة خلال التجارب، فذات مرة تحطمت المرآة التي في الغرفة البعيدة دون سبب يُذكر، وفي مرة اندلعت النار في أشياء لا يمكن أن تمسكها النار أصلًا مثل الطوب أو المعدن، كان قلبه يخفق في كل يوم لأنه علم أن هذه القوى التي كشفها لها قدرة مخيفة.

واجه هاتشيسون صعوبة في رفع الأشياء ذات الوزن الثقيل، ولقد سهر كثيرًا وأصر أن يرفع كرة حديدية تزن أكثر من 100 كيلو في الهواء بنفس الطريقة، وتمكن من فعل هذا، في ذلك اليوم أسند ظهره إلى الجدار وبكى، هذا القدر من الكشف لم يكن سهلًا، الأمر بدا وكأنك تجرب قوة جديدة قد تتيح للإنسان أن يطير في الهواء وأن يحرك أي شيء بمجرد الأمر، ولقد فعل هذا بالفعل.

دعا هاتشيسون أصدقاءه العلماء إلى شقته وأراهم كل شيء وتحققوا من أن الأمر ليس فيه أي خدعة، وقرر هاتشيسون أن يخبر جامعته في كندا، وبالفعل ذهب وعرض عليهم كل شيء ودعاهم إلى شقته، ولقد انبهر الجميع

بأن هذا كله حدث باستخدام طاقة قليلة جدًّا وهي التي يحصل عليها من منفذ الكهرباء العادي في شقته.

ظهر هاتشيسون في بعض برامج التلفزيون المحلي وهو يعرض للناس كيف يرفع الأشياء في الهواء كالساحر، وبدأت بوابات المجد تنفتح، وفي ليلة من ليالي الشتاء نزلت طرقات عنيفة على باب شقته، ففتح الباب في هيئة مزرية كعادته فوجد قوات من الشرطة الكندية تقتحم شقته وتدفعه بعنف حتى سقط على الأرض، نظر إليهم وهم يجوبون الشقة الصغيرة ويحركون الأجهزة بعنف وبلا اكتراث، وقبل أن يقول كلمة واحدة اعتراضًا وضع أحد جنود الشرطة في معصميه أغلالًا معدنية باردة وقاسية جدًّا.

لم يكن هاتشيسون قوي الشخصية كما يوحي بهذا جسده، ولم يكن يجيد الحديث، فكان يسأل بهدوء وحزن ويردون عليه بأنه مقبوض عليه بسبب حيازة أسلحة غير مصرح بها، وأخرجوا له من غرفته مسدسًا أثريًّا كان قد أهداه له والده، كان يحاول أن يشرح لكنهم لم يعطوا له فرصة للحديث وأخرجوه من الشقة في أغلاله أمام الناس الذين تجمعوا لينظروا أمر جارهم ذي المظهر الغريب الذي لم يروا منه مشكلة واحدة لسنوات طويلة عاشها هنا منذ أن كان طفلًا.

أخبره الضابط أنهم سيصادرون كل الأجهزة التي في شقته، وأنه إذا خرج من السجن بعد سنوات وأراد أن ينشئ معملًا فيجب أن يستخرج تصريحًا لهذا. وفي ساعة من الليل، وبعد أن كان هاتشيسون ينظر إلى بوابات المجد، أصبح ينظر إلى وجوه أشخاص قاموا من رقادهم في السجن ليروا ذلك الزائر الجديد الغريب المظهر ليسلوا وقتهم به.

***

1920

لم تكن هناك جريدة في أمريكا إلا وكتبت عن كارول ديرينج والعثور عليها، وفي خلال أسابيع قليلة ارتفعت أهميتها لتصبح قضية رأي عام وصعدت من مكاتب التحقيق العادية إلى مكتب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وقتها «هربرت هوفر». كان الرئيس هوفر يقف بجسده الضخم أمام نافذة مكتبه في البيت الأبيض ومساعده الوسيم لاورنس يقول له باهتمام:

- سيدي الرئيس، بخصوص كارول ديرينج، السفينة، كلما حققنا فيها وجدنا من أمرها عجبًا.

صمت الرئيس ولم يرد، فتنحنح لاورنس وهو يكمل:

- وجدنا أنه في هذه السنة بالذات هجم إعصار مدمر على منطقة أقصى جنوب برمودا، وهو أكبر إعصار واجه الأطلنطي في تاريخه، وراحت ضحيته بعض السفن الغافلة، ولكن كارول ديرينج كانت في أقصى الشمال بعيدة كل البعد عن تأثير الإعصار.

قال الرئيس بصوته الرزين:

- لقد ابتلع برمودا هذا مئات السفن والطائرات، وما دام هناك طائرات فلا علاقة للأعاصير البحرية بالأمر.

قلب لاورنس بعض الأوراق التي معه وقال:

- لدينا أيضًا يا سيدي تقرير المارينز الذي طرح نظرية أن هذه السفن التي تختفي إنما تمر في منطقة غنية بهدرات الميثان التي تنتجها البراكين البحرية، وهذه الهدرات تغير بالطبع من كثافة المياه، فتجد السفينة نفسها في مياه لا تقدر على حملها فتغوص إلى الأعماق بلا عودة، لكن يا سيدي جاءنا تقرير آخر يثبت أن منطقة برمودا كلها ليس فيها أي مناطق غنية بهدرات الميثان.

صمت الرئيس أيضًا ولم يعقب، لكنه بدأ يعدل من ربطة عنقه وكان هذا يعني بالنسبة إلى لاورنس أنه يستعجله، فقال لاورنس بسرعة:

- وكذلك أفاد المارينز أن منطقة برمودا هي من المناطق القليلة في العالم التي يتطابق فيها الشمال في البوصلة مع الشمال الحقيقي، وهذا قد يؤدي لخطأ في الاتجاهات لأي إنسان يبحر في هذه المنطقة أو يطير فوقها، مما يؤدي إلى ضياع واصطدام بإحدى المناطق الضحلة أو غيرها.

قال الرئيس وهو ينظر إليه بغضب:

- لا تدعهم ينشرون هذا الهراء حتى لا تصبح صورتنا حمقاء، إن كل السفن لديها خريطة بكل انحرافات البوصلة في كل خط طول وفي

كل عقدة في البحر يمرون عليها، وهذه الخريطة هي التي يمشي عليها الجميع وفيها برمودا وغير برمودا.

كان لاورنس سيشرع في التحدث لكن الرئيس قاطعه بقوله:

- هل تعلم لماذا قضية هذه السفن المختفية من برمودا هنا في هذا المكتب؟ لأنها قضية أمن قومي، المخابرات الروسية هي التي اختطفت هذه السفن في غالب الأمر أو اختطفها القراصنة.

قال لاورنس والدهشة تغمره:

- لكن يا سيدي كارول ديرينج لم تُختطف، فقط طاقمها مفقودون، ولو أن القراصنة هجموا عليهم مثلًا فلماذا هناك قارب نجاة مفقود؟ ولماذا شحنة السفينة من الفحم موجودة كاملة داخل السفينة وهي شحنة ثمينة جدًّا لم يكن ليتركها القراصنة أو غيرهم؟ والمعضلة الأكبر من هذا كله أنه لو افترضنا أنهم تعرضوا لإعصار جعلهم يهربون من السفينة فلا يوجد شيء واحد في السفينة يدل على تعرضها لأي طقس سيئ، إن البراميل يا سيدي كلها في موضعها ولا يوجد خدش في السفينة.

صمت الرئيس مفكرًا ولم يعلق، فقال لاورنس بحرج:

- احم، على الرغم من هذا فقد جاءنا شيء عجيب، رجل اسمه جراي جاء إلينا ومعه هذه الزجاجة.

نظر الرئيس باستغراب ليجد لاورنس ممسكًا بزجاجة مغلقة بداخلها رسالة، أخذ الرئيس الزجاجة وأخرج الرسالة منها وقرأ فيها:

«لقد تم الاستيلاء على سفينتنا ديرينج بواسطة قارب بخاري، وتم تقييد جميع الطاقم ولا توجد فرصة عندنا للهرب، الرجاء أبلغوا الشركة المسؤولة عن ديرينج».

كانت هناك صبغة من الزيف تبدو واضحة على الرسالة، وربما كتبها أحد القارئين المتحمسين للجرائد، لكن الرئيس قال للاورنس:

- أين وجد ذلك الرجل هذه الزجاجة بالضبط؟

قال لاورنس:

- في شاطئ بوكستون، ولكنها كما ترى تبدو مزيفة، لكننا على الرغم من هذا تتبعنا هذا النوع من الزجاجات فوجدنا أنه قادم من ريو دي جانيرو في البرازيل، هذا يرفع من احتمال صحة الرسالة قليلًا، لأن ريو كانت في مسار السفينة، وربما اشترى هذه الزجاجة أحد من الطاقم في أثناء نزولهم في ريو، وعندما تم اختطاف الطاقم نجح واحد منهم خلسة في كتابة الرسالة ووضعها في هذه الزجاجة وألقاها في البحر لعلها تجد شخصًا ما.

قال الرئيس هوفر:

- لا تضيعوا وقتكم في هذه الترهات، لا يوجد إلا حل واحد لهذه السفينة، أن هناك انقلابًا حدث داخلها، يعني أن الطاقم قتلوا القبطان وورميل وهربوا من السفينة وهم الآن يعيشون أحرارًا في مكان آخر تاركيننا ندور في حلقات مفرغة من الأساطير. أسرعوا بتوزيع أسماء طاقم السفينة على كل الموانى بلا استثناء وابحثوا عن تشابه الأسماء.

انصرف لاورنس من مكتب الرئيس وهرع إلى مكتبه ليبدأ نقل الأوامر ليجد بانتظاره لولوا، ابنة الكابتن وورميل، بكل قلقها وحيرتها، حاول طمأنتها بكل طريقة ولم يذكر لها موضوع أن الطاقم ربما قتلوا والدها، لكنه ذكر لها حكاية الزجاجة، أشرق وجهها لما سمعت الحكاية لأنها تعني أن هناك اختطافًا وأنه ربما يكون والدها حيًّا، وبعد الكثير من الرجاء من طرفها، أعطاها لاورنس الزجاجة لتبدأ تحقيقها الخاص عنها، وكان هذا سيشغلها عنه نوعًا ما لأنه كان لا يمر يوم إلا ويجدها في مكتبه. كان يبدو أن والدها يعني لها كل شيء، وأنها لن تهدأ حتى يتم حل هذا اللغز.

***

أحد عشر رجلًا نشرت الـ FBI أسماءهم وصورهم على كل ميناء وكل مطار أملًا في تحقيق نظرية أنهم انقلبوا على الكابتن وهربوا، ولقد آتت النظرية ثمارها سريعًا جدًّا، ففي مكتب لاورنس مساعد الرئيس جاء اتصال عاجل مفاده أن هناك شخصًا يطابق اسمه واحدًا من الأسماء التي كانت على كارول ديرينج، وأن هذا الشخص قادم من الدنمارك على سفينة كبيرة ستصل إلى تكساس ظهر اليوم واسمه «بيتر نيلسون». اشتعل رأس لاورنس

حماسة وأمر أن تنتظر في ميناء تكساس فرقة كاملة عسكرية من الـ FBI، وبالفعل وصل الرجل وكان متعجلًا ولم يدرِ إلا والجنود الفيدراليون يحيطون به من كل مكان كالجراد وأمسكوا به بهدوء ووضعوه في الحجز، والحقيقة أن الرجل كان متعاونًا جدًّا ومتفهمًا ولم يفتعل أي مشكلات، قال إنه بحار دنماركي يعمل على سفينة صغيرة في بلاده ولم يسمع أصلًا بكارول ديرينج هذه. تم إبقاؤه في الحجز لحين التأكد من هذه المعلومات من الدنمارك. وبعد التحقيق وسؤال السلطات هناك ثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن بيتر نيلسون هو كما يقول عن نفسه، وأنه كان في الدنمارك في وقت غرق ديرينج ولا علاقة له بها من قريب ولا من بعيد.

ضرب لاورنس بقبضته على المكتب في كمد، كانت قد أوشكت أن تُحل ولــ...

سمع طرقات متعجلة على المكتب فعدل هندامه وهدَّأ من نفسه وأمر بالدخول، فوجد آخر وجه يريد رؤيته في هذه الساعة؛ لولوا، كانت تحمل الزجاجة ويبدو وجهها مستبشرًا. قالت له بسرعة:

- لقد تأكدت أن هذه الزجاجة حقيقية فعلًا، لقد حصل اختطاف لوالدي، لقد زرت أهالي المفقودين واحدًا واحدًا وعرضت عليهم الخط الذي في الرسالة حتى تعرفت عليه؛ زوجة المهندس «هيربيرت بيتس» الذي كان معهم على السفينة، وباستشارة خبير خطوط، أكد على التطابق بين خط المهندس والخط المكتوب به هذه الرسالة في الزجاجة.

نظر إليها لاورنس بعدم تصديق ثم رفع سماعة الهاتف وقال بحدة:

- استدعوا لي «جاري» الذي أحضر تلك الزجاجة حالًا إلى البيت الأبيض.

مضت ما يقرب من الساعة ولولوا تدور في مكتب لاورنس والقلق يعم أرجاءها، حتى سمعت طرق الباب ودخل أحد الرجال ومعه «جاري» الذي كان ينظر إلى الجميع في ترقب وخوف، فالمرء لا يدخل البيت الأبيض كل يوم.

قال له لاورنس:

- اذكر لي أمر هذه الزجاجة، ولا تغادر تفصيلة واحدة، أنت تعلم أين أنت.

قالت له لولوا برجاء:

- أرجوك، أنا ابنة الكابتن وورميل، قل ما تعرفه لربما نتوصل إلى أبي.

أطرق الرجل بوجهه إلى الأرض وتنهد بشكل لا يبشر بخير وقال:

- لقد اختلقتُ أمر هذه الزجاجة يا سيدي، أنا الذي كتبت الرسالة بنفسي.

أمسكت لولوا بمعصم الرجل وهي ترجوه قائلة:

- لقد تأكدت أن الخط يماثل خط واحد من الذين كانوا على السفينة.

أشاح جاري بوجهه عنها وقال:

- الحقيقة يا سيدي أنني كنت متقدمًا للعمل في المنارة، وقد اختلقت هذه القصة لعلي أكون محظيًّا لديهم فيقبلونني عندهم، آسف يا سيدتي، هذه الرسالة ليست حقيقية.

نزلت الدموع من عيني لولوا التي تطلعت إلى الرجل بمشاعر متضاربة بين الحنق والحزن والكراهية والرجاء، لكن لاورنس قطع هذه المشاعر سريعًا وقال:

- أنت مقبوض عليك بتهمة نشر المعلومات الزائفة، ضعوه في الحجز.

وتم أخذ الرجل خارج الغرفة، وخرجت بعده لولوا وقد انحنى ظهرها من الكرب، كانت قد فقدت آخر دليل يمكن أن يدل على حياة أبيها، وبدا على حالها أنه لا يعنيها من بعده شيء.

دخل رجل بسرعة إلى مكتب لاورنس وهمس في أذنه قائلًا:

- سيدي، لقد وجدنا تطابقًا آخر في الأسماء، وهذه المرة هو ليس تطابقًا فقط في الاسم، بل تطابق في الشكل أيضًا، «بوب راني» أمريكي أسود، مساعد مهندس، كان على متن كارول ديرينج، وجدناه في ميناء أثينا ينتظر السفينة التي ستقله إلى نيويورك.

هبط الأمل على ملامح لاورنس وقال وهو يعض على شفته:

- أثينا، إنه بعيد عن السلطة الأمريكية. أخبرهم في أثينا أن يراقبوه دون أن يثيروا فيه الشك، ويتأكدوا أنه سيصعد إلى هذه السفينة، مهما كان، هل سمعت؟ أريد هذا الرجل في نيويورك.

وبدأ القدر يسير بطريقة مغايرة، بوب راني الذي كان جالسًا ينتظر في الميناء فجأة قام من مكانه وطلب إلغاء الحجز في السفينة، وبدأت قلوب الجميع تدق، لكن موظفة الحجز كانت شديدة الاحترافية، فأخبرته أنه لا يمكن إلغاء الحجز وإلا سيتم تغريمه غرامة كبيرة، كما أنه لا يوجد حجز إلى نيويورك لمدة شهر كامل، فلا تنصحه أن يلغي هذا الحجز أبدًا.

صمت راني قليلًا ثم قال لها بحزم:

- فليكن، سأسافر على هذه الرحلة.

وصعد راني إلى السفينة وتحركت به إلى نيويورك، وبلغت أهمية الأمر أن يسافر لاورنس مساعد الرئيس بنفسه إلى نيويورك ليكون في استقباله بفرقة مسلحة من القوات الفيدرالية، ووصلت السفينة إلى ميناء نيويورك، وبدأ ركابها يخرجون تباعًا، حتى ظهر بوب راني، بقامته الطويلة وجسده الرياضي ووجهه الوسيم الأسود، كان هو الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يحل سر برمودا بأكمله، وفي ثوانٍ كان ينتظره صف من الجنود يتقدمهم لاورنس ينظرون إليه بلا كلمة.

سؤال واحد ألقاه عليه لاورنس:

- هل كنت مهندسًا على متن السفينة كارول ديرينج؟

نظر إليهم راني برهة بدهشة ثم قال:

- نعم.

بدا على وجه لاورنس الارتياح حتى سمع راني يقول:

- ولكنني غادرتها قبل أن تقلع بنصف ساعة، ويبدو أن هذا كان من حظي، فقد عرفت أنها غرقت.

امتقع وجه لاورنس ثانية وقال للجنود:

- اقبضوا عليه.

قيَّد الجنود راني وساقوه إلى الحجز، وكان من تصاريف القدر أن جميع التحقيقات تضافرت على تأكيد كلام بوب راني، وأنه على الرغم من أن اسمه مسجل على السفينة، فإنه غادرها بالفعل قبل أن تقلع بنصف ساعة، وتم تأكيد هذا بعدة طرق.

وفقد التاريخ آخر أمل لحل لغز كارول ديرينج، وبقي أمرها معلقًا، حتى حين...

***

1975

آثار الكدمات على وجهه والمزق في ملابسه والسجن الانفرادي الذي نُقل إليه يدلون على أنه اكتفى من الشجار في السجن وسط حثالة البشر فنقلوه إلى زنزانة انفرادية. أخذ ينظر إلى السقف بعينين غلبهما اليأس ويفكر في شنق نفسه، لعل روحه تنتقل إلى مكان أفضل من هذا العالم، لكنهم هنا يجعلون السقف عاليًا جدًّا وكأنهم احتاطوا لهذا. كان يعرف أن أمر سجنه هذا أمر مدبر، أخوف ما كان يخاف أن يكون أحد زملائه قد بلَّغ عن موضوع الأسلحة هذا حتى يسرق السبق العلمي ويعلن عن اكتشاف هاتشيسون وينسبه لنفسه، لكنه يتابع الجرائد هنا ويسأل كل من يأتي للزيارة، لا أثر لأي كشف علمي، هو يعلم أن هذا النوع من الكشف العلمي سيغير العالم ولن يمر مرور الكرام.

أخذ يفكر وهو يسمع خطوات الحارس تقترب من الزنزانة فامتعض وجهه لحظات، لم يدرِ حقًّا لماذا ألقوه في هذا المكان العفن، أيها العالم، أنا أقدر على أن أجعل حياتكم أفضل، فقط اسمعوا مني. سمع صوت الحارس يقول:

- هاتشيسون، إن لديك زائرًا استثنائيًّا.

انفتح الباب مباشرة وهاتشيسون ينظر بلا شغف حقيقي لكنه قطب جبينه استغرابًا لمَّا رأى الزائر، رجل أمريكي أسود عجوز جدًّا يمشي ببطء ازداد بشاشة عندما رأى هاتشيسون الذي نظر إليه بلا فهم لحظات، واستغرب عندما غادر الحارس وترك الرجل معه في الزنزانة وأُغلق الباب.

لحظات من الصمت انتابت هاتشيسون وهو ينظر إلى الرجل العجوز منتظرًا أن يتكلم، ثم انتبه هاتشيسون أن الرجل واقف، فقال بطريقة مؤدبة:

- تـ... تفضل يا أبت.

جلس الرجل ونظر إلى هاتشيسون وقال بصوت واهن:

- أنت رجل صالح يا ولدي، لقد شاهدتك في التلفاز.

استغرب هاتشيسون قليلًا، فقد ظن أن تلك القناة المحلية التي ظهر عليها لا يشاهدها أحد على أي حال، إلا العجائز ربما الذين يشاهدون هذه القنوات المملة. ابتسم الرجل ابتسامة طيبة وقال:

- أنت تسأل نفسك من أنا وما حاجتي أن آتيك إلى هنا وأنا بهذا الضعف.

قال هاتشيسون بسرعة:

- لا، ولكـ....

قاطعه العجوز:

- أنا أدعى بوب راني، الناجي الوحيد من سفينة كارول ديرينج، الضحية الأشهر لمثلث برمودا.

كان هاتشيسون يسمع عن مثلث برمودا من بعيد ولكنه لا يعرف أي تفاصيل غير التي قرأها مرة في إحدى الجرائد أنه مكان خطر وما إلى ذلك. قال العجوز راني:

- ربما تظن أنه لا علاقة لك بالأمر، حادثة حصلت منذ أكثر من خمسين سنة يا ولدي، ما شأنك بها؟

بدت على العجوز علامات التأثر وهو يتذكر شيئًا بعيدًا ويقول:

- عندما شاهدت برنامجك عرفت أنه لا أحد في الدنيا جدير بالسر الذي كتمته في قلبي خمسين سنة إلا أنت.

بدأ هاتشيسون يشعر بخرف العجوز وأخذ يفكر في طريقة لصرفه ولكن العجوز أكمل:

- إن الكارثة التي حدثت لكارول ديرينج لها علاقة وثيقة بهذه الأمور التي تحدثت أنت عنها، أنا سألت عنك وتعجبت أنك في السجن، فأقسمت أن آتيك وأحكي لك كل شيء.

***

يقول بوب راني:

كنا أحد عشر رجلًا نبحر في غمرات برمودا ولم ندرِ ما برمودا، ولم نكن نعتني كثيرًا، قبطاننا كان رجلًا حنون القلب يظهِر الشدة، اسمه وورميل،

وكنت أنا في منتصف العشرينيات شابًّا قوي الجسد رياضيًّا مثلك هكذا يا ولدي أو أشد منك، ابتدأ الأمر بغرابة لم نشهد مثلها قبلًا، أخذت تظهر في سماء الليل ألسنة من الرعد بلا سحب كثيفة ولا جو ينذر بالمطر، لكن شيئًا مثل الضباب بدأ ينتشر في السماء بسرعة حتى فقدنا رؤية الأفق، وأنا أقسم أن هذا لم يكن ضبابًا، فأنت تعرف الضباب وطريقته، هذا كان شيئًا آخر، شيئًا بدا وكأنه يلوِّن السماء والبحر، ولم يترك الأجواء إلا وكل شيء قد اصطبغ بلون أبيض، فلم تعد تفرق بين السماء والبحر ولم نكن نرى أبعد من متر أو مترين.

ابتدأت تخرج تشويشات في الراديو وكأنه يعمل من تلقاء نفسه، ولم نهتم بالأمر كثيرًا وقتها، خرج الكابتن وورميل من القمرة يحمل البوصلة ووجهه يحمل حيرة نراها لأول مرة على وجهه الحكيم، فالذي مثل وورميل هذا لم يكن ليدهشه في البحر شيء. ذهبت لأرى ماذا حل بالبوصلة، فقد كنت مساعد المهندس، فرأيت إبرة البوصلة تصنع أمرًا لا تصنعه أي بوصلة في العالم، كانت تدور في اتجاه عقارب الساعة، انقبض قلبي وبخاصة عندما ازداد تشويش الراديو وبدأ يكون مزعجًا مع تلك القبسات الرعدية التي تسطع من فوقنا كل حين بلا سبب فتكسر حدة اللون الأبيض الذي يغمر كل شيء.

بدأ الفزع يسري في القلوب وبخاصة عندما صعد المهندس هيربيرت بيتس من بطن السفينة وقال إن السفينة أصابها جنون حقيقي، لا يوجد أي جهاز فيها يعمل، سواء المحركات أو المؤشرات وكأننا تعرضنا لمحو إلكتروني شامل، فقط الراديو هو الذي يصدر صوتًا مزعجًا، ثم اكتملت دائرة المحو الإلكتروني حينما انطفأت أضواء السفينة دفعة واحدة.

كان برمودا يرينا بعض النذر فقط مما هو آت، كنت أسمع عن برمودا، وكل شخص ركب البحر يومًا يعرفه، لكنني كنت أعُدُّ أن كل ما يُقال عنه ترهات جرائد تحب الإثارة. بدأت بعض الأشياء في أرضية السفينة تتحرك حركة لم أفهمها، كأنها تهتز، الحبال والمراسي وغيرها وبدأنا نستقبل شيئًا في الراديو، كان صوتًا إذاعيًّا لامرأة:

«هنا ثو هو ونج، سنتحدث عن الجنود الأمريكان هنا في فيتنام، كيف حالكم أيها الجي آي جو؟»

اقترب المهندس بيتس من الراديو وهو يستمع إلى رسالة أخرى وهو صوت امرأة أيضًا لكنها تبدو مذعورة:

«هنا إميليا إيرهارت، لم يعد لدي من الوقود إلا نصف ساعة، لا أحـــ... يسمعنا، نحن نرسل إلى 3105، سنهبط إلى ارتفاع 1000 قدم».

ابتلع المهندس ريقه وهو يمسك الراديو محاولًا إغلاقه، وهنا صدر صفير حاد بشع مؤلم من الراديو فتركه من يده ليسقط على الأرض واستمر في إصدار تلك النغمة حتى وضعنا أصابعنا في آذاننا. توجهت إلى الراديو لأطفئ هذا العذاب ولم أقدر أن أكمل خطوتين، فقد بدأت السفينة تهتز يمينًا وشمالًا بشكل متأرجح ولم تكن هناك نسمة هواء، صرخ الكابتن وورميل في المهندس بيتس:

- اهبط إلى المحرك اللعين وادفعنا بأي طريقة من هذا المكان.

ثم صرخ في اثنين من الطاقم:

- ارفعا ما بقي من الأشرعة.

مشيا مترنحين وسط أرجحة السفينة كلٌّ إلى موضعه لينفذ الأوامر، وفي اللحظة التي نزل فيها بيتس إلى المحرك وأغلق الباب وراءه شهدنا بأعيننا أمرًا لم يرِد على عين إنس ولا جن، بل لم يرد حتى على خاطرهم، كل شيء كان ملقى على أرضية السفينة أو معلقًا على جدرانها أصبح يرتفع كأنه شيطان، العوامات المعلقة على الجدران انقلبت إلى أعلى كأن أحدًا يسحبها من السماء، الحبال أخذت ترتفع وتتلوى في الجو كثعابين الحواة، كل هذا كان جديرًا بأن نغلق أفواهنا وترجف أعيننا، لكن ما أخرج الصرخات من حلوقنا هو عندما رأينا المراسي الحديدية تنتصب في الجو وتعلو وتستدير، نظراتنا الموجَّهة إلى السماء لم تجد سببًا وراء كل هذا إلا بضعة أعمدة من الرعد تضرب هنا وهناك بلا صوت. صرخ الكابتن وورميل في الجميع:

- تمسكوا بأي شيء حولكم، هذه السماء ساحبة لـــ...

لم يكمل كلمته حتى بدأت يده ترتفع من تلقاء نفسها فتحامل على نفسه وأمسك في صارية السفينة التي بجواره، أما أنا فشعرت بقدمي تتحرك عن موضعها ففقدت توازني وسقطت، فارتفعت رجلي بكاملها إلى الأعلى لكني

أنزلتها بلا جهد بسبب عضلاتي القوية، وتمسكت جيدًا بجدار السفينة ورأيت الجميع يلتجئون إلى أي شيء يثبتون أنفسهم عنده وهم يصرخون في رعب. لم يشهد الإنسان يومًا كارثة السَّحب إلى السماء، لطالما كانت السماء سقفًا وأمنًا، ولم يتخيل أحد في أبشع كوابيسه أن غضب السماء سيكون بهذه الطريقة، ويبدو أن المشكلة لم تكن في بحر برمودا، بل في سمائه.

هدأ صفير الراديو قليلًا فاستجمعنا أنفاسنا، وفي الدقيقة التالية حدث ما أحزن قلوبنا؛ مكليلان السكير لم يكن في وعيه منذ البداية، وعندما بدأ ارتفاع الأشياء أصبح ينظر حوله فاغرًا فاه، ثم تمسك بالسور عندما رآنا متمسكين، لكن الخمر لم تكن قد خمرت وعيه فقط بل حتى أعضاءه، ولم تجد السماء صعوبة في اقتلاعه من موضعه لتأخذه إليها، نظرنا إلى أعلى لنشاهد مكليلان يرجف صاعدًا في السماء حتى اختفى بلا صوت وسط الضباب الأبيض، والحق أن هذا كان مشهدًا جفت له الحلوق والأوردة وانحدرت حبات العرق على الجبين وكلٌّ يقبض على ما يمكن أن يستمسك به.

سمعت أنين شخص فنظرنا إليه جميعنا، كان هو البحار العجوز «فين»، لم تكن قواه قادرة على تثبيته لمقاومة القوة السماوية الساحبة، صاح فيه الكابتن وورميل:

- ثبِّت أقدامك في تلك الحلقة يا «فين».

نظر إليه «فين» بحزن ودمعة حارة تسيل على جبينه، كانت قواه قد خارت فأفلت نفسه وارتفع بدوره، كانت المرة الأولى التي أرى فيها الكابتن وورميل متأثرًا ترتجف ملامحه من التهيؤ للبكاء، فقد كان «فين» صديقًا مقربًا له، ثم سمعنا مقبض باب غرفة المحرك يُفتح، فصرخ وورميل:

- بيتس، لا تخرج يا بيتس، ابق مكانك.

لكن الباب انفتح وخرج بيتس بقوة ظانًّا أن هناك خطرًا من القراصنة أو سواهم، وكان رجلًا مقدامًا، لكن السماء لم ترحمه، فجذبته إلى أعلى فاصطدم رأسه بخشبة فوق الباب وكانت صدمة كافية لنفقد بيتس إلى الأبد.

بدأ نحيب من البكاء يظهر من البعض، وكان الوحيد الذي يبدو أنه يستجمع نفسه هو وورميل الذي صاح بي في لهجة آمرة:

- راني، تحرك بحذر ناحية قوارب النجاة، لا تفلت سور السفينة أبدًا، وخذ «جاك» معك، فأنتما أكثرنا قوة بدنية.

نظرت إلى حيث القوارب، كانت بعيدة نوعًا ما، لكني تحركت، فقد لاح لي أن هذا هو الحل الوحيد للخروج من هذه اللعنة، كان جسدي يساعدني فتحركت وأنا أمسك بالجدار بقوة وتبعني جاك الذي كان ينحني على السور ويحرك رجليه خطوة خطوة، حتى وصلنا للقوارب وبدأت من ناحيتي أفك قاربًا منها، وكانت مهمة عسيرة، فمن الصعب أن تثبِّت نفسك بقوة على الأرض وتنفِّذ شيئًا آخر يحتاج إلى قوة بدنية مضاعفة.

كانت المشكلة عند جاك أنه جذب الحبل بقوة كبيرة بينما هو يحاول تثبيت نفسه، فانخلعت الحديدة وانطلقت لتضرب وجهه بقسوة وبالطبع أفلتت يداه وقدماه، ولكني نجحت في الإمساك به في اللحظة الأخيرة وهو يصرخ من الرعب، كان هذا المجهود ثقيلًا جدًّا على عضلاتي، لا أحد جرب أن يبذل جهدًا بجسده ليصنع قوة تحاكي قوة الجاذبية ليبقي نفسه على الأرض، وفي الوقت نفسه يسحب جسدًا قويًّا بيد واحدة. لم تمضِ ثوانٍ إلا وأفلتت قدم جاك من يدي وانطلق إلى قدره.

بذلت جهدًا مضاعفًا حتى أفك القارب وأنزله إلى البحر، وامتلأ وجهي بالعرق وأنا ألتفت إلى الجميع وأناديهم، وبدت بارقة الأمل في وجوههم وهم يتحركون بحرص شديد وببطء إلى قارب النجاة، ولم يكن الكابتن وورميل يتحرك، بل كان يراقبهم فقط، ناديته قائلًا:

- كابتن وورميل، هيا، هل آتي وآخذك؟

نظر إلي الكابتن نظرة لن أنساها وقال:

- إن القبطان الصالح لا يترك سفينته يا راني، القبطان يهبط مع السفينة حيثما هبطت.

صحت فيه:

- كابتن، نحن سنعود إليها، دعنا نمر من هذه الكارثة وسنعود.

لكن الأمر هو قانون البحر، القبطان يهبط مع السفينة حيث هبطت، ولا يحترمه إلا قبطان حقيقي مثل وورميل، ولم يكن ليكسر هذا القانون ولو

على جثته. نظر إلي وورميل بتلك العينين الزرقاوين الحانيتين التي يملكهما وقال لي:

- راني، إذا نجوت أخبر ابنتي لولوا أني أحبها، قل لها إن أباها سيزورها وأنها ستبقى لولوا الصغيرة في عينيه.

ترقرقت عيني بالدمع والتفتُّ أنشغل بتجهيز حبال القارب، وبعد جهد كبير وصل البقية إلى القارب وبدأت أنزلهم بحرص وأنا أتشبث بالسفينة، ولكن الأمور لم تسِر على ما يرام، فبينما أنا أنزِل واحدًا منهم انزلقت قدمه وحاولت أن أمسك به لكنه أفلت من يدي، ولكن يدًا أخرى أمسكت به، يد زميله الذي كان ما زال على السفينة، وكان مشهدًا عجيبًا والرجل يرتفع في الهواء ورجل آخر يمسك به ثم يرتفع الرجلان لتأخذهما السماء.

نظرت إلى الأرض وأطلقت بعض اللعان على هذه الحال التي وصلنا إليها، ولم يعد باقيًا من الطاقم إلا أربعة أنا خامسهم، ولقد نجحوا جميعًا في الهبوط إلى القارب وتثبيت أنفسهم جيدًا عليه، ألقينا نظرة أخيرة على الكابتن وورميل الذي نظر إلينا من وراء سور السفينة بحزن، وكنت أجدف مع رجل آخر ونحن نبتعد عنه والدمع يبلل الوجوه، لقد كنا نحب الكابتن وورميل، ولقد كانت تلك هي النظرة الأخيرة.

بدأ القارب يبتعد ببطء شديد عن السفينة، لأن تلك القوى الرافعة كانت ترفع المجاديف بينما ندفعها نحن بكل قوتنا إلى البحر لتسيِّر القارب. وبعد ثلاث ساعات كانت قوتنا جميعًا قد ضعفت من التجديف على الرغم من أننا كنا نبدل أدوارنا كل نصف ساعة ولا يحتمل الرجل التجديف في هذه الظروف أكثر من نصف ساعة، كان اللون الأبيض لا يزال يصبغ كل شيء ولا نرى شيئًا في الأفق، مر الوقت علينا ونحن نستند إلى جدار القارب ونتمسك، وبدأ خدر النوم يغزو أجفاننا، وبالطبع كان الواحد منا يعلم تمام العلم أنه إذا نام سينتهي أجله، ليست روحه فقط التي سترتفع، بل جسده كله.

كنا نحاول أن نأخذ من ماء البحر ونضع على وجوهنا حتى لا ننام، بل حتى جرب بعضنا أن يشرب ماء البحر لكن من ذا الذي يقدر على سطوة النوم على نفوس البشر؟ وأي نفس تلك التي تقدر أن تهزمه؟ كنا نعلم أن

الأمر مسألة وقت وسننام إن عاجلًا أو آجلًا، ولو أن قوانا تقدر على التجديف لفعلناها، لكن لم نكن في حال تسمح.

سقط أول واحد منا، أو لنقل ارتفع، غلبه النوم فأخذته السماء، حاولنا تثبيت أقدامنا بين أخشاب القارب بطريقة تمنعنا عن الارتفاع إذا نمنا، وكنت أنا أجاهد نفسي حتى إنني كنت أغني وأثرثر في أي شيء، لكن الصورة كانت تتموه في عيني ويأتي مارد النوم ليأخذني إليه، ثم أفتح عيني وأرى رفاقي في حال تماثلني سوءًا أو تزيد، والكل فاغر فاه، ولم تمضِ دقائق بعد هذا إلا وقد سلمت نفسي لسلطان النوم، وانتهى كل شيء.

***

قال هاتشيسون بوجه تملؤه المشاعر:

- رباه! وماذا حدث بعدها؟

قال العجوز راني:

- لا شيء، فقط استيقظت لأجد نفسي في منتصف المحيط وحدي على القارب وليس معي أحد من رفاقي، كنت قد نجحت في تثبيت قدمي بين خشبتين متعاكستين في القارب، ولم يكن من الصعب بعدها أن أجدف إلى أقرب أرض، وهي جزيرة هاترز.

سأل هاتشيسون بنهم:

- أنت أتيت إلى هنا لأنك تظن أن ما حدث في تلك السفينة هو نفسه ما كنت أفعله أنا في التلفاز بالمجال المغناطيسي؟

قال العجوز:

- نعم، هو نفس الضباب ونفس ألسنة الرعد التي تبرق بلا صوت ونفس ارتفاع الأشياء، أرجوك يا بني، ابحث في هذا الأمر ولا تيأس، وبالنسبة إلى كفالتك الضخمة التي وضعوها عليك حتى تيأس من الخروج فقد دفعتها لك كلها، وإلا لما وافقوا أن آتيك لأجلس معك ها هنا. اخرج يا بني إلى العالم واسطع بنورك في وجوه الجميع ولا تجعل أحدًا يحبطك يا بني.

***

كنت أسمع دومًا أن عرش الشيطان موجود في مثلث برمودا الذي تكمن فيه مجاميع الطاقة السلبية كلها، ويتوارى فيه المسيح الدجال، وتمرح فيه المخلوقات الفضائية مع مخلوقات جوف الأرض، وكل شيء شرير في العالم تقريبًا، لكن هذا الرجل الكندي قدم قصة مروعة لم أسمع بها من قبل، هناك جزء في داخلي لا يصدق شيئًا من هذا الهراء، وجزء آخر يقول إن هذا هو الحق والباقي هراء. الرجل لا يبدو كاذبًا بأي حال، وأنا أعرف الكاذب لما أرى واحدًا. لاحظت أن الكل صامتون يفكرون بعد القصة، حتى تنحنح هاتشيسون وقال بصوته الأجش:

- هناك مجال مغناطيسي مختلف التردد فوق مناطق معينة بمثلث برمودا، مجال تحدثه العواصف الرعدية مع انحرافات المجال المغناطيسي في المنطقة، خطورة هذا المجال تكمن في أنه يرفع ما خف وزنه مثل البشر، ويترك الأشياء الأخرى في مواضعها، وهذا يفسر اختفاء الطاقم تمامًا في كارول ديرينج.

قال شارلوتان بتشكك:

- لكنه لا يفسر الاختفاء التام الذي حدث للبارجات العملاقة والطائرات، فهنا لم يختفِ الطاقم وحده، بل اختفى كل شيء بلا أثر.

وضع هاتشيسون يده تحت ذقنه كعادته عندما يتحدث بجدية وقال:

- بل إن هذا المجال لديه قدرات أعلى من ذلك تحدث في ظروف معينة، وهي قدرات لم أذكرها في القصة، أي شيء يدخل في هذا المجال يمكن أن يتم ابتلاعه كما يبتلع الثقب الأسود ما حوله، والابتلاع لا يعني التدمير أبدًا، بل إن الشيء المبتلَع يخرج مرة أخرى في مكان آخر، هناك طائرات اختفت في برمودا وظهر حطامها في مكان آخر بعيد جدًّا عن المكان الذي أُرسلت منه رسالة الاستغاثة، مثل الطائرة 201 التي سقطت في الرادار في مكان معين وشوهدت في نفس الساعة تسقط بجوار جزيرة بيميني وهي تبعد أكثر من 50 كيلومترًا عن الموضع الذي سجله الرادار.

رفع شارلوتان حاجبيه الصغيرين فهمًا وقال:

- هذا يذكرني بذلك الطيار الذي خرج مؤخرًا ليقول إن طائرته الصغيرة دخلت فجأة في سحابة بدت له مثل المتاهة المظلمة، وكاد يفقد عقله وهو يشاهد ألسنة الرعد تضرب حوله، ثم لما خرج من السحابة وجد نفسه بجوار ميامي التي كانت تبعد عنه أكثر من ساعة، كأن السحابة طوت له المسافة بشكل ما.

تكلم صاحب الوجه النحيف البائس وهو يكتب شيئًا ما في ملاحظاته:

- للأسف برمودا هذا أسطورة صنعتها الصحف بذكاء شديد، فنسبة الإقبال على قراءة ومشاهدة هذا الهراء عالية جدا، بلايين تم ربحها من شركات الأفلام والصحف والقنوات ودور النشر بسبب برمودا، ولو نظرت بعين فاحصة لبحار العالم ستجد أن نسبة اختفاء السفن في أي واحد منها هو نفس معدل الاختفاء في برمودا، سجلات خفر السواحل أظهرت أن السفن التي مرت بسلام من المثلث هي أكثر بكثير من التي تم اختفاؤها، شركات التأمين الكبرى على السفن لا تأخذ رسومًا أكبر على السفن التي تمر في هذه المنطقة، كل أمر برمودا هذا هراء، معذرة.

قال هاتشيسون بهدوء:

- سيدي، هذا المجال الكهرومغناطيسي المختلف التردد لا يحدث في برمودا فقط، بل في كل بحار ومحيطات العالم، يعني هذه السماء الساحبة قد تواجه السفن في أي مكان في العالم، أنت فهمت خطأ أني أخص برمودا بالذكر، لكن هي ظاهرة طبيعية تحدث في أي مكان وتفسّر جميع حوادث الاختفاء البحرية بلا استثناء.

قال شارلوتان وهو يطرق على الطاولة:

- نحن نسمي هذه الأشياء الغريبة ما وراء الطبيعة، لكن الحقيقة أنها من الطبيعة ونحن الذين وراءها. سيكون موعدنا غدًا في نفس الساعة، يمكنكم الانصراف الآن، وتذكروا: كل قصصكم هذه سيتم عرضها على الجهات العلمية بعد المؤتمر.

رأيت ذلك النحيف البائس يتحرك ناحية الدكتور هاتشيسون ويقول له بصوت خافت لم يسمعه غيري:

- سيد هاتشيسون، أستغادر الفندق اليوم كما غادر أصحاب القصص الأولى؟

ضحك هاتشيسون وقال:

- لا، أنا في إجازة مفتوحة، ولن أغادر حتى أسمع جميع القصص.

جلست قليلًا على أريكة البهو بالأسفل فرأيت تلك الفتاة المحجبة تقترب مني وتنظر إلى الأرض في حياء شديد ويظهر عليها أنها تريد أن تقول شيئًا، فبادرتها السؤال بتوتر:

- مـــ... مرحبًا سيدتي، تفضلي.

قالت بلغة إنجليزية ذات لهجة غريبة جدًّا:

- معذرة، أيمكنك أن تفك لي هذه الإسورة التي وضعوها لنا؟ أنا حاولت بكل الطرق ولم أقدر، أرجوك.

أومأت برأسي إيجابًا فمدت يدها لي ونظرت إلى الإسورة، تبدو عادية وليست معطوبة، الحقيقة لم يأتِ على بالي أن أحاول فك الإسورة من قبل، فهي لا تضايقني. فحصتها سريعًا فلم أجد فيها أي موضع للضغط عليه، رفعت كمي ونظرت إلى إسورتي لأكون أكثر حرية في الفحص وحاولت بكل الطرق أن أفكها لكن بلا فائدة. جلست الفتاة على المقعد الذي أمامي تنتظرني بينما تشاغلتُ أنا بمحاولات الفك الفاشلة، فسألتها:

- من أين أنتِ؟

قالت لي:

- تشينج يانج، الصين.

نظرت إليها بدهشة لحظات ثم عدت إلى الإسورة ولم أُعلّق، يبدو أنها من مسلمي الصين، سمعت صوت الحية الرقطاء من خلفي يقول:

- لا تتعب نفسك يا قداسة الشيخ؛ هذه الإسورة مبرمجة لتفك نفسها بعد أسبوع من وضعها، حتى تؤدي الغرض منها كاملًا، وهي طريقة تمنع الشخص أن يخلعها قبل أن يحقق أقصى استفادة منها.

فتحت فمي للتعليق لكنه استدار ومشى مبتعدًا بطريقة جافة. نظرت حولي بضيق، هذا الرجل لا يبدو مريحًا، ولا هذا المكان أيضًا.

في اليوم التالي دخلتُ إلى غرفة الاجتماع وكان أول ما فعلته هو النظر إلى كرسي هاتشيسون الذي وجدته فارغًا، بدأ قلبي يهبط في قلق، ألم يقل إنه لن يغادر حتى النهاية؟ هناك شيء ما خطأ.

كان الجميع حاضرين وتبدو عليهم أمارات النشاط، إلا ذلك النحيف البائس الذي نظر إليَّ في قلق بعينيه الواسعتين، فقلت لشارلوتان:

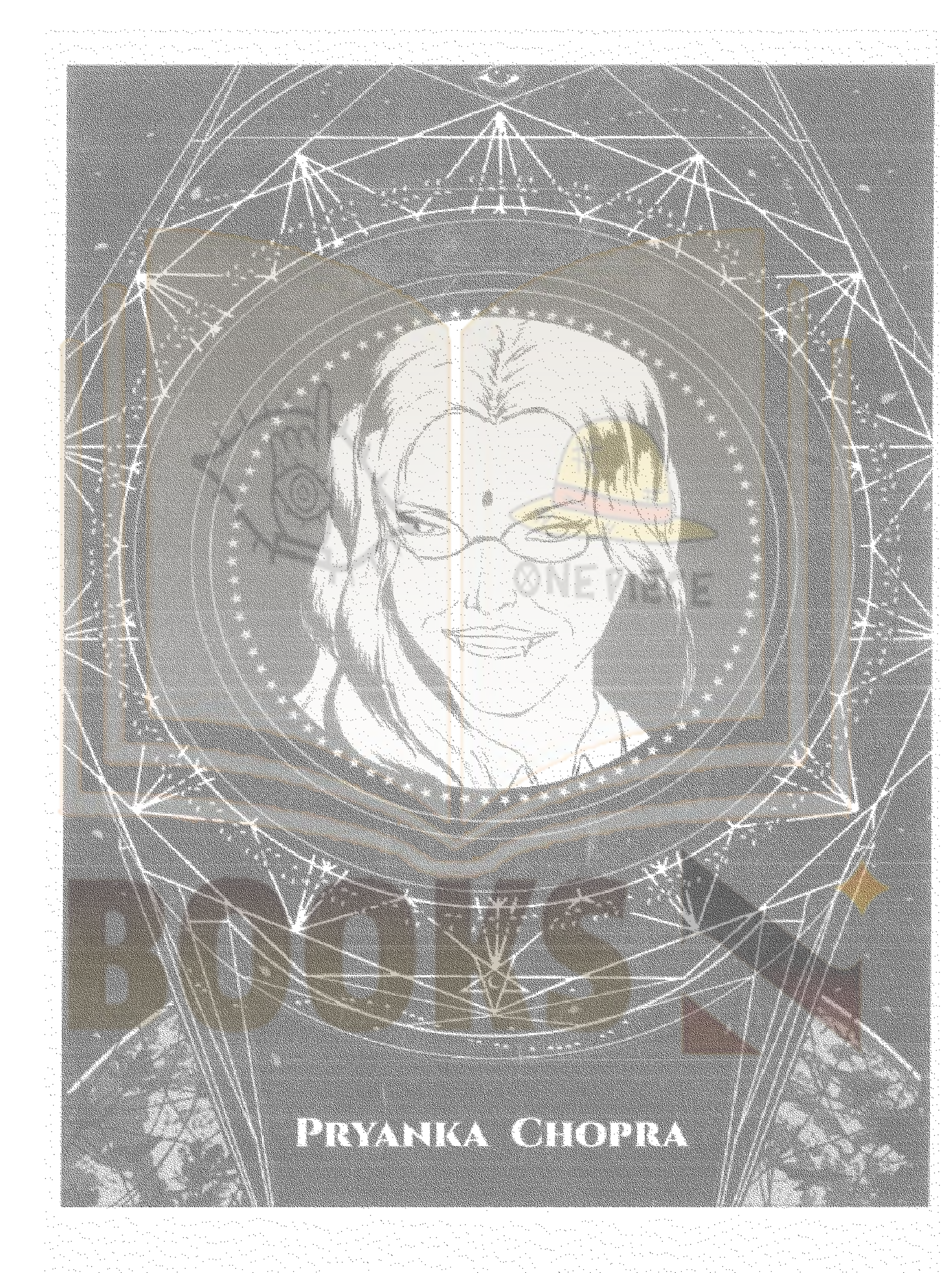
- هل غادر السيد هاتشيسون أيضًا اليوم؟

قال شارلوتان بلا اهتمام:

- نعم لقد غادر، شكرًا لسؤالك.

أي جفاف هذا؟ ألا يكفي وجهك الشبيه بالحية! مططت شفتي في عدم رضا وأنا أنتظر المتحدث التالي. قال شارلوتان:

- السيدة بريانكا شونرا، اليوم دورك، والحكاية اليوم ليست علمية ولا روحية، بل ما ورائية. أخبريهم ما لديكِ يا سيدة بريانكا.


PRYANKA CHOPRA

5

حكاية مصاصي الدماء

ترويها: بريانكا شونرا

«يا بني أنا والدتك، لكنك إذا رأيتني
وقد طال الشعر على وجهي وتقوَّس ناباي
وأصبحت أكره نور الصباح، فاقتلني يا بني».

أمقت الأيام التي كنت فيها واحدة من أمثالكم، أفكر مثلكم، أحلم أحلامًا صغيرة وأبحث عن متع زائفة، أتجمل وأزين الكلمات لأبدو أكثر رقيًا أمام أناس يتجملون لنفس السبب، أقرأ كثيرًا من الكتب لأبدو أكثر ثقافة أمام الذين لم يقرؤوها، وهأنذا أنظر إلى ما أنتم عليه من التدهور ثم أنظر إلى مرآتي وأبتسم، فالرقي الحقيقي يكمن في شيء لا تدرونه، شيء لم أبلغه إلا بعد معاناة، ولست شخصية أنانية لأستأثر لنفسي بهذا الشيء، بل غايتي أن يرتقي غيري في السلسلة الحيوية كما ارتقيت، وكلما ساعدت بشريًا ليرتقي أعود لأنظر إلى مرآتي وأبتسم، وناباي يبتسمان معي في رضا.

سأتبسط في حديثي نوعًا ما، فأنتم تحتاجون إلى هذا، أنا الدكتورة بريانكا شونرا، استشارية أمراض الدم الشهيرة بمستشفى العائلة المقدسة في بومباي بالهند، توفي زوجي وأنا طالبة في الكلية، أنجبت منه ابني راج ووهبت حياتي كلها لأوفر له حياة كريمة، فتخرجت بدرجات شبه كاملة، وسافرت على نفقة الدولة إلى أمريكا لأحصل على الماجيستير والدكتوراه في أمراض الدم، ثم عدت إلى الهند.

وصلت إلى درجة تحلم بها أي طبيبة هندية؛ سيارة فاخرة، وبيت كبير في مدينة بومباي، وراتب شهري ضخم رفعني إلى مجتمع الأثرياء في بضعة أشهر. ربيت راج تربية صارمة جدًا، فاخترت له كل شيء منذ أن كان طفلًا حتى بلغ العشرينيات؛ ملابسه، قصة شعره، حتى كلية الطب أجبرته عليها، بل إني فرضت عليه الفتاة التي يجب أن تكون زوجته.

لن أسرد لكم دراما اجتماعية مألوفة، فأنتم في غنى عنها، لكنها مقدمة ضرورية لألقي إليكم بحكاية هي طوق نجاة سينقلكم من بحر السخف الذي

تعيشون فيه إلى بر الرقي، طوق عظيم يُدعى البورفوريا، وتذكروا هذه الكلمة جيدًا.

الدم مخلوق فاخر، ليس مجرد سائل كما تقول المراجع الطبية، بل هو مخلوق، لأنه حي، كل شيء فيه حي بداية من البروتينات التي تنقل الغذاء كالشاحنات وانتهاء بالخلايا البيضاء التي تأكل أي عدو يقترب منه. تعلمت الدم في أرقى المدارس العالمية، علموني أن البورفوريا مرض خبيث يصيب دم البشر ويجب التخلص منه قبل أن يتفاقم، والحق أن العلماء بذلوا جهودًا خرافية لعلاجه حتى نجحوا ببراعة، لكن ما لا يعرفه أولئك الجهلة أن البورفوريا هي حالة مقدسة تمر بها الدماء البشرية لترتقي، وليست مرضًا بأي حال، هم يذكرونني بالشخص الذي اكتشف جذوة نار دافئة في صحراء شديدة البرودة فأطفأها ظنًّا منه أنها ستحرقه.

تقول كتبهم القاصرة إن الدم يتركب من مادة معقدة تُدعى هيموجلوبين، يصنعها الجسم من مادة أبسط تُدعى هيم، هذا ما يتشدقون به ليل نهار، وعندما يحدث تحور غير مفهوم -كما يقولون - في مادة الهيم البسيطة، فإنها لا تصنع هيموجلوبين، بل تصنع موادَّ أخرى غريبة -كما يقولون- أحدها يُدعى البورفرين، وهذا الأخير عندما يتراكم في الدم يوصله لحالة مرضية اسمها بورفوريا.

علَّمونا كيف نعرف مريض البورفوريا عندما نراه، ألم رهيب في البطن، قيء متكرر، زيادة الشعر في وجه المريض الذي يصبح حساسًا جدًّا لأي ضوء، ثم يلتوي ناباه ويزيدان في الطول وتبدأ حاجته إلى الدماء تزيد شيئًا فشيئًا، هل يذكركم هذا بشيء؟ بالطبع هم يأخذون هذا المريض إلى العيادة ويعطونه كل الدماء التي يحتاج إليها ثم يعزلونه عن الناس حتى لا تعدي حالته أحدًا، ويعالجونه حتى يعود إلى طبيعته.

ما لا تقوله كتبهم ولن تصل إليه عقول علمائهم هو أن من تأتيه البورفوريا يبدأ دمه في التحور من الدم البشري ليصبح ذا طبيعة أخرى أكثر رقيًّا، طبيعة الفامباير، أو كما يسمونه في مصطلحاتهم الناقصة بمصاص الدماء.

أطلقوا هذا الاسم على الإمبراطور فلاد الثالث حاكم مقاطعة والاشيا برومانيا، والذي لقبوه بـ «دراكيولا» أو الشيطان، على الرغم من أنه لا علاقة تربطه بالشياطين. إن السيد فلاد العظيم ليس أسطورة خيالية، بل إنه ارتقى وتحوَّر من الطبيعة البشرية إلى طبيعة الفامباير المقدَّسة، وليس هو كبير عشيرة الفامباير كما هداهم خيالهم المريض، بل هو فقط أكثرهم شهرة. بالطبع استلهموا من شخصيته الكاسحة أفلامًا وروايات لا عدد لها، وجَنوا من ورائه أموالًا لا حصر لها كعادتهم البشرية المعروفة.

كثير من البائسين المشهورين أتاهم ذلك النداء -البورفوريا- لكن الأطباء حطموه قبل اكتماله، وأشهرهم الملك جورج الثالث وجدته ماري ستيوارت. أنتم تظنون أن الفامباير هي أجناس مرعبة ومؤذية كالجن والشياطين، هذه حماقة؛ إن هدف مصاص الدماء هو ترقية البشرية وإعطاؤهم شرف الوصول إلى الحالة التي وصل هو إليها. وسأحكي حكايتي مع قداسة البورفوريا وكيف ارتقيت بسببها من مجرد استشارية بشرية شهيرة حمقاء إلى أكبر مصاصة دماء في الهند بأكملها.

كنت في السنوات الأولى من عملي بمستشفى العائلة المقدسة، وبالمناسبة هذا مجرد اسم وضعوه للمستشفى، لكنه لا يتعلق بأي عائلات مقدسة، بدأت الحكاية عندما دخلَت إلى عيادتي فتاة متوسطة الجمال في مرحلة المراهقة، فاتحة اللون عكس معظم فتيات الهند، ولها عينان بنيتان يائستان، تملك شعرًا أصفر جميلًا تجعله كبنات المدارس الصغيرات، كانت تبدو مريضة جدًّا واللون الأصفر الشاحب ينطق من وجهها المراهق، ومجيء هذه الفتاة عندي يعني أنه تم اكتشاف أن لديها غالبًا فقر دم ككل الفتيات اللواتي يأتين إليَّ كل يوم ويتبين أن لديهم نوعًا من أنواع فقر الدم الخمسة، ومنذ أن نطقت الفتاة كلماتها الأولى اتضح لي أنها حالة من الحالات التي يعرف الطبيب أنها ستستهلك الكثير من وقته بالفعل.

بورفوريا، هذا مؤكد، كنت قد رأيت حالات بورفوريا نادرة فيما سبق من حياتي معظمها في أثناء إنهائي لرسالة الماجيستير في لندن؛ مريض يشكو

آلامًا في البطن ويحكي عن هلاوس يراها ويسمعها طيلة الوقت، لدرجة أن معظمهم يتم تحويلهم للعيادة النفسية لتشارك في العلاج. كانت الفتاة تُدعى ريا، وهي أول حالة بورفوريا أراها في الهند.

تصرفتُ كما تتصرف أي طبيبة استشارية تستحق مركزها، فبدأت في طقوس العلاج بالترتيب الذي تعلمته وأعلِّمه لتلامذتي، لكن ريا كانت تتصرف بحدة وترفض العلاج بقسوة إلى حد أننا كنا نكبلها على سرير المستشفى لنسقيها أو نحقنها الدواء بالقوة، لا أفهم لماذا أتت إلينا لو كانت ترفض العلاج بهذه الطريقة، كل ما قالته هو أنها فتاة في السنة الأولى من الجامعة وأنها تريد أن ترتاح من آلامها وأنها هاربة من بيت أهلها.

- مقدسة أنفاسنا، مقدسة دماؤنا، من الظلام المقدس أتينا، وفي الظلام المقدس نعيش، وإلى الظلام المقدس نعود.

- ماذا تقولين يا ريا؟

- خُلقنا منذ خُلقت الدماء على الأرض، محرم علينا النور، محرم علينا الهِرَم.

- إلى متى ستعيشين وسط هذه الأوهام يا فتاتي؟

- دماؤكم غذاء أرواحنا، منها نرتوي، و...

- أفيقي يا ريا، أفيقي، فلترحمنا السماء.

- نهاركم ليل لنا، وليلكم نهار لنا...

- ريا؟

- نداؤنا شرف لكم، فمنكم من يرضى الشرف، ومنكم من يرضى العار.

لقد كانت ريا فامباير، لم أكن أفهم شيئًا وقتها، كانت دماؤها تمر بتلك الحالة الانتقالية المؤلمة التي يجب أن يمر بها أي فامباير، ولسبب ما كنت أقدم لها العلاج بشكل غير كامل، ربما شفقة عليها أو استجابة لرغباتها، وربما فضول لأرى هذه الحالة الغريبة عن قرب. رأيت كيف نمت لها شعيرات خفيفة ملحوظة على وجنتيها، وكيف بدأت أنيابها تطول وتلتوي حتى

أصبحت مخيفة فعلًا. كنت أكبّلها على السرير فتقدر بقوة هائلة على فك القيد والانقضاض عليّ. أذكر كيف كانت شراستها حين خمشتني بأظفارها وفي وجهها ذلك التعبير الشبيه بالنمور، وكيف حاول رجال الأمن إيقافها فاندهشوا من قوة جسدها الضعيف، وكيف راوغتهم وهربت من المستشفى في النهاية، ولقد تغيرت حياتي بعد تلك الليلة وفهمت كل شيء على حقيقته.

قرأت كل شيء عن كتب الفامباير وجنسهم، وكان كل ما قرأته كلامًا فارغًا جدًّا، يتحدثون عن قتلهم بالثوم، وأن إظهار الصليب أمامهم يؤذيهم. أنا فامباير تحترم نفسها أمارس حياتي اليومية كأي ربة منزل، فأطبخ يوميًّا باستخدام الثوم، بل إنني أعلق صليبًا ذهبيًّا صغيرًا على رقبتي، فعلى الرغم من أنني هندية، فإنني لا أؤمن بالهندوسية ودجلها، فأنا من الطائفة المسيحية في الهند. قالوا أيضًا إن الفامباير لا يموتون ويعمِّرون أبد الدهر، هراء، نحن نموت كما تموتون تمامًا، وحالتنا المقدسة لم تعطِ لنا أي ميزة فيما يتعلق بالعمر، نحن فقط لا نهرم ولا نشيخ، لكننا نموت بنفس الطرق التي تموتون بها، والحق أن قراءتي لكل هذه التفاهات زادتني حيرة على حيرتي وزادتني تصميمًا على دراسة الأمر بنفسي عن قرب.

طلبت من المستشفى أن أكون مسؤولة عن جميع حالات البورفوريا التي تأتي إلى المستشفى على الرغم من وجود عدد من أطباء الدم الآخرين المتخصصين. كان المريض يأتي إليَّ بآلام في بطنه وهو لا يدري أن لديه بورفوريا، وعندما أكتشفها، أتركها تنمو بداخله، بل إنني كنت أحفزها وأزيد من سرعة تقدمها، هل يبدو هذا شاذًّا؟

بمرور الوقت زادت خبرتي في التعامل مع هؤلاء المرضى وتعلمت أن أكبِّل المريض إلى سريره بأغلال حديدية بينما أتابع حالته، وبما أنني رئيسة قسم أمراض الدم في المستشفى، فكل ما أريده يُنفَّذ حرفيًّا، وبخاصة عندما أطلب أن أختلي بالمريض في غرفة الكشف، أو أن أمنع أي شخص من زيارته سواء من عائلته أو أصدقائه، وحتى الممرضات بدعوى الحرص على عدم العدوى التي أدَّعي أنها سريعة الانتقال بشكل مرعب.

انتقلت من مرحلة دراسة الحالات إلى مرحلة الفهم الكامل، هؤلاء المرضى يتحولون لمصاصي دماء شديدي الوحشية وبخاصة عندما يتم تكبيلهم، لكن هذه لم تكن مشكلة، فأنا أحقنهم دومًا بأقوى أنواع المهدئات، ثم عندما أعرف أنهم وصلوا للمرحلة النهائية من مرضهم وأصبحوا بعيدين نوعًا ما عن كلمة بشر، عندها فقط أطلقهم.

الغريب أنني لاحظت أنهم يتصرفون بعد إطلاقهم كبشر عاديين يتحدثون ويتعاملون بشكل طبيعي، والمفاجأة التي أظهرتْها متابعتي الطبية الدقيقة لهم أن هناك أعصابًا زائدة تنمو في أسنانهم، تحديدًا حول منطقة الأنياب، وهي تختلف عن كل أعصاب الأسنان في أنها أعصاب من النوع الإرادي، تسمح لهم بتحكم إلى درجة ما في أنيابهم، فهي تبرز إذا غضبوا أو توحشوا أو إذا تمت إثارتهم عصبيًّا أو جنسيًّا، وتضمر عندما يكونون في حالتهم الطبيعية.

المشكلة أنهم دائمًا يكونون بحاجة إلى دماء، وكنت أحقنهم بما يحتاجون إليه منها إذا جاؤوني، وإذا حرمتهم منها يزداد توحشهم ويتحولون لوحوش كاسرة تحتاج إلى التكبيل بمقابض من حديد، وهم لا يقبلون بأي دماء، بل الطازجة منها فقط.

كنت أدرسهم دراسة علمية بحتة، وربما أدت هذه الدراسة إلى قتل بعضهم وإيذاء البعض الآخر إيذاءً فادحًا، لكنني كنت قد فهمت كل التطورات العضوية التي تطرأ عليهم وأصبحت أتعامل معها باحتراف.

ثم بدأت أهابهم وأخافهم شيئًا فشيئًا، وبدأت أحلامي تتحول لكوابيس يومية مليئة بالدماء السوداء، كل ليلة أقوم من فراشي فزِعة، بعض الكوابيس تصفني كجثة لا حيلة لها، وبدلًا من أن تنهشها الغربان كما هي العادة أراني تنهشني مجموعة من مصاصي الدماء، وأحيانًا أخرى أراني وكأني أسمع نداءً غريبًا مسموعًا مثل نداء الكنيسة فأتجه إلى النداء في الشارع ويتبعني مجموعة من الناس بعضهم من مرضاي، عشت ليالي مروعة ندمت فيها على ما فعلت وأقسمت أن أعود استشارية عادية كما كنت، حتى استيقظت ذات يوم شاعرة بألم رهيب في معدتي.

أصابني فزع تحول إلى هستيريا، فذهبت إلى المستشفى كالمجنونة لأخضع نفسي للتحاليل التي أطلب من مرضاي أن يجروها عادة. النتائج كلها سالبة، لكن هذا لا يعني شيئًا؛ النتائج لا تكون موجبة دائمًا في بداية ظهور البورفوريا، ربما في مرحلتها الثانية، وعلى الجانب الآخر قد يكون هذا مجرد ألم معدة عادي، وبخاصة أنني فقدت شهيتي تمامًا في الآونة الأخيرة.

استمر ألم البطن وصاحبه قيء متكرر بشكل أشعرني بالضعف الشديد، رقدت في سريري غير قادرة على الحراك إلا بصعوبة. ابني راج كان قلقًا جدًّا عليَّ، حتى إنه أعطى لنفسه إجازة من كليته ليبقى بجانبي، كان يوصلني إلى المستشفى لأخضع للتحاليل يوميًّا، والنتائج تكون سالبة، دومًا سالبة.

في الأيام التالية شعرت أنني أصبحت أكثر وعيًا، أقصد أنني صرت أكثر حساسية لكل شيء يدور من حولي، حساسيتي للأصوات زادت بشكل مزعج، حتى إنني أصبحت أسمع صوت وقوف راج على عتبة باب المنزل قبل أن يفتح الباب وأنا راقدة على سريري في غرفتي وراء صوت المكيف. حساسيتي للروائح أيضًا زادت كثيرًا، لكن الأهم هو حساسيتي للأضواء، في البداية كنت أشعر بصداع عندما يكون نور الغرفة مضاءً أو في النهار عمومًا، ثم تحول الصداع إلى ألم شديد في البشرة يشبه لسعة الاحتراق، وعلى الرغم من هذا كله كانت نتائج التحاليل سلبية، لا أصدق! أنا في بورفوريا لا شك فيها، أنا أكثر من يعرف البورفوريا عند رؤيتها، هناك شيء ما مريب، ثم إنني أهلوس كثيرًا جدًّا، ولولا أن رباطة جأشي عالية وعقلي متفتح لكنت قد جُننت منذ زمن.

لا بد أن أموت، لا أريد أن أكمل هذا السيناريو. رأيت ابني يدخل عليَّ ذات يوم فطلبت منه بهيستيريا أن يقتلني ليريحني من كل هذا الألم، لن يفهم أنني أتحول إلى مصاصة دماء وأنه هذا الغافل –غالبًا– سيكون أول ضحية لي، مستحيل! هذا راج، وهو أغلى عندي من ذاتي. بدا راج منفعلًا من كلامي ثم أخذ يهدئني بحنان، قال لي إنني سأكون بخير وإن نتائج التحاليل سالبة

ولا تشير لوجود أي مرض قاتل أو غير قاتل، لكنني كنت أصرخ في جنون، وفي النهاية اضطر أن يعطيني حقنة مهدئة رغمًا عني حتى رحت في النوم.

«خُلقنا منذ خُلقت الدماء على الأرض، محرم علينا النور، محرم علينا الهِرَم».

استيقظت بعد هذه النومة ناظرة بنصف عين إلى الغرفة من حولي، رأيت راج نائمًا على أحد الكراسي القريبة، هذا الفتى عاطفي بالفعل، جل ما أفكر فيه الآن هو الانتحار، هذه ستكون نهاية عادلة أكفر بها عن كل خطاياي، أخرجت شريط دواء خافض للضغط وشرعت أخرج كل الحبوب منه، أخرجت تنهيدة مريضة وتهيأت للانتحار، فجأة استيقظ راج، نظر إليَّ بهدوء ثم تحولت ملامحه إلى الحدة والغضب عندما عرف ما أنتويه، أخذ مني الحبوب بغلظة ورماها جانبًا، نظرت إليه بحزن برهة، ثم تحول هذا الحزن إلى غضب عارم.

«مقدسة أنفاسنا، مقدسة دماؤنا».

صِحت فيه بغلظة كما كنت أصيح فيه منذ صغره وأمرته أن يتركني أفعل ما أريد، لكنه بدأ يتعلم العند معي هذا الفتى، أمرته بغلظة أن يوصلني للمستشفى لأخضع للتحاليل مرة أخرى لكن راج زاد عناده، وأنا زاد هياجي، وإذا به يقبل عليَّ ليحتضنني ويهدئ من روعي، فأخمشه بأظفاري وأضربه وأقاومه وهو يكبلني ويتحمل ما أفعله بصبر، أصبحت شرسة لدرجة أنني جرحته عدة جروح في وجهه. أمسك راج بمحقن مهدئ قريب بسرعة لكنني ضربت يده في غل ليطير المحقن بعيدًا، ثم صرخت فيه وخمشته مرة أخرى في وجهه، لكن ما هذا؟

«نداؤنا شرف لكم، فمنكم من يرضى الشرف، ومنكم من يرضى العار».

إن ابني راج قد توحش عليَّ فجأة وبدت ملامحه الوسيمة كملامح نمر حبيس، ثم احتضنني بقوة شديدة لم أعهدها فيه، نظرت إليه بدهشة، فقط لو أن عينيَّ المرهقتين تخدعانني، إن ابني راج له أنياب!



أنياب مقوّسة تعتزم عنقي، إن ابني الحبيب له عينان مخيفتان تحملان رعبًا وشراسة لا حد لهما. انقض ابني راج عليَّ، أنستني الدهشة أنه يجب أن أقاوم لأبقى، فهذا ابني، إن قواي تخور مني! شيء ما تذكرته بسرعة: دائمًا كان راج هو الذي يخبرني بنتائج التحاليل جميعها، ولم أكن أرى ضرورة للنظر فيها بعد كلماته الواثقة، استسلمت له تمامًا وهو يغرس أنيابه في عنقي، لا أشعر بالألم، بل بالخدر اللذيذ يسري في عروقي كلها، أود أن أشعر بهذا الشعور طيلة حياتي، ثم إنني أغلقت عيني بهدوء واستسلام، حملني راج ووضعني على سريري ببطء وطبع على جبيني قبلة حب ورضا.

وبهذا تحولت إلى مصاصة دماء وأصبحت أنتمي إلى الجنس الفاخر المقدس، هناك شعور بالفخامة يلف نفسي بعد هذا التحول، وأنا أريد لكم كلكم أن تكونوا مثلي؛ راقين، لسنا متوحشين كما تصفنا أفلامكم، بل نحن مقدَّسون، ولا نتوحش عليكم إلا حرصًا منا على أن نضمكم إلى الجنس الفاخر، جنسنا، جنس الفامباير.

ظللت مدهوشًا أتطلع إلى هذه المرأة طوال حديثها. انتابني شعور بالرعب لا أنكره وبخاصة أن نابيها كانا شديدَي الوضوح وهي تتحدث، لكن شعوري الغالب كان الاحتقار، فهذه المجرمة تحفِّز المرض الخبيث في مرضاها لأن عقلها الملوث يظن أن هذا ارتقاء وليس مرضًا، ثم إن نبرة حديثها فيها كثير من التعالي على البشر. لاحظت نفس الاحتقار مطبوعًا على أعين بعض الجالسين بينما رفع البعض الآخر ياقتهم بشكل فطري ارتعابًا من هذه الكائنة التي لا ندري ما هي. تكلم واحد من الجالسين لم أسمع له صوتًا من قبل، له لحية خفيفة جدًّا تتصل بشاربه ويرتدي نظارات. قال:

- يبدو أن جهل العصور الوسطى بدأ يغزو عقول الناس في هذا العصر بشكل عكسي، ففي عصر الظلام قبضت محاكم التفتيش المسيحية الدموية على ستمائة مريض بورفوريا وعلقتهم على الأخشاب وحرقتهم أمام العامة بحجة أنهم فامبايرز، واليوم نرى طبيبة استشارية متعلمة تطلق الفامبايرز في وجوه الناس.

قالت الطبيبة الهندية:

- محاكم التفتيش حرقوا المهرطقين أيضًا ظلمًا وطغيانًا، ثم ارتقينا درجات في الإنسانية وفهمنا أن هذا خطأ، والآن أنا أخبركم أن ترتقوا درجة وتحرروا من جاءه نداء البورفوريا.

قال لها صاحب النظارات بمقت مفاجئ:

- أنت تظنين أنك أرقى الناس بينما أنت من عرق عادي ليس له ميزة أصلًا في التاريخ.

غضبت الطبيبة وفتحت عينيها في صرامة وهي تقول:

- الهند أول حضارة على ظهر الأرض أيها الأمريكي الذي ليس له تاريخ.

تدخل شارلوتان وطرق على الطاولة عدة طرقات وقال:

- سأطرد كليكما إذا تكرر هذا، إنه التحذير الأول والأخير.

صمت الاثنان ونظرا إلى بعضهما في كراهية، كان يبدو أن كليهما عنصري قميء. قال شارلوتان:

- علاقة البورفوريا بالفامبايرز معروفة، ولقد خرجت أبحاث علمية معتمدة توضح كيف نشأت حكايات الفامبايرز عند الشعوب من وحي مشاهدة مرضى بورفوريا عاديين.

قال طويبة في لهجة مازحة لتخفيف الجو:

- يعني دراكولا هذا كان يحتاج فقط إلى طبيب يعالجه؟

قال شارلوتان بلهجة جادة:

- دراكولا لم يكن مصاص دماء، ولا دليل على إصابته بالبورفوريا، إنما كان رجلًا يحكم إقليم والاكيا هنا في رومانيا.

قال ذلك النحيف البائس الذي لم أسأله عن اسمه حتى الآن:

- من المفهوم أن تتحول البورفوريا إلى أسطورة، فبعد حرق مرضى البورفوريا بقسوة من محاكم التفتيش المسيحية شاعت بين الناس أسطورة أن الفامبايرز يخافون من رؤية الصليب، وبسبب حساسية المريض للشمس زعمت الأسطورة أن ضوء النهار يحرقهم وأنهم يخرجون في الليل كالشياطين، لكن ما فعلته هذه الطبيبة هو جريمة

في حق الإنسانية ويجب ألا نرفع أوراقها إلى المجمع العلمي، بل إلى الشرطة.

قالت الطبيبة بلهجة استعلائية:

- بل إن الجهلة هم الذين لا يقدِّرون قيمة العلم إذا تم طرحه أمامهم، وسأقدم بحثي كما تقدم الذين سبقوني بأبحاثهم في هذا المجال، وسأثبت للعالم أن البورفوريا ليست مرضًا، بل هي نعمة.

نظرتُ إليها بتقزز وأنا أسمع شارلوتان يطرق طرقة واحدة معلنًا انتهاء الجلسة، لم أعتنِ كثيرًا بقصتها، فقد كان هناك شيء آخر في ذهني يشغلني؛ لا بد أن أراقب المكان حتى أرى هل ستخرج هذه الطبيبة اليوم مثلما خرج الباقون بعد حكاية قصتهم أم لا، فالأمر بدأ يصيبني بالريبة.

دخلت إلى المكتبة واخترت كرسيًّا بجوار النافذة المطلة على الباب الأمامي للفندق حتى أراقب خروج أي أحد، اخترت كتابًا عشوائيًّا فتحته على الطاولة وجلست وكأنني أقرؤه، مرت ساعات ولم أرَ أحدًا يخرج من الفندق، واقتربت الساعة من العاشرة مساءً، ولم أرَ شيئًا بالخارج سوى تلك الأشجار التي يحركها الهواء ويظهر وراءها اسم الفندق مكتوبًا بأحرف مضيئة.

PURGATORIUM، اسم مقبِض حقًّا! قمت من المقعد وبحثت سريعًا بين الرفوف عن أي قاموس لعلي أعرف المعنى، وجدت واحدًا وفتحته بتوتر وأنا أنظر كل حين إلى النافذة لأراقب.

حرف الـ P ثم الـ U، ثم...

دق قلبي دقات رعب حقيقية وأنا أقرأ معنى الكلمة...

بورجاتوريوم باللاتينية أو البورجاتوري بالإنجليزية هو مكان تذهب إليه أنفس الخطأة المؤمنين الذين لم يتوبوا توبة كاملة عن كل خطاياهم، فيدخلون إليه جميعًا ليتطهروا بالعذاب حتى يصبحوا أهلًا لدخول ملكوت الرب. ومن عاش حياة الفجور على الأرض لا يلقى في البورجاتوريوم مصير من عاش حياة صالحة.

ازدرت لعابي في توتر، أي مخبول يختار لفندقه اسمًا كهذا؟! هذا قريب من معنى البرزخ عندنا.

لمحت في النافذة ظلًّا لإنسان يخرج من الفندق فأرجعت رأسي للوراء وقمت أنظر من حيث أراه ولا يراني، كانت تلك الهندية خارجة من الفندق وهي تحمل حقيبتها ومعها شارلوتان، رأيتها تقف وتتجادل معه قليلًا ثم مشى أمامها وهي تتبعه باستسلام إلى تلك الجهة التي توصِل للبركة، هرعتُ خارجًا من المكتبة وفتحت باب الفندق ببطء ومشيت وراءهما متخفيًا بالأشجار، لماذا لم يركبا السيارة لو كان يريد توصيلها للمطار مثلًا؟ بدأت الرعشة تسري في أوصالي، هذا المكان ليس كما يبدو، كنت أقــ...

توقفتُ وكل قطعة في كياني ترتجف وأنا أنظر إلى مشهد كشف لي كل شيء، اللعنة! ماذا يفعل بها هذا الحقير؟ لقد...

سمعتُ شهقة من مكان ما بجواري فنظرت برعب لأجد ذلك النحيف البائس يختبئ في الظلام وينظر إلى نفس المشهد ويشهق في رعب، نظر إليَّ بنظرة الذي فهم كل شيء، ويبدو أن فضوله قد ساقه إلى هنا مثلما ساقني.

سرت في عروقي دماء الثورة وتأهبت لأتحرك لكن صدمة على رأسي أغشت على وعيي فأصبحت أتهاوى وأنا أجاهد لأحفظ توازني، التفتُّ ورائي فرأيت ذلك الروسي النحيل الذي أحضرني إلى هنا وهو يمسك في يده بعصا حديدية ويقول بلسانه الروسي:

- كنت أعرف أنك ستحدِث مشكلات أيها الشيخ السفيه.

وضربني ضربة أخرى سقطت بعدها على الأرض بلا حراك.

***

أصوات تدق كأنها المطارق، رائحة عطنة كرائحة صدأ، صوت امرأة تصرخ في مكان ما، صداع استعمر رأسي بينما عيني تنفتح في ألم، إضاءة ضعيفة صفراء من مصابيح بعضها يومض في تلف، ثوانٍ من عدم الاتزان أحاول فيها مغالبة ثقل رأسي وألم جفوني حتى اعتدلت جالسًا على ركبتي، أسمع صرخات استغاثة أنثوية تتخللها أصوات نحيب جماعي، نظرت حولي بذعر، وكادت انقباضة قلبي مما رأيت تعيدني مغشيًا علي.

تسعة أشخاص يزحفون على الأرض ببطء، بعضهم يحاول القيام وبعضهم يرتجف، وهناك رجل سمين يقف في هيبة أمامهم ووراؤه مصباح

كبير يخفي ملامحه في الظلام، لكن صلعته لم تكن تخفى على أحد. ألقيت نظرة فزعة على المكان الواسع من حولي، أقفاص وأجهزة قديمة صدئة وجثث مكفّنة تتدلى من السقف بحبل يشبه حبل الإعدام.

وعلى الرغم من ضعف المصابيح، فإن عيني اعتادت الإضاءة سريعًا ورأيت ملامح البشر الممددين حولي، كلهم من ضيوف ذلك المؤتمر اللعين، كانوا في حالة يرثى لها من الارتجاف كأنهم رأوا شيئًا حطم عزائمهم. تقدم شارلوتان القبيح الأصلع بخطوات بطيئة متجهة إلى ناحيتي وقال:

- أنتم هكذا دومًا، أول من يفهم، وآخر من يصحو.

كان يحمل عصا قصيرة مزخرفة وضعها على رأسي يربت عليَّ كأنني ماشية، فاندفعت في عروقي ثورة الغضب وانتفضت من مكاني لأمسك برقبته المتكدسة الحقيرة لكنني شعرت فجأة أن عظام معصمي يتم سحقها بقوة بالغة أجبرتني أن أصرخ بصوت عالٍ تردد صداه في هذا المكان الخرب، وسقطتُ على الأرض أمسك معصمي في ألم شديد كاد يقص عظامي كأنه المقصلة. نظرت إلى معصمي في فزع فرأيت ذلك السوار يلمع وأجزاء منه تتحرك مبتعدة عن بعضها، انفتحت عيني في شيء من الفهم المرير ونظرت إلى الأصلع الذي وقف أمامي قائلًا:

- نسيت أن أخبرك أن هذه الأساور تحفظ السلام، فعندما تستشعر من جسدك أي بادرة للعنف تقبض عليك كأنها القيد، ألا ترى أصحابك قد يئسوا تمامًا وتمددوا على الأرض؟

نظرت إلى حالهم، كانوا مثل السكارى. قال شارلوتان بذلك الصوت ذي البحة الذي أكرهه:

- لم أكن أود أن أجمعكم معًا في أثناء التطهير، فكل إنسان يستحق مساحة من الخصوصية عند الحساب.

ثم نظر إليَّ أنا وذلك النحيف البائس وأكمل:

- لكن بعضكم يصر على إدخال أنفه فيما لا يعنيه، فأحببت أن أسحبه من أنفه وأضعه في وسط الحفل الذي يحاول أن يحوم حوله.

ثم تحول صوته إلى بحة صارمة تحمل الكثير من الضغائن وهو يقول:

- سنوات طويلة وأنا أنظر إلى ما تفعلون في مجتمعاتكم، تنشرون علومًا توجِّه عقول البشر إلى الشيء الذي تريدونه، وهم يتحركون وراءكم كالنعاج ويرددون كلامكم كأنهم خراف مدسوس بها ألسنة ببغاوات بلا عقل.

رفع عصاه القصيرة وأصبح يدوِّرها في يده ويقول:

- بعضكم صادق فيما يطرحه وبعضكم كاذب، وبعضكم يتملكه حب الظهور والغرور الذي يجعله يرى نفسه ذلك العبقري الفذ الذي جاء بما لم يستطعه الأوائل، وهو في الحقيقة أجهل من دابة.

وضيَّق عينه وقال:

- وبعضكم يحب تلك النظرة المبهورة به في أعين الناس فيضع كثيرًا من الدجل على قليل من الحق، فالبشر الغوغاء يحبون الدجل، أما صاحب العلم فلا يحبونه وهو عندهم مثل مدرسهم المزعج الذي كانوا يكرهونه في المدرسة.

جلس على كرسي صغير وأسند عصاه على الأرض وقال:

- وإن رحلتكم بكل ما فيها من صدق أو كذب، قد انتهت اليوم...

ودق بعصاه على الأرض بعنف وقال:

- اليوم تحاسَبون على أعمالكم، فإن صدقتم نجوتم، وسآخذكم بنفسي عبر هذا الباب لتخرجوا إلى النور.

ثم تغيرت ملامحه إلى الغضب وهو يقول:

- وإن كذبتم، فمن ورائكم عذاب من جنس أعمالكم، عذاب ينهك أرواحكم ويأخذها إلى الرب صاحب العزة.

قام شارلوتان عن الكرسي وخطا بضع خطوات بين الأجساد الممددة في خنوع وقال:

- خمسة منكم تحدثوا وعرضوا رحلتهم، ثلاثة منهم صدقوا ونجوا من التطهير وكذب اثنان.

طرق بإصبعيه فسمعنا صوت شيء حديدي يتم جره على الأرض، نظرنا في فزع حقيقي إلى قفص حديدي يدفعه ذلك الروسي بعجلات على الأرض، وتلك الهندية بداخله ترتجف وترجوه وتقول من بين دموعها:

- أرجوك يا سيدي، لقد كنت واهمة متوهمة، وإني بحق كل قطرة دماء تجرعتها لن أعود إلى ما كنت أفعل.

ظهرت على شارلوتان ملامح الغضب فبدا مخيفًا قبيحًا وهو يقول:

- يمتصون دماء البشر ثم يبكون طلبًا للغفران إذا أتينا بهم إلى هنا، يقولون لو عدنا فيها لأصلحنا ولو عادوا لامتصوا مزيدًا من الدماء.

ثم رفع عصاه وضرب بها على قضبان القفص فرفع ذلك الروسي أحد المقابض فانفتح بداخل القفص باب صغير خرج منه مخلوق بغيض، صرخت الهندية بهلع لما رأته وتراجعت حتى اصطدم رأسها بالقضبان، نظرنا جميعًا بوجل إلى ذلك الشيء الذي خرج من القفص، كان في حجم الفأر الكبير له جناحان يمشي عليهما ووجه مفترس ونابان دقيقان وعينان شرهتان، قال شارلوتان:

- الخفاش مصاص الدماء، المخلوق الوحيد الذي يتغذى على الدم ويعيش عليه، وإذا حُرم منه لمدة يوم يموت.

تصاعدت شهقات الهندية وارتجافتها وهي تتراجع وتنظر بحذر إلى الخفاش، وقال شارلوتان:

- وهذا الخفاش تحديدًا لم يذق طعم الدماء منذ نحو عشرين ساعة و...

لم يكن شارلوتان بحاجة إلى أن يكمل، فذلك الخفاش طار كالشيطان داخل القفص يحوم هنا وهناك والهندية تحاول التلويح بيديها لإبعاده، ثم ضرب شارلوتان بالعصا على باب القفص فرفع الروسي مقبضًا آخر فانفتح صندوق كبير أعلى القفص وخرجت منه أسراب من الخفافيش الصغيرة الجائعة انضمت إلى الخفاش الأول في محاولة للنيل من لحم الهندية التي تحولت صرخاتها إلى شهقات مكتومة وغرغرة واختناق من وقع الفجعة، ثم سقطت على ظهرها واعتمرتها الخفافيش من كل مكان. قال شارلوتان:

- هذه الخفافيش تُحدِث بأنيابها جرحًا في لحم الضحية ثم تمد ألسنتها لتلعق الدم في بطء وتلذذ.

كانت الهندية قد همدت تمامًا وقبيل من الخفافيش جاثمون عليها ويمدون ألسنتهم الدامية ليلعقوا دماءها. جحظت عينا الهندية وانفتح فمها وخرجت روحها من بين نابيها ولم يُسمع في الأجواء حس إلا صوت الخفافيش المستلذة ودقات قلوبنا التي تتهيأ أن تتوقف من الفزع.

طرق شارلوتان بإصبعيه فهرع الروسي تاركًا القفص الأول وسحب قفصًا ثانيًا رأينا فيه ذلك الرجل الضخم هاتشيسون. ازدرت لعابي في قلق، هل هو الكاذب الثاني إذن؟ تحرك شارلوتان إلى باب القفص وفتحه ثم أشار إلى هاتشيسون ليخرج.

كان هاتشيسون على الرغم من كل هذا يبدو متماسكًا وهو خارج من القفص قائلًا بصوته الأجش:

- أنا لست أكذب يا هذا، ليس ذنبي أن الكبار دفنوا اكتشافي وجعلوني مغمورًا في أعين الناس، أنا لست أكذب.

قال شارلوتان بلهجة مخيفة:

- أنت ترفض الاعتراف بالكذب وتدَّعي أنك غيرت خصائص الموجات المغناطيسية فأصبحت تحمل الأشياء وترفع البشر، ونحن لا نعذب حتى نقيم الحجة على الإنسان، ألست تقول إنك متأثر بالدكتور إيروين موون الذي استعرض أمام الناس تجربة مرور تيار به مليون فولت في جسده دون أن يتأثر؟

قال هاتشيسون بثبات:

- نعم، هذا صحيح، دكتور موون غيَّر خصائص التيار الكهربي بنفس الطريقة.

ابتسم شارلوتان وهو يمد يده إلى أحد الأجهزة المرمية في القاعة وقال:

- هذا بديع، سنختبر هذا على جسدك الفاني.

وطرق بإصبعيه فانطفأ النور فجأة وبرزت في ذلك المكان الذي أشار إليه شرارة زرقاء كالرعد مع صوت أزيز كهربائي، ثم انفتح النور وظهر شارلوتان بجوار ذلك الجهاز وهو يقول:

- ستقف على هذه الأسطوانة أيها الكندي وتخلع حذاءك وسنصعق جسدك بمليون فولت، ولقد غيَّرنا تردد التيار كما فعل الدكتور موون، ومن المفترض أن تخرج من هذه الصعقة حيًّا إذا كنت صادقًا.

تحرك هاتشيسون إلى الجهاز وظهر عليه التردد، لكنه صعد على تلك الأسطوانة مرتجفًا وخلع حذاءه.

أعطاه شارلوتان أغطية معدنية ليضعها على أصابعه مثلما فعل الدكتور موون في التجربة، نزل الكثير من العرق على جبين هاتشيسون وهو يضع الأغطية المعدنية على أصابعه المرتجفة، وتحرك ذلك الروسي النحيل ووقف بجوار مولد كهرباء ضخم واتخذ وضع الاستعداد.

طرق شارلوتان بإصبعيه فانطفأ النور...

رفع هاتشيسون ذراعيه في استعداد ثم صرخ شارلوتان:

- شغِّل.

رفع الروسي مقبض المولد الكهربي فسرى منه تيار مقداره مليون فولت وضرب الأسطوانة بقوة ثم مر خلال جسد هاتشيسون الواقف في فزع، وبرزت فوق يده ألسنة من رعد أزرق لها صوت كأزيز الكهرباء، صرخ هاتشيسون صرخة ألم طويلة فأطفأ الروسي التيار. بدا هاتشيسون مشلولًا فوق الأسطوانة ثم سقط كعمود الصلب على الأرض.

شعرت بنفسي أود التحرك إليه بشكل فطري لكن الخوف منعني من الحركة، انحنى الروسي على الأرض يضع يده على رقبة هاتشيسون ليرى نبضه، ثم رفع رأسه إلى شارلوتان ورفع إبهامه إلى أعلى، فقال شارلوتان وهو يرفع حاجبيه في دهشة مصطنعة:

- يبدو أن صاحبنا الكندي نجا من تجربة الدكتور موون، إن تغيير التردد قد غيَّر خواص الموجات بالفعل.

نظرنا إلى جسد هاتشيسون الذي بدأ يهتز كأن القشعريرة تسري في عظامه، فأقامه الروسي واقفًا فقال شارلوتان:

- أما أنت فصادق أيها الكندي، وإنك ستخرج من هذا الباب، ولكني لا أعدك أن تعود إلى الدنيا بعقلك، فيبدو أن هذا المليون فولت قد أحرق أعصابك.

كان هاتشيسون ينتفض كمن أصابه مس، فمشى إليه شارلوتان وأسنده على كتفه واتجه به ناحية الباب حتى خرجا وغابا عن النظر.

لحق بهما ذلك الروسي النحيل وتركنا ننظر في وجوه بعضنا، هناك مسحة من اليأس والرعب انطبعت على وجوه الجميع ولم ينبس أحدنا ببنت شفة، حتى دخل شارلوتان من الباب فانتفض البعض منتحبين كأنما دخل ملك الموت.

جلس شارلوتان على الكرسي ومر بعينيه علينا كأنما يختار ضحيته التالية، ثم توقفت عيناه عند واحد منا؛ ذلك اليهودي ذو اللحية.

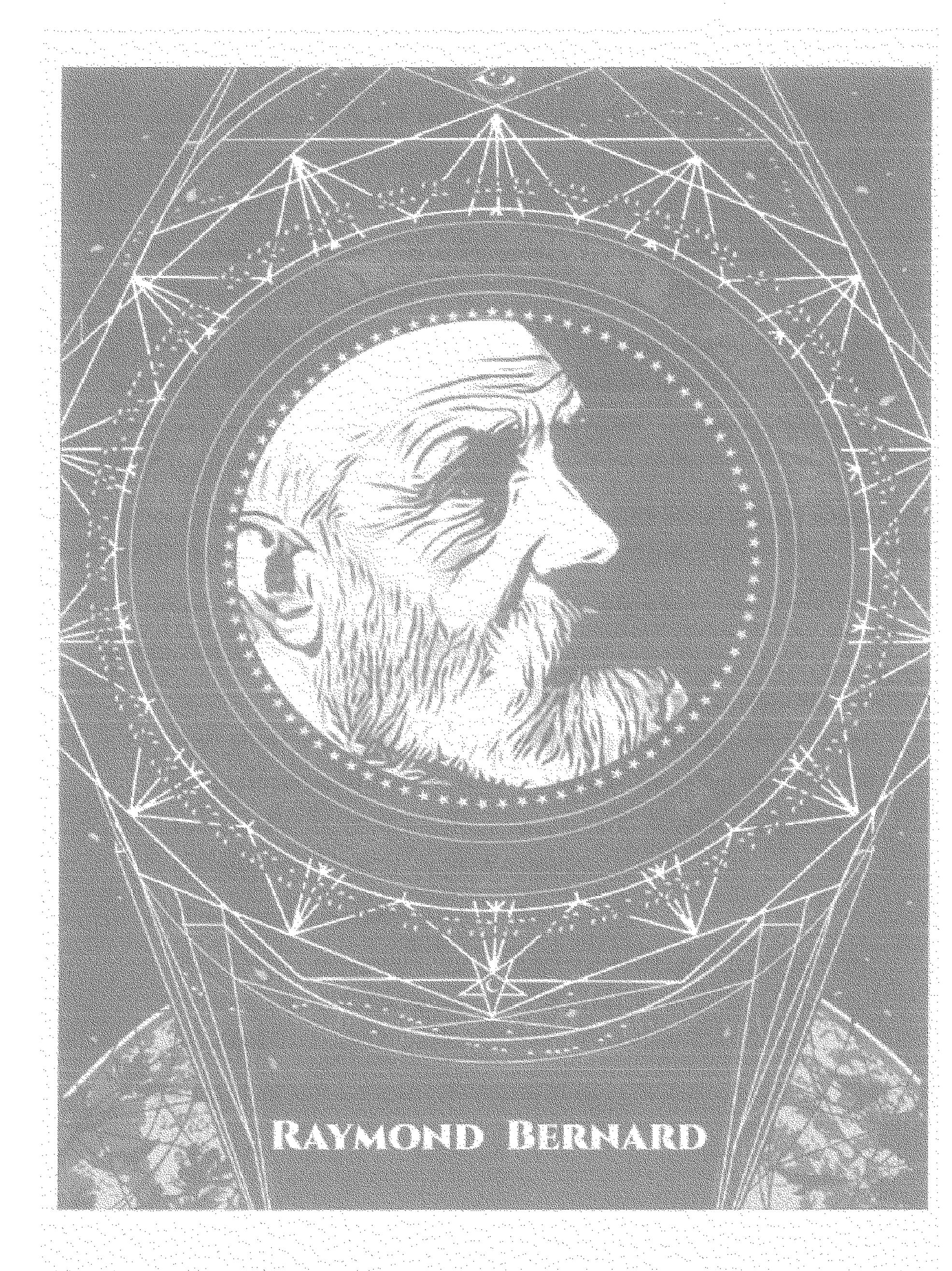
انتفض اليهودي مذعورًا عندما أشار إليه شارلوتان بعصاه وقال له بصوت الحية إياه:

- ستتحدث بالحديث الذي كنت تحدِّث به الناس يا يهودي، ولن تغيِّر منه حرفًا واحدًا، فإنا قد عرفنا كل ما قلت ونشرت، ولو غيَّرت حرفًا ها هنا أمامي فسيكون العذاب مصيرك، ولن ينجيك شيء في هذه الدنيا إلا صدق رحلتك أو قصتك، فتكلم يا يهودي، وقل ما عندك، فإني أعلم أن ما لديك يمكن أن يقلب رؤوس السامعين.

قال اليهودي وهو يرتجف:

- هل يُسمح لي يا سيدي أن أروي القصة من منظورين؟ لأن بطلَيها هما شخصان وليس شخصًا واحدًا، وقد كتبت قصتهما في كتابي المنشور، أقسم لك.

أومأ شارلوتان برأسه موافقًا، فاستجمع اليهودي أنفاسه وبدأ يحكي.


RAYMOND BERNARD

6

حكاية مخلوقات جوف الأرض

يرويها: ريموند برنارد

«لم يصل أحد للقطب الشمالي
لأنه لا يوجد قطب شمالي أصلًا، لكن شمس
الحقيقة ستضيء يومًا من العين الحمئة،
وسيظهر نورها على الماكثين في الظلام».

غريبًا كان، وحده في بحر الشمال، يلعب به الموج أيامًا تتبعها الليالي، يضرب الماء وجهه كل حين ليذكره أنه على قيد الحياة، حياته القصيرة لم تتجاوز عشرين عامًا، وها هي معلَّقة على خشبة يحتضنها وتمضي به في غمرات أبرد محيط على سطح الأرض؛ المحيط الآركتكتي.

تيبَّست أطرافه تمامًا وكأن كل عظمة قد التحمت بالأخرى فصار هيكلًا متيبسًا يلتصق في خشبة متجمدة، روحه كانت تطفو فوق جسده وتتهيأ للصعود إلى ربها حتى برزت بين اللجج الباردة سفينة ضخمة ذات مظهر غير معتاد، لم يعِ بوجودها ولم يسمع صوتها، لكن عينيه أخذتا ترتجفان وهو يشعر بوقع أيادٍ تضربه على خده لتستفيقه، كان أولئك بحارة من السفينة نزلوا إليه والتقطوه وأرقدوه في مياه دافئة ولم تصدر منه أي حركة سوى الارتجاف، حتى عندما دفأ جسده وكأن روحه ذاتها هي التي تجمدت.

كانوا في غاية الشوق لسماع قصة السفينة التي نجا منها ورئيسهم قبطان كث الشارب والحاجبين بطريقة تضفي عليه ملمحًا من الشر لا بأس به، هدأت روح الفتى بعد حين وأصبح يتطلع حوله بانزعاج، فالسفينة لم تكن عادية بأي حال. قال له القبطان وشاربه يتحرك مع حديثه:

- من أنت يا فتى؟ أين سفينتك و...

قاطعه الفتى بصوت مبحوح:

- أجارثا.

انقلبت وجوه البحارة لما سمعوا الاسم واجتمعوا وازدادت ملامحهم شوقًا. قال له القبطان:

- أيها الفتى، لا تنطق بالترهات فأنت لا تعلم أين أنت، أنت في السجن الحكومي «هالك».

فُجِعَ الصبي وهو ينظر إلى وجوه الطاقم وأزيائهم العسكرية وقبطانهم ذي النجوم على كتفه، ثم نظر إلى الأرض وبدأ يحكي قصة هي أعجب ما سمعه البشر في القرون السابقة كلها، ولأن الكذب هو آخر شيء سيرد على خاطر إنسان ناجٍ من صقيع المحيط إلى سفينة كهذه، فقد استمع له البحارة باهتمام وتأثر كل جزء في كيانهم، وبناء على المعلومات التي أوردها والتي تمس الأمن القومي تم إيداع الفتى في سجن من سجون السفينة، فانتقل من سجن المحيط إلى سجن البشر، ولم يعلم ذلك الفتى أن سنواته القادمة ستحمل للعالم قصته كأول شخص يرى بعينيه أن الأرض التي نعيش عليها ليست كما نظنها على الإطلاق، وأن اسمه «أولاف يانسن» سيسجله التاريخ بأنه الإنسان الوحيد الذي شاهد أجارثا.

***

على الرغم من أن البنتاجون يبدو كل يوم مثل خلية النحل التي يجري البشر في أذرعها الخمس، فإنه في ذلك اليوم بالذات غشيته حالة من الرهبة، فبعد العديد من الحملات الكاذبة التي تدعي اكتشاف القطب الشمالي، نجح الأدميرال ريتشارد بيرد وصاحبه فلويد بينيت في اكتشاف القطب بالفعل وعادا بمعلومات بلغ من خطورتها أن الرئيس الأمريكي فورد قرر أن يجتمع بهما في اجتماع فائق السرية طالت مدته لأكثر من خمس ساعات، ذلك على الرغم من أن حالتهما كانت صعبة بعد نجاتهما بأعجوبة من كارثة حقيقية، وتشوقت أذهان العاملين في البنتاجون لمعرفة ما الذي وجده بيرد في أقصى شمال الأرض، وطال الاجتماع حتى نزل الليل وانصرف العاملون وتم إيداع الأدميرال بيرد وصاحبه في سجن البنتاجون حتى يبتَّ الرئيس في أمرهما.

وفي تلك الليلة قبل انصراف الرئيس قال لبيرد:

- أنا أعلم أن شهوة دخول التاريخ تغمرك، أن ينظر إليك العالم على أنك أعظم مستكشف في التاريخ بعد أن رأيت ما رأيت، لكن كلمة واحدة يا بيرد للعالم عن الموضوع وستفقد كل شيء؛ رتبتك وحريتك وتاريخك ومجدك كله.

قال بيرد:

- سيدي، أنا رجل عسكري، ولقد جُبِلتُ على طاعة الأمر، لكن هذا الأمر لا يمكن السكـ...

قاطعه الرئيس بحسم:

- سنمنحكما وسام الشرف، أعلى وسام عسكري في الولايات المتحدة الأمريكية، حتى تشعرا بالمجد ويخلدكما التاريخ، لكن القصة التي لديكما محرمة يا بيرد، وسنسلب منكما كل شيء إذا تفوهتما بكلمة واحدة منها.

***

بنظرة واحدة إلى والد أولاف يانسن تعرف أنه نرويجي من الطراز الأصيل، البنطال الواسع الذي تعلوه سترة من قماش ثقيل، والقبعة المتدلية على عينيه، والغليون الرفيع الطويل الأبيض الذي يمسكه بأطراف أصابعه وينفث دخانه في الجو بتلذذ، كان أسعد رجل مؤخرًا بعد أن ابتاع هذه السفينة الجديدة التي يؤمن بلا مبالغة أن الآلهة النوردية تعتني بها، كان يسند قدمه ذات الحذاء اللامع على أحد صناديق السفينة وهو مسترخٍ في مقعده والرياح الباردة تهز قبعته وتفسد عليه الاستمتاع بمراقبة الدخان الذي ينفثه. قال لولده أولاف:

- آه من رياح الشمال هذه، أتعلم يا ولدي؟ تلك الرياح التي تهب وتتثلج لها القلوب، لولا إلهنا أودين لقضت على الأرض كلها، لكنه يمسكها بقوته.

لم يكن أولاف في الحقيقة مؤمنًا بأي من الآلهة النوردية التي يصر والده على الإيمان بها على الرغم من أنهما في القرن العشرين، لكن أولاف كان يجاريه، فسأله:

- من أين تأتي رياح الشمال يا أبي؟

بدا عليه الابتهاج أن ابنه مهتم فأكمل:

- الشمال يا ولدي هو اتجاه الحكمة، يجب أن تتعلم من حديث أجدادك يا أولاف، ما من قبطان يقدر على اجتياز رياح الشمال، وإذا نجح إنسان واحد في فعل ذلك فسيرى...

نفث الأب دخان غليونه نفثة طويلة وترك ابنه يتشوق لسماع بقية الكلام، ثم قال:

- سيرى الأرض التي يظنها هي الأخيرة، بينما هي مبدأ كل شيء.

قال أولاف بشيء من اللهفة:

- أي أرض تلك يا أبت؟

قال له وهو يضيِّق عينيه وينظر في الأفق:

- أرض بديعة، يسكنها المختارون.

كانت هذه الأمور الغامضة تشعل كيان أولاف، فقال له:

- هل زارها أحد من قبل؟ تلك الأرض؟ ما اسمها؟

قال الأب:

- ليس الطريق إلى هناك سهلًا يا ولدي، فلم يصلها فيما أعلم سوى قبطان واحد من أرضنا لكنه عاد فاقدًا عقله، فلا أحد يرى النعيم هناك ويظل على وعيه.

قال أولاف بحماسة:

- نحن لها يا أبي، أليست سفينتنا هذه يحميها أودين وثور وكل الرفاق الآلهة؟ وألست أنت القبطان يانسن أعظم من ركب البحر؟ وألست أنا ابنك البكر الذي رميته يوم ولادته في البحر حتى يعتاده؟ فمن يكون لها سوانا؟

قام الأب من موضعه يتمشى على السفينة ويقرع بحذائه على أخشابها، وأولاف ينظر إليه بعينين محفزتين، فوجده يضع يده على سور السفينة يتحسسها بحب وهو يقول:

- ما دمت مخلصًا يا ولدي مثلي، سنصل، وليحمِنا الرب أودين.

ابتسم أولاف وهو يقول له بشغف:

- فليحمنا الرب أودين.

أخرج الأب البوصلة من السفينة وحملها إلى حيث طاولة كبيرة عليها خريطة العالم وأخذ ينظر ويعد بعض الخطوط، حتى قال إن أول قاعدة عند

الإبحار في مواجهة رياح الشمال أن نتعلم أن نرمي هذه البوصلة يا أولاف، فإنها هناك مثلها مثل الخردة.

***

طائرة صغيرة من نوع «فوكر» تقتحم سماء القطب الشمالي بجرأة غير معهودة وعلى متنها أدميرال لم تشهد الطائرات قبله من هو مثله، كان يقرب وجهه من قمرة الطائرة وينظر باهتمام إلى الأرض البيضاء المفروشة أمامه، ثم يقول لصاحبه الطيار العتيد «بينيت»:

- أنبئني عن الفحص المبدئي للعدادات يا بينيت، لقد تهيأنا للدخول في مجال القطب.

قال بينيت:

- كل العدادات سليمة، لكن يبدو أن هناك تسربًا طفيفًا في الوقود، أنصح يا سيدي أن نعود أدراجنا لنصلح هذا العطب ثم نكمل. تسرب الوقود في طائرة فوكر هو خطر كبير.

نظر الأدميرال إلى العدادات بغضب وهو يقول:

- انسَ أمر العودة، هذا التسرب طفيف جدًّا لا يؤثر على شيء، وإن عدنا فإنه سيتسرب منا ما هو أكثر أهمية؛ العزيمة.

من هنا بدأت البوصلة في العبث، وأطلق بينيت لعانًا وهو ينظر إليها ولم يولِها الأدميرال أي اهتمام، فقال بينيت:

- إذا فقدنا البوصلة أيضًا يا أدميرال فكيف...

قاطعه الأدميرال بحسم:

- نحن فوق الحلقة القطبية المغناطيسية، وجنون البوصلة هذا يعلمك أننا في الطريق الصحيح، نحن من هذه النقطة بدأنا في اختراق القطب الشمالي، وسنتعلم من هذه النقطة أن نرمي البوصلة من حساباتنا وكأنها غير موجودة.

قال بينيت:

- أي حلقة مغناطيسية قطبية يا أدميرال؟ أرجوك أعلمني كيف تنوي أن تعرف الاتجاهات في هذا المكان، انظر إلى الأرض البيضاء الممتدة تحتنا في كل اتجاه.

نظر الأدميرال إلى الأرض المنبسطة كصفحة بيضاء يرتد عنها البصر بشكل متعب للعين ثم قال:

- عند حافة الكرة الأرضية يا بينيت هناك حلقة دائرية مغناطيسية حول القطب، هذه الحلقة هي الشمال المغناطيسي الوهمي الذي تشير البوصلة إليه دومًا في أي منطقة من مناطق العالم، أما الشمال الحقيقي فهو في رأس الكرة، بعد هذه الحلقة، لذلك إذا تجاوز شخص هذه الحلقة كما نفعل الآن فستشير البوصلة نحو الجنوب، لأن الحلقة أصبحت خلفنا.

وبالفعل استقرت البوصلة فجأة وأصبحت تشير إلى الجنوب وهو أمر عجيب نادر لا يمكن أن يحصل إلا هناك في القطب، لكن مع استمرار الطائرة في شق الأجواء ناحية الشمال، كانت البوصلة تتحرك وتنحرف شيئًا فشيئًا عن الجنوب كأنها تتحرك ببطء شديد عكس عقارب الساعة.

قال بينيت بقلق:

- يا أدميرال، لقد حاولتُ أن أعكس وعيي وأتعامل على أن الجنوب هو الشمال لكن البوصلة غير مستقرة.

قال الأدميرال:

- هنا أسطورة الشمال تتحقق يا بينيت، فما دامت أرضنا هذه تدور حول نفسها باستمرار فحلقة الشمال المغناطيسي هذه ليست ثابتة، بل تدور مع دوران الأرض فلا تشير البوصلة دومًا إلى نفس المكان أبدًا، بل تتغير، لهذا قلت لك أن ترمي البوصلة من حسابك لأنه لم تعد لها فائدة تُذكَر. لقد أعددت طريقة للسير دون بوصلة، فقط سجِّل أرقام هذه العدادات ها هنا.

نظر بينيت من القمرة واتسعت عيناه وهو يقول:

- كابتن...

نظر الأدميرال ليرى شيئًا بدأ يكسر رتابة البساط الأبيض، ليس شيئًا بل أشياء، جبال بيضاء شواهق تبدو كأنها تنبعث من قلب المحيط المتجمد، جبال سفوحها ليست كسفوح الجبال المتدرجة، بل بدت كأنما تخرج من الأرض بزاوية قائمة كجدران بيضاء عالية تصنع تشكيلات باهرة.

شد الأدميرال المقود لترتفع الطائرة لكنها أبت أن ترتفع، صرخ الأدميرال في بينيت:

- ما بال المقود اللعين؟

قال بينيت وهو ينظر إلى الجبال التي تقترب بفزع ثم ينظر إلى العدادات:

- إنه الوقود يا أدميرال، قلت لك إن هناك مشكلة في الوقود في طائرات الفوكر قد يؤثر على التوجيه.

وأبت الطائرة أن ترتفع، وتحيَّنت التلال البيضاء لاحتضانها...

***

رياح لها ذر أبيض بارد يهب على صفحة البحر، وسفينة مجترئة تقترب في جسارة، يقول أهل الشمال: إذا هبت رياح الشمال فلا يجب أن تجدك في البحر، لأنها لن ترحمك أنت وسفينتك.

كان الأب يجاهد لتثبيت نفسه ويمسك بيد من حديد على دفة السفينة وأولاف يحاول توجيه الأشرعة في الاتجاه المطلوب، بدأ يشعر بالحمق على بعث الفكرة في ذهن والده وهو يعرف أن والده يعشق هذه الخرافات، فلا بد أنه يظن الآن أنه محارب مختار في جيش أودين، لكن هذه السفينة لن تتحمل ساعات أخرى في وجه رياح الشمال، فما بالك بالسفر بها أيامًا وسط براثن الرياح؟ كانت هذه هي أحمق فكرة جاءت على عقله المراهق ويبدو أن والده أكثر مراهقة منه.

بدأت السماء تصنع ذلك الصوت الغاضب المرعِد الذي تشعر أنه شيطان ينادي بالهلاك، والهواء البارد يضرب وجه أولاف فتلتوي رقبته، والبرق يقصف الأسماع قصفًا، ووسط كل هذا كان والده يغني أغنية حماسية نوردية، وعلى الرغم مما يبديه والده من الحمق فإنه كان قبطانًا لا تركبه سفينته كما يُقال في البحر عندهم. كان يمسك الدفة بذراعين قويتين ويوجِّه الدفة بإتقان

إلى مواضع معينة حسب ضربة الرياح التالية، فتتوجه السفينة بالضبط إلى الموضع الذي يريده ليس الموضع الذي تريده الرياح.

لكن رياح الشمال البيضاء أصبح لها صوت كالعزيف المتضخم وقرر البحر أن يغضب بدوره، فانقبض قلب أولاف الصغير وهو ينظر إلى الأمواج التي بدأت في رفع رؤوسها حتى أصبحت بمحاذاة سور السفينة التي أخذت تهتز بعنف، هنا سكت والده عن الغناء وصرخ:

- أولاف، أحضر الحوض واستعد لإخراج المياه على الفور.

ركض أولاف بسرعة إلى الحوض الذي أعدوه خصيصى لأجل هذا ووقف ممسكًا به متأهبًا في وجه الموج لكن وجهه قد صفق وصدرت منه صرخة مكتومة، فقد رأى بعينيه الموج يدخل في مرحلة جديدة من الارتفاع، فلم يعد يحاذي السور، بل صار يوازي الأشرعة، وهذا يعني في عرف البحر النهاية، لكن والده كان يصنع الأعاجيب بهذه السفينة، فلم يكن يواجه الموج بأي من جانبي السفينة بل بمقدمتها، فتضرب الموجة رأس السفينة فتدفعها إلى الوراء، وكان أولاف يجاهد ليخرج أي كمية من الماء تدخل.

ظل الموج يضرب وجه السفينة وتدفعها الرياح إلى الجنوب بعيدًا حتى طلع الفجر وهدأ البحر واستوى، واستند أولاف إلى جدار السفينة في إرهاق ووالده يقول:

- ليس أودين وحده من نصرنا، بل إن هذا كان ثورًا.

تبسم أولاف على الرغم منه وقال بصوت خافت:

- يبدو أنك أنت ثور يا أبي.

قال الأب:

- ماذا تقول يا بني؟

قال أولاف متجاوزًا الأمر:

- كنت أقول أين نحن؟

قال أبوه وهو يشعل الغليون:

- إنها فرصتنا للانطلاق إلى الشمال ثانية، لقد هدأ البحر، فقط عليك توجيه الأشرعة إلى حيثما أقول لك.

قام أولاف متحاملًا على إرهاقه وبدأ يمسك بحبال الأشرعة ويستمع إلى والده، حتى مضى من النهار أكثر من نصفه، ثم ناداه والده بصوت عالٍ فترك موضعه على الفور وهرع إليه فوجده يشير بعيدًا ويقول:

- انظر يا أولاف، إنها جدران الشمال.

نظر أولاف إلى منظر ليس معتادًا على أعين البشر؛ تلال جليدية حادة الأطراف تتداخل مع بعضها وتتقارب كأنها تتعاشق وتصنع ما يشبه الجدار العظيم، تبدو من ورائه الشمس تستعد للهبوط، فقال أولاف وهو يرفع رأسه ليصل إلى أعلى الجدار:

- أبي، كيف سنمر من هذا الشيء؟

قال الأب:

- من بين ثنايا هذه الجبال، سنبحث عن شق تدخل فيه السفينة وسنعتمد فقط على المحرك ونغلق الأشرعة، ولكن هناك مشكلة واحدة في هذه الجبال البيضاء.

نظر أولاف متسائلًا برهبة فقال الأب:

- في هذه الجبال تكون معدلات الانهيار الداخلي كبيرة جدًّا، فإذا دخلنا وسطها فربما تطبق علينا لتسحقنا، وربما لا تطبق.

***

بحنكة طيار قديم أدار الأدميرال بيرد مقود الطائرة إلى أقصى اليسار، فأدارت الطائرة وجهها يسارًا وارتفع بطنها مواجهًا للجبال في مشهد طيراني شديد الاحترافية، حتى نجحت بالكاد في تجاوز قمة أحد الجبال المدببة التي كانت على بعد سنتيمترات من جسم الطائرة، واجتاز الأدميرال جدار الرعب الأبيض وطار على ارتفاع منخفض وهو ينظر بتركيز إلى كل شيء حوله. كانت الأساطير كثيرة عما هو موجود وراء هذا الجدار، ويبدو أن أول أسطورة من الأساطير كانت حقيقية تمامًا، وأصبح يراها أمام عينيه.

هناك لحظة تظن فيها أنك وصلت إلى حافة الأرض بالفعل، فهناك حيث نظر الأدميرال وصاحبه إلى ما يظهر أمامهما في ارتعاب، كان هناك شيء لا يبدو أن أحدًا صك له اسمًا علميًّا من قبل، أقرب وصف له أنه سحابة ترابية

هائلة تسد الأفق بأكمله من الأرض إلى السماء، كأنها جدار يحف الأرض، لكن المشكلة الحقيقية كانت أن هذه السحابة العملاقة تقترب. قال الأدميرال:

- اللعنة! إنها العواصف الترابية التي تحدَّث عنها المستكشف نانسن، قال إنه لعن حظه عندما شاهدها ثم قرر أن يعود، لقد هزمته هذه السحابة يا بينيت.

قال بينيت بحذر:

- ما أفكر فيه يا كابتن، من أين يأتي كل هذا الغبار في القطب الشمالي؟

قال الأدميرال وهو ينظر إلى السحابة في شرود:

- إذا تجاوزنا هذا الشيء يا بينيت، سأخبرك.

كان ارتفاع السحابة عاليًا جدًّا إلى درجة لا يمكن أن تصل لها الطائرة وترتفع فوقها، فعمل الأدميرال بيرد أكثر شيء غرابة؛ نزل بالطائرة إلى ناحية الأرض وطار ببطء بمحاذاة الأرض كأنه يبحث عن موضع ما، وبهدوء وخبرة هبط بالطائرة إلى الأرض في موضع معين وهو يقول:

- إذا مست هذه العاصفة الترابية طائرتنا فقد انتهى أمرها، جميع الأجهزة ستتلف، سنبقيها هنا يغطيها هذا الجزء من الجبل، ونحن سنبقى بداخلها هنا حتى تنتهي العاصفة.

قال بينيت وقد بدت له فكرة غريبة:

- سيدي، وهل تنتهي عاصفة بهذا الحجم؟

قال الأدميرال:

- لا يوجد عاصفة ترابية دائمة يا بينيت، وإذا كان الذي في بالي صحيحًا، فإن هذه العاصفة مصدرها أرض لا علاقة لها بالجليد.

قال بينيت بتساؤل:

- هل تعني أنها قادمة من روسيا يا سيدي؟ فأنا أعلم أن القطب الشمالي يقع بالضبط بين كندا وروسيا.

مط الأدميرال شفتيه وقال:

- لا يا بينيت؛ روسيا أبعد من أن تأتي منها عاصفة كهذه، ستعرف كل شيء إذا نجحنا في تجاوزها.

قال بينيت:

- كم من المفترض أن نبقى ها هنا؟

قال الأدميرال وفي عينيه حزم:

- سأبقى هنا ولو شهرًا كاملًا حتى تمر العاصفة.

***

كان أولاف يقول دومًا إن أباه يملك قلبًا من حديد، فها هي السفينة قد دخلت بالكاد في فرجة بين جبلين جليديَّين وهبط الليل وبدآ يسمعان صوت رياح الشمال تزوم بصوت باطني يأتي من قلب الجبال ينذر بالانهيار، وأبوه واقف على حافة السفينة يدخن غليونه ويتطلع ببال رائق إلى سطح الجبل المتاخم لجوانب السفينة ويلمسه بيده في تعجب، والحق أن منظر تكدس الجبال البيضاء المتداخلة فوق رأسيهما كانت له رهبة عجيبة، كأنها عواميد من الكريستال وقعت على بعضها فأسندت بعضها بعضًا بالكاد، ونور القمر يتخلل سفوحها ويضفي بعض التألق عند انعكاسه على سطحها الأبيض.

كانت هناك مياه لا تزال على متن السفينة من العاصفة وكان على أولاف أن يخرجها، لكنه كان مرهقًا وعطِشًا ويائسًا من فعل أي شيء، لأنه قبل دقائق عرف أن مياه الشرب التي لديهما على السفينة قد نفدت. تحامل على نفسه ووقف وتوجه ناحية أبيه السارح في عالمه فقال له:

- لقد نفدت المياه يا أبت، لم تعد لدينا قطرة واحدة.

ظهر شيء من التأثر على عيني أبيه الجميلتين ثم أتبعها بنظرة فيها عزم وهو يقول:

- كن شجاعًا يا ولدي، الرب أودين هو إله الماء، وهو يساعد الشجعان.

أشاح أولاف بوجهه في يأس وهو يتنهد، يا لهذا الرب أودين الذي يملك كل شيء. مشى بيأس إلى المياه التي على متن السفينة وأصبح يملأ الحوض منها محاولًا إلهاء نفسه عن التفكير في العطش، كانت المياه باردة، فوضع

كفيه فيها وشرع ينضح وجهه بالماء لعله يستفيق من هذا اليأس، لكن يده تجمدت فجأة على وجهه وأخذ ينزلها في بطء وعيناه متسعتان من الدهشة، ألقى نظرة غير مصدقة على الماء وهرع يملأ كفيه بالماء ثانية ثم...

صدرت منه شهقة واضحة فالتفت له أبوه باستغراب، فوجد وجهه اليائس قد أشرق بطاقة الأمل وهو ينظر إليه نظرة ضاحكة غير مصدِّقة ويقول:

- أبي، هذا المياه... مياه المحيط، إنها... عذبة!

انقلبت معالم أبيه كلها إلى لمحات من الذهول المختلط بالفرحة والامتنان ورفع رأسه إلى السماء وهو يقول:

- إنهما هناك يا ولدي؛ ثور، أودين، إنهما معنا، لسنا وحدنا.

نظر أولاف إلى السماء باحثًا بصدق عن أودين، فالمعجزة التي بين يديه لم تكن عادية، أن تكون مبحِرًا في محيط ثم تكتشف أن مياهه عذبة سائغة باردة لذيذة فهو أمر معجِز لا يُصدَّق! شرع يملأ جميع الدلاء التي لديهما من مياه المحيط، وكان أبوه يبدو أحمق وهو يحاول تذوق جبل الجليد الذي يجاورهما ليتأكد إن كان عذبًا هو الآخر، لم يستطع أولاف أن يمنع نفسه من الضحك، فنظر إليه أبوه وضحك هو الآخر، وقال أولاف في نفسه: يا للسماء! ليت كل الناس مثل أبي هذا.

مرت السفينة بسلام تام تحت أعمدة الكريستال الضخمة التي أصبحت كأنها تحتضنهما تحتها حامية لهما من شر العاصفة الهوجاء التي بالخارج، حتى بانت من بعيد فرجة كبيرة إلى السماء، قاما بتلهف حقيقي إلى مقدمة السفينة وهما ينظران إلى الفرجة التي تدل على أنهما سيخرجان من هذا المحبس الأبيض. كانا كلما اقتربا ظهرت السماء أكثر وأولاف فاغر فاه صامت يتطلع إلى شيء في الأفق لم يرَ مثله يومًا في حياته القصيرة...

طيف عظيم يقطع السماء بأكملها بألوان ممتزجة بين الأخضر والأحمر والبنفسجي، والأكثر إثارة للدهشة أن هذه الألوان كلها كانت تتداخل في بعضها وتتحرك ببطء كأنها سبحات من نور. قال الأب والغليون في فمه:

- إنه الشفق القطبي يا بني، هذا الشيء لن تراه إلا في البلاد القطبية.

خرجت السفينة من بين الجبال الراسخات إلى سماء واسعة تغمرها الألوان، كأن الرب يجزيهما على ما قدَّما. لم تكن هناك عاصفة، ولا رياح باردة، فقط الجمال وملكوت الجمال.

ساعات مضت تتبعها ساعات حتى انقشع الليل وخرج رأس الشمس على أفق السماء، ولكن هذه الشمس تحديدًا أثارت ذهولهما، فهما معتادان في عملهما في البحر رؤية الشمس، يحفظان طريقتها في البزوغ، لكنها المرة الأولى التي يريان فيها الشمس تأتي وسحب من الدخان تحيط بها كأنما خرجت من عين حمئة.

***

صباحات ومساءات كانت متشابهة وهما يرقدان في طائرتهما الفوكر ناظرين إلى سماء يغشاها التراب فيحجب ليلها ونهارها، لا يوجد نور وظلام، إنما هو لون بني غباري يدنس كل شيء، نام بينيت كثيرًا حتى مل من النوم، وكان ينصح بالعودة كل حين لكن الأدميرال كان مصرًّا كجرثومة، ولم يكن ليرجعه عن مراده شيء حتى يهلكهما، كان يخرج كل حين من الطائرة ويعود محمَّلًا بالسعال، وفي تلك الساعة جاء من الخارج وهو يقول:

- هيا يا بينيت، سنتحرك من هذا المكان، الغبار خف وهبط لدرجة مقبولة للطيران فوقه.

تيقظت حواس بينيت فقام وأيقظ آلات الطائرة وعدل هندامه وربطا أحزمتهما ومشيا بالطائرة قليلًا، ثم ارتفعا ببطء وحذر ثم أطلقا صمام السرعة القصوى فانبعثت الطائرة كالسهم إلى الأعلى في مناورة سريعة للخروج من العاصفة الترابية، ولم تلبث السماء أن ظهرت في القمرة وتبين أنه الليل وارتفعت الطائرة فوق قترة الغبار الذي كاد أن يغبِّر روحيهما.

كان الأدميرال ينظر بعينيه محاولًا أن يتبين لهذه السحابة الغبارية نهاية، وفي الوقت نفسه ينظر بقلق إلى عداد الوقود الذي ما زال يشير إلى أن المتبقي من الوقود هو ثلاثة أرباع الخزان، تحمس قلباهما وهما يريان بعد ساعات طوال من الطيران أن الغبار قد خف تدريجيًّا حتى زال من صفحة

السماء. هرع الأدميرال إلى خريطة رسمها مسبقًا للاتجاهات وخطوط الطول وانحرافات البوصلة وقال لبينيت:

- أعطِني الأرقام التي طلبت منك تسجيلها.

مد بينيت يده وناوله الأرقام التي مكث الأدميرال يقارن بينها وبين أوراقه، ثم أخذ ينظر باهتمام إلى السماء وتحديدًا إلى النجم القطبي الذي يصبح فوق الرأس مباشرة في القطب الشمالي، وحسب الأدميرال درجة الاتجاه التي يريد التوجه لها وشغَّل السرعة القصوى، وانطلقت الطائرة.

وبينما كان الأدميرال منكبًا على أوراقه ناداه بينيت:

- أدميرال، انظر هناك.

نظر الأدميرال من القمرة ليرى الأفق قد تلون بستائر حمراء وخضراء وزرقاء وكلها تلوِّن بعضها بعضًا وتعشق بعضها بعضًا وتتحرك في السماء كتحرك السحاب، والقمر وسطها يغالب نوره نورها في مشهد يأخذ القلوب، ترك الأدميرال أوراقه وأمر بينيت أن يهبط بالطائرة على الفور ويجعلها تحت حامية من صخر الجبل.

خرج الأدميرال وصاحبه من الطائرة ينظران إلى السماء بدقة أكبر، قال الأدميرال وهو يستند إلى الطائرة:

- إنها ستمطر، أو فلنقل سيتساقط الثلج.

نظر بينيت إلى جمال السماء وهو يستشعر من سحاباتها قرب تهاطل الثلج، ولم تلبث السماء إلا أن ألقت ذرفات من ثلوجها تبعتها شهقات من الذهول تدافعت من أفواههما، فهذه الثلوج المتساقطة حولهما لم تكن بيضاء، بل كانت ثلوجًا ملونة بعضها أصفر وبعضها أحمر أو أسود، قال بينيت وهو يرفع يده إلى الثلوج:

- هذا القطب الشمالي، من يحتمل عذابه يرَ عجبًا، ما هذا يا أدميرال بحق السماء؟

قال الأدميرال وهو يعاين بعض القطع الملونة التي على الأرض:

- هذه الثلوج يا بينيت، لقد تمازجت مع مواد كربونية ناتجة من براكين قريبة فأنتجت هذه الألوان.

رفع بينيت حاجبيه وهو يقول:

- أي براكين يا أدميرال؟ لا توجد هنا براكين؛ نحن في القطب الشمالي.

تبسم الأدميرال ولم يرُد، لكن بينيت اقترب منه ببطء وقال:

- أدميرال، دعني أذكرك أنني طيار محترف وأنك اخترتني لمرافقتك ها هنا من بين المئات، فلماذا يبدو أنك تستصغر من شأني؟

كان الأدميرال ينظر إلى السماء وجمال المنظر الذي بدأ يقسده بينيت بحماقته، فنظر إليه الأدميرال وقال:

- كل ما في الأمر يا بينيت هو أنني أعلم أمورًا عن هذا القطب لا يعلمها مخلوق، وأنني سأكشف لك كل شيء في حينه.

اعترض بينيت:

- هذا هو حينه يا أدميرال.

قال الأدميرال:

- ليس بعد، لكن تأكد أن ما سأخبرك به وما سنراه يستحق الانتظار، نحن في عالم لا يتخيل البشر أنه موجود، لكن الوقت قد حان ليعلموا.

قال بينيت معلِّقًا:

- عالم؟

هز الأدميرال رأسه إيجابًا، نظر إليه بينيت برهة فوجده يشير برأسه إلى مكان معين، فنظر بعصبية وانتفض قلبه، فهناك وعلى بعد أمتار وعلى ضوء الفجر الذي بدأ يبزغ ليبدد الشفق الملون، كان يمشي حيوان يستحيل بأي حال من الأحوال وجوده ها هنا، ليس لأنه غير قطبي مثلًا، ولكن لأن هذا الحيوان بالذات انقرض منذ ملايين السنين كما تعلموا في المدارس، حيوان ضخم يغطيه الشعر الكثيف البني ويخرج منه نابان عاجيان طول الواحد منهما كطول جسده كله وله خرطوم مثل الفيل تمامًا.



أفاق الرجلان من دهشتهما عندما بدأ هذا الكائن يتحرك بأرجله الأربع الضخمة ورفع رأسه ليخرج منه خوار ممتزج بحشرجة جعلتهما يتراجعان فطريًّا واستدار بينيت هربًا إلى الطائرة وأصبح الأدميرال يتراجع بحذر وهو ينظر إلى مكان آخر ويقول:

- اللعنة، هناك واحد آخر.

واستدار الأدميرال بدوره إلى الطائرة التي شغَّلها بينيت وانطلق بها على الفور ويده ترتجف على المقود وهو يقول:

- سيدي، قل لي إني نسيت درس البيولوجي، كيف أتى هذا الشيء ها هنا؟

قال الأدميرال وهو ينظر من قمرة الطائرة إلى الكائن:

- يا للمسيح! إنه الماموث، الكائن القديم الشرس، العلماء وجدوا حفريات منه هنا في القطب، أو ما ظنوا أنه حفريات، لأنها كانت تحوي بعض الأجزاء الرخوة، مما يشير ربما إلى أن هذه ليست حفرية لكائن قديم بقدر ما أنها لكائن عادي تجمد بطريقة ما في القطب. أتدري يا بينيت لو أن هذا الشيء لمحنا ما كنا لنعيش يومًا آخر، لقد رأيت أكثر من واحد، انظر...

نظر بينيت ليجد قطيعًا من الماموث يمشون صغارًا وكبارًا بحرية في أرض واسعة، نظر إليهم بينيت في دهشة ثم نظر إلى البوصلة فوجدها ما زالت مخمورة، قال له الأدميرال:

- توجه إلى هذه النقطة عند اتجاه الساعة الحادية عشرة.

انطلق بينيت بالطائرة وعيناه تطالعان المشاهد بالأسفل، والتي بدأت تشعره بأنهما ضلا الطريق بشكل ما وأن حسابات الأدميرال كلها خاطئة، ذلك لأن الأرض التي أمامه بدأت تصبح أرضًا عادية ليس فيها ثلوج، أخذت بعض الأشجار تظهر والبحيرات، وتتقافز هنا وهناك الثعالب والذئاب والبط والإوز والأرانب، الشمس تبدو غريبة تحيطها ألسنة دخانية عجيبة كأنها السحب، حتى نورها لا يبدو كنور الصباح، بل يبدو مثل نور آخر النهار. لم يحتمل بينيت أكثر من هذا فقال:

- أدميرال، معذرة، لقد ضللنا الطريق، بعد تعطل البوصلة، يبدو أن حساباتنا جعلتنا نتوجه إلى كندا وليس إلى القطب بأي حال، انظر إلى درجة الحرارة، إنها 23، أين القطب الشمالي بالضبط؟

قال الأدميرال كلمة حاول إخراجها بطريقة هادئة إلا أنها أحدثت وجمة كبيرة في كيان بينيت، قال له الأدميرال:

- نحن لم نعد على الأرض يا بينيت.

ترك بينيت المقود والتفت بجسده ناحية الأدميرال وهو يقول:

- سيدي، معذرة لكن هذا ليس وقت المز...

قاطعه الأدميرال:

- نحن في جوف الأرض.

نظر إليه بينيت طويلًا ولم يعلّق، وكان يبدو أنه أصبح يشك في عقل الأدميرال. نظر إليه الأدميرال بنظرة الذي يعرف ما يتحدث عنه وهو يقول:

- انس يا بينيت كل القصص الحمقاء التي تسمعها في الأساطير عن جوف الأرض وأن هناك كائنات وشياطين تعيش في مملكة من الجحور في الأرض السفلى، انس كل هذا الحمق، جوف الأرض هو شيء آخر يختلف عن كل هذه المفبركات من خيال البشر المحدود.

ظل بينيت ينظر إلى الأدميرال نفس النظرة وهو يكمل بهدوء:

- كوكب الأرض الذي نعيش عليه فيه طبقات في أسفله، يؤمن كثير من العلماء أن هذه الطبقات صماء ليس فيها إلا كتل صخرية ومعادن ولافا بركانية، ولكن الحقيقة يا بينيت أن هذه الطبقات غير موجودة بطريقتهم التي يرسمونها، إنما هناك كتلة من نار ولافا في المركز بالفعل، لكن المساحة التي بينها وبين القشرة الأرضية هي مساحة مجوّفة تمامًا.

بدأت عينا بينيت تتأهبان للاعتراض لكن الأدميرال أكمل:

- الكتلة النارية التي في المركز تُعَد شمسًا لباطن الأرض، والمنطقة المجوفة الكبيرة تُعَد مثل الغلاف الجوي، والأرض السفلى هي تحت قشرتنا الأرضية مباشرة و...

قال بينيت بعصبية:

- ما دليلك على هذا الهراء معذرة يا أدميرال؟

أشار الأدميرال إلى السماء وهو يقول:

- هذه.

نظر بينيت ليجد الأدميرال يشير إلى الشمس الغريبة التي في السماء ويقول:

- الناس تظن أن هناك حفرة أو كهفًا عاديًّا يمكن أن يدخلوا منه لباطن الأرض، لكن الحقيقة أنه في القطب الشمالي تحديدًا هناك فجوة عملاقة في الكوكب، فجوة بحجم نيويورك على الأقل، تؤدي هذه الفجوة إلى داخل الأرض، وبسبب ضخامتها فإن من يدخلها لا يشعر بأي اختلاف ويظن أنه يمشي على الأرض كما هو، بينما الحقيقة أنه دخل في الفجوة وأصبح يمشي في باطن الأرض، وعندما يدخل سيجد هذه الشمس في وجهه، سيظنها شمسه العادية لكن أصابها عطب ما، لكن هذه ليست الشمس يا بينيت، هذه كتلة النار التي في باطن الأرض، وهذه الأرض التي حولنا ليست أرضنا يا بينيت، هذه هي الأرض السفلى، هذا جوف الأرض.

ازدرد بينيت لعابه وهو يقول بحلق جاف:

- ما الدليل على كلامك هذا يا أدميرال؟

قال الأدميرال:

- إدموند هالي مكتشف المذنَّب الشهير، أليس قد عمل بحثًا علميًّا معترَفًا به أثبت أن الأرض مجوفة وأن تجوفها هذا هو السبب في القراءات الشاذة للبوصلة في بعض الأماكن؟ وقال إن هذه الطبقات ربما تكون مسكونة بمخلوقات حية، ثم جاء بعده علماء آخرون قالوا إن هناك شمسًا داخلية، وإن نسبة الماء في جوف الأرض هي ربع المساحة فقط، وكل الباقي هو أرض.

قال بينيت وهو يتطلع إلى الأرض ذات السهول الخضراء التي تحته:

- أدميرال، أنت تعني أننا الآن في الحقيقة نسير في جوف الأرض، يعني نسير معكوسين رأسنا لأسفل؟

قال الأدميرال:

- في المساحات الكبيرة مثل الكوكب وبسبب الجاذبية لا يدرك الشخص أن رأسه لأسفل، فالناس في النصف الجنوبي من الأرض رأسهم لأسفل وهم لا يشعرون بذلك بسبب المساحة الكبيرة الممتدة وبسبب الجاذبية.

صمت بينيت تمامًا وهو يراقب الشمس والسحابات حولها والتي تعطيها منظرًا مهيبًا، لكنه آمن، فالنظر مباشرة إلى هذه الشمس ممكن، فهي ليست مثل الشمس العادية التي تحرق عينيك لو نظرت إليها مباشرة.

***

نظر أولاف مرة أخيرة إلى الشمس الدخانية وقال:

- إن كل شيء هنا ليس كما اعتدناه يا أبت.

قال الأب بحكمة:

- هذه ليست الشمس يا ولدي، إنما هذا كوكب من الكواكب ويبدو أننا اقتربنا منه كثيرًا لمَّا توغلنا في الشمال.

قرر الأب أن ينزل مع ولده من السفينة ليستكشفا هذه الأرض الجديدة بهذا الشفق الذي يزين سماءها وتلك الشمس المثيرة للارتياب، سارا ساعات طوال ولاحظا أن الشمس لم تأفل في الوقت المتوقع لها، بل طال مكوثها في السماء، فعرفا أن هذه ليست الشمس بأي حال، وحتى لما أفِلَت لم يكن أفولها كأفول الشمس المعتاد حيث تهبط إلى الأرض، بل هذه الشمس كانت تصعد في السماء، كل شيء أصبح معكوسًا هنا، لكنهما لم يكونا في حال تسمح لهما بالاهتمام بهذا كثيرًا، فقد مرت عليهما خمسة أشهر في البحر وقد نفد منهما الزاد منذ أيام حتى بدأ بطناهما ينقبضان من الجوع وناما من التعب.

وبرزت شمس الدخان من فوق السماء لتعلن هبوط الفجر وأيقظهما شعاعها ليشرعا في السير في تلك الأرض التي لم يعد لها علاقة بأقصى شمال الأرض، فقد برزت جبال خضراء وسهل ممتد وأشجار طويلات عظيمات ونهر كبير يشق كل هذا ويبدو ممتدًا في الأفق، انطلقا بلهفة ناحية الأشجار يبحثان

عن أي ثمار تصلح للأكل، ووجدا بالفعل أشجار عنب تبدو أطول بكثير مما هي عليه في أرضهما، لكن كان من السهل على ريفيَّين مثلهما أن يصلا إلى ثمارها التي كانت أكبر من ثمار العنب العادية، فالحبة الواحدة هنا هي في حجم عقلتي إصبع، وكانت لذيذة الطعم ينعش ماؤها الروح.

وبينما هما يأكلان إذ سمعا صوتًا كأنه الغناء، فالتفتا في خوف يبحثان عن مصدره، كان غناء مصحوبًا بعزف له رنة غير معتادة، وكان الصوت يعلو شيئًا فشيئًا، أو أنه يقترب، وبالفعل عرفا الجهة التي يأتي منها، فنظرا إلى ناحية النهر في شيء من الشغف ورأيا مصدر الغناء، فتحول الشغف فورًا إلى فزع.

***

كان بينيت ينظر إلى العدادات ويحسب شيئًا ما ثم قال للأدميرال:

- سيدي، لقد نفد أكثر من نصف الوقود، وبحساب المسافة التي قطعناها فبما أن مسافة العودة هي نفسها فهذا الوقود لن ينجح في إعادتنا إلى بلادنا.

كان الأدميرال يريد أن يرد عليه لكنه تيبس في مقعده وهو ينظر إلى العدادات في ذهول، ولم يعتنِ بينيت برده، فقد كان ينظر بدوره إلى نفس الشيء الذي أهبط قلبه إلى أرضية هذه الطائرة، ففجأة ودون أي سبب مفهوم توقفت جميع العدادات في مواضعها على الرغم من أن المحرك يعمل، لكن لم تعد أذرع الانطلاق تؤدي أي حركة ولا أذرع التوجيه تلتفت بالطائرة إلى أي اتجاه، ولا ذراع الهبوط ولا ضغط أي زر هنا يؤدي إلى أي شيء.

وفجأة اشتغل راديو الطائرة بموجات فيها كثير من التشويش، اشتغل وحده دون أن يرفعا لسان السماع، وبرز صوت من وسط ضجيج الراديو لشخص يتحدث، لكن لا يصل كلامه واضحًا كأنه لم يضبط الموجة، لكنه كان يلقي جملة قصيرة ويسكت ثم يعيدها كأنه يسأل ويكرر، كان الأدميرال قد طار عقله وهو ينكب على الراديو يحاول أن يضبط الموجة ليسمع حتى قال بينيت بصوت شديد مختنق:

- أدميرال، هل أنت واثق أننا في جوف... الأرض؟

- نعم يا بينيت، فقط دعني أضبط هذا الراديو اللعين.

قال بينيت برهبة تحذيرية:

- أدميرال...

نظر الأدميرال تلقائيًّا من النافذة وتوقف عما كان يصنع، فهناك وحول الطائرة من جهاتها الأربع، كانت أشياء يستحيل أن توجد في جوف الأرض ولا حتى على سطحه؛ أشياء مفزعة.

***

غناء أصبح يملأ الأجواء، يصدر من سفينة ذات حجم هائل تأتي من الأفق، تمشي في النهر الكبير ببطء رائق، وعلى متنها رجال طوال صهب الشعور، بدت عليهم الدهشة وهم ينظرون إلى أولاف وأبيه ويشيرون وينادون بعضهم ثم يهرعون لعمل شيء ما، ومن أسفل السفينة انفتح باب خرج منه قارب عليه ستة رجال أشداء، قال الأب:

- يبدو أننا سافرنا إلى بلد جديد.

جاء الرجال الطوال الستة وبدؤوا يتكلمون بلغة لم يفقه الأب وولده منها شيئًا، ولم يبدُ من طريقتهم أنهم ودودون جدًّا، فقد كانوا يحدِّثون بعضهم بعصبية كأن إيجاد أولاف وأبيه هو كشف غير معتاد بالنسبة إليهم، فهما قصار القامة بالنسبة إليهم ولهما ملامح مختلفة. مد أحدهم يده ليأخذ البوصلة من الأب وأخذ يتطلع لها في استغراب، وتجمع زملاؤه حوله ينظرون إليها وانشغلوا بها تمامًا أكثر من انشغالهم بأي شيء، نظر أولاف إلى أبيه نظرة على طراز (ماذا نفعل؟)، أشار له الأب أن سننتظر. التفت لهما الرجال وبدؤوا يحاولون إفهامهما بالإشارة، أشار أحدهم للأب إن كانا يريدان أن يركبا في سفينتهم. نظر الأب إلى أولاف في تساؤل فقال أولاف:

- يبدو أنهم ليسوا أشرارًا يا أبت على الرغم من أنهم طوال حقًّا.

والحقيقة أن أقصر شخص بينهم كان طوله مترين، وكلهم ذوو لحى متوسطة الطول تختلف ألوانها فيما بينهم، ويملكون وجوهًا وسيمة. مشيا وراءهم إلى السفينة التي كان فيها جمع من قومهم ينظرون إلى أولاف وأبيه في تعجب، ونساؤهم ينظرن في ضحك، كان من الواضح أن هؤلاء القوم لا

يأتيهم غريب على الإطلاق، وكيف يأتيهم أحد وهم وراء رياح الشمال؟ هذا ما جال في ذهن أولاف وهو يرى الرجال والنساء يتسابقون لنيل رضاه وأبيه، مثل أن تجد قطًّا ظريفًا فتقرر ملاعبته كل حين.

كانت ملابس هؤلاء القوم حريرية من شيء مثل الساتان، وينتعلون صنادل يزينها الذهب، وهو شيء كان يلفت انتباه أولاف وأبيه بشدة، فهما يعرفان الذهب إذا رأياه، وهؤلاء القوم يضعون الذهب تحت أقدامهم. قال الأب وهو يشير إلى الأفق:

- لقد أتينا يا ولدي إلى القوم الذين حكى لي عنهم أبي وجدي وكان جدودنا يتوارثون أسطورتهم، هؤلاء يا أولاف هم القوم الذين يعيشون أسفل الأرض.

انقبض قلب أولاف وهو ينظر إلى الشيء الذي يشير إليه أبوه، فبدت له طلائع مدينة عظيمة حسنة البنيان والألوان، كان الرجال يلحظون دهشة أولاف وأبيه، فأخذ أحدهم أولاف ورفعه عاليًا في السماء وهو يقول شيئًا ما غير مفهوم، لكن كان واضحًا أنه يرفع أولاف ليرى بشكل أوضح، والحقيقة أن هذه الطريقة من البنيان لم يكن قد رآها بشر من قبل، فهي غير متماثلة وكبيرة وفيها كثير من الألوان.

نزل أولاف ووالده من السفينة وسط البحارة وأصبحا يمشيان في المدينة والناس يتجمهرون حولهما، بينما أعينهما ترصد الغرائب، فلم يكونا يعتنيان بنظرات أحد، كان الذهب هنا في كل مكان، مقابض الأبواب، الطاولات والمقاعد التي في الشارع، وحتى المباني المهمة تجد لها قبابًا من ذهب خالص، وجاء الرجال لهما بطعام من فواكه كبيرة الحجم غير موجودة على الأرض، وقرروا فيما بينهم أن يعهدوا بأولاف وأبيه إلى شخص يُدعى «جول» وزوجته حتى يعتنيا بهما ويعلماهما اللغة.

***

ستة أجسام طائرة دائرية الشكل أحاطت بالطائرة من جميع جهاتها، أطلق الأدميرال اللعان بصوت عالٍ وهو يحاول ضبط بكرة الراديو حتى أصبح الصوت واضحًا فجأة لكن لم يتبين ما يقول. قال الأدميرال:

- هنا الأدميرال ريتشارد بيرد، نحن لم نأتِ للاعتداء، لكن يبدو أننا ضللنا طريقنا.

أتاه صوت رجل ذو لكنة غريبة كأنها جرمانية ويقول:

- مرحبًا يا أدميرال في موطننا، أنت في أيد خيِّرة، لا تحاول التحرك بالطائرة، فهي الآن تحت تحكم خارجي، سنهبط بكم بعد حين.

صمت بينيت والأدميرال تمامًا وقد بعث كلام الرجل في نفسيهما بعض الاطمئنان، ولكن كاد قلباهما ينخلعان من الدهشة وهما ينظران من النافذة إلى طلائع مدينة عظيمة متلألئة يغشاها طيف ملون، ثم أفاقا من دهشتهما وهما يجدان الطائرة تهبط عموديًّا كأنها تحط على الأرض، ظنا أنهما يسقطان لكن تبين أن التحكم الخارجي يمسك بالطائرة ويحركها كأنها دمية ويهبط بها في المدينة.

خرج رجال طوال ذوو شعور بنية من الأطباق الطائرة وأحاطوا بالطائرة وأشار أحدهم بيده للأدميرال للخروج، خرج الأدميرال رافعًا يده علامة الاستسلام وبجواره بينيت الذي كان يرتجف كورقة شجر وبخاصة وهو ينظر بعينيه إلى أطباق طائرة حقيقية، بينما كان الأدميرال ينظر حوله إلى المدينة البديعة في انبهار كامل حيث تبدو المباني هنا أنها مصنوعة من الكريستال بطراز غريب ليس موجودًا بين مهندسي البشر، إلا عند المختلف جدًّا منهم مثل فرانك رايت الذي كان يصنع مباني دائرية ذات أدوار مثل الحلقات.

كان يبدو أن المكان الذي هبطا فيه هو مكان عسكري تمامًا، فهناك جنود يقفون في ثبات تغشاهم أنوار كاشفة. قادهما الرجال إلى مبنى كريستالي لا ترى داخله من خارجه، ومشيا في الداخل إلى ممرات كأن النور الأحمر يشع من داخلها أو منها. ولاحظ أحدهما بوادر القلق والخوف عليهما فقال:

- لا تقلق يا أدميرال، ستكونان بعد قليل في حضرة الماستر.

وصمت تاركًا قلبيهما يدقان...

***

مكث أولاف وأبوه بين هؤلاء القوم سنة كاملة يتعلمان من لغتهم ويريان من أعاجيبهم، كانت لغتهم لا تماثل مفرداتها أي لغة على الأرض، إلا أنها قريبة

من السنسكريتية القديمة نوعًا ما. كان اسم المدينة التي نزلا فيها «جيهو»، وهي مجرد مدينة من مملكة كبيرة تقع أسفل الأرض كلها اسمها أجارثا، وكان هؤلاء القوم كافرين بالله يعبدون الشمس الدخانية التي يعدونها أصل هذا الوجود بأكمله. لم تكن أعمار الناس هنا كأعمار البشر، بل إن متوسط عمر الشخص منهم هو ألف سنة، أي إنهم لم يولد لهم منذ بداية نشأة الأرض أكثر من عشرة أجيال. الذكور والإناث يتزوجون هنا في سن المائة، ولديهم علوم يبرعون فيها جدًّا وأدوات غريبة يستخدمونها لم يعرفها البشر من قبل، وعلوم أخرى بشرية لا يعرفون عنها شيئًا، يهتمون بالموسيقى جدًّا فتجدها حولك في كل مكان تقريبًا. الأطفال يذهبون إلى المدرسة في سن العشرين ويدرسون فيها لمدة ثلاثين سنة يتعلمون فيها كل شيء من الموسيقى حتى الزراعة.

مهنة أغلب الناس هنا هي الزراعة، ويغلب على طبعهم العصبية والوحشية أحيانًا، لكنهم مسالمون بعضهم مع بعض. عالمهم السفلي يدور مع دوران الأرض وشمسهم ثابتة، وعندما يأتي المساء تحتجب هذه الشمس وراء السحاب وتصير حمراء، ويظهر نورها عبر فرجات السحاب في الليل كأنه النجوم لكن بحجم أكبر.

وعندما تعلم الفتى وأبوه كثيرًا من لغة القوم أتاهما مبعوث من المدينة المركزية، وقال إن الكاهن الأعظم يريد رؤيتهما والحديث معهما. قادهما مبعوث الملك إلى سفينة فاخرة سارت في النهر بسرعة تماثل سرعة القطار حتى نزلت بعد أيام في مدينة أكبر من جيهو، يسمونها مدينة «شامبالا»، نظر الأب إلى السماء وهو يقول مازحًا:

- هكذا يبدو أننا تحت لندن أو إسكتلندا.

ابتسم أولاف لهذا مجامِلًا أباه، وكان يفكر في الأرض التي يعرفها، فعلى الرغم من أن هذه الأرض جميلة فإن جمالها لا يُقارَن بسهل واحد من سهول إسكتلندا مثلًا، حتى الحيوانات التي هنا ليست ذات روح حلوة تلعب معها مثل القطط، إنما معظمها أنعام تُركب وتؤكل. كان أولاف يحمل هم لقاء ذلك الكاهن، ويتمنى أن يسمح لهما بالعودة في أقرب وقت. نظر أولاف إلى أبيه

فوجده يتحدث مع أحد سكان هذا العالم بحماسة ومزاح كعادته، لقد أحب أبوه المكان هنا فيما يبدو.

ومن بوابة قوامها الذهب والياقوت دخل أولاف وأبوه إلى قصر عظيم فخم جدير بأن يكون قصرًا لحاكم أجارثا، وظهر على أعينهما التلهف لرؤية حاكم الأرض السفلى بأكملها، فلما خرج عليهما وجداه رجلًا ذا وجه عجوز، يرتدي روبًا فاخرًا جدًّا، قال الكاهن بصوت تملؤه الحكمة:

- منذ قرون لم يأتِنا من أرضكم أحد، ربما لأنه لم يجدنا، وإني أحببت أن أسألكما؛ كيف وجدتما أرضنا؟ وهل تريدان المكوث معنا بقية حياتكما؟

قال له الأب بصوت واثق:

- إنه من الشرف العظيم لنا أن نزور مدينتكم ونرى مبانيكم وفنونكم وعاداتكم، لكن هذا الولد هو ابني الوحيد وزوجتي تنتظر عودته في دارنا.

صمت الكاهن قليلًا ثم قال:

- إنها طريق خطرة في العودة، فنحن لا ندري كيف أتيتما.

قال الأب:

- لقد تدبرنا أمرنا بسفينتنا الصغيرة.

نظر الكاهن إلى أولاف وقال له:

- هل تريد العودة يا فتى أم أن مملكتنا أعجبتك؟

كان السؤال ذا صيغة صعبة لكن أولاف قال:

- كلاهما يا سيدي، أعجبتني مملكة أجارثا، وأريد العودة إلى الديار على أن نأتيكم السنة المقبلة.

نظر الكاهن إلى الأرض وهو يقول:

- أنت فتى حكيم يا ولدي.

ثم نظر إلى الأب وقال:

- سأطلب منكما أن ترسما خريطة لعالمكما قبل أن تغادرا، وكذلك نحن سنعطيكما خريطة لعالمنا.

أومأ الأب برأسه وقال:

- بالطبع يا سيدي، أنا بحار قديم ولدي خريطة في السفينة، سأنسخها لكم.

وهكذا أوفى الأب بوعده ونسخ الخريطة ووفى الكاهن فأعطاه خريطة عجيبة فيها ست أراضٍ كبرى وبحار قليلة، وركب أولاف وأبوه السفينة ووراءهما شعب أجارثا يودعونهما، وبدأت رحلة العودة.

***

دخل الأدميرال إلى غرفة ذات ألوان متداخلة وسط القصر الكريستالي المتلألئ، ودون أن تمر دقيقة انتظار خرج له رجل تبدو آثار السن في وجهه، قال له:

- أرحب بك في موطننا يا أدميرال، في أرض أرياني، أنا ماستر هذه الأرض.

أشار الرجل له أن يشاركه الجلوس على طاولة كبيرة، فجلس والتوتر يغمره، وجلس أمامه الرجل واستند إلى الطاولة، وقال وهو يشبك أصابعه:

- أنت في العالم الداخلي للأرض، نحن لن نعطل مهمتك، سنعيدك إلى السطح، ولكن دعني أخبرك لماذا أتينا بك هنا، إن شغفنا بكم ابتدأ منذ أن أطلق جنسك يا أدميرال القنبلة النووية على هيروشيما وناجازاكي في اليابان، كان ذلك أمرًا رهيبًا أرسلنا بعده آلاتنا الطائرة التي نسميها الفلاجرلادز Flugelrads لنعرف ما الذي فعله بنو جنسك.

قال الأدميرال:

- معذرة يا سيدي، ما دخلنا بهذا الأمر؟

رد عليه الماستر:

- أنا أعلم أن هذا بالنسبة إليك يُعد من التاريخ البعيد، ولكن دعني أكمل.

صمت الأدميرال وهو يستمع في اهتمام والماستر يقول:

- نحن لم نتدخل مطلقًا في الحروب التي تقوم بين بني جنسك، ولكن جاء الزمن الذي لا بد أن نتدخل فيه لأنكم تعلمتم العبث بطاقة كبيرة لا قِبَل لكم لها، ولا قِبَل لهذه الأرض بها، وإننا قد بعثنا بالفعل رسالات إلى القوى الكبرى التي تملك عالمكم ولكنهم لم يولوها أي اهتمام، والآن أنت قد أتيتنا بالصدفة وأنت رجل نبيل، فأنا اخترتك لتكون شاهدًا أمام جنسك أن هذا العالم موجود.

قال الأدميرال:

- الحقيقة أن العالم كله لا علم له بوجودكم يا سيدي، وقد ظل كذلك قرونًا عديدة، فلماذا الآن تريدون مني إبلاغ العالم بوجودكم؟

تطلع إليه الماستر بنظرة عميقة كأنه يتفرس ملامحه ثم قال:

لقد وصل بنو جنسك إلى نقطة اللاعودة، لأن هناك مِن بينكم مَن يسعى لتدمير هذه الأرض. قبل خمسين عامًا من أعوامكم حاولنا التواصل معكم، لكن أُطلِقت النار على آلاتنا الطائرة وتعقبتموها بطائراتكم الحربية، ولذلك سأعتمد عليك يا ولدي، أبلغ قومك بأنه سيكون هناك غضب كبير أسود لن يهدأ لسنوات عديدة ولن تكون هناك فائدة في أسلحتكم ولا أهمية لعلمكم في مواجهته، غضب سيشتعل حتى تهلك آخر زهرة على سطح الأرض وسيتهارج الناس في الفوضى، إن الحروب السابقة لم تكن إلا بداية وتمهيدًا لما سيأتي، وعلماؤنا هنا يرون هذا، فهل ترى عكس هذا؟

قال الأدميرال بصدق:

- أنا أؤمن بهذا، فقد جاءنا بالفعل عصر ظلامي استمر خمسمائة سنة في العصور الوسطى.

علّق الماستر قائلًا:

- نعم يا ولدي، العصر الظلامي سيأتي على العالم وسيغطي الأرض كالحجاب، ولكني أظن أن بعضًا من جنسكم سيعيش خلال هذه العاصفة، وأرى أن هناك عالمًا جديدًا سيُقام بعد ذلك من أنقاض الخراب مستفيدًا من كنوزه الضائعة، والتي ستكون ها هنا في أجارثا يا ولدي محفوظة في أيدينا، وعندما يأتي ذلك الوقت سنصعد إليكم

مرة أخرى حتى نساعدكم أن تقيموا عالمكم من الأنقاض، ولنعطي لكم العلوم والثقافة وربما ساعتها تكونون قد تعلمتم بشاعة الحرب. وأنت يا ولدي يجب أن تعود للعالم بهذه الرسالة.

ويبدو أن هذه الكلمات النهائية كانت تعني أن المقابلة انتهت، وقف الأدميرال برهة ثم انحنى احترامًا، ووجد الرجلين اللذين أحضراه إلى هنا واقفين وراءه وقالا له:

- تفضل من هنا يا أدميرال.

مشى الأدميرال ونظر إلى الماستر نظرة أخيرة وكانت ابتسامة حانية تعلو وجهه يعمها السلام، وقال:

- وداعًا يا بني.

وعاد الجميع إلى تلك الممرات المضيئة، فقال أحد الرجلين:

- والآن يجب أن نتعجل يا أدميرال لأن الماستر لا يود أن يعطلك أكثر عن جدولك، ويجب أن ترجع برسالته هذه إلى بني جنسك.

قابل الأدميرال صاحبه بينيت الذي كان في غمرة من القلق، فلما رأى الأدميرال قادمًا وقف ونظر إليه بتساؤل، فوضع الأدميرال يده على كتفه وقال:

- لا بأس يا بينيت، لا بأس.

***

صعد أولاف وأبوه إلى سفينتهما التي حملت في هذه اللحظة طاقة من الحنين تمثل البيت والوطن، الحنين إلى بشريَّتهما ورفاقهما البشريين بكل ما فيهم من عيوب، ولا شيء يعدل هذا ولو كان قصرًا مليئًا بالملذات. كان الأب يتحسس السفينة في اشتياق ويضع أنفه ليشم أخشابها في نشوة. قال أولاف:

- سنكون أعظم مستكشفَين في العالم يا أبي، نحن غلبنا رياح الشمال ووجدنا الأرض التي بشَّرت بها الآلهة.

نظر إليه الأب بطريقة لم يرتح لها وقال:

- ومن سيصدقني أنا وأنت يا أولاف؟ بل سيكيدون لنا كيدًا لو أخرجنا سرنا للعالم، فمن هذا البحار الفقير وابنه اللذان يحصلان على مجد البحارة ولا يشارك فيه سواهما؟

قال أولاف بإصرار:

- لكن يا أبي لقد أعطانا هؤلاء القوم هدايا كثيرة وذهبًا وخريطة لعالمهم كله، كل هذه دلائل على رحلتنا.

قال له والده:

- إني أتمنى يا بني أن يعرف العالم بما وجدنا، هذا إن قدرنا على الرجوع للعالم.

قال الجملة الأخيرة بطريقة مازحة، فتذكر أولاف أمر الأهوال التي لاقياها والتي هما مقبلان على مثلها في الرجوع، ومضت أيام في البحر والأرض التي في الأفق تتغير وتصير أكثر بياضًا ويصير الجو أكثر برودة وتظهر بعض التجمدات في المحيط ترتع فوقها البطاريق، كانت هي الأرض التي يعرفانها، وإن لها حنينًا حقيقيًّا ظهر في أعينهما كلما نظرا إلى شيء، وبخاصة إلى الشمس التي بزغت فوق كل هذا بسحرها الذهبي الذي يغمر كل شيء ويدفئه، وتذكرا اللحظة منظر تلك الشمس الأخرى بالأسفل.

وفي لحظة هبوط الليل الأرضي بستاره العتيد، وصلا إلى منطقة الأبراج الجليدية المتقاربة، واخترقا بالسفينة منطقة خطرة بين جبلين عملاقين مهيبَي المنظر، ولكن يبدو أن الجبلين تحسسا من قدومهما المفاجئ، فسمعا صوت شيء يتم دكه دكًّا تبعه صوت تحرك هائل لصفائح الثلج المتراكمة فوق بعضها، وكان هذا يعني انهيارًا سينزل فوق رأسيهما بعد قليل.

وقبل أن يفعلا أي شيء، بل قبل حتى أن يتحركا من موضعهما، توقف الانهيار فجأة، كأنه لم يكن، نظرا بأعين متسعة من الخوف إلى الأعلى وكان قرارًا صعبًا، هل يعودان أدراجهما إلى الأرض السفلى أم يكملان اختراقهما بين هذه الجبال العماليق ويحدث انهيار آخر؟ وكان قرار الأب أن يكملا وألا يخافا من شيء ما دام الرب أودين وابنه ثور معهما.

مضت ساعات والسفينة تمشي داخل هذا الفخ الجليدي الضيق بحذر شديد حتى أتيا إلى مكان واسع نوعًا ما، ومناظر الجبال الجليدية فيه تبدو من باطنها كالكريستالات، والسماء تظهر بين قمم الجبال والأب ينظر إليها كل حين داعيًا أودين. وفي لحظة من بين اللحظات الكارثية في حياة أولاف انفصلت قطعة عملاقة من الجبل وهبطت من السماء باتجاه السفينة.

وفور أن سمعا صوتها وهي تسقط وقبل أن يحركا ساكنًا إذ نسفت الصخرة وجه السفينة وغاصت في البحر، صرخ الأب في أولاف:

- تمسك... تمسك يا ولدي.

ولم تلبث الصخرة أن صعدت من ثنيات البحر لتضرب السفينة من الأسفل فترفعها إلى أعلى لترمي بها على أحد الجبال متحطمة، قذفت هذه الضربة السفلية أولاف بعيدًا عن السفينة فسقط في البحر، فسبح بجبهة تملؤها الدماء إلى حيث الجبل فصعد عليه ونادى بكل قوة يملكها:

- أبي، يا أبي.

لم يتلقَ أي رد، فأخذ ينظر حوله وهو يشعر أن العالم يكاد أن يفقد معناه وهو ينادي بكل قوته ويقول:

- أبي، قل لي إنك بخير.

ولم يرد أبوه، فأخذ يدور حول الجبل ويبحث بين أنقاض السفينة ودموعه تهبط على الثلج البارد الذي لم يرحمه.

بحث أولاف كثيرًا ولم يجد لوالده أثرًا، فجلس طويلًا وهو يسند ظهره إلى الجبل يبكي حتى تجمدت دموعه على خده، وفجأة قام من مقامه ونظرة من العزم في عينيه، كان قد اعتزم أن يصل إلى العالم بأي طريقة كانت، ويخبرهم أن أباه كان أعظم مستكشف في هذا العالم، وعندما يكتشف أهل الأرض يومًا وجود أجارثا، سيعود أهل التاريخ ليقولوا: لقد كان ها هنا ذات مرة رجل عظيم اسمه يانسن.

***

جلس الأدميرال بيرد وزميله بينيت في طائرتهما يملؤهما الوجوم من غرابة هذه المدينة التي تحيط بهما، وقبل أن يشغّلا أي شيء في لوحة

التحكم، ارتفعت الطائرة من تلقاء نفسها في الهواء كأنما ترفعها يد ساحر، ونظرا فإذا ستة أطباق طائرة تحيط بهما من كل موضع وتسوقهما بقوة لا يفهمانها وبسرعة عالية بعيدًا عن تلك الأرض، وتبدلت الأرض الظاهرة في القمرة من جبال وأشجار إلى ثلوج وتلال بيض، ثم أتاهما صوت من الراديو يقول:

- نحن سنغادر الآن يا أدميرال، الآن يمكنك التحكم في الطائرة، لقد أحببنا أن نوفر عليكم الوقود حتى تعودا بسلام.

ظهرت على عين الأدميرال ابتسامة ممتنة وفتح الراديو وقال:

- أخبر الماستر أننا ممتنون، وأن رسالته ستصل إلى العالم رغم أنف كل شيء.

وانطلقت الطائرة الفوكر متجهة إلى أمريكا، حاملة خبرًا سيهز العالم كله هزًّا، خبر سكان جوف الأرض.

***

بقي اليهودي يرتجف كالجرذ بعد أن روى قصته المثيرة للجدل، وكنا حوله قعودًا أمام كرسي شارلوتان وعصاه كأننا معتقلون في سجن نفسي. سمعت سعالًا عنيفًا جدًّا كأن أحدهم يخرج روحه من حلقه، نظرت فتجمدت عيناي على صاحبة السعال الممددة على الأرض وسطنا والتي لم أنتبه إليها قبلًا؛ ليزا، موظفة الاستقبال، ظننتها لوهلة معهم في هذه المسرحية الدموية لكن تبين أنها معنا، كانت مريضة جدًّا هذه العجوز كما يبدو من وجهها الشاحب وعينيها المحمرتين. اشتعل الغضب في نفسي وقمت واقفًا وصرخت في الشيطان:

- أخرِج هذه السيدة من هنا، إنها مريضة ضغط كما أخبرتْني ذات مرة في المطعم، أخرِجها أيها الشيطان الذي تتصنع الحرص على الإنسانية و...

صرختُ بألم رهيب وسقطتُ على ظهري وأنا أنظر إلى الإسورة اللعينة في سخط وشارلوتان يقول وهو جالس على مقعده:

- العالم يصبح أكثر سلامًا كما ترى مع هذه الأساور، فهي تحفظ الناس حتى من شر غضبهم، والغضب يفسد العقل يا قداسة الشيخ السفيه.

عضضت على شفتي بغيظ وأنا أحاول تهدئة نفسي وأنظر إلى الشيطان الذي قام عن كرسي عرشه الذي بناه على ضعف حيلتنا ومشى ناحية اليهودي الذي جلس على ركبتيه ناظرًا إلى الأرض في خوف ذليل، فربَّت شارلوتان على رأسه بالعصا بتلك الحركة المهينة وقال:

- أرض سفلية في جوف الكوكب يعيش عليها بشر، يبدو أن حسابك سيكون عسيرًا يا يهودي. هل تعلم أن مخلوقات جوف الأرض تتبع دائمًا الموروث الثقافي للشعوب؟ فعند الحضارات القديمة هي أرض ملعونة تعيش عليها وحوش أسطورية، بينما في العصر الحديث صار يعيش عليها بشر متطورون يملكون أطباقًا طائرة وتكنولوجيا عجيبة، هل تفهم قصدي يا يهودي؟

أغمض اليهودي عينيه في حسرة وهو يفكر فيما سيُفعَل به، فقال له شارلوتان:

- وعلى الرغم من هذا فكل العصور اتفقت على أن الوصول إلى هذه الأرض يتطلب المرور بأهوال مروعة، فـ «هيدس» عند اليونان هي أرض سفلى تحرسها مخلوقات بشعة كالجورجونز وأفعى الهيدرا، والإزتك لديهم أرض سفلى أيضًا لكنك يجب أن تمر باختيارات صعبة لتذهب إليها، كالعبور بين جبلين يتصادمان، أو السباحة في بحر من الدم تملؤه الوحوش، وفي العصر الحديث أصبحت الأهوال أكثر واقعية مثل تلال الجليد العملاقة التي تحجز السفن، والعاصفة الترابية العملاقة التي تحطم الطائرات.

قال اليهودي بتردد:

- لكن يا سيدي الأرض السفلى في الحضارات القديمة هي غالبًا أرض يذهب إليها الموتى ويحاكَمون، وليست مثل العصر الحديث؛ أرض يعيش عليها بشر آخرون متحضرون.

وضع شارلوتان رأس العصا على جبين اليهودي وهو يقول بطريقته المختلة فاتحًا عينيه في وجهه:

- ألا يذكِّرك هذا بشيء يا يهودي؟ البورجاتوريوم في المسيحية، الأرض التي يتطهر فيها من كان فاسدًا في الدنيا ويتنعم فيها من كان صالحًا.

لاحظت الوجوم الذي ظهر على وجوههم لما عرفوا اسم البورجاتوريوم ومعناه، نفس التعبير الذي ظهر على وجهي سابقًا، بدا الجذل على وجه شارلوتان وهو ينظر إليهم وقال لليهودي:

- قل لي يا يهودي، بغض النظر عن كل هذا الهراء الذي قلته، هل لديكم في اليهودية أرض سفلى يحاسَب فيها الخطاة؟

ابتلع اليهودي ريقه وقال:

- نعم سيدي، نحن نسميها شيول، تذهب إليها كل أرواح الموتى الخاطئين ثم لما يبعثهم الله يذهبون للعذاب إلى «جهنا».

رفع شارلوتان حاجبيه بطريقة مصطنعة قميئة وهو يحوِّل وجهه ناحيتي ويقول:

- اسم «جهنا» هذا ألا يذكرك بشيء يا شيخ؟

قلت له وأنا أنظر إليه في كراهية:

- نعم يذكرني، بجهنم، مأوى المفسدين.

قال شارلوتان:

- أنتم أيضًا لديكم أرض سفلى يا شيخ؟

قلت له وأنا أكظم غيظي:

- نعم، وهي ليست بسفلى ولا عليا، إنما هي برزخ للأرواح، والبرزخ إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

قال لي شارلوتان وهو يتصنع الاهتمام:

- قل لي يا شيخ، ما رأيك بكلام اليهودي؟ هل هناك مخلوقات تعيش في جوف الأرض عندكم؟

تنهدت وقلت محاولًا ترتيب الكلام:

- أظن أن يأجوج ومأجوج يعيشان هناك، فعندنا حديث لابن عباس يقول إن الأرض سبعة أجزاء، ستة منها يأجوج ومأجوج وجزء فيه سائر

الخلق، ويستحيل أن يكون هذا ممكنًا إلا إذا كانت الستة أجزاء الأخرى هي في جوف الأرض، لأن الإنسان اليوم اكتشف الأرض كلها بأجزائها كافة.

قال شارلوتان:

- وماذا عن قول اليهودي إنها أرض فيها أشجار وأنهار؟

قلت له:

- نعم هذا ممكن، فلدينا حديث عن النبي يقول إن يأجوج ومأجوج عندهم نساء يجامعون ما شاؤوا، وشجر يلقحون ما شاؤوا، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفًا فصاعدًا، وحديث آخر عن أهل النار أنه من بين كل ألف إنسان منهم هناك رجل واحد من الناس وبقية الألف من يأجوج ومأجوج، يعني هم ألف ضعف عدد البشر، فلو كنا ستة بلايين فهم ستة تريليون، وأين يمكن أن يعيش ستة تريليون شخص إن لم يكن في جوف الأرض؟

مط شارلوتان شفتيه ونظر إليَّ في تفكير ثم قال:

- وكيف شكلهم هؤلاء اليأجوج ومأجوج؟ هل هم مخلوقات بشعة أم وحوش أسطورية أم ماذا يا شيخ؟

قلت له:

- بل هم بشر مثلنا من أولاد آدم، تحديدًا من أولاد يافث بن نوح كما جاء في حديث النبي، وهم ليسوا وحوشًا، بل قد وصفهم رسول الله بأنهم صغار الأعين عراض الوجوه صُهب الشعور، لكن ذا القرنين بنى عليهم سدًّا يمنعهم من الخروج على البشر إلا في آخر الزمان، فحكاية أن يكون هناك أحد من البشر قد زارهم وعاش معهم هي حكاية خرافية.

تجاهلني شارلوتان ونظر إلى اليهودي وقال:

- خرافية نعم، بالنسبة إلى قصتك يا يهودي، فالمبادئ العلمية التي اعتمدت عليها صحيحة تمامًا، جوف الأرض ليس حفرة فيها مخلوقات أسطورية، بل هو امتداد لداخل الأرض، ومن يدخله لن يشعر باختلاف كبير وسيظن أنه ما زال يمشي على الأرض بينما الحقيقة أنه يسير

داخل الجوف مقلوبًا على رأسه، ولن يشعر بهذا لأن الجاذبية متحققة وسيرى كرة النار الجوفية وسيظنها الشمس، ولا مانع علميًّا أن يكون هذا الجوف فيه أنهار وأشجار وبشر وكل شيء، كل هذا رائع ومرتب علميًّا ولا مشكلة فيه، لكنك كاذب يا يهودي.

انتفض اليهودي خائفًا وهو يتراجع إلى الوراء وشارلوتان يقترب منه ويقول:

- أنت نسيت أن تقول يا يهودي إن قصة أولاف وولده هذه خرجت للعالم لأول مرة في كتاب ادعى مؤلفه أنها قصة حقيقية روى فيها كيف أن أولاف هذا بعد أن تم سجنه في السفينة ونقله إلى مستشفى المجانين التي مكث فيها 28 سنة، خرج وعمل صيادًا وقابل المؤلف بالصدفة وحكى له القصة العجيبة فكتبها المؤلف في كتابه «الإله الدخاني» على أنها قصة حقيقية. هل تريد أن تقول لنا إنك اعتمدت على قول رجل خارج من مستشفى المجانين على أنها دليل علمي؟

كان العرق يغطي وجه اليهودي الذي تملك منه الخوف فصار منظره مقززًا وهو يقول:

- لا، لا بالطبع، لكن القصة متشابهة مع قصة الأدميرال بيرد كثيرًا.

ضرب شارلوتان بعصاه على الأرض وقال بلهجة غاضبة:

- كذبت على الأدميرال بيرد يا يهودي، فهو لم ينشر أي مذكرات ولم يقل أي كلام فيه هذه القصة الأسطورية التي ذكرتها أنت في كتابك ونسبتها له كذبًا وقلت إنها آخر مذكرات تركها للعالم قبل موته، كل ما قاله الأدميرال هو عبارات مجازية عن القطب الشمالي مثل «أرض الغموض الذي لا ينتهي» وغيرها من العبارات التي فسرتَها أنت على هواك بأنه وجد الأرض المخفية في جوف الأرض.

قال اليهودي بارتجاف:

- سا... سامحني يا سيدي، ربما اختلط عليَّ الأمر.

بدت عينا شارلوتان مخيفتين وهو يقول:

- وماذا عن الأجيال من المعوقين فكريًّا الذين صدقوا كتابك هذا وخرجوا يصدعون رؤوس البشر برحلات المستكشفين الغامضين إلى جوف الأرض؟

مسح اليهودي عرقه وهو يقول بابتسامة رجاء:

- وما المشكلة يا سيدي؟ أنت قلت إن جوف الأرض يمكن أن يكون حقيقة علمية، ما الخطر على عقول الناس من كتابة ما ظننت أنه رحلات لجوف الأرض؟

قال له شارلوتان:

- الخطر أنك كاذب، وتنشر الكذب، ونحن هنا قد نتسامح في أي شيء، إلا الكذب.

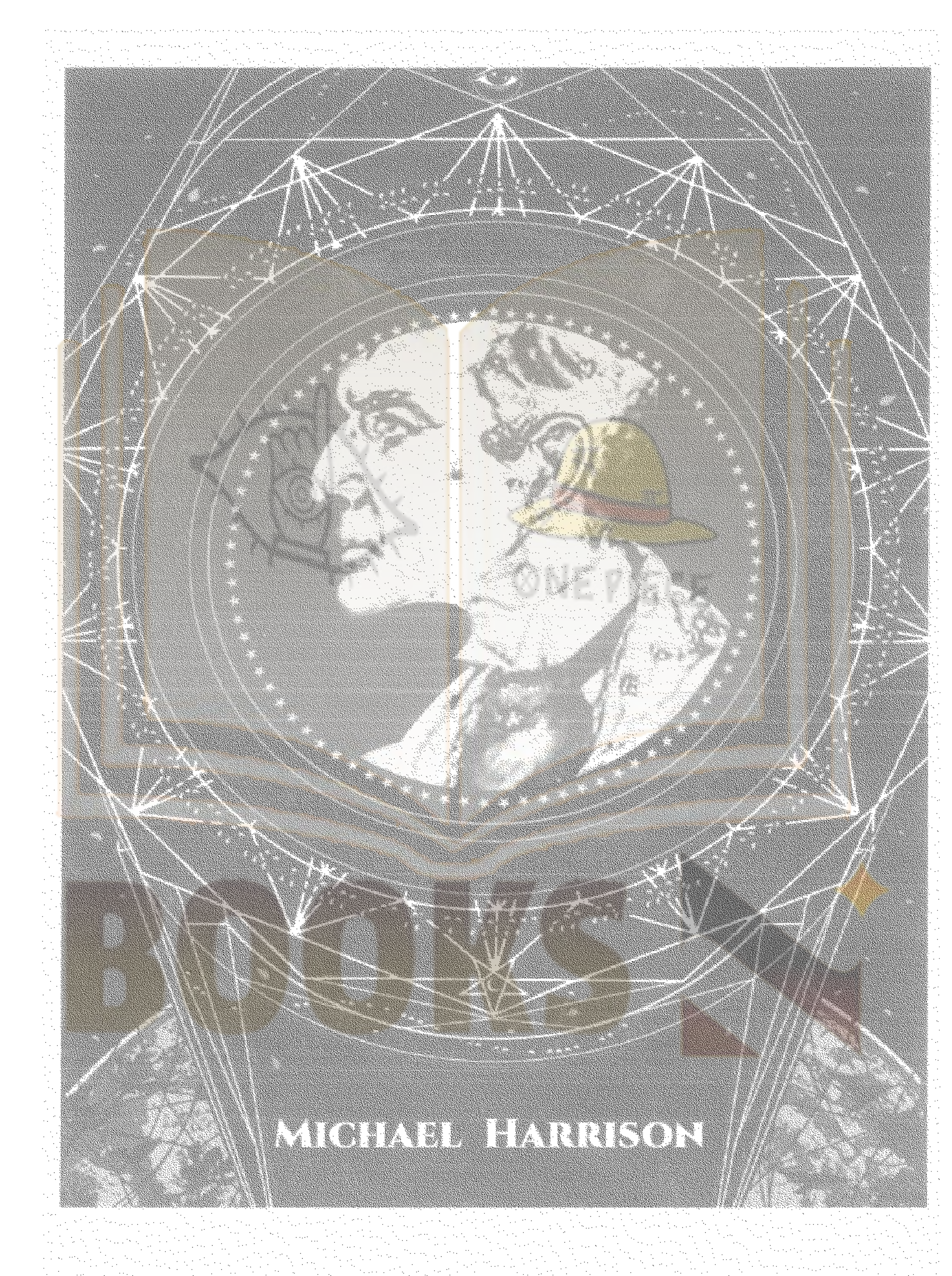
وطرق بإصبعه فهرع الروسي النحيل يسحب اليهودي من قفاه وهو يصرخ كذبيحة يقودونها إلى المذبح، وقال شارلوتان:

- لقد أفنيت حياتك يا يهودي في الكتابة عن جوف الأرض، وحان الوقت لننقلك إلى جوف الأرض الحقيقي لترى بنفسك كل شيء، لقد جهزنا لك قبرًا لطيفًا ستُدفَن فيه حيًّا، لعلك تجد هناك أصحابك في أجارثا.

وعلى الرغم من كراهيتي لهذا اليهودي فإنني أشفقت لحاله والروسي يسحبه على الأرض وهو يصرخ في ذل حتى أخرجه من الباب وغاب عن أعيننا، وبقينا نسمع صرخاته الملتاعة التي تحولت إلى صرخات مكتومة كأنما يتم دفنها، ثم اختفت تمامًا ولم نسمع له حسًّا. ظهر انطباع من التقزز والرعب على وجوه الجميع وشارلوتان ينظر إلينا في استمتاع، ثم قال:

- ترى من سيكون صاحب القصة التالية؟ دعونا نرى.

وقلب عينيه في وجوهنا لحظات ثم رفع عصاه وطرق بها على رأس ذلك النحيل البائس الذي لا أعرف اسمه، فأغمض عينيه في حسرة وهو يعدل من جلسته على الأرض ويتهيأ، ثم بدأ يحكي الحكاية السابعة...


Michael Harrison

7

حكاية الاحتراق الذاتي

يرويها: ميخائيل هاريسون

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾

[سورة البقرة، 24].

«من أشد العذاب أن يكون الجسد نفسه وقودًا، ولقد شاهدنا هذا في الاحتراق الذاتي».

غراب ينقر في الأرض في غير هدى، ولما أحس باقترابي نظر بذعر ثم التفت يمشي للناحية الأخرى وكأنه يخفي كبرياءه، لو تدري أنك تذكِّرني بنفسي يا غراب! وحيد وحدة الأسود بين الألوان، الفرق أنه مؤخرًا أصبحت كل الأعين تشتهي حديثي بينما أتشاغل عنهم بنقر الأرض في ملل، فقد اشتهرتُ منذ سنوات أيها الغراب، وأصبحتُ كاتبًا تمس رواياتي شغاف القلوب، من الصعب أن تكون غرابًا، شهيرًا.

نظرت إلى المنزل الذي أمامي، تذكرت أنني هنا لألتقي بصديق قديم لم أره منذ سنين طوال، دومًا أنشغل بالتأمل في أمور صغيرة وأتناسى الكبيرة، ربما هربًا من الكبيرة. في لقاءات لم الشمل هذه يفكر المرء كيف يحكي حياته بشكل لا يجعلها فاشلة كحقيقتها، بينما كل ما كنت أنا أفكر فيه هو كيف أهرب من أن يصير هذا اللقاء دوريًّا، فهو طبيب عجوز وحيد ولا بد أنه سيجدها فرصة للتسلية وبخاصة أنني كاتب شهير وبالتأكيد لدي حكايات كثيرة.

منزل خشبي من دورين في ضاحية كودرسبورت في بنسلفانيا وهي منطقة راقية، طرقت ثلاث مرات ثم انتظرت قليلًا ودفعت الباب كما أوصاني في الهاتف، فهو مصاب بكسر في الحوض ويتحرك ببطء.

في وسط الصالة وجدته واقفًا على مشاية معدنية متهلل الوجه، لم ينجح العمر في إخفاء بريق عينيه الرماديتين، شعرت بالحنين له لحظة، د.إيرفينج الجراح الجامح، تذكرت جلسات القمار المجنونة التي جمعتنا مع أصدقاء آخرين، المشكلة أنك كثيرًا ما تحن للحالة التي كنت فيها وليس للشخص ذاته.

ناداني قائلًا:

- موريس أيها الثعلب، يبدو أن التصحُّر بدأ يغزو شعرك حقًّا.

هذا الاسم لم أسمعه منذ مدة، فأنا بعد الشهرة أصبح اسمي ميخائيل واعتدته، دعاني إيرفينج للجلوس، منزله يوحي أنه يعيش وحيدًا، فذرَّات التراب ما زالت تسكن فوق بعض الأسطح هنا وهناك. كنت أنظر إلى المشاية التي تحمله وأفكر فيمن سيقدِّم لنا شيئًا نتسلى به كشراب أو غيره في هذه الجلسة الطويلة، لا بد أنه سيقتطع حديثه ويخبرني أن أذهب للثلاجة وأخرج بعض الأشياء. ظللت أستمع إلى ثرثرته بهذا الخاطر حتى سمعت طرقًا على الباب يبدو عنيفًا.

دفع أحدهم الباب بقوة توحي بالاقتحام، نظرت بتوتر وسمعت إيرفينج من ورائي يصدر صوتًا ترحيبيًّا، نظرت إلى وجه القادم، يبدو مألوفًا لكنه أكبر قليلًا، رسمة أعين الناس لا تتغير، وهذه الابتسامة الفاسدة، يا إلهي! هذا جورج موت! قمت مدهوشًا وأنا أسلِّم على جورج موت، وهو أشد إنسان عرفته غرابة، تركيبة ملامحه مع أسنانه تجعله يبدو كأنه يبتسم ابتسامة خبيثة حتى في أشد حالات توتره، كانوا يسمونه الشيطان بسبب هذا، لكننا كنا نعلم أنه طيب القلب.

كان حقًّا لَمَّ شملٍ ناجح، تحدثنا كثيرًا وقام جورج موت بنفسه للثلاجة وأحضر خمر الشاردونيه الفاخر، أشعلت البايب الخاص بي وسألتهم سؤالًا يتعلق بشيء أكتب فيه، قلت فجأة:

- أخبراني الآن، ما هي تجربتكما مع الموت؟ هل اقترب منه أحدكما يومًا.

كان سؤالًا غريبًا في جلسة كهذه، وجدتهما صمتا قليلًا ثم قال د.إيرفينج:

- أنا أكثر إنسان يا موريس رأى الموت يرقد أمامه على السرائر الطبية، كنت أفتح الصدور وأعبث بها لإنقاذ أصحابها وهم على بعد شعرة من الموت، بعضهم كان يتمسك بهذه الشعرة وآخرون أحس أنهم يستحثوني لأيأس وأكف عن إنقاذهم.

تكلم جورج موت وزاوية ابتسامة أسنانه تنفرج فلا تدري أهو يبتسم أم لا، فقال:

- أنا رجل إطفاء كما تعلمان، النار التي يرتعب الجميع منها أشعر نحوها بحنين، كأنني ألفتُها، مثلما تألف أسدًا مفترسًا فتشتاق إليه إذا غاب

عنك، أشعر بالحزن إذا مر أسبوعان بلا نيران، أحيانًا أشعلها في حديقة منزلي فقط لأشم رائحتها.

نظرت إليه بشرود، كان قد مس وترًا في ذاكرتي، وترًا شديد الحساسية، وعندما يمس أحدهم هذا الوتر تتموَّه صورة الذي يحدثني ويصبح الكلام الذي يخرج منه غير مسموع وغير مهم، لكن جورج موت ضربني على كتفي بعد دقائق من الشرود وهو يسألني سؤالًا يبدو أنه يكرره لأني لم أسمعه، ومد لي يده بعلبة ثقاب غريبة المنظر، كان يقول:

- هذه هي، جرِّبها، هذه من أسرار كوننا يا موريس، أعواد الثقاب لو أشعلتها لا تنطفئ وقابلة لإعادة الاستخدام مائة مرة.

أخذت العلبة ونظرت إليها وأنا أحاول استنتاج ما سبق من كلامه، كان نوعًا من الثقاب لم أره في حياتي على كثرة ما جربت من أنواع، كان مكتوبًا على العلبة Infernals. أخرجت واحدًا وأشعلته ونظرت إليه في دهشة، هذا الثقاب حقًّا لا يتآكل وكأن النار لا تعنيه، أطفأته وأشعلته مرة أخرى فاشتعل، فابتسمت مستغربًا، كان اسمه موحيًا حقًّا، فإنفرينال تعني ذلك الذي يدخل الجحيم فيستعر للأبد، اسم مرعب. قال جورج موت:

- هاتان آخر علبتين، إنهما من أعمال منظمة الدفاع المدني لكن لم يعلَن عنهما، عُدَّاها هدية من جورج موت.

أعطى جورج موت واحدة لـ د.إيرفينج وهو يضحك ويتكلم في أمر ما وبقيت أنا أنظر إلى الجميع في شرود.

***

النار تندلع حولي كأنها قرون الجحيم، يأكل لهيبها الساخن كل شيء جامد، وكل شيء حي، كنت طفلًا بلغ العاشرة منذ شهور يتراجع ناظرًا في رعب إلى المشهد الذي سيغيِّر كل شيء في حياته حتى روحه ذاتها، النار تتراقص في انتصار بعد أن حبستني في غرفتي الصغيرة، ولا يمس النارَ شيء إلا انهزم، كأن الشيطان يسكن فيها، لا، بل هي كيان مستقل بذاته، كيان مفترس قبيح لا يشبع، ولو وجد الفرصة سيستعر للأبد ويلتهم كل ما يأتي أمامه، نظرت إلى جثة أمي الهامدة أمامي والتي هزمت النار كيانها فتوقفتْ عن الحركة، كان آخر ما سمعت منها وهي تقول: «موريس، اذ...»، لماذا لم

تكملي يا أمي فيكون لك كلمة أخيرة أذكرها وأنا أموت؟ لفظت عيناي دمعًا ساخنًا بدا لي أسخن من اللهب الذي يتلوى في رضا ويتلذذ بالتهام زينة غرفتي الملونة ويسير ببطء متوجهًا ناحيتي وهو يعلم ألا مفر لي.

النافذة الوحيدة التي ورائي كان عليها قضبان من حديد ركّبتها أمي لخوفها من اللصوص، ولا أدري ما فائدة القضبان يا أمي ونحن في دور شديد الارتفاع، نظرتُ إلى النار وظهري إلى النافذة، الأرض أصبحت ساخنة جدًّا وألسنة النار تسعى إلى عنقي كأنها حيات، لها فحيح كأنه يتحدث، لطالما آمنتُ أن هذه النار كائنة حية تعيش بيننا تشعر وتحس وتسمع، وإذا متنا تنفرد بنا فتتوقد بنا في جحيم أبدي ولا حول لنا ولا قوة.

سمعتُ صوتًا من وراء النافذة فالتفتُّ فإذا رجل يرتدي رداءً أسود وخوذة صفراء، كان يصرخ بشيء ما ولهيب النار يمنعني من سماعه، أخذ يجتهد بيده في عمل شيء للقضبان حتى بدأت تتفكك عن إطارها وبدت طاقة الأمل، سمعت ضجيج النار الغاضب ورائي يحتَجُّ، مد لي الرجل يده و...

شهقة مرتعبة صدرت مني وأنا على سريري الدافئ، وكل ذرة في جسدي ترتجف، هذا المشهد من طفولتي لا ينفك يزورني في منامي، هذا لا ينبئ إلا بكارثة، فليست مناماتي مثل البشر، بل إنها رسائل، ظللت أفكر في هذا الخاطر وأنا أنظر إلى كوب الماء بجواري وبجواره علبة الثقاب المكتوب عليها بحروف مشعة Infernals، شربت من كوب الماء علَّه يطفئ ما بداخلي وأنا أنظر إلى العلبة في شرود، ثم أفزعني ذلك الصوت الذي أكرهه...

الهاتف الذي يصرون على جعل صوته بهذه الشناعة، أمسكت السماعة وسمعت آخر شيء يمكن أن يرد على خاطري.

كان صوت جورج موت وهو يقول بلهجة فزعة:

- موريس، تعالَ سريعًا إلى ضاحية كودرسبورت، صديقنا د.إيرفينج، لقد احترق، لم يبقَ منه شيء.

***

كنت أجر قدمي ورائي إلى جادة كودرسبورت، بالأمس كان إيرفينج يقهقه ضاحكًا في سعادة واليوم هو محترق، ملك الموت لا يمر على المرضى

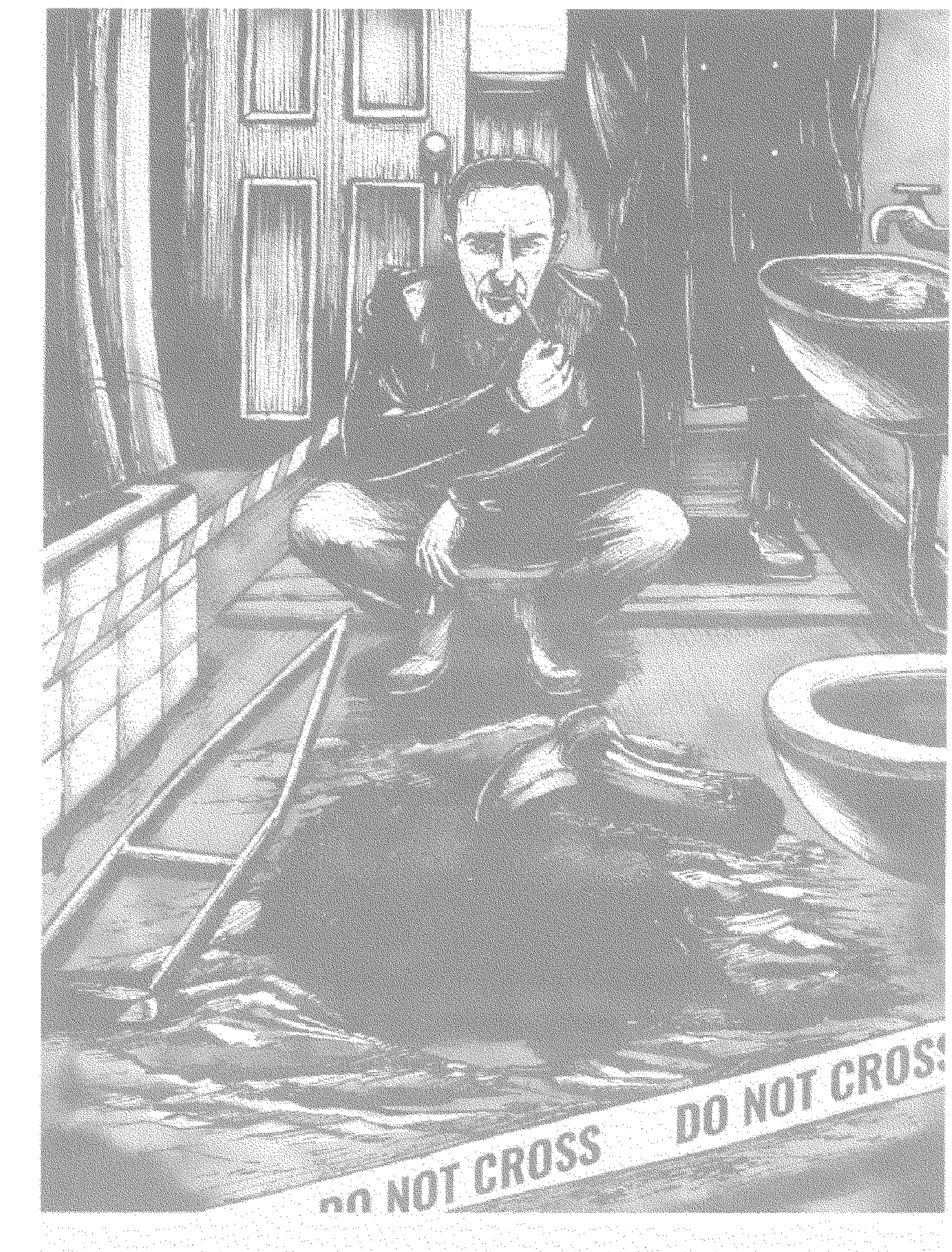
والمكتئبين فقط، بل يزور الضاحكين أيضًا، والأطفال، ولا يرحم أحدًا. ما زلت أعاني آثار الكابوس، لقد كانت رسالة تلك التي جاءتني، كل ما أحمل همه هو أنني سأرى بعد قليل بيتًا محترقًا وهذا يعيد إلى روحي ذكرى بغيضة جدًا، وصلت إلى منزل إيرفينج، وهناك توقفت في ذهول حقيقي.

المنزل بخير والنوافذ، لا توجد آثار أي اسوداد في أي مكان من الخارج، وعلى الرغم من هذا فهناك ما يقرب من مائة شخص نصفهم على الأقل رجال مباحث وإطفاء وشرطة يضعون شريطًا حول المكان كله، والنصف الآخر من الجيران والأهالي التي لم تشهد منطقتهم الراقية حدثًا مهمًا فيما يبدو منذ قرون. رأيت جورج موت خارجًا من المنزل مرتديًا زي رجال الإطفاء وهو يتحدث مع أحدهم في جدية، المشكلة أنه يبتسم، أسنانه تبتسم، هذا الشيء في ملامحه يؤدي لكثير من المشكلات، ويجعله يبدو كالشيطان في أحلك المواقف. رآني فأشار لي بعجلة وصاح في الحراس أن يمرروني للداخل، قال لي بعينين متوترتين وأسنان ضاحكة:

- اصعد إلى الأعلى يا موريس، إنهم ينتظرون شهادتك، لا يمكنني أن أصف لك المشهد، لا بد أن ترى بنفسك.

صعدت وسط المحققين الذين يبدو من توترهم وحيرتهم أن هناك كارثة، قادوني عبر الرواق إلى الحمام وهناك توقف الزمن، وتوقف السمع، كانت عيناي فقط تطالعان المشهد ولا توجد حاسة أخرى من حواسي تعمل، فهذا الذي أراه مستحيل...

كل شيء في الحمام بخير، الحوض والمغطس وحتى السقف، لكن هناك شيئًا في منتصف الحمام في غاية الغرابة، قدم د.إيرفينج تنتعل حذاءه الأنيق، فقط قدمه، كأنها مقطوعة وأطرافها تلتهب كالفحم المتجمر، وبجوار القدم كومة من الرماد يبدو أنها بقايا جسده، والمشاية الخشبية الخاصة به ملقاة فوق كل هذا ولم يمسها سوء، حتى أطرافها المطاطية لم تتأثر، هذه النار تركت كل شيء في المكان وأكلت جسد إيرفينج وحده ببطء، وتلذذ.


DO NOT CROSS
DO NOT CROSS

بدأت أذني تسمع بعض الأحاديث، كان هناك شخص ممتلئ مذعور يدلي بشهادته في فزع حقيقي، كان يقول:

- أنا يا سيدي عامل في شركة الغاز، وآتي هنا كل شهر لقراءة العداد، ولقد أعطاني د.إيرفينج هذا مفتاح باب القبو الموجود في الحديقة حتى أفتح مباشرة وأدخل دون أن أزعجه بطرق الباب، لأنه يحتاج إلى وقت طويل جدًّا ليفتح، وفي صباح اليوم دخلت إلى القبو كما أفعل كل شهر وقرأت العداد، لكني وجدت كومة من الرماد أسفل العداد ورائحة عطن محترق لم أعهد مثلها، فرفعت رأسي في ذهول لأرى مشـ... مشهدًا مريعًا، رأيت حفرة في السقف ذات أطراف متجمرة، ناديت د.إيرفينج بفزع ولم أجد ردًّا، فصعدت إلى الأعلى ورأيت هذه الكارثة، تلك الحفرة التي رأيتها إنما كانت في أرضية الحمام، وذلك الرماد المتساقط كان جزءًا من جثة د.إيرفينج.

نظرت إلى جوار الرماد الذي في الحمام ورأيت حفرة مستطيلة لم أنتبه لها في البداية، كانت هناك رائحة مقززة غير معروفة في الجو كأنها رائحة لعنة، الغريب أن كل شيء في الحمام لم يُمَس، حتى بقية الأرضية، كأن عمودًا من الجحيم اندلع من أسفل الأرض وابتلع إيرفينج وحده. سمعت من ورائي صوت جورج موت يقول بشيء من اللهاث:

- سيدي المفتش، هذه حالة احتراق ذاتي، هناك حالات كهذه سمعنا بها، الجسد يشتعل وحده دون أي مؤثر خارجي ويحترق وحده دون أن يحرق أي شيء حوله، كأنها لعنة من الرب، هناك مئات الحالات سجلها التاريخ ووثّقها لأناس احترقوا ذاتيًّا.

كنت أسمع هذا الكلام وذهني يتذكر هذا المصطلح، الاحتراق الذاتي Spontaneous Human Combustion، قرأت عن هذا كثيرًا في الماضي ولا يبدو أن أحدًا توصل إلى فهم هذه المعضلة على الإطلاق، ازدرد الرجل الممتلئ لعابه وعمل علامة الصليب على صدره، ولم يفعلها وحده، بل إن المحقق أيضًا فعلها، وبقيت أنا أنظر إلى ابتسامة أسنان جورج موت حتى سألني المحقق في اهتمام:

- وأنت، ما هي شهادتك؟

***

أشغلتنا غرابة الأمر وأنستنا صدمة القلب برحيل إيرفينج، الرجل الدافئ الطيب الذي ما كان يجمعنا إلا هو، بدأت غصة من الحزن تتكون في حلقي وأنا أغادر المكان ببطء مع جورج موت. قلت له:

- لا بد أن إيرفينج ترك البايب الخاص به مشتعلًا وشرد في أمر ما كعادته، كم مرة نجد في ملابسه ثقوبًا بسبب هذا!

قال جورج موت وهو ينزِل خوذته عن رأسه في إرهاق:

- البايب وجدناه في غرفة نومه يا موريس ولم يكن فيه أي تبغ أصلًا، والرجل احترق في الحمام.

قلت وعقلي يمنعه الحزن من التفكير:

- ربما أفرط في شرب الشاردونيه، لقد قالوا إن المحترقين ذاتيًّا هم أناس أفرطوا في الشراب فيتكدس الكحول في أجسامهم فيصبح اشتعالها سهلًا.

زفر جورج موت وقال:

- هراء، لو غمست قطعة لحم في الكحول ثم حاولت إشعالها فلن تشتعل مطلقًا، التفسير الأقرب حسب الأطباء أن بعض مرضى السكر تنتِج أجسادهم كمية كبيرة من أجسام الكيتون التي تخرج على هيئة أسيتون في البول وتصبح أنفاسهم رائحتها أسيتون، وهو غاز سريع الاشتعال، لكن المشكلة أن إيرفينج لم يكن مريض سكر، ولم يكن في الحمام أي مصدر للاشتعال على الإطلاق كما رأيت، ومئات حالات الاحتراق الذاتي التي حدثت في التاريخ لم يكونوا مرضى سكر.

نظرت إلى الأرض، لقد أثَّر هذا المشهد في نفسي جدًّا، هذه النيران، ذلك الكائن البغيض الذي يعيش معنا، أصبح يلتهم الناس بلا تفسير، لقد رأيت تلك الجذوة المتلذذة وهي تأكل ما تبقى من قدم إيرفينج، لا بد أن هذا النوع من الاحتراق أشد إيلامًا من الاحتراق العادي، لأنه بطيء، الروح تخرج ببطء متألم، والنار تشهق من النشوة، أي لعنة هذه. تذكرت أمرًا فقلت فجأة:

- ألم تفكروا أن الأمر انتحار يا جورج؟ هناك عشرات من حالات التضحية بالنفس بالنار للاعتراض على أمر ما.

قال جورج وأسنانه تبدو في مظهر باسم:

- لو أن التِعِس أحرق نفسه، كانت النار ستحرق ما حوله، أما ما حدث هنا هو أن النار أصابته هو دونًا عن كل شيء، وأفنته من الوجود كأن لم يكن.

اشتعل الخوف في أرجائي وتملَّكني فسكت لساني عن الحديث وودَّعت جورج في صمت ومشيت عائدًا إلى منزلي بتثاقل.

***

خريف يشبه روحي الكئيبة، وريقات ذابلة تتساقط على طريق أسفلتي ضيق، تكاثفت على جانبيه شجيرات تعرت من اخضرارها وصارت بنية هشة مثل روحي الهشة. اقتربتُ من المكان وأنا أعرق بكثافة، لا يوجد مسبب واحد للعرق هنا في هذا الجو، هناك لافتة مهمَلة على جانب الطريق مكتوب عليها Purdis Farm، مزرعة بورديس، الصورة تتموَّه حولي وجسدي يزداد سخونة بلا سبب مفهوم.

شهقة أيقظتني من منامي الثقيل كالعادة وجبيني مشبَّع بقطرات العرق المتوتر، تحسست جسدي في شيء من الرعب، أنا ساخن مثل غلاية، حانت مني نظرة مرتعبة للثلوج بالخارج، هل أنا مريض؟ أم أن هذا...

تجرعت لعابي بصعوبة وأنا أفكر، هذا الاحتراق الذاتي الملعون سيطر على كياني حتى أصابني الوهم، والحقيقة أنه لولا تشارلز ديكنز ما كان أحد سمع عن الاحتراق الذاتي بهذه الكثافة، هو الذي كتب أن مستر كروك التاجر السكير البذيء قد احترق ذاتيًا في روايته حتى الموت، والكثير انتقدوا رواية المنزل الكئيب تلك، ورد ديكنز بأن هذه حقيقة علمية وأنه لا يقدر أن ينكر الحقائق، هناك أناس يحترقون فجأة وحدهم دون أي مسبِّب للاشتعال، والنار تلتهم أجسادهم وحدها دون أي شيء آخر يحيط بهم كأنها مرسَلة من الرب، هذا الجدل زاد من شهرة الأمر. بدأ ذهني ينتقل للتفكير في ذلك المشهد الذي رأيته في المنام، أي مزرعة تلك التي رأيتها، وانشغلت بالأمر حتى غلبني النوم.

خريف ذابل كمثل روحي الذابلة، طريق ضيق وشجيرات ولوحة عن مزرعة، مشيت بحذر، حرارتي تزيد كأن حسَّاسات الطقس في جسدي قد ذبلت هي الأخرى، توقفت متألمًا ألمًا حقيقيًّا من حرارة جسدي، الاقتراب من هذه المزرعة يبعث المزيد من الحرارة، لقد بدأ ظهري يتأذى أذية حقيقية كأنه يحترق، وقفت متألمًا وانحنيت متألمًا، وسقطت على ركبتي، وصرخت.

نفس السرير والأغطية والسقف إياه والشهقة، لكن هذه المرة كان هناك ألم في الظهر كأن أحدًا قد سلخه، قمت من السرير أمشي والرجفة تكاد تفقِدني توازني، وقفت أمام المرآة، ذلك الوجه الكئيب الذي أملكه زاده العرق بشاعة، استدرت أمام المرآة وحللت أزرار القميص، ونظرت إلى ظهري، أصابتني شهقة مكتومة هذه المرة، هذا الذي أراه لا يمكن أن يكون حقيقة.

كان هناك مثل حزام أحمر سميك بين الكتفين، حزام يحوي جلدًا ملتهبًا، وألم يغلبه الخوف الذي تملك من كياني وعينيَّ المتسعتين اللتين بدأتا تفهمان الحقيقة.

***

ضوء القمر يلامس قمم الأشجار من فوقي، الأوراق المتكسرة تصنع صوتًا متهشمًا بالسير فوقها، بيوت تظهر أسقفها من بعيد كأنها قرية، نظرت ورائي في محاولة لتمييز المكان، فرأيت خلفي طريقًا ضيقًا وشجيرات متكتِّلة حوله ولافتة مزرعة، التفتُّ في فهم إلى ناحية البيوت، ها أنا قد دخلت مجال تلك المزرعة، مشيت بشكل أسرع، كانت هناك ضجة من احتشاد بعض الرجال المزارعين وصوتهم الجَهْوَري تحمله ذرات الهواء إلى هنا، اقتربت وأنا أسمع بعض الكلمات تتناثر من أصواتهم، «السيد جرانهام»، «الماشية أكثر جنونًا من الشياطين».

وقفت وسطهم أتطاول لأنظر إلى ما ينظرون إليه، العبارات التي يرددونها أصبحت واضحة: «ماشية السيد جرانهام قد جن جنونها». سمعت صوت ماشية غاضبة، فنظرت لأجد قطيعًا كاملًا من الماشية يركض بعنف ويدورون حول نفسهم بشكل يستحيل أن تفعله أي ماشية في العالم، ويقطعون النباتات بقسوة غير مبررة، أبقار وخراف يتهارجون في الأرض كأنما أصابهم مس،

الكثير من الجمل غير المعتادة على الأذن تنبعث من أفواه الرجال، المرة الأولى التي ألاحظ أن ملابسهم تعود لعصور سحيقة في الماضي، وكذلك أفكارهم.

كان مَن اسمه جرانهام يضع يده على سور مزرعته في قلة حيلة، والناس تضرب كفًّا بكف وأكثرهم يذكر كلمة الشيطان، وفجأة أصدرت الماشية خوارًا وتساقطت مقلوبة على ظهورها، وأصبح خوارهم يخفت شيئًا فشيئًا وأقدامهم تتحرك بشكل أبطأ حتى سكنوا وخمدت قواهم وفاضت أرواحهم، كل هذه الماشية ماتت في لحظة واحدة.

أي حلم لعين هذا؟! وبين ضجيج الناس وحسرة السيد جرانهام ظهر رجل يبدو من أعين الناس أن له مهابة وسطهم، رداء أسود طويل ووجه لا يبدو واضحًا من هذه الزاوية، صمتوا ليسمعوا كلماته التي يبدو أنه فيها تفسير كل شيء، وقبل أن يتفوه بكلمة تموَّهت الصورة كلها، وظهرت صورة أخرى عند مدفأة وعندها نساء يتسامرن، هذا المنام ليس منتظمًا، وهذه عادة المنامات التي تزورني أو أزورها. بين النساء كانت امرأة ذات شعر أبيض ووجه شاحب قليلًا وعينين مكحَّلتين، قالت لصاحباتها:

- النار تسمع أحاديثكن، فاحذرن مما تتكلمن به أمامها، النار لا تنسى.

سعال شديد أيقظني من منامي، ألم الظهر ما زال يلهِب جسدي كله، كان الصباح قد بدا من أطراف النافذة، فقمت وغسلت وجهي الذي أصبحت الهالات السوداء هي الصفة الغالبة فيه، أفاقت نفسي قليلًا اليوم وشعرت ببعض الطاقة فخرجت من منزلي أنظر إلى نور الصباح بجبين مقطب، ورأيت الفتى «ريك» على دراجته يرمي الصحف المطوية على البيوت، لا بد أنها مهنة مرضية تلك التي يمتهنها، أن يدفعوا لك لترمي الأشياء بهذه الطريقة. أخذت الصحيفة التي رماها داخل نطاق منزلي، كان خبر احتراق د.إيرفينج يتصدَّر الصفحة الأولى مع كثير من العبارات التي ترهِب الناس وتشوِّقهم لشراء الصحيفة، كنت أقرأ:

«بين دخان أزرق ذي رائحة عطنة، تحوَّل الطبيب الجراح إلى كومة من الرماد تاركًا الكثير من الألغاز منها المشاية الخاصة به التي لم تُمَس بسوء، لم نجد مصدرًا واحدًا للنار، هكذا صرَّح المحقق جوزنيل، حتى إن الضحية

كان يحمل في جيب الروب علبة ثقاب من نوع غير معروف ولم تمسها النار، وهذا كان لغزًا أكبر من كل ما سبق...».

نظرة حانت مني إلى منزلي، مشيت إليه بسرعة متوسطة وأنا أفكر في خاطر مرعب، دخلت لغرفتي في الدور الثاني وأنا أنظر إلى ذلك الكوموِد بجوار السرير لأجد علبة الثقاب التي تستقر هناك في براءة، تلك المكتوب عليها إنفيرنال، حملت العلبة وأخذت أتطلع إليها، وعلى الرغم من كل العقل المنطقي الذي أملكه والذي لا يؤمن بالخرافات، فإنني توجهت إلى النافذة، ونظرت منها إلى أسفل حيث صندوق القمامة الكبير، وبلا تردد رميت علبة الثقاب لتستقر بين أكوام القمامة. جاءتني بعض الخواطر المتأثرة بروايات الخيال أن هذه العلبة ستعود مرة أخرى، لكنني هزأت من نفسي وأغلقت النافذة في شيء من الارتياح غير المبرر.

***

مكتبة كودرسبورت العامة، مبنى بسيط يبدو مثل منزل كبير من دور واحد، كنت أفتش في قسم الجغرافيا عن مزرعة باسم بورديس، ربما تكون مذكورة في أي أطلس أو معجم للبلدان، ساعات طوال أتنقل من كتاب إلى آخر، وما يدفعني هو تصديقي لتلك الرسائل التي ترد في منامي، لا بد أن شيئًا يقبع في تلك المزرعة، شيء كارثي يجب أن أحذر منه أو شيء مهم لا بد أن أنتبه له، ومن بين الصفحات وجدتها؛ مزرعة بورديس في بلدة إبسويتش في إنجلترا، كان السؤال الذي يضج به رأسي هو لماذا أرى مشاهد من مكان على الجانب الآخر من المحيط؟

وإلى غرفة الكمبيوتر الصغيرة كان توجهي، شاشة كمبيوتر سوداء مليئة بالسطور البيضاء الباهتة، المفترض أن هذا الكمبيوتر يبحث في أرشيف المكتبة، تذكر أننا في الثمانينيات حيث لم نسمع عن شيء يُدعى إنترنت، نقرات على الحروف طبعت كلمة إبسويتش على الشاشة وبجوارها كلمة بورديس، وضغطت ذلك الزر الكبير وانتظرت، طويلًا.

مقالات وجدتها وتنقلت بينها وسحابة من اليأس وتفاهة الموضوع كله بدأت تتغشّاني، حتى فكرت بالبحث عن جيرانهم أيضًا، وهنا وجدت مقالًا

واحدًا، وصورًا متعددة، وبدأت أمسح عرقًا وهميًا، فهذا الذي أقرؤه يثبت أن أحلامي هي شيء مختلف، شيء أدق من أرشيف هذه المكتبة.

يقول صاحب المقال:

«استشار السيد جرانهام أهل القرية المحتشدين، فقال أكثرهم حكمة إنه لا يوجد مرض على ظهر الأرض يفعل هذا بالماشية، إنما هذا شخص يكرهك ويضمر لك شرًّا، فألقى سحره على هذه الماشية فأضلها وقتلها، وأنه لا توجد إلا طريقة واحدة تقدر بها أن تعرف هذا الساحر؛ أن تأتي بواحدة من هاته الماشية المسحورة وتحرقها حية، عندها سيظهر الشخص الذي سحر الماشية، وإن لم يظهر، فلن يطلع الفجر إلا وهو محترق في موضعه أيًّا كان».

الكلام مكتوب بلغة قديمة لأن الحادثة في الستينيات، ويبدو أنها حادثة شهيرة جدًّا. أكملتُ الكلام المكتوب...

«قيَّد أهل القرية إحدى الأبقار التي يؤمنون أنها مسحورة وكانت ما زالت تتردد فيها الروح، قيَّدوها من أطرافها الأربعة وأشعلوا نارًا كبيرة وألقوا فيها البقرة وهي حية تنازع المرض، وكان خوارها مرعبًا، لم يظهر شيء على أحد المحتشدين بعد حرق البقرة، إلا أنه في تلك الليلة وقع مشهد غير معتاد ولم نعرف أن مثله قد حدث في أي مكان».

كان هناك مؤشر على الشاشة يومض لأضغط أي مفتاح، ففعلت فنقلني للصفحة التالية.

«جريس، امرأة في الستينيات كانت تعيش في إبسويتش كانت تحتفل هي وابنتها بعودة ابنتها الثانية من جبل طارق، وقضوا يومًا من الطعام والخمر والسمر، ثم نمن جميعهن من التعب، إلا جريس قامت في تلك الليلة من سريرها ونزلت على السلم ومعها شمعة وكانت ترتدي قميص نوم خفيفًا، ووقفت أمام المدفأة التي ليس فيها نار.

في اليوم التالي نزلت ابنتها ووجدت منظرًا مريعًا، شيء يبدو كأنه بقايا أمها الملقاة بجوار المدفأة بقايا متفحمة والنار ما زالت تشع منها بتلذذ وتأكل فيها ولا يوجد لهب، صبت ابنتها دلوين من الماء بسرعة على الجثة فانبعث دخان سميك خانق مؤذٍ. كان المنظر مرعبًا، كل شيء في أمها احترق عدا اليدين والرجلين.

لم تكن المدفأة فيها أي نار، وكانت الشمعة مطفأة وملقاة بعيدًا، والأثاث الذي حولها واللوحات الورقية والأرضية الخشبية كلها لم تتأذَّ ولم تُخدَش، ترددت أقاويل في البلدة واجتمع الناس عند منزل جريس فجر نفس اليوم الذي أحرقوا فيه البقرة، ووجدوا جريس محترقة ولم يبقَ منها سوى يديها ورجليها، تمامًا كما لم يبقَ من البقرة شيء عدا أطرافها المربوطة.

كانت أشهر حالة احتراق ذاتي لأنها عرَّفت الناس بالداء وبالدواء، الداء هو السحر، والدواء هو إحراق الشيء المسحور، عندها وعندها فقط يمكنك أن تحمي نفسك وأحبابك و...».

انتفضتُ من مكاني، الأحلام، الاحتراق الذاتي، إبسويتش، الساحرة، أشياء كثيرة تتابعت في ذهني كأنها شريط، جورج موت، الدفاع المدني، هذه من أسرار كوننا يا موريس، أعواد لا تنطفئ أبدًا، إنفيرنال، جيب إيرفينج كان فيه علبة ثقاب لم تحترق، اللهيب الذي مسَّني في ظهري، آخر علبتين، هذه الأعواد لم تحترق حقًّا....

لكنها... تحرق.

مشيت بسرعة خلال زوار المكتبة المدهوشين من هذا الأخرق الذي يعكر صفو الصمت، خرجتُ من المبنى وخطواتي تتسارع وتتحول إلى ركض، علبة الثقاب تلك ليست بريئة أبدًا، هذا الشيء من السحر الأسود، هذا هو التفسير الوحيد، الداء والدواء، الداء هو السحر، والدواء هو إحراق الشيء المسحور، اللعنة، لقد رميتها في القمامة!

أصبحت أركض كالملسوع حتى وصلت إلى صندوق القمامة وهناك وضعت يدي على رأسي في حسرة، لقد أفرغوا الصندوق، لقد جاءت عربة القمامة، كنت أنظر حولي وأركض هنا وهناك، لم أكن أتصور أنه سيأتي يوم وأبحث بهذه اللهفة عن عربة قمامة.

ومن بين المباني وجدتها هناك قد وقفت لتفرغ صندوقًا آخر وسائقها ينظر في ملل، والتقت عيناي بعينيه ففُجِع الرجل، وجدني أركض عليه كالممسوس، أخذت أسحب الأكياس في جنون حقيقي وأنا أبحث عن كيسي، كنت أقطع كل الأكياس التي تشابه كيسي حتى أحدثت الكثير من الفوضى وأخذ المسؤولون عن القمامة يسحبونني بعنف ويصرخون بكلمات لا

أسمعها ولا أعتني بها، حتى وجدت كيسي فسحبته وسقطت على ظهري وسط الشارع، وسمعت سبابًا كثيرًا وحصل وجهي على ضربات لا بأس بها، لكني فزت به؛ كيس القمامة، أدخلت يدي فيه باحثًا عن تلك العلبة اللعينة حتى أخرجتها، كانت مثل اللعنة التي تستخرجها من باطن القذارة.

وفي منزلي أوقدت المدفأة سريعًا وألقيت فيها العلبة اللعينة وبقيت أنظر إليها وإلى تلك الحروف المشعة Infernals التي بقيت كما هي، دقائق تتبعها دقائق، هذه العلبة لا تحترق، أطفأت النار وأخرجت العلبة، لم يمسها سوء، سواء هي أو أعواد الثقاب اللعينة!

***

استدرت ببطء ناظرًا إلى نقطة واحدة في المطبخ وعيناي تلمعان في ظفر، الميكروويف، لو أن هذا الشيء لا تحرقه النار فستحرقه الموجات، انقضضتُ على الميكروويف بلهفة ورميت فيه العلبة وضغطت على زر الطاقة القصوى، أضاءت جوانب الميكروويف وظهرت العلبة في المنتصف تدور ببطء ثم صدر صوت أشبه بفرقعة، وومضت في صندوق الميكروويف شرارات صفراء كأنها قرون من رعد، تراجعت تحسبًا لأي انفجار، زادت الأصوات المنذرة بالانفجار وأصبحت الشرارات عنيفة جدًّا، كنت أنظر من أبعد نقطة ممكنة عما يمكن أن يحدث، وانتهت دقائق التسخين وأصدر الميكروويف ذلك الصوت المميز للانتهاء، اقتربت ناظرًا إلى دخان كثيف أزرق ذي رائحة منتنة يخرج من باب الميكروويف المغلق، فتحته في لهفة لأجد العلبة قد صارت كومة من السواد المحترق، التقطتها بحرص باستخدام ملقط طعام ورميتها في المدفأة على الفور.

صارت النار أكثر اصفرارًا وانبعث منها صوت ملتهب ثم هدأت بعد دقائق وعادت إلى لونها الأول، أطفأت المدفأة ونظرت بحذر فإذا العلبة قد صارت سرابًا ولم يبقَ إلا قطع من رماد محترق. ألقيت بجسدي على الأريكة في انتصار، وبدأت أنفاسي تهدأ تدريجيًّا حتى انتظمت، ورحت في نوم عميق.

في الصباح انفرجت عيناي مرتاحتين، لا توجد كوابيس في منتصف الليل ولا شهقات مفزوعة، مددت يديَّ عن آخرهما أمطهما في ارتياح وأمسكت بسماعة الهاتف لأتصل بجورج موت، هذا الأحمق يبدو أنه كذب علينا بقصة

الدفاع المدني، وأرجِّح أن من أعطاه هاتين العلبتين شيطان إنسان لا يقل شرًّا عن أليستر كراولي، ولكن هل هما معه منذ فترة؟ وكيف لم يلحظ خطرهما؟ لا بد أننا أول من فكر أن يهديه إياهما، لكن لماذا لم تضراه؟

لم يرُد جورج موت، قررت النزول إلى بيته لتحذيره، فلقد فقدت صديقًا ولست على استعداد أن أفقد صديقًا آخـــ...

أمام منزل جورج موت كانت هناك فاجعة، ابنته كيندال على ركبتيها أمام الباب تبكي في أسى، ودخان كثيف يخرج من النوافذ، ورجال إطفاء كثيرون في مزاج متوتر، وبين كل هؤلاء كنت أنا أتقدم، بعينين لا ترمشان كنت أمشي إلى الداخل، هذا المشهد أعرفه وأعرف ما أنا مقبل على رؤيته، خطوة واحدة بداخل المنزل أكَّدت لي كل شيء، لقد التهمت النار جورج موت وهو نائم على سريره وصار كومة سوداء غير منتظمة، ولم يبقَ منه إلا بعضٌ من رأسه ووجهه بتلك الأسنان المبتسمة في غرابة.

كان أحدهم يهزني ويسألني عن شيء، بالتأكيد عن هويتي، لكن الصورة كانت متموِّهة والصوت كان متموِّهًا، ولم يكن أمام عيني صورة سوى صورة ابتسامة جورج موت الأخيرة، وبدأ شريط الذكريات يأخذني للمرات الأولى التي التقيت فيها به، حتى تلك الليلة الأخيرة التي أهدى لنا فيها العلبتين، نظرت إلى وجهه وعبارة واحدة تتردد في جنبات رأسي:

«إنما هذا شخص يكرهك ويضمِر لك شرًّا، فألقى سحره على هذه الماشية فأضلَّها وقتلها، وأنه لا توجد إلا طريقة واحدة تقدر بها أن تعرف هذا الساحر؛ أن تأتي بواحدة من هاته الماشية المسحورة وتحرقها حية، عندها سيظهر الشخص الذي سحر الماشية، وإن لم يظهر، فلن يطلع الفجر إلا وهو محترق في موضعه أيًّا كان».

استرخى شارلوتان على كرسيه وأخرج سيجارًا فاخرًا أشعله في بطء ثم قام إلى موريس أو ميخائيل وقال مضيِّقًا عينيه كالأفعى:

- ميخائيل هاريسون، عمل في المخابرات الإنجليزية ثم ألَّف روايات عن شيرلوك هولمز، يحب التحقيق في كل شيء بالمنطق والدليل، لكنه جاء عند الاحتراق الذاتي وأصبح رجلًا أحمق يؤمن بالخرافات السوداء.

ظهر الرعب على عيني موريس وقال:

- سيدي، أنا حكيت القصة كما جرت معي ولم أحكم على شيء.

مط شارلوتان شفتيه وقال:

- أنت تريد أن تقول لنا من بين كل هذا الهراء إن علبة الكبريت المضادة للحريق تلك كانت هي السحر الأسود الذي تسبب في حرق البشر، وعندما أحرقتها أنت بطريقة غير تقليدية انقلب السحر على الساحر الذي صنعه فأحرقه، والساحر هنا هو جورج موت.

قال موريس وهو يحاول تمالك نفسه:

- السحر الأسود حقيقي، لقد اختبرته بنفسي في قصة أخرى، والاحتراق الذاتي هو لعنة ليس لها أي تفسير منطقي و...

قاطعه شارلوتان بحدة:

- ذلك لأن روح شيرلوك هولمز التي بداخلك قد نحفت مع نحافة جسدك الفاني يا موريس فأصبحت تبحث بجهالة.

ثم نفث دخان السيجار الكثيف في وجه موريس وقال:

- لو أنك بحثت كمحقق جيد لعرفت أنه تم إيجاد قطع صغيرة من الملابس محترقة بين غرفة صديقك إيرفينج وبين الحمام، مما يشير حتى للأعمى أن النار شبت في الرجل بعد أن نام ممسكًا بسيجارته المشتعلة في غرفته ثم استيقظ فزعًا وهرع بصعوبة إلى الحمام ليطفئ النار، ولكنه بسبب ثقل حركته وضعف جسده أغمي عليه في الحمام فتمكنت النار من ملابسه وأحرقته هناك، وأنت بنفسك قلت إن إيرفينج كان مشهورًا بحرق ملابسه من السجائر.

قال موريس معترضًا:

- لو كان حريقًا عاديًّا لحرق المشاية التي يستند عليها على الأقل.

نفض شارلوتان رماد السيجار على رأس موريس في إهانة وهو يقول:

- الحريق خرق الأرضية أيها الأحمق وأنت تسأل عن المشاية، لكن دعنا من إيرفينج، لاحظت أنك لما حكيت أمر تلك الساحرة جريس تجاهلت أن تذكر أنها نزلت ليلًا أصلًا لتدخين البايب الخاص بها أمام المدفأة،

هذا ما قالته ابنتها، وربما ماتت في أثناء تدخين البايب أو أغمي عليها أو نامت فسقطت واشتعل البايب في ملابسها.

نظر موريس إلى الأرض في عدم رضا وقال:

- يا سيدي الأرضية كانت سليمة والأثاث، أي حريق هذا الذي يصنع هذا؟!

قال شارلوتان بلهجة كريهة:

- الحريق الذي سأحرقه لجسدك الفاني سيصنع هذا، وإني سأجعلك تشاهده بأم عينيك وأنت تحترق.

نظر موريس حوله في قلق باحثًا عن مخرج وهمي وشارلوتان يقترب منه ويقول:

- الاحتراق الذاتي يا شيرلوك هولمز لا يحدث بسبب سحر أسود، بل يحدث بسبب ما يُسمى بتأثير فتيل الشمعة، **Wick Effect**، الأمر بسيط، الملابس تشتعل فيها النار بسبب سيجارة مثلًا، النار تصل لجزء من الجلد الخارجي فتحرقه فتتسرب الدهون التي تحت الجلد، تمتص الملابس هذه الدهون وهي قابلة للاشتعال فيتكون نظام يشبه الشمعة تمامًا، الطبقة الخارجية من الملابس تكون هي جسم الشمعة بينما الطبقة الداخلية من الدهون الممتصة هي فتيل الشمعة الذي تشتعل فيه النار أولًا لأن دهون الجسم أكثر قابلية للاشتعال من الملابس، وتظل الدهون مشتعلة فترة طويلة جدًّا لأن كل دهون الجسم تتسرب من حرق الجلد الخارجي فيصبح كفتيل طويل الأمد، والأمر يحتاج إلى تسع ساعات على الأقل حتى يحترق الجسم كله بهذه الطريقة ولا تتأثر الملابس إلا لاحقًا، مثل الشمعة التي يحترق فتيلها وحده بينما جسدها يذوب لاحقًا.

ثم ابتسم شارلوتان بطريقته الكريهة وقال:

- هل ترى هذا السيجار يا موريس؟

نظر موريس إلى السيجار الذي يقرِّبه شارلوتان من ملابسه في تخويف، ثم ودون أن يشعر أحد تحرك الروسي النحيل من مكانه وغرز إبرة في عنق

موريس الذي جحظت عيناه فجأة وأصبح كالمشلول، وارتجفت أطرافه وسقط على الأرض وأصبح يزحف ببطء، نظر إليه شارلوتان وقال:

- جميع ضحايا الاحتراق الذاتي يكونون من كبار السن ذوي الجسد السمين، والحركة الثقيلة تجعلهم لا يقدرون على إنقاذ أنفسهم عندما تشب فيهم النار، ومعظمهم من شاربي الخمر مما يجعل عقلهم غائبًا أيضًا، وكلهم بلا استثناء مدخنون، وغالبًا يموتون أو ينامون والسيجارة مشتعلة في أيديهم فتسقط على ملابسهم ويبدأ سيناريو فتيل الشمعة إياه.

رمى شارلوتان السيجار مشتعلًا على موريس الذي أصبحت حركته ثقيلة جدًّا وكأنه لا يشعر بشيء، وأخذ يهذي بكلام غير مفهوم والسيجار ينفذ في ملابسه ويتهيأ لإشعالها. لم أحتمل مزيدًا من هذا الهراء، فانتفضت من مكاني محاولًا اللحاق بموريس، لكن تلك الإسورة قبضت على معصمي فأسقطتني على الأرض صارخًا في ألم بالغ، هذه الإسورة لو زادوا من مدة قبضتها على المعصم ستكسر العظم حقًّا، نظرت من بين آلامي إلى موريس الذي اشتعلت النار فجأة في ملابسه وهو في حالة من الدوخة والهذيان وبدأت الدموع تنزل من عينيه الحمراوين وهو يشعر بالحرق فينتفض بحركات متألمة ويحاول الزحف أسرع.

أغمضت عينيَّ في ألم وسمعت بكاءً وانتحابًا كثيرًا، ثم سمعت صوت قفص يتم جره على الأرض، ففتحت عيني ورأيت ذلك الروسي يدفع قفصًا فارغًا ويضعه أمام موريس الذي تحول من الزحف إلى الحبو البطيء حتى دخل القفص رغمًا عنه، فأغلق الروسي عليه الباب وحرك القفص إلى موضع حبل يتدلى من السقف البعيد وعلق القفص في الحبل، وأنزل رافعة بالجوار فسحب الحبل القفص ليصبح معلّقًا قرب السقف وبداخله موريس يحترق أمام أعيننا. أخرج الروسي مفتاحًا وأغلق به ذراع الرافعة ثم نظر إلينا شارلوتان وقال:

- كم هي ممتعة فكرة الجزاء من جنس العمل، لكن ليلتنا هذه قد انتهت، وإن عليكم أن تناموا جيدًا وتتأهبوا للغد، فإن المؤتمر لم ينتهِ، ولا بد أن نسمع بقية الحكايات.

تحرك شارلوتان وهو يدوِّر عصاه في يده وخرج من الباب وتبعه الروسي وأغلقا علينا المكان وتركانا وحدنا في حضرة مشهد لا تقدر الحروف والبلاغات أن تصفه، مشهد حرق إنسان حيًّا أمام أعيننا، في تسع ساعات...

***

لهيب النار يلهب أسماعنا، أرى الجميع في حال من الألم الروحي يظهر على قسمات وجوههم كأن النار تأكل أجسادهم، هرعت إلى سيدة الاستقبال التي كانت مستلقية على ظهرها وتبدو وكأنها في أيامها الأخيرة، ونظرت حولي تلقائيًّا وكأنني أبحث عن ماء، أي مكان لعين هذا؟ هل هو مخزن ملحق بالفندق؟ صوت الخفافيش مصاصة الدماء وهي تلعق دماء الهندية يضفي حس التقزز إلى الرعب العالق في المكان، طويبة ملقى على الأرض يرتجف كأنما أصابه مس، وتلك المحجبة تجلس على الأرض وتضم ركبتيها إليها وتبكي في صمت كأنما اعتادت الضنك، أرى ذلك الأمريكي العنصري يقوم من الأرض وينظر في الأجواء باحثًا بعينيه عن طريقة خروج، عدت أنظر إلى سيدة الاستقبال التي كانت تهمهم بشيء ما لم أفهمه، فقلت لها:

- سيدتي، هل أنت بخير؟

رفعت يدها بضعف في إشارة لرغبتها في القيام، فأقمتها جالسة وأسندتها فقالت بوهن:

- لا يكرهني أحدكم، فإني قد أتيت من بلدي مثلما أتيتم من بلادكم، أرسل لي هذا الرجل عرض عمل فقبلته، ولم أكن أعرف شيئًا عن نيته.

قلت لها:

- لا عليك يا سيدتي، هل تعرفين المخرج من هذا المكان؟

قالت وهي تنظر حولها بيأس:

- إنها المرة الأولى التي أراه.

نظرتُ إلى الأرض في يأس ثم التفت ورائي لمَّا سمعت تأوهات طويبة الذي كان فاتحًا عينيه عن آخرهما ينظر إلى النار في القفص ويرتجف، هرعت إليه واحتضنته وربت على رأسه، فقال والدموع تنزل منه:

- يا شيخ، سامحني يا شيخ لو أذيتك بكلامي، أرجوك سامحني يا شيخ.

شعرت بالدمع يتجمع في مقلتي وأنا أقول:

- كلماتك يا طويبة أيقظت شيئًا في داخلي، لا تخشَ شيئًا، سأجد مخرجًا من هذا المكان، لن تموت ها هنا بإذن الله.

ورفعت عينيَّ إلى قفص النار، أليس ينبغي أن نطفئ تلك النار لنرحم الرجل إن كانت في جسده روح؟ نظرت إلى جثته التي كانت هامدة مستسلمة للنار تمامًا مما يشير إلى أن روحه قد صعدت إلى بارئها.

فجأة انفتح الباب فانتفضت قلوبنا وتجمدنا في أماكننا، ذلك الأصلع قال إنه سيتركنا لننام، ما الذي أتى به ثانية؟ رأينا شابًّا يتم دفعه بقوة عبر الباب ليسقط على الأرض أمامنا وهو يطلق سبة أمريكية ووراءه ذلك الروسي ينظر في غضب ثم يغلق الباب علينا ثانية، نظر الأمريكي الشاب إلى المكان وظهر عليه مزيج من الاشمئزاز والرهبة وقال كأنه يكلم نفسه:

- يا للمسيح! أي لعنة نزلت على هذا المكان؟

نظر إلى هيئتي وإلى تلك المحجبة وقال بعينين مدهوشتين:

- هل أنتم إرهابيون؟

قلت له بغيظ:

- يا أعمى البصر، هل ترى إرهابًا أكثر من الذي حولك؟

نظر الشاب إلى الهندية التي تلتهمها الخفافيش والرجل المحترق بالنار وإلى سقوطنا على الأرض وارتجافنا وضعفنا وقال:

- معذرة، يبدو أنكم من ذلك المؤتمر العلمي الزائف، ضحايا.

قال له ذلك الأمريكي الذي معنا:

- من أنت؟

قال له الشاب الدخيل:

- أنا أندرو كارلسن، أتيت هنا بناء على دعوة من المحفل الأعلى للعلوم الماورائية، لكني تأخرت أيامًا لظروف خاصة، ولما وصلت إلى الفندق ارتديت هذه الإسورة اللعينة وقابلت ذلك الأصلع القبيح، فقال لي كلامًا مسمومًا أثار غضبي، فقبضتْ الإسورة على معصمي وساقني ذلك الروسي إلى هنا.

قلت له:

- هذا المريض الأصلع جمعنا هنا ليحاسبنا على القصص التي نرويها كأنما هو عملنا الأسود في القبر.

ألقى كارلسن نظرة أخرى على المكان ثم نظر إلى الإسورة وظهر على عينيه شيء من الغضب وهو يقول:

- يبدو أنه سيندم على دعوتي لمؤتمره المريض، فأنا أعرف هذه الأساور جيدًا؛ إنها منتشرة في المكان الذي جئت منه، وأعرف حيلة لإبطال مفعولها.

قال له الأمريكي:

- أي حيلة هذه؟ وما هو المكان الذي جئت منه؟

نظر إليه كارلسن وقال:

- سأخبرك من أين أتيت لاحقًا، فهي قصة طويلة، لكن الآن أريد منكم أن تبحثوا في هذا المكان الخرب عن أي قطعة حجمها كحجم كرة التنس، حجرة أو قطعة من أي جهاز، فلو وجدناها ستكون جواز خروجنا من هذا الجحيم.

هرعت أبحث مع ذلك الأمريكي عن ذلك الشيء في الأجهزة التي حولنا وقد تدفق الأمل في نفوسنا، ولم تمضِ دقائق حتى ارتفع صوت الأمريكي وقال:

- وجدتها!

وانتزع قطعة معدنية كروية الشكل من أحد الأجهزة القديمة وأعطاها لكارلسن الذي نظر إليها في إعجاب وبرقت عيناه، ثم نظر إلى الباب للحظات وقال:

- هذه الكرة إذا وضعها أحدنا تحت إبطه وضغط عليها بقوة ستضغط على الضفيرة الإبطية وتعوق انتقال دقات القلب إلى شرايين المعصم، وبهذا فإن الإسورة لن تعمل، لأن فكرتها أصلًا هي استشعار دقات القلب في المعصم.

سرت الحماسة والأمل في أعيننا وهو يقول:

- هذه الخدعة يعملونها كثيرًا في المكان الذي جئت منه وتنجح دائمًا، لكن علينا أن ننتظر حتى يفتح أحدهم هذا الباب فيضع أحدنا هذه الكرة تحت إبطه ويباغته بضربة تفقده وعيه.

قال الأمريكي:

- رائع، ويمكننا الخروج بعدها مباشرة.

قال كارلسن وهو ينظر إلى البقية:

- لا يمكننا الخروج معًا بهذه الحالة التي أراها، هؤلاء لو خرجوا معنا ستقبض عليهم الإسورة عند أي بادرة للخوف الشديد أو الانهيار في أثناء الهرب، لا بد أن نتركهم ها هنا.

قلت له بغضب:

- لن يتحرك أحد من هنا حتى نأخذ معنا كل هؤلاء.

قال لي بمعاندة:

- مستحيل، لا.

قاطعته في قوة:

- إذن سيخرج اثنان منا فقط ويذهبان لإبلاغ الشرطة ونأتي معها لإنقاذ البقية.

قال لي الأمريكي:

- جميل، سأذهب أنا وكارلسن، وابقَ أنت هنا أيها الشيخ تحرسهم.

هنا ردت سيدة الاستقبال:

- بل سيذهب العربي، فهو أحرصكم علينا، فلو ذهبتما أنتما ربما لا تعودان، أما هو فعلى الأقل لديه اثنان من إخوانه في الدين هنا.

نظر كارلسن إلى طوبية وتلك المحجبة ثم تنهد قائلًا:

- حسنًا، سأذهب مع الشيخ ونترك الأمريكي معكم يحرسكم ومعه هذه القطعة المعدنية، فلا أحد يدري من سيأتيكم ونحن غائبون.

تأهب الأمريكي للاعتراض لكننا سمعنا صوت الباب يتهيأ ليُفتح، فوضع كارلسن الكرة أسفل إبطه وأخفاها، دخل علينا ذلك الروسي ومعه كيس فيه طعام على ما يبدو، انحنى الروسي ليضع الكيس على الأرض، وقبل أن يرفع رأسه كانت قدم كارلسن قد اصطدمت بفكه في ركلة كانت أعنف مما ينبغي، حتى إننا رأينا

الدماء تتناثر من وجه الروسي ويرتمي على الأرض بلا حراك، نظر إليَّ كارلسن وهو يشير برأسه لأتبعه، نظرت إلى الأمريكي وأنا أطمئنه وهمست له:

- سأعود من أجلكم، احفظهم كما تحفظ نفسك.

ثم تحركت من المكان ولم أعطه فرصة للاعتراض، خرجت مع كارلسن من ذلك المكان الذي اتضح أنه مبنى قديم لا علاقة له بالفندق الذي كنا نراه بعيدًا من مكاننا، مررنا على تلك البركة وتجاوزناها مبتعدين عن الفندق بخطوات سريعة، شعرت بمذاق الهواء والحرية، نظرت خلفي إلى ذلك المبنى الذي يحبس أولئك المساكين وازددت إصرارًا على أن أخرِجهم ولو على جثتي، فهم إخو...

فجأة انقبضت معاصمنا بقوة رهيبة فسقطنا على الأرض صارخين كأن أرواحنا ستخرج من حلوقنا، فتلك القبضة لم تكن مثل القبضات التي ذقتها، بل كانت مستمرة لا تتوقف، شعرت بمعصمي سينكسر ونظرت إلى كارلسن الذي كان يزحف على الأرض بصعوبة ويقول من بين آلامه بصوت مبحوح وعيناه حمراوان تمامًا:

- لقد تجاوزنا الخط... المبرمج، ارجع، سنموت...

فهمت من كلامه أن الإسورة مبرمجة أن تنقبض إذا تجاوز صاحبها مكانًا معينًا، تحاملت على نفسي وتحركت خطوة إلى الخلف ويدي ترتجف من شدة الألم، ثم تحركت خطوة أخرى أكبر فتوقفت الإسورة عن الانقباض، وعلى الفور مددت يدي الأخرى إلى كارلسن فمد لي يده وسحبته بكل قوتي إلى موضعي، فتوقفت إسورته عن الانقباض واستلقينا على الأرض في ألم ونحن نلهث، ولمحت من بين عذابي ذلك الأصلع السمين وهو يقترب منا في بطء، ولم أحتمل أكثر، ففقدت الوعي.

***

أقفاص صدئة مثل أرواحنا الصدئة، رائحة عطن تزكم الأنوف،

صوت قطرات تسقط على ماء آسن...

خطوات تسير على الأرض ببطء...

عيناي تنفتحان بصعوبة من شدة الألم النفسي الذي واجهته.

كنا موضوعين في أقفاص متجاورة تحبسنا والأصلع يسير بينها ويدوِّر عصاه القصيرة في يديه ويضرب بها قضبان الأقفاص كل حين كأنما هي أقفاص حيوانات، وإنني للحظة شعرت أنه يتعامل معنا كحيوانات تجارب، ولا يوجد شيء مخيف أكثر من رجل مختل عقليًّا يحبسك في مسكنه. توقف شارلوتان عن المشي وقال:

- ما زال البشر ينشغلون بفك القيود التي تحت أنوفهم ويفنون أعمارهم ليجدوا أن القيود الأكبر كانت تكمن في عقولهم، وأن حياتهم ضاعت على لا شيء.

ثم التفت لي واقترب من قفصي قائلًا:

- وإن الحيوانات التي تعيش معنا على الأرض لو أنها فقط تحررت من قيود عقولها البهيمية ستغزو العالم ولن تترك لكم موضع شبر وستركبكم كما تركبونها.

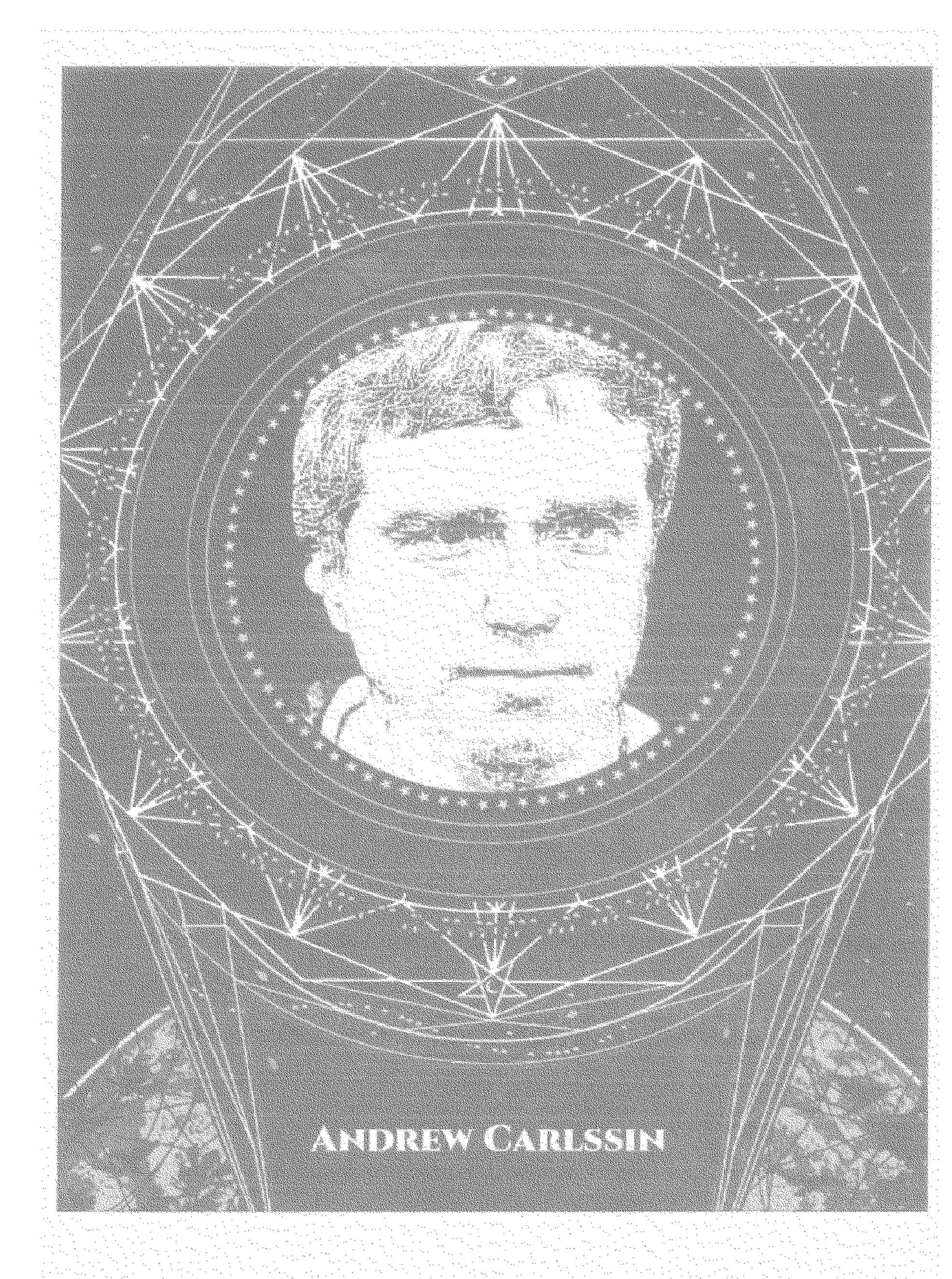
شعرت بقبضة في قلبي، أهذا الرجل يسمع الأفكار؟ نظر إليَّ كأنما يسمع حديث نفسي ثم استدار وأكمل المشي حتى وقف أمام قفص الرجل الأمريكي العنصري وقال:

- لقد أخطأتم اختيار حاميكم يا شيخ خالد، هذا الرجل هرب من المكان فور أن غادرت أنت وأندرو وترك هؤلاء الضعفاء وحدهم، ولما وجدوه قد تركهم، قرروا الهروب هم أيضًا، فأتيت هنا فلم أجد أحدًا منهم، لكن المساكين سقطوا صارخين من العذاب لما تجاوزوا حافة البورجاتوريوم.

نظرت إلى الأرض في حسرة وأنا أتحسس معصمي، فأكمل شارلوتان المشي حتى وقف أمام قفص أندرو وقال:

- أندرو كارلسن، صاحب الحلول الفذة، من ذا الذي سيكون أجدر منك ليلقي إلينا بالقصة التالية؟ لكن عليك أن تتعجل فقلبي يتوق للنيل منك.

ثم طرق على قفص أندرو بعصاه ثلاث طرقات عنيفة فانتفض أندرو من مكانه وظهر عليه الرعب وبدأ يتنحنح ليحكي، والحق أنني أُصِبت بالصدمة عندما سمعت أول مشهد في حكايته واستنتجت المكان الذي جاء منه.


ANDREW CARLSSIN

8

حكاية السفر عبر الزمن

يرويها: أندرو كارلسن

«بغض النظر عن آلات الزمن في الأفلام،

نحن كفيزيائيين فكرنا هل من الممكن فعلًا أن يحدث

فتح لنفق عبر الزمن بقوانين الطبيعة التي تعلمناها؟

ووجدنا أنه ممكن».

عالم الفيزياء الأشهر ستيفن هوكنج.

عمود عملاق من نور يخرج من مكان ما على الأرض ليجوب السماء يمينًا وشمالًا في إشارة لكل من يسكن مدينة ماساشوسيتس الأمريكية لمعرفة مكان النور بدقة، فإن هناك حدثًا استثنائيًّا يجري عند النور وسط الملل الذي يغلِّف النفوس، احتفالية لم تقم في الأرض سوى مرة واحدة في تاريخها، دعوة صريحة وعلنية من جامعة ماساشوسيتس إلى أي مسافر عبر الزمن صدف أنه موجود في أمريكا حاليًّا أن يظهر ويعلن عن نفسه وسيحتفي به المجتمع ويتم تكريمه أمام العالم، احتفالية ضخمة على رأس عام 2005 بدعم من الشركات الكبرى ووكالات الإعلام.

كان الحضور يملأ الجامعة عن بكرة أبيها، ابتدأ الحفل بفرقة روك تغني وتصنع صخبًا يكفي ليسمِع أهل الكواكب المجاورة، ومراسلات التلفاز يمشين وسط كل هذا الضجيج ويعانين معاناة حقيقية في ضبط الصوت لإجراء مقابلات مع الزوار والشخصيات المهمة التي حضرت هذا المهرجان المجنون.

كانت إحدى المذيعات تعدل هندامها وتضع الميكروفون أمام أحد الحاضرين الذي كان يقول بحماس:

- بصراحة كثير من الناس هنا يتوقعون حضور «جون تيتور» أشهر مسافر عبر الزمن عرفناه، أتوقع أن يأتي، ودخوله لن يكون عاديًّا أبدًا، بل استثنائيًّا.

وعند مجسم حقيقي للسيارة الشهيرة التي ظهرت في فيلم Back To The Future كان هناك رجلان أحدهما يمسك بهاتف جوال يبدو حديثًا جدًّا على هذا الزمن ويصوِّر صاحبه الذي وقف أمام السيارة وعمل حركة بلهاء وقال له:

- لو رأى أحدهم هذا الهاتف الذي تصوَّر به ستكون مشكلة يا كارلسن، لن يتركونا.

قال له كارلسن الذي يبدو شابًّا وسيمًا تظهر عليه جميع علامات عدم الاكتراث:

- الإنسان أغبى من أن يلاحظ شيئًا كهذا حتى في هذا المكان يا «جي تي».

قال الكلمة الأخيرة بطريقة هازئة ثم سمع هتافًا صاخبًا من الناس، فرفع يده يحيي فرقة الروك التي انتهت من ضجيجها وانحنى المطربون والعازفون للناس في تحية ثم انصرفوا، وصعد رجل يرتدي بذلة ونظارة ويبدو أكاديميًّا جدًّا، والغريب أن الناس عندما شاهدت هذا الرجل يصعد إلى المسرح ارتفع هتافهم إلى مستوى أعلى من ذلك الذي كانوا يحيون به فرقة الروك، قال كارلسن في حكمة ساخرة:

- عندما يهتف الناس للعلماء بمثل ما يهتفون للفنانين، فإن هذا مجتمع في طريقه لعمل ثورة حضارية.

قال له صاحبه وهو يمط شفتيه:

- نعم، ثورة حضارية مسروقة تخرج بالتدريج الممل.

صمت الناس ليسمعوا ما سيقوله الرجل الذي يبدو أنه عالم فيزياء كبير معروف، تنحنح الرجل ثم قال:

- فكَّرنا كعلماء في السفر عبر الزمن، لكن طرح بعضنا اعتراضًا منطقيًّا جدًّا، قال إن السفر بالزمن مستحيل لأنه لو كان حقيقة فمن المفترض أن يمتلئ زماننا هذا بسواح من المستقبل يتجولون هنا وهناك، وهذا لم يحدث طبعًا، لا يوجد شخص حقيقي ظهر وقال أنا مسافر من المستقبل وقدَّم دليلًا على هذا، لكن هذا الكلام مردود عليه، فالمسافرون عبر الزمن لو أتوا سواحًا فربما يكونون غير قادرين على إظهار أنفسهم تجنبًا للمشكلات أو الضجة.

نظر كارلسن إلى صاحبه وعمل حركة هزلية ساخرًا من الكلام ثم أكمل الرجل:

- ثم قدموا اعتراضًا آخر قد يثبت أن السفر عبر الزمن مستحيل، قالوا لو أنك رجعت بالزمن إلى زمن جدك وقتلته، فهذا يعني أن أباك لن يولَد وأنت بالتالي لن تولَد، لكن ها أنت موجود تسافر عبر الزمن وتتجول على الرغم من أنك قتلت جدك، فهذه معضلة تهدم فكرة السفر عبر الزمن بأكملها، وقد رددنا على هذا بأن هناك عددًا لا نهائي من العوالم، وكلهم يعيش فيهم نفس الإنسان في نفس الوقت، وكل عالم تحدث فيه لهذا الإنسان أحداث مختلفة عن العالم الآخر فإذا رجعت بالزمن وقتلت جدك فإنه حي في عدد كبير من العوالم الأخرى، وحتى تمحيه تمامًا يجب أن تقتله من كل العوالم التي هو حي فيها وهذا مستحيل.

قام كارلسن ورفع يده ليتحدث، فنظر إليه الرجل بدهشة وأشار له سامحًا بالكلام فقال:

- موضوع العوالم اللانهائية هذا سخيف جدًا، معذرة يا دكتور، الأمر أشبه بأن تهرب من مشكلة مستحيلة فتخترع من عندك حلًّا مستحيلًا ليتغلب على المشكلة المستحيلة.

انبعثت بعض الضحكات المكتومة من الحضور فقال له الرجل:

- وهل لديك حل آخر؟

ابتسم كارلسن بزاوية فمه وقال:

- بالطبع، لنبتكر قانونًا نسميه قانون حفظ الزمن و...

شد صاحبه على يده ليصمت، فنظر إليه كارلسن لحظة ثم أكمل قائلًا:

- لنبتكر قانون حفظ الزمن، يعني أنك إذا رجعت للماضي وحاولت أن تحدِث أي تغيير فإنه سيتضح لك في النهاية أنك ساعدت على حدوث الشيء الذي تسعى لتجنبه.

صمت الرجل قليلًا وهو ينظر إلى كارلسن بتفحص ثم قال وهو لم يرفع عينيه عنه:

- نعم، إن كلام صاحبنا هنا منطقي، وقد طرحت نظرية شبيهة في الثمانينيات، أنه لو افترضنا أن هناك شخصًا عاد إلى الماضي ليغيِّر شيئًا، فوجود هذا الشخص هو مكتوب في تاريخ الماضي أصلًا، يعني مكتوب أنه جاء شخص من المستقبل وغيَّر كذا وكذا، وبهذا القانون فلو أنك عدت لتقتل جدك فإنك ستحاول بكل طريقة وستفشل، فلو أن جدك مات فأنت لن تولَد أصلًا وبالتالي لن تعود للماضي لتحاول قتل جدك، لأنك أصلًا غير موجود.

قال كارلسن وهو يضيِّق عينيه بشكل يوحي بالخطورة ويقول:

- سأخبركم أنا بمعضلة لا أظن أن أحدًا يقدر على حلها، لو أعجبتك ورقة علمية لآينشتاين يا دكتور فطبعتها ثم أخذتها وسافرت للماضي لتقابل آينشتاين وأعطيته إياها قبل أن يكتبها، هنا لا يوجد منشأ لهذه الورقة، فلو قلنا إنك أنت المنشأ فأنت عرفتها من كتابة آينشتاين لها بينما أنت الذي أعطيتها لآينشتاين أصلًا. دعك من آينشتاين، افترِض أن أحدهم سافر بالزمن وعزف معزوفة بيتهوفن في زمن بيتهوفن قبل أن يعزفها بيتهوفن نفسه، عندها ما هو منشأ المعزوفة؟

بدأت أصوات الناس تعلو بالنقاش وكثير يرفعون أياديهم للحديث والنقاش، والحقيقة أن النقاش كان ثريًّا جدًّا، وبعد انتهائه بدأ الناس يبحثون عن كارلسن الذي ابتدأ كل هذا النقاش وخصوصًا المذيعات لعمل حديث معه، ولكن لم يجد أحد أثرًا لكارلسن ولا لصاحبه «جي تي».

***

وولستيرت، أرض الذئاب المباركة، أرض الأسهم والسندات وكل هذه المصطلحات التي لا يفهمها إلا أصحابها، بناء ضخم فاخر كبير ليس فيه سوى دور واحد أسفله ساحة مليئة بالشاشات التي تعرض كتابات وأرقام بلون أخضر وأحمر، ساحة يقف عليها ألف إنسان على الأقل وفي يد كل واحد منهم جهاز خاص، أي صورة ستأخذها هنا ستبدو مثل لوحات العصور الوسطى التي يكون فيها عشرات الأشخاص، وكل واحد منهم يفعل شيئًا

وعلى وجهه تعبير مختلف، والانفعالات هنا رهيبة، تتراوح بين الفرح الشديد والقفز وخلع جاكيت البذلة ورميه في السماء، إلى الكمد الشديد والعض على الشفتين وشد الشعر وخلع جاكيت البذلة أيضًا ورميه على الأرض والقفز فوقه غضبًا.

وسط كل هذا دخل شاب يرتدي زيًّا أنيقًا ويبدو غير مكترث بأي شيء، كان يطلق صفيرًا بأغنية لم يسمعها أحد في ذلك الزمن، هذا الشاب كان هو أندرو كارلسن، الذي سيشعل رأس العالم من الذهول بعد أيام، دخل بهيئته غير المرتبة وطلب المشاركة في هذا السوق، فطلب منه المسؤول معلوماته بسرعة دون أن ينظر إليه، فهنا على هذه الساحة لا يهتم أحد لأمرك أصلًا لأن الكل معتاد رؤية كل أنواع الانفعالات والبشر. انصرف كارلسن من عند الرجل ومعه ذلك الجهاز الذي نظر إليه قليلًا في عدم رضا عن التكنولوجيا التي صُنع بها، ثم اتخذ له مقعدًا وبدأ ينظر إلى الشاشات بالأعلى.

أتاه بعض الناس أصحاب البِذل الممشوقة والشعور المصفَّفة ليعرضوا عليه خدماتهم، بعضهم يفهم في شركات الطعام والآخر في شركات البترول وهكذا، وكان كارلسن يعتذر بلباقة ويكمل عمله على جهازه. فأخذوا يتهامسون بينهم بشيء ساخر ثم ذهبوا عنه.

أمضى كارلسن ما لا يزيد على النصف ساعة في المكان ثم سلَّم الجهاز وخرج، وانقلبت ملامح الرجل الذي استلم منه الجهاز إلى غاية الذعر والتعجب، وأعاد النظر إلى شاشة الجهاز عن قرب ليصدق هذا العبث، فكارلسن هذا أدى تسع عمليات بالغة الخطورة وربح فيها كلها، والـ 800 دولار التي بدأ بها أصبحت فجأة ربع مليون دولار، وكانت واقعة تناقلت سريعًا بين الذئاب الذين يرتدون البذلات وبدأ الكل ينظر إلى كارلسن نظرة مختلفة وهو يغادر الساحة ويقول:

- غدًا سأعود يا ذئاب وولستريت.

وفي الغد حضر كارلسن إلى قوم لم يعودوا ينظرون إليه مثلما كانوا، ونظر إليه أولئك الرجال الذين عرضوا عليه خدماتهم في السابق واقتربوا منه

محاولين استراق النظر إلى جهازه، لكنه نظر إليهم بتحذير ساخر وعاد يقوم بشؤونه، كان هناك شخص من استقبال المبنى يميل على الرجل الذي بجواره وهو يقول:

- هذا هو، راقبه جيدًا، لا يغب عن بصرك لثانية، هذا المخادع يلعب لعبة قذرة.

وبعد نحو ثلث ساعة أتى كارلسن لتسليم الجهاز وقال وهو يمضغ العلك:

- كم من الوقت يجب أن أنتظر حتى يتم تحويل النقود من حساب المداولة إلى الحساب البنكي الخاص بي؟

قال له الرجل وهو ينظر إلى الجهاز:

- هذا يعتمد على الـ...

صمت الرجل تمامًا، فالأرقام التي أمامه تشير إلى أن الرصيد قد ارتفع إلى مليون دولار، ونظر إلى كارلسن قائلًا:

- يبدو أنك رجل محظوظ سيدي، معذرة، نعم، كنت أقول هذا يعتمد على البنك.

وعندما غادر كارلسن اجتمع الرجال المسؤولون ونظروا إلى الأرقام، 16 عملية ناجحة، كل عملية يؤديها بالضبط في الوقت الصحيح، كأنه يعلم تمامًا متى سيرتفع السهم ومتى سينخفض، لم يخسر مرة واحدة، هذا مستحيل في عُرف هذه اللعبة، لا بد أن تخسر في كل ثلاث عمليات مرة واحدة على الأقل. وعلى الفور وضعوا علامة على اسم أندرو كارلسن تنبِّه النظام لمراقبة الحساب في أي عملية قادمة.

أصبح كارلسن يأتي كل يوم والأنظار تكون عليه وحده لأن ما يفعله مستحيل بكل المقاييس، فقد وصل رصيده إلى 100 مليون في أسبوع واحد وهو أمر لا يمكن السكوت عنه بأي حال من الأحوال، وتم إبلاغ السلطات التي بدأت تراجِع عمليات كارلسن كلها، والشرطة التي بدأت تبحث عن هوية كارلسن وتاريخه، وكاد الأسبوع الثاني أن ينتهي ووصل رصيد كارلسن إلى

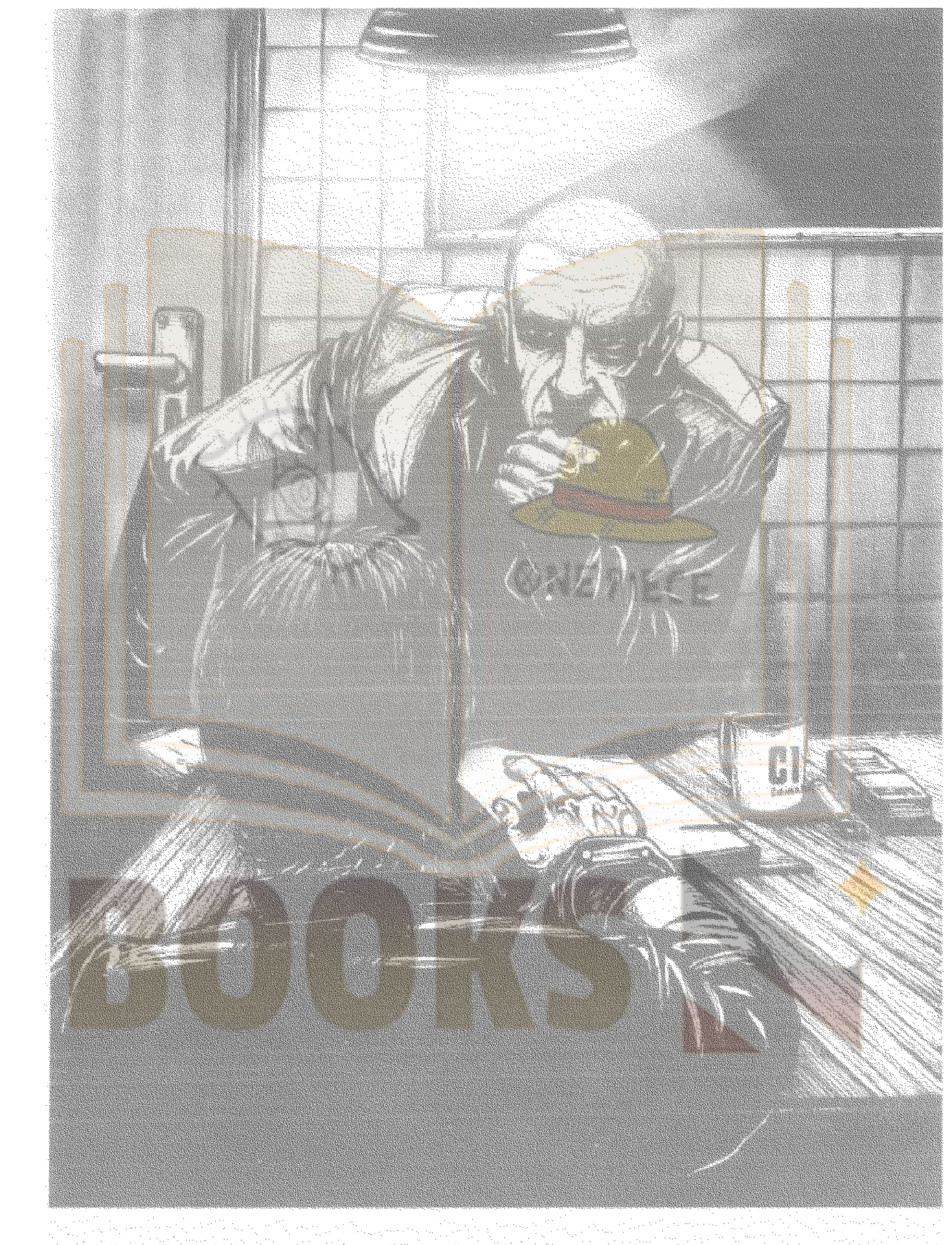
350 مليون دولار، الأمر الذي سبَّب اضطرابًا رهيبًا في سوق الأسهم وصل صداه إلى الحيتان الذين يتحكمون بمجريات اقتصاد الدول.

وفي وسط سوق وولستريت وبينما كان كارلسن يقف وحوله عشرات من الرجال يحاولون سؤاله والتعلم منه أو مضايقته، إذ دخلت قوات عسكرية إلى الساحة ودون كلمة واحدة تم القبض على كارلسن بأكثر طريقة قاسية ممكنة، ووُضعت الأصفاد في يديه ونظر الجميع إلى وجهه الوسيم والجنود يسوقونه خارج الساحة ويسحبون جهازه منه، وتم أخذ جميع أمواله وعكس جميع العمليات التي قام بها والتي تسببت في خسارة المئات من أصحاب الأموال، وعادت أموالهم إلى بطونهم وتم إلقاء كارلسن بعنف في زنزانة احتياطية ليتم التحقيق معه بتهمة الحصول على معلومات داخلية عن الشركات الكبرى واستخدامها في الربح غير المشروع بالبورصة.

***

دخل عليه الحبس رجلان، أحدهما أمريكي أسود ويبدو كل شيء في هيئته أنه محقِّق والآخر يبدو من هيئته بهذه الوقفة ذات الظهر المفرود أنه للحماية أو للتخويف، قال المحقق بلهجة من انغمس في هذا المجال حتى ثمل:

- أندرو كارلسن، كما تظهِر هويتك التي ظهر بعد الفحص عنها أنك استخرجتها منذ شهر فقط، ولم تكن لك أي أوراق قبلها، حتى شهادة الميلاد استخرجتها قبل يوم من استخراج الهوية، أندرو كارلسن، من أنت؟



نظر إليه كارلسن وزفر في شيء من عدم الاهتمام وقال:

- قل لي أولًا ما تهمتي وما عقوبتها وكيف أخرج من هنا لأني مللت حقًا.

قال له المحقق بهدوء:

- تهمتك هي سرقة معلومات داخلية عن الشركات العملاقة واستخدامها في الربح غير المعقول في البورصة، مما أدى إلى أزمة حقيقية و...

قاطعه كارلسن:

- صدقني كنت أريد أن أجعل الأمر يبدو حقيقيًا فأكسب مرة وأخسر مرة، لكن الإغراء كان أقوى مني، أخذتني نشوة اللحظة، أنت لم تجرب هذا الشعور، معذرة قاطعتك، ماذا كنت تقول؟

قال له المحقق وهو ينظر في عينيه:

- أقول إن عقوبة هذه الفعلة هي الانتقال إلى سجن جزيرة رايكرز، هل سمعت عنه يا آندرو؟

ازدرد كارلسن لعابه وظهر عليه التوتر لأول مرة وكان المحقق ينظر إليه في انتصار وينتظر أن يقول الكلام المعتاد عن أن كل هذا كان بالحظ وأنه لم يسرق أي معلومات وكل الكلام الذي اعتاد أن يسمعه من المتهمين بهذه التهمة، لكن كارلسن قال قولة صدمت المحقق وحتى مساعده الواقف في انتصاب، قال كارلسن بعد زفرة صادقة:

- الحقيقة يا سيدي لقد ربحت لأني كنت أعرف كل المعلومات بالفعل، لكني لم أسرقها، وهذا محال أصلًا، لقد عملت 126 عملية ناجحة في أكثر من 10 شركات عملاقة، من ذا الذي يعرف معلومات داخلية عن 10 شركات كهذه؟ لا أظن أن المخابرات نفسها تقدر على هذا، ولو أدخلتموني إلى البورصة مجددًا سأربح 126 عملية أخرى لشركات أخرى، أنا أعرف هذه المعلومات لأنها بالنسبة إليّ معلومات قديمة، ماضٍ سحيق، فأنا يا سادة مسافر في نهر الزمن وهبطت إلى زمنكم هذا مؤخرًا، وزمني هو بعدكم بنحو مائتي سنة.

سكت الجميع قليلًا والمحقق ينظر إلى صاحبه ثم إلى كارلسن ثم إلى الأرض، وفي النهاية لم يقدر، انفجر ضاحكًا وأصدر صاحبه الواقف ضحكات

كان يغالب كتمها هو الآخر وابتسم كارلسن بحسرة وهو ينظر إلى الأرض ويقول:

- في زمني هناك سجلات لكل معاملات البورصة في التاريخ وأنا أعرف أزمة الأسهم في هذه السنة تحديدًا، فعدت إليها لأحقق بعض الأموال.

قال المحقق وهو يفرك عينيه بعد الضحك:

- قل لي يا هذا، أين هي هويتك في زمنك؟ أرني إياها.

قال كارلسن بثقة:

- في زمني لا توجد هويات، هذا ماضٍ سحيق، في زمني هويتك هو إصبعك، فيه بصمتك التي تختلف عن أي إنسان آخر، ومسجل على هذه البصمة هويتك الإلكترونية ورخصة قيادتك وحتى حسابك البنكي.

قال المحقق بجدية:

- أنت أتيت هنا بآلة زمن في الغالب، أين آلتك الزمنية بالضبط؟

قال كارلسن بسرعة:

- لا يمكنني أن أقول، فهذه التكنولوجيا لو وقعت في الأيدي الخاطئة ستكون كارثة لن يتحملها ضميري.

مط المحقق شفتيه وهو يقول:

- هل لديك أي كلام آخر يختلف عن مسألة السفر عبر الزمن هاته؟

صمت كارلسن قليلًا ثم قال:

- لا يا سيدي، ليس لدي أي حجة أخرى.

قام المحقق من كرسيه وقال لصاحبه:

- فليكن. بعيدًا عن المزاح يا كارلسن أو أيًا كان اسمك، نحن أيضًا سنأخذ بصمتك، وسنرميك في سجن جزيرة رايكرز وسط أسوأ حثالة من البشر حتى تتعفن هناك، وعندما تقرر أن تغير رأيك وتخبرنا بدليل على هذا الهراء ستجدنا متشوقين لسماعه.

وانصرف المحقق دون كلمة أخرى، وتم نقل كارلسن إلى واحد من أسوأ عشرة سجون في أمريكا كلها.

***

رداء بغيض بني اللون يرتديه الجميع، وجوه أبغضها العالم وأبغضت العالم، لصوص وقتلة متسلسلون ومغتصبون، الكل قد اجتمع هنا في مكان واحد وكأن اجتماعهم هذا سيصلحهم، كان كارلسن واحدًا منهم ينظر إلى وجوههم في حسرة وإلى المكان حوله، لقد وضعت الحكومة عليه كفالة مليون دولار لإخراجه من السجن حتى يتم اتخاذ الحكم النهائي، حتى نقوده في حسابه البنكي الذي فتحه مؤخرًا تم تجميدها كلها وهي لا تتجاوز عُشر هذا الرقم على أي حال. كان يعلم أن حماقته جعلته يخترق أهم قاعدة في السفر عبر الزمن على الإطلاق؛ لا تلفت الأنظار إليك؛ الناس سينظرون لك على أنك مخبول، ما زال وعيهم الجمعي غير مؤهل أصلًا لقبول فكرة أن هناك سفرًا عبر الزمن يمكن أن يحدث، على الرغم من كل الأفلام والروايات التي قرؤوها فإن عقلهم الباطن يعُد هذا خيالًا محضًا، إلا قليل منهم.

قطع حبل أفكاره اقتراب رجلين يبدو الإجرام كأنه يتساقط من أعينهما، فزفر بضيق وهو يلعن حظه وحماقته للمرة الألف، وقف أمامه الرجلان وحك أحدهم ذقنه وهو ينظر إليه بطريقة غير مريحة وقال:

- أنت كاريسون أو كارسون ذلك المخبول من المستقبل، أليس كذلك؟

نظر إليه كارلسن ولم يرد وبدأ يتجمع وراء المجرم رجال آخرون من نفس العينة العنيفة، وقال المجرم بسخرية ذات دم ثقيل:

- قل لي يا مخبول، هل لديكم في زمنكم نساء؟ أعني...

وعمل حركة بيديه تدل على جسد المرأة، فتضاحك زملاؤه فقال كارلسن:

- نعم عندنا نساء، وهم أكثر من الرجال في زمني.

صعد صفير من أحد الرجال وقال وهو يعض شفته:

- يبدو أنه زمن رغد للرجال، كم أنت وغد محظوظ.

قال المجرم الذي يبدو كبيرهم:

- كيف وجدت السجن في زماننا؟ هل يشبه سجون زمانكم أم أن زمانكم يكون حراس السجن كلهم نساء؟

قال كارلسن:

- في زماني لا توجد سجون أصلًا، هذه فكرة حمقاء نفذتها البشرية وقتًا طويلًا ثم تخلَّت عنها بعد اختراع حلقة القدم، الشاكلز.

دُهِش الرجل وسأل بجدية:

- وما هذه الحلقة اللعينة؟

قال كارلسن:

- أي مجرم يُحكم عليه بالسجن في زماني توضع في قدمه اليسرى هذه الحلقة، ويمشي حرًّا في المدينة لا يضايقه أحد ولا يعرف أحد أنه يرتديها أصلًا، لأنها تكون أسفل الملابس، هذه الحلقة حساسة جدًّا تجاه مواد معينة يفرزها الجسم في أثناء الميل للعنف، فإذا أفرز الجسم هذه المواد قبضت الحلقة بقوة شديدة على قدم المجرم فيسقط على الأرض في ألم، وهكذا يعيش مدة عقوبته غير قادر حتى على إبداء أي علامة أو حتى تفكير في العنف.

نظر الرجال بعضهم إلى بعض وقال كبيرهم:

- هذه حياة مملة إذن، السجن أهون بكثير، يعني أنا عندما أرى مخبولًا مثلك تنبعث في عروقي الرغبة في أن أصفعك مثلًا، هذا يحدث تلقائيًّا عندي، أتريد أن تحرمني من هذا الشغف؟

ورفع الرجل يده ليصفع كارلسن ثم فجأة انحنى وهو يتألم ويمسك قدمه وهو يقول:

- يا إلهي! قدمي تؤلمني، لا أقدر أن أصفع هذا المخبول اللعين هناك، هذه الحياة كالجحيم، سأنتحر إذن.

ضحك الرجال على تمثيلية كبيرهم وثقل دمه وقال كارلسن:

- لو حاولت الانتحار ستقبض عليك الحلقة أيضًا، فالانتحار مؤشر للعنف.

قال الرجل:

- فاللعنة عليك وعلى زمانك.

ورفع يده وصفع كارلسن صفعة قوية جدًّا تراجع معها إلى الوراء وسقط على الأرض، واقترب منه الرجال وقد وجدوا لأنفسهم دمية يتضاحكون عليها ويفرِغون فيها وقت فراغهم.

***

بوجه بائس عليه آثار الضرب كان كارلسن ينظر من وراء زجاج كابينة الزيارة إلى رجل ذي شعر أبيض ونظارة يعدلها كل حين، ووراءه خمسة أشخاص ينظرون إلى كارلسن بشغف حقيقي كأنهم يشاهدون مخلوقًا من الفضاء الخارجي. قال الرجل ذو النظارة:

- لو تعلم يا سيدي كم أننا شغوفون بك، لكن كفالة إخراجك من هنا ضخمة جدًّا، وأنت تعلم أننا هواة في جامعة ماساشوسيتس ونحن الذين نظمنا ذلك المؤتمر أملًا في أن يحضر إلينا أي مسافر عبر الزمن، وإني أذكر حضورك سيدي ونقاشك العظيم، وليتك قلت إنك مسافر زمني، كنا سنحتفي بك وتتم مناقشتك بعيدًا عن هذا السجن البغيض.

قال كارلسن وهو ينظر إلى الوجوه الشغوفة التي تتطلع إليه:

- صدقني آخر ما تريده في أثناء السفر عبر الزمن أن تكون حديث الصحف، فنحن لا نسافر لنتنزه، بل لأداء مهمات محددة، فالسفر الزمني يتم بإشراف الحكومة وإعداداتها مثل السفر إلى الفضاء.

بدا على وجه الرجل الإعجاب الشديد وهو يقول:

- رائع! هذا مثل جون تيتور، الفتى الذي ظهر على الإنترنت وقال إنه مسافر عبر الزمن وأن مهمته هي البحث عن جهاز كمبيوتر قديم من طراز IBM 5100 لأنه حدثت في زمنه المستقبلي مشكلة تقنية كبرى والحل الوحيد لها هو اقتناء هذا الجهاز القديم الذي يفك الشفرات المعقدة، وببحثنا الخاص يا سيدي عرفنا أن جون تيتور حقيقي، لأن معلومة أن هذا الجهاز القديم قادر على فك الشفرات هي معلومة لا أحد يمكن أن يعرفها إلا لو كان يعمل في شركة IBM نفسها في مركز عالٍ جدًّا، لأنها خاصية وضعها المطوِّرون في الجهاز ولم تُستخدَم علنًا أصلًا.

ابتسم كارلسن لما سمع اسم جون تيتور ولم يعلِّق، ثم قال:

- لماذا أنتم هنا؟

اقترب الرجل من الزجاج وهو ينظر حوله في ارتياب ويقول:

- أرجوك يا سيدي، قل لنا بحق كل شيء غالٍ عندك، كيف قدرتم على السفر عبر الزمن؟ ما هي الطريقة؟ أعطنا أي تلميح، ولن ننشره في الصحف.

قال كارلسن:

- أنتم في زمن يفكر فيه علماء الفيزياء بطريقة -أنا عالم فيزياء شهير ولو تحدثت عن السفر عبر الزمن سيعدونني مخبولًا- وهذه الفترة ستنحسر قريبًا جدًّا وسيتحدث الفيزيائيون بشكل صريح أن السفر عبر الزمن ممكن علميًّا وليس مستحيلًا.

قال له الرجل:

- كيف؟ أرجوك قل لنا كيف.

واقترب الذين وراءه في تشوق لاستماع كلام كارلسن الذي تنهد وقال:

- سيأتي زمان يظن فيه العلماء أن السفر إلى الماضي ممكن والسفر إلى المستقبل مستحيل، لكن سيكتشفون أن السفر إلى المستقبل هو الأسهل بكثير، وسيكون أول شيء يقدرون على تحقيقه.

أخرج الرجل قلمًا ومذكرة ليكتب وقال:

- قل يا سيدي، قل كل شيء وأتعهد ألا ننشر حرفًا من هذا.

قال كارلسن:

- إذا كانت هناك سيارتان واقفتان على مسافة معينة من بعضهما، وقلت لك أن تجري من سيارة إلى أخرى، ستقطع المسافة في زمن معروف حسب سرعتك، لكن إذا قلت للسيارتين أن يتحركا بسرعة متساوية بمحاذاة بعضهما بعضًا وطلبت منك أن تجري بسرعتك نفسها من السيارة الأولى إلى الثانية وهما يتحركان، فإنك ستصل للسيارة الثانية في زمن أطول على الرغم من أن المسافة بين السيارتين نفسها وسرعتك هي نفسها لم تتغير، لكن الحقيقة أن الزمن كان أطول لأنك قطعت مسافة أطول في اللحاق بالسيارة الثانية في أثناء تحركها على الرغم من أنها تبعد نفس المسافة عن السيارة الأولى.

أومأ الرجل برأسه إيجابًا وقال:

- نعم سيدي نحن نعرف هذا، ولقد عقدت تجربة شهيرة وضعت فيها ساعة ذرية داخل مركبة تدور حول الأرض، ولما عادت قارنوها بساعة ذرية مماثلة على الأرض فوجدوا أن الساعة التي في المركبة متأخرة، يعني كانت تدق أبطأ من الساعة الأرضية، فالحركة تبطئ الزمن.

قال كارلسن:

- ليس فقط الحركة تؤثر على الزمن، بل كتلة الكوكب، فالزمن كالنهر، يبطئ في مناطق وتزيد سرعته في مناطق أخرى، والسبب الذي يبطئه هنا على الأرض هو كتلة الأرض الضخمة، فكلما كان الجرم ذا كتلة ضخمة فهو يبطئ نهر الزمن عنده، كما أن الصخرة الموضوعة على النهر تسبب بطأ في جريانه عندها، وبهذا يجري الزمن في الفضاء أسرع.

قال الرجل وهو يكتب في نهم:

- سيدي، إن كلماتك ذهبية!

قال كارلسن:

- دعك من هذا كله، الطريقة الوحيدة لاختراع آلة زمن هي أن تتحرك بسرعة قريبة جدًّا من سرعة الضوء، فإن فعلت هذا فإنه سيأخذك إلى المستقبل.

قال ذلك الفتى:

- كيف سيأخذك إلى المستقبل بالضبط؟

قال كارلسن للفتى:

- سيبطئ من زمنك لدرجة عظيمة، تخيل أن هناك قطارًا يمشي حول الأرض بسرعة هي 99% من سرعة الضوء، وتخيل أن هذا القطار دار حول الأرض لمدة 100 سنة، هل تعلم أن الركاب الذين عليه سيكون قد مر عليهم أسبوع واحد فقط لأن الزمن قد أُبطئ بداخل القطار بسبب سرعته المقاربة لسرعة الضوء؟ يعني سيعودون إلى الأرض في القرن القادم، أليس هذا سفرًا إلى المستقبل؟

نظر إليه الجميع في دهشة وقال كبيرهم:

- وهل صنعتم شيئًا يصل لهذه السرعة؟

قال كارلسن:

- نعم صنعنا هذا، لكن لم نستخدمه في الانتقال للمستقبل بعد، فعلى الرغم من الشغف الذي في أعينكم، فإني لو أخبرت واحدًا منكم أنه

سيركب مركبة لمدة أسبوع ويعود ليجد كل شخص أحبه في الدنيا قد مات وأصبح تاريخًا فلن يتطوع لهذا أحد.

قال أحد الفتية:

- يمكن أن يسافر 20 سنة مثلًا وليس 100.

ابتسم كارلسن بشيء من الحسرة وقال:

- صدقني إن غبت عن هذه الأرض سنة واحدة فإن الناس ستنساك، بل ما الذي يضمن لك أنك عندما تسافر سنة واحدة للمستقبل ستجد كل شيء كما هو عليه؟ وظيفتك، بيتك، صديقتك.

قال له الرجل:

- السفر للمستقبل ممكن إذًا، لكن كيف سافرت إلى الماضي؟ هذا مستحيل، فالماضي أحداث ثابتة لا يمكن أن يحدث لعب في هذه النقطة.

قال كارلسن بهدوء:

- أنت تعرف بساط الزمكان الذي وصفه آينشتاين؟ في داخل الزمكان شيء اسمه الثقب الدودي Wormhole، وهو صغير جدًّا جدًّا، أصغر حتى من الجسيمات تحت الذرية، هذا الثقب الدودي يصل بين مكانين أو بين زمنين، وهذا الثقب عجيب جدًّا، فتجد الإلكترون إذا دخل فيه يخرج في مكان آخر في نفس اللحظة، يعني تجد الإلكترون وُجِد في مكانين في ذات اللحظة، وأحيانًا يدخل منه ليظهر في زمن آخر، فيكون الإلكترون موجودًا في زمانين في ذات اللحظة.

قال الرجل معترضًا:

- هذا الثقب الدودي تكلموا عنه سيدي بالفعل ولكنه صغير جدًّا، طبعًا تعبر منه الجسيمات تحت الذرية وليس البشر، كما أنه حتى في عالم الجسيمات هو شيء غير مستقر، يعني يظهر ويختفي في ذات اللحظة تقريبًا.

ضحك كارلسن ضحكة وهو يقول:

- عزيزي، لقد نجح العلماء في عصرنا في تكبير الثقب الدودي هذا بلايين المرات حتى يمر منه إنسان أو سفينة فضاء، وهيَّؤوا له أسباب الاستقرار، وكانت ثورة تكنولوجية جعلت الإنسان قادرًا على الانتقال اللحظي من مكان إلى مكان، وأصبح استخدام المركبات الناقلة

هو شيء من الماضي، وقدر الإنسان على السفر إلى الماضي وإلى المستقبل لحظيًّا أيضًا.

***

من بوابة سجن جزيرة الرايكرز الكبير دخل ذلك الشاب الذي كان مع كارلسن في المؤتمر، كان يرتدي معطفًا طويلًا ونظارة شمس لإخفاء وجهه، وعند دخوله إلى كبائن الزيارة وجد الفتية خارجين من عند كارلسن، فنظروا إليه بلا اكتراث ومضوا إلى طريقهم، والخارج من سجن الرايكرز ينتظر كثيرًا حتى تمر حافلة أو سيارة أجرة، وبينما هم ينتظرون ويتحدثون بحماسة إذ انتفض واحد منهم قائمًا كأنما مسه جن وقال وهو ينظر إلى هاتفه المحمول قديم الطراز:

- هذا مستحيل، مستحيل بأي طريقة على وجه الأرض، مستحيل!

اجتمعت أعينهم تنظر إلى ما يشير إليه، كان خبرًا معروضًا على موقع ياهوو أن أندرو كارلسن تم دفع كفالته وهو الآن حر طليق، وأنه تم تحديد جلسة استماع لا بد له أن يحضر إليها وستكون بعد شهر. قال أستاذهم وهو يعدل نظارته بتوتر:

- متى هذا الخبر بالضبط؟

قال الفتى:

- من نحو ساعة.

ضرب الفتية كفًّا بكف، لأنهم من نحو ساعة كانوا قد انتهوا للتو من مقابلة كارلسن، فكيف بحق الله يكون قد خرج من السجن قبل ساعة؟ نظر أحدهم إليهم وقال بنظرة من فهم شيئًا استثنائيًّا:

- يا للسماء! ألم يقل إن الإلكترون يمكن أن يوجد في مكانين في نفس الوقت وزمانين في نفس الوقت إذا استخدم الثقب الدودي، وإن علماء عصره قد... اللعنة أيمكن أن...

وفي مكان بعيد كان أندرو كارلسن يمشي مع صديقه «جي تي» في غابة بلاك ريفر في نيويورك ويقول له:

- تأخرت علي يا تيتور، ماذا كنت تفعل بحق الجحيم؟ هل كنت ترد على الناس على الإنترنت يا جون تيتور العظيم؟ لقد عشت أيامًا أكثر سوادًا مما تتخيل.

قال له صاحبه جون تيتور:

- لأنك أكثر حُمقًا مما ينبغي وتدلي بمعلومات أكثر مما ينبغي وتلفت النظر أكثر مما ينبغي.

أخرج جون تيتور من جيبه جهازًا لم يعهد أهل الأرض مثله وضغط فيه زرًّا واحدًا وهو يقول:

- سيظل الناس حمقى يا كارلسن، سيظلون أسارى لفكرة أن هناك آلة زمن تخرج الشرارات اللولبية لتنقلهم من زمن إلى زمن، حتى يفيقوا إلى أن كل هذا هراء، وأن الانتقال بالزمن أبسط بكثير.

وفجأة تكوَّن في الهواء شيء مثل الشق، كأن صفحة الهواء هذه هي حائط ظهر فيه شق كبير ثم اتسع فجأة ليصبح فجوة كبيرة ذات قلب أسود، توجه إليها تيتور وكارلسن كأنما هما معتادان فعل هذا، وقال كارلسن:

- أراهن أنهم يشدون شعورهم هناك، فلولا قولك إنك دفعت كفالتي ما أدخلوك وأجلسوك معي، ولولا أنهم أجلسوك معي ما استطعت أن تخرِج هذا الجهاز هناك في قلب السجن وتنقلنا به من هناك إلى هنا في غمضة عين، الحقيقة أنني سأشتاق لهذا الزمن بكل حماقته.

***

قام شارلوتان من موضعه وتوجه نحوي ببطء فسقط قلبي برهة، فقال:

- إني لن أضرب عنق هذا المختل قبل أن أسمع حكمكم فيه، لربما أنقذته كلماتكم، قل لي يا شيخ خالد، هل تؤمن أن السفر عبر الزمن ممكن وأن هذا الرجل صادق؟

ابتلعت لعابي وأنا أنظر إلى كارلسن الذي كان ينظر إليَّ في رجاء، فلم أدرِ ما أقول، لكن ضربات شارلوتان على قفصي جعلتني أتكلم، فقلت:

- لن أجامل في دين الله، السفر عبر الزمن يتعارض مع الغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله، كيف نقول إن أحدًا يمكن أن يسافر ليعرف المستقبل ثم يعود ليخبرنا عنه؟ هذا كفر.

مط شارلوتان شفته في تفهم وقال:

- يبدو أنك أخذت أول تصويت سلبي يا أندرو.

ثم مشى حتى جاء عند قفص طويبة ووقف قليلًا ينتظر طويبة الذي كان لسانه معقودًا من الخوف، فقال شارلوتان:

- تحدث يا يمني وإلا أعدمتك مكانه هنا.

قال طويبة بلسان مرتعب:

- إني أرى السفر في الزمن ممكنًا، عندنا في القرآن رجل جعله الله يسافر إلى المستقبل، يقول الله: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ﴾ [سورة البقرة، 259].

تهيأت لأتكلم وأخبره أن هذا كان بإذن الله فقط ولكن نظرة شارلوتان التحذيرية لي أسكتتني. أومأ شارلوتان لطويبة برأسه ثم وقف أمام قفص الأمريكي الذي هرع يقول:

- بالطـــ.. بالطبع هناك سفر بالزمن، نحن أصلًا عندما ننظر إلى النجوم فإننا ننظر إلى الماضي، فهذه نجوم انفجرت واختفت ونحن ننظر إلى صورتها في الماضي، أليس هذا يعد نظرًا إلى الماضي نفعله كل يوم؟ ولو أن لدينا تلسكوبًا متطورًا لأمكننا أن نرى تفاصيل أحداث ماضي تلك النجوم ونحن في الحاضر.

رفع شارلوتان عينيه في إعجاب ونظر إلى القفص التالي فوجد موظفة الاستقبال العجوز مغشيًا عليها، فتجاهلها وانتقل إلى قفص المرأة المحجبة التي كانت تجلس على الأرض وتضم قدميها إليها كعادتها وكأنها لا تعتني بأي شيء يحدث. قال لها شارلوتان:

- أنت يا صينية، ماذا ترين فيما سمعتِ؟

لم تُبدِ الصينية أي استجابة وكأنها لا تهتم بما سيُفعل بها. طرق شارلوتان طرقات متتابعة على قفصها لكنها كانت كالتمثال الذي لا يأبه بأي شيء، فقال لها شارلوتان:

- كلامك قد ينقذ حياة شخص يا فتاة، انطقي، هل تؤمنين بالسفر عبر الزمن؟

نظرت إليه الصينية ببطء ثم هزت رأسها نفيًا وعادت تنظر إلى الأرض ثانية، فقال شارلوتان:

- جميل، لديك صوتان سلبيان وصوتان إيجابيان، ويبقى صوتي أنا.

واتسعت ابتسامته وهو يقف أمام قفص أندرو ويقول:

- عندما تتبع الناس جون تيتور الذي ذكرته في قصتك وجدوا شركة اسمها Th John Titor Foundation وصاحبها محامي يعمل مع شركات الإنتاج الكبيرة مثل ديزني، ووجدوا لديه أخًا اسمه جون وهو عالم كمبيوتر محترف، وهو نفسه جون تيتور الذي كذب على الناس بغرض التسلية وادعى أنه مسافر عبر الزمن، وطبعًا علمه الكبير بالكمبيوتر جعله يعرف تلك المعلومة النادرة عن شركة IBM.

انفتحت عينا أندرو في رعب كالعجل الذي ينتظر ذبحه وشارلوتان يكمل:

- أما أنت، أندرو كارلسن، فعلى الرغم من أن قصتك عُرِضت على منصات إخبارية عالمية مثل تايمز وجارديان وموقع ياهوو، فإنه بعد البحث تبين أن هذه المنصات كلها أخذت القصة من مصدر واحد، وهو جريدة صفراء مغمورة اسمها Weekly World News، وهي ليست جريدة صفراء عادية، بل هي جريدة تعترف في تنويه صغير في كل عدد من أعدادها أنها تفبرك الأخبار لأجل تسلية الناس، هل تريد أن أقرأ عليك بعضًا من عناوين تلك الجريدة أيها الكذاب؟

هم كارلسن أن يرد ويدافع عن نفسه لكن شارلوتان ضرب بعنف على القفص وقال:

- «عشر طرق لتعرف إذا كان زميلك في العمل من الفضائيين أم أنه بشر عادي»، «هروب مذؤوب من السجن»، «كائنات فضائية تمارس الشذوذ وُجِدت في حطام يوفو»، «القبض على الشيطان إبليس في العراق وإحراقه وهذه صور»، «تنانين عملاقة تهاجم الطائرات الأمريكية»، هل أكمل أم أنك اكتفيت يا صاحب الهراء؟

قال أندرو بسرعة:

- سيدي، هذه الوكالات العالمية كلها يستحيل أن تأخذ القصة من جريدة صفراء وهي جريدة معروفة بالكذب كما تقول، إن كل هذه المواقع كتبت عن قصتي لأنها حقيقية.

قال شارلوتان:

- هيئة الأوراق المالية والبورصات الأمريكية SEC وضعت على موقعها تكذيبًا لقصتك يا أندرو كارلسن، وقالوا إنهم لم يسمعوا بشخص بهذا الاسم ولم يأمروا بالقبض على أي شخص تلاعب في البورصة بهذا القدر، وقالوا إن هذا سخف.

اعترض أندرو قائلًا:

- لا بد أن يقولوا هذا، إن الهيئة تُدار لمصلحة كبار رجال الأعمال الذين هززتُ عروشهم في تلك الفترة.

فجأة انتفض أندرو كأنما أصابته صاعقة وارتفع عن الأرض وسقط متألمًا، كان شارلوتان يضغط بإبهامه على شيء في أعلى عصاه ويقول:

- نسيت أن تقول في قصتك الخيالية يا كارلسن إن هذه الأساور كما أنها طريقة لكبح عنف المجرمين فهي يمكن أن تُستخدَم كوسيلة لإعدامهم أيضًا إذا احتاج الأمر.

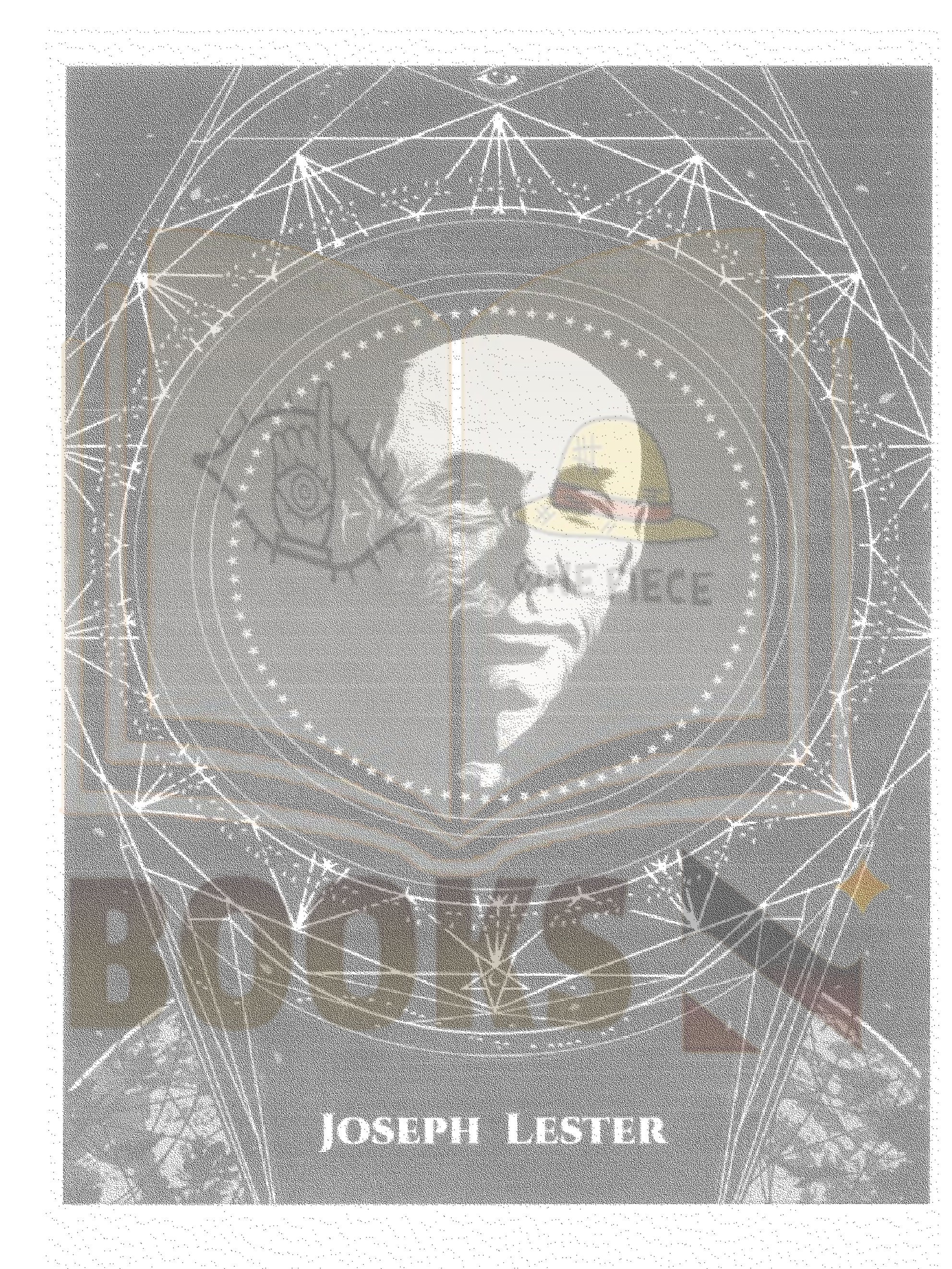
وضغط على الزر ثانية فانتفض كارلسن وسرت في جسده صعقة كهربية عنيفة من الإسورة وقف لها شعره وسال لها لعابه وقال شارلوتان:

- تكذبون ويصدقكم الناس، فتنشئون جيلًا أحمق يعيش في أغلال جهلكم، ولا يوجد حل جذري لإخراسكم واقتلاعكم عن وجه الأرض إلا... القتل.

وضغط على الزر بملامح كارهة فصرخ أندرو صرخته الأخيرة التي فارق بعدها الحياة وسقط على الأرض جثة هامدة لا حراك لها، والتفت شارلوتان بغضب إلى الرجل الأمريكي وقال وهو يقترب من قفصه:

- فلنرَ ما لديك أيها الأمريكي الأبيض العنصري القذر.

ظل الأمريكي يرتجف طويلًا حتى استجمع نفسه وأغمض عينيه وبدأ يحكي، ولقد أصابنا جميعًا بصدمة حياتنا من كلامه.


JOSEPH LESTER

9

حكاية آكلي لحوم البشر

يرويها: جوزيف ليستر

«إنهم يأكلون البشر بالشوكة والسكين، بتلك المناديل على صدورهم، وتلك الابتسامة على ثغورهم».

لست أدري كيف أبدأ قصة كهذه، لطالما أردت أن أحكيها في موقف آخر غير هذا الموقف اللعين، لكن ما باليد حيلة، سألقيها بين أيديكم لعلكم تذكرونها في الجحيم.

جميع اللعنة التي على هذه الأرض خرجت ذات يوم من رأس رجل بغيض اسمه تشارلز لوسيانو، أو كما يدعونه لوسيانو المحظوظ، أحد العبقريات الإجرامية التي كافحته الشرطة طويلًا حتى ظفرت به في سجون نيويورك. لوسيانو هذا هو الأب الروحي للمافيا الأمريكية كلها، وكلمة عبقرية إجرامية لو تجسدت شخصًا لخلقت هذا الرجل دون غيره من الرجال.

لقب لوسيانو المحظوظ هذا جاء من حادثة مشهورة حدثت له في شبابه حين أمسك به ثلاثة من الرجال وألقوه داخل سيارة ليموزين وأطلقوا النار عليه، وكان مع أحدهم خنجر ضربه به في وجهه، وعلى الرغم من كل هذا نجا لوسيانو ولم يمت، لكن ضربة الخنجر ما زالت باقية في وجهه إلى يومنا هذا، ومن وقتها واسمه في أوساط المجرمين والعصابات لوسيانو المحظوظ.

لوسيانو البغيض هو صاحب فكرة إجرامية رهيبة تم تطبيقها فعليًّا منذ عام 1950 زادت بها أرباح المافيا أضعافًا مضاعفة، فكرة ملعونة تخصصت فيها المافيا الأمريكية دون غيرها، وبالمناسبة، الناس لا يعلمون شيئًا عن هذا العمل الإجرامي حتى يومنا هذا، وربما يظلون هكذا حتى نهاية الدنيا.

المافيا الأمريكية كما يعلم الكل أو لا يعلم الكل، تدخل في كل شيء بلا استثناء، منظمة جبارة غاية في التنظيم تشارك في أعمال القمار في الكازينوهات وتجارة المخدرات بكل أنواعها وتجارة الأسلحة والدعارة، وأخيرًا، طبخ اللحوم البشرية.

نعم هو كما سمعتم، اللحوم البشرية، الفكرة الإجرامية الجديدة التي تبناها الزعيم تشارلز لوسيانو ونفَّذها ونجحت نجاحًا هائلًا، نجاح لم يمكنه هو نفسه أن يتخيله. لا أدري كيف أشرح هذه الفكرة بالضبط لكن دعوني أسردها كما فكرتْ فيها عقلية لوسيانو الإجرامية بالضبط.

إن العجل مثلًا يحتوي على نحو مائة إلى مائة وخمسين كيلوجرامًا من اللحم، الجاموس والبقر أيضًا كذلك، الأغنام ربما فيها خمسون كيلوجرامًا أو أقل. لكن شراء هذه الحيوانات يكلِّف مالًا، تربيتها تكلف مالًا، علفها يكلف مالًا كثيرًا، بينما هناك كائن آخر لا يكلفك شيئًا وينتج من اللحم ما يزيد قليلًا على خمسين كيلوجرامًا، ليس هذا فقط، بل وله طعم شهي يختلف تمامًا عن باقي اللحوم، هذا الكائن هو الإنسان.

لوسيانو المحظوظ فكَّر بطريقة مختلة نوعًا ما، إن معدل القتلى الذين يُقتلون شهريًّا ضحية أعمال المافيا الإجرامية في ولاية واحدة من ولايات أمريكا يتراوح بين مائة إلى مائتي شخص، وعادة المافيا لا تكون لديها مشكلة إخفاء جثث القتلى، فهي غالبًا تترك الجثث وترحل وتتكلف أموالًا زائدة في رشوة الشرطة والقضاة والمحققين، أما لوسيانو فكان يأخذ الجثث ويحوِّلها إلى أموال، أقصد إلى لحوم.

من أنا؟ أنا طبيب أمريكي أُدعى جوزيف لستر متخصص في أمراض الدم أعمل تحت إمرة المافيا، وتحديدًا تحت إمرة لوسيانو المحظوظ، أين أعمل؟ يمكنك أن تقول إنني أعمل في مذبح، مذبح متطور مخفيٌّ بمهارة شديدة في قلب نيويورك، مذبح من المذابح الكثيرة المشابهة التي جعلت أفكار الزعيم لوسيانو تتحول إلى حقيقة واقعة، مذبح للحوم البشرية.

المذبح الذي أعمل فيه موجود داخل نادٍ كبير تديره المافيا، عبارة عن مبنى في منتصف النادي يبدو عاديًّا، لكن لا يدخله إلا المُصرَّح لهم، وعادة لا يعرف أحد من هم المُصرَّح لهم، أو ما هو هذا المبنى بالضبط.

كل صباح تأتي إليَّ مجموعة من الجثث الموضوعة في أكياس سوداء، ويكون عليَّ أنا ومجموعة من الأطباء ومختصي التحاليل أن نفحص الجثث

جيدًا ونأخذ كل التحاليل اللازمة للتأكد أن الجثة يمكنها الدخول إلى المذبح، فلو كان الميت مريضًا بمرض ما تعد الجثة مرفوضة، ولو كان سليمًا يتم نقل جثته إلى الخطوة الثانية والأكثر أهمية في هذه العملية كلها، وهي المسلخة.

في المسلخة يتم سلخ الجلد بطريقة احترافية وباستخدام أحدث الطرق، ثم تُنقَل الجثة إلى المشرحة حيث يتم تقطيعها بالساطور ونفخها ورمي الأحشاء، تمامًا مثل أي حيوان، وبعدها إلى ماكينات تقطيع اللحم وترتيبه، ثم في النهاية إلى الثلاجات الكبيرة، كل هذه الخطوات كنت أشرف عليها بحرص شديد وتفانٍ، وأنا أسمع في بالكم سؤالين: كيف تتم الاستفادة من اللحوم المنتَجة؟ ولماذا لم يسمع أحد عن هذا النشاط الإجرامي المروِّع؟ سأؤجل إجابة السؤال الأول قليلًا وسأجيب عن الثاني.

كل العاملين في هذا المذبح أو أي مذبح مماثل في أي ولاية أمريكية يأخذ راتبًا يزيد على أعلى حد يمكن أن تتخيله لراتب شخص على ظهر هذا الكوكب، وبالتالي لا يفكر أحد في الخيانة. العاملون هنا يتم اختيارهم بحرص شديد ودراسة متأنية جدًّا، ويكونون مراقَبين ومهدَّدين هم وعائلاتهم لو فكروا مجرد تفكير في إفشاء السر.

إن اللحوم البشرية هي بلا منازع أطيب وأطعم أنواع اللحوم كلها، حتى إنها أكثر حلاوة من اللحوم البحرية كالأسماك وغيرها، وهذا يأخذنا للسؤال الذي أجَّلناه، لكن كيف يستفيد لوسيانو من تلك اللحوم الشهية؟

في بداية المشروع كانت اللحوم تذهب للمطاعم الراقية التي تديرها المافيا في أمريكا، ثم تطور الأمر ليصل إلى الفنادق الراقية، بالطبع لا تعلم أي جهة من هذه الجهات أنها تحصل على لحوم بشرية، فهم يشترونها من أشهر أسماء مزارع العجول والأغنام في أمريكا، وهذه -وكما لا يعلم البعض- تسيطر عليها المافيا أيضًا.

أرباب هذه المزارع أنفسهم لا يشكُّون في تلك الأكياس المحتوية على لحوم حمراء ومكتوب عليها عبارة «خاص»، باختصار، الكل يتم خداعه واستغفاله، لأنه ليس هناك أحد يمكنه أن يشك لحظة أن لحوم البشر يمكن

أن يفعل بها أحد هذا الشيء اللعين، ولم يكتفِ لوسيانو بهذا الحد، بل كان ينظر إلى أهداف أبعد من هذا بكثير، ولقد تحقق له ما أراد كما أراد وزيادة.

كان لوسيانو يطمح لتصدير اللحوم إلى أربعة أسماء تحديدًا، كل اسم منهم عبارة عن سلسلة مطاعم Fast Food أمريكية شهيرة تفرعت ودخلت كل مدن العالم بلا استثناء، كان هذا سيعني أرباحًا لا مثيل لها، ولم يحلم بها إنسان، لكن كان هذا سيعني أيضًا أن معدل الجريمة ونسبة القتلى من أعمال المافيا يجب أن تتضاعف، ولم تكن هذه مشكلة بالنسبة إلى زعيم المافيا الأمريكية، فقتل الناس لا يوجد ما هو أسهل منه.

بعد فترة من الزمن حقق لوسيانو حلمه، ودخلت لحومه البشرية إلى الأربعة، إلى الأسماء الكبيرة، وهي حاليًّا أكبر أربع سلاسل مطاعم أمريكية عالمية، ليس هذا فقط، بل إن هذه الأسماء الأربعة أصبحت مع مرور الزمن لا تستورد إلا من مزارع لوسيانو وحده، ذلك لأنها لاحظت أن تلك اللحوم مختلفة جدًّا ولذيذة جدًّا، وبسبب هذه اللحوم فإن الزبائن أصبحت تزداد وشهرة هذه الأسماء تزداد حتى أصبحت المدينة التي تخلو منها في أي مكان في العالم هي مدينة بدائية ومملة جدًّا، فكل زبون يأكل من لحوم هذه المحلات يشعر باختلاف واضح جدًّا بينها وبين أي لحوم أخرى مصنوعة بنفس الطريقة، والخلطة السرية وراء هذا كله هي لوسيانو، تشارلز لوسيانو.

أنا لا أمزح هنا يا سادة، ليس هناك أحد منا إلا ويتردد على هذه المطاعم مرة في الشهر على أقل تقدير، نعم أقولها وأعني كل حرف فيها، نحن أكلنا منهم، كلنا في الحقيقة آكلو لحوم بشر دون أن نشعر أو يشعر أي شخص، وأنا هنا لأوقظكم من هذه المهزلة قبل فوات الأوان.

لقد عملت في هذه المهنة ما يزيد على عشر سنوات كاملة، حتى أتى عليَّ اليوم الذي لم أستطع أن أتحمل، فنسبة الجريمة زادت كثيرًا بطريقة لا يمكن السكوت عنها، لكن كما نعرف، فالمافيا دائمًا تسكِت الأفواه، ترشي كل من يمكن أن يسهِّل لها عملها ويتظاهر بأنه لا يرى، لقد جعل لوسيانو من جريمته المروعة جريمة كاملة إلى درجة أن شخصًا لم يفهم حتى الآن، دقته الشديدة في كل خطوة حالت تمامًا دون أن يفهم أي شخص أي شيء،

لم أستطع التحمل أكثر، كان لا بد أن أفشي السر الذي أثقل كاهلي كل هذه السنين.

وفي يوم بعد أن أنهيت عملي في المذبح إياه توجهت بسيارتي بسرعة جنونية إلى مبنى الشرطة الفدرالية الأمريكية FBI في نيويورك، ودخلته وأنا في حالة يُرثى لها وطلبت مقابلة المدير، لأن لدي أمرًا مهمًّا لا يمكن تأجيله، أمر يتحدث عن البشرية المخدوعة، عن المهزلة التي يجب إيقافها بأي شكل، ظللت أنتظر قليلًا حتى دخلت عليه، مدير الشرطة الفدرالية بنفسه.

كان الرجل مبهورًا تمامًا بما أحكيه، وظل مبهورًا هكذا حتى انتهيت من قصتي، ونزل من جبينه عرق أظنه عرق المفاجأة من هول ما يسمع، قلت له إنني مراقَب أنا وكل العاملين في تلك المنشأة وكل المنشآت المماثلة التي يديرها لوسيانو في أمريكا، ولن أخرج من هذا المكان حتى يتم القبض عليه، لأنني لو خرجت من هنا قبل ذلك فسيكون غالبًا إلى القبر.

كان الرجل متفهمًا جدًّا واستمع إلى كل كلمة قلتها بحرص شديد، ثم إنه غاب عني ما يقرب من نصف ساعة ثم عاد وقال إنني يجب أن أخرج معه إلى المذبح بنفسي، وسأكون تحت حراسة الشرطة الفيدرالية، وأجرى اتصالًا أمر فيه أن تكون قوة من الشرطة الفيدرالية عند المذبح الذي أعمل فيه. أكملت طريقي معه حتى وصلنا إلى المذبح. دخلنا معًا رغمًا عن الكل، فهذا مدير الشرطة الفيدرالية شخصيًّا، ثم إنه دخل معي إلى مكتبي في داخل المبنى.

انتظرنا قليلًا، ماذا ننتظر؟ لا أدري، قال إن لديه خطة أمر رجاله بتنفيذها حتى يقبض على لوسيانو متلبسًا. مرت أكثر من ساعة، سمعت صوت ضجة في الخارج، وفجأة انفتح الباب ودخلت عليَّ آخر مجموعة من البشر أتوقع رؤيتهم في هذه اللحظة.

عائلتي، زوجتي سامنثا، ابنتي الصغيرة موريا، والدتي، لم أفهم شيئًا في الوهلة الأولى، لكنني فهمت كل شيء في الوهلة الثانية.

كانوا مقيَّدين ومكمَّمين، نظرت إلى مدير الشرطة باستغراب، كان يبتسم ساخرًا، وسرعان ما تحولت ابتسامته إلى شراسة مفاجئة فأمسكني من

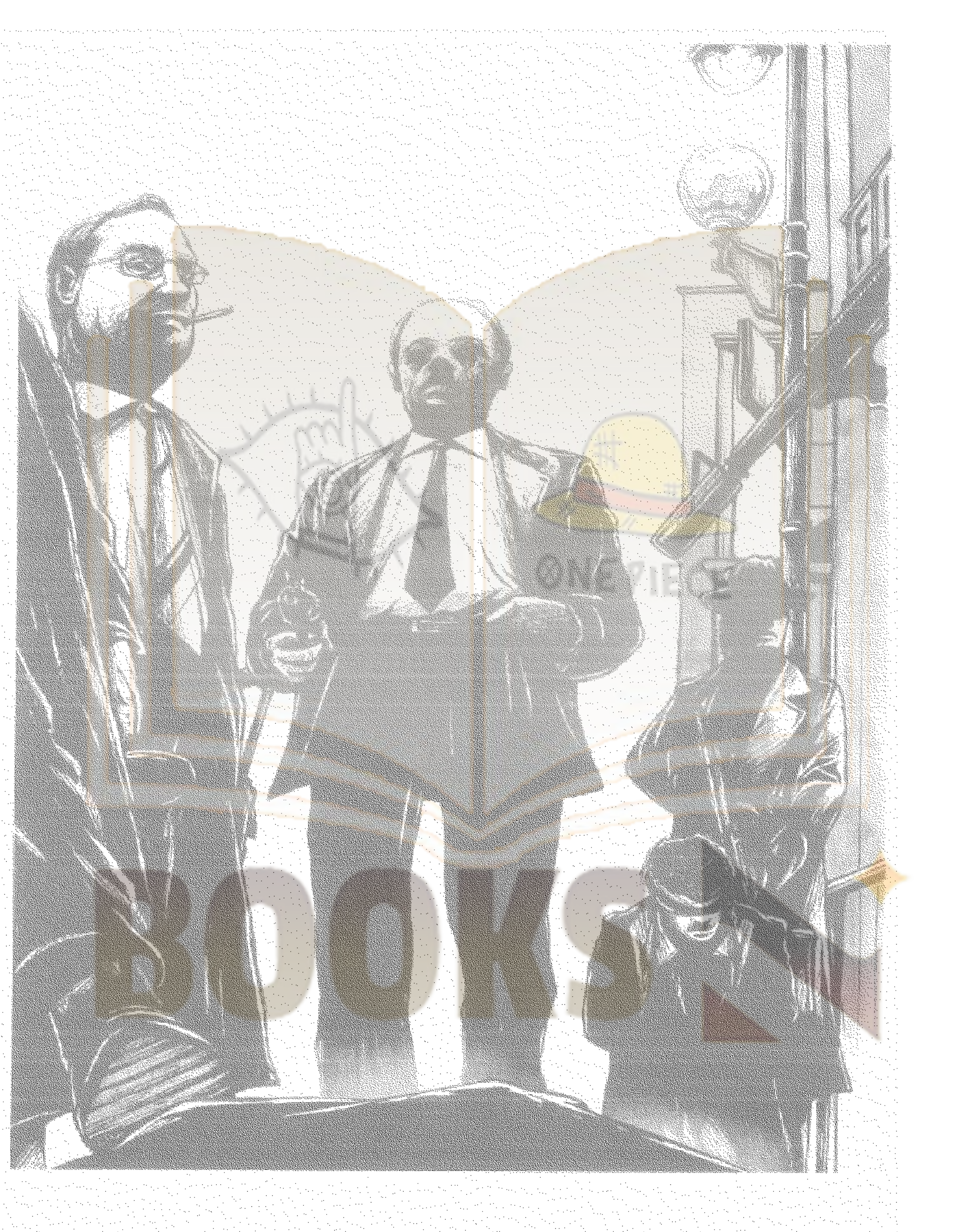
ذراعي وجذبني معه إلى خارج الغرفة وظل يمشي بي حتى أصبحنا في منتصف قاعة الاستقبال في المبنى ثم ألقاني أرضًا بقسوة، كان هناك تجمع من العاملين المدهوشين، ورأيت رجال المافيا يدفعون عائلتي المقيدين المكممين إلى القاعة بجانبي.

لا يلمني أحدكم، فليس من المتوقَّع مطلقًا أن يكون رجل الأمن الأول في نيويورك تابعًا للمافيا، إن المافيا لا تمزح في هذا الأمر بالذات، لا تمزح مطلقًا، لن يكتفوا بقتلي، بل سيقتلون كل أحبابي، بكيت كما لم أبكِ من قبل، أنا لم أخبر أحدًا من عائلتي عن شيء، لكن من يسمعك؟ كان لوسيانو مجرمًا، مجرمًا حقيقيًّا.

أظنني أستحق هذا إلى حد ما، فمجرد قبولي لهذه الوظيفة الإجرامية منذ البداية كان خطأً مقززًا أستحق عليه الموت ألف مرة.

دخل علينا بعد دقائق آخر رجل أرغب في رؤيته حاليًّا، بنظرته المجرمة ووجهه الحليق وتلك الندبة الغائرة في خده، تشارلز سيلفاتور لوسيانو، قال لي وهو يدخن التوسكانيللو ببرود:

- ليستر أيها العزيز، لقد كنت أبحث عن وجبة مناسبة تزيِّن المائدة الكبيرة غدًا في اجتماع زعماء المافيا، ويبدو أن اللحوم فيها ستكون من نوع خاص جدًّا.



قال الجملة الأخيرة وهو ينظر إلى عائلتي بنظرة خاصة، ثم اقترب مني ونفث الدخان في وجهي وهو يقول:

- مائدة عليها جوزيف ليستر، وزوجة جوزيف ليستر، وابنة جوزيف ليستر، وأم جوزيف ليستر، ذلك الطبيب الغبي الذي ضحَّى بالمعيشة الراقية التي لا يحلم بها أكبر طبيب في أمريكا لأجل أن ضميره قد استيقظ فجأة.

قبض على شعري بقسوة وقال:

- سيلتهمون جوزيف ليستر ويضحكون على غبائه، وسترتفع أصوات الشوكات والسكاكين على مائدتهم وهي تقطع أوصالك الحقيرة الخائنة، سيكون هذا مشهدًا ساحرًا في الحقيقة، لكن أتدري ما المشكلة؟

اقترب من وجهي وهو يقول:

- أن الخلطة السرية وراء جودة مذاق لحومنا هي جوزيف ليستر اللعين، عشر سنوات منذ بدأنا هذه المجزرة وأنت معنا تشرف على كل قطعة لحم وتتأكد من جودتها، ولستُ غبيًّا لأعدم خلطتي السرية الخائنة الوسيمة.

ثم تحوَّلت لهجته للقسوة وهو يقول:

- لكني سأجعلهم يأكلون لحم ابنتك الصغيرة موريا، فهي تبدو أشهاهم.

وهنا عملت شيئًا لم أعمله في حياتي التي اعتدت فيها الرغد؛ ركعت على الأرض أقبِّل حذاءه وأقول:

- بل اقطع رأسي يا سيدي إذا حسن ذلك في عينيك، فإن قتلت موريا أو أحدًا من هؤلاء فستجدني ميتًا من القهر بعدهم بأيام، وستفقد خلطتك السرية.

استدار لوسيانو وتكلم وهو يعطيني ظهره:

- فليكن يا ليستر، لكني لا أحب أن أحرم أحبابي من وجبة مخصوصة، سنأخذ منك بعض الأجزاء لا غير، وستكون هذه صرخة في أذنك يا ليستر، فلو حدَّثتكَ نفسك بحماقة كالتي عملتها، فإني أعدك أن أجبرك على تذوق كبد موريا هذه وهي حية.

وتركني لوسيانو وانصرف، تركني لزبانيته الذين رحموا عائلتي لكنهم بتروا قدمي هذه وذراعي، كم تمنيت لو خرج صوتي للعالم، ليعلم الناس أنه لست أنا فقط الذي أوكل على موائد هؤلاء القوم، بل إن هناك غيري الكثير ممن يأكل غيري على موائد أخرى.

إن لوسيانو لا يزال حيًّا حتى هذه اللحظة، لكن في سجن نيويورك، بالطبع كانت لديه ألف تهمة استحق القبض عليه بها فيما بعد، لكن أحدًا لم يعرف بأمر مذابحه الخاصة قط.

إن مجلة التايمز الأمريكية وضعت اسم تشارلز لوسيانو ضمن أكثر عشرين شخصية إجرامية غيَّرت مجرى التاريخ، فله أعمال إجرامية أخرى كثيرة لا علاقة لها باللحوم البشرية، سترون لوسيانو في الكثير من أفلام المافيا، وستقرؤون عنه في الإنترنت، لكن أحدًا لن يخبركم بسره الخاص، سر اللحوم البشرية.

فجأة انفجر رأس جوزيف ليستر كأنه نافورة وسقط جسده على قضبان القفص، ونظرت أعيننا في رعب إلى مسدس في يد شارلوتان يتصاعد الدخان من فوهته، ثم صوَّب المسدس إلى ناحيتنا وقال:

- لو كان كاذبًا فقد أعدمناه بكذبته وعنصريته القميئة، ولو كان صادقًا فلو أعدمناه ألف مرة لن نكفيه حقه.

شعرت بغصة حقيقية في حلقي، غصة متقززة، هذا الملعون ليستر كان يتحدث بنبرات صادقة وهو يعلم أنه لو كذب سيُقتَل، المشكلة أنني أكلت من تلك المطاعم التي يتحدث عنها كثيرًا، تحسست حلقي وكأني أريد أن أخرِج منه المرارة التي بداخله، لو صدق هذا المخبول فإنني كنت آكل لحوم بشر، بل كلنا في الواقع. انقطعت أفكاري بقول شارلوتان:

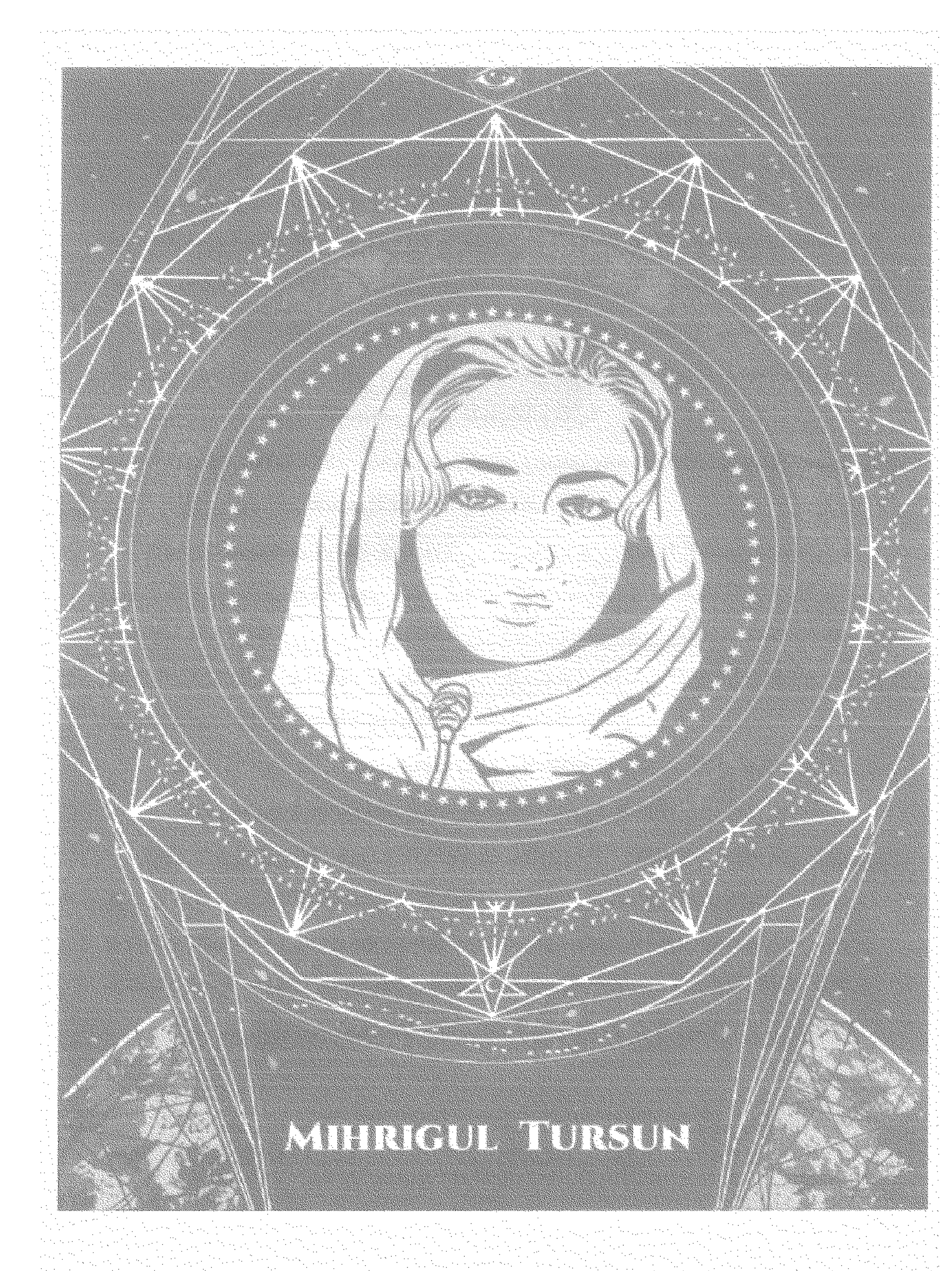
- تشارلز لوسيانو زعيم مافيا بشع ولا أظنه سيتكرر، لكن حكاية اللحوم البشرية لم ينسبها أحد إليه، إلا هذا القميء ها هنا.

نظر شارلوتان إلى قفص موظفة الاستقبال التي كانت ساقطة على الأرض في وضع يبدو كأنه الموت، لكن شارلوتان ضغط على رأس عصاه فسرت صاعقة كهربية في إسورتها جعلتها تنتفض وتتحرك متألمة، فابتسم شارلوتان وأعرض عنها ووقف أمام قفص الفتاة المحجبة وأخذ ينظر إليها مليًّا ثم قال:

- أنتِ خرجتِ وحكيتِ مأساتك للعالم، فهل تحرك أحد من إخوتك في الإسلام لنجدتك أنت وشعبك؟

- دق قلبي سريعًا وهو يقول هذه الكلمات ونظرت إلى تلك المحجبة الصينية وأنا أحاول أن أذكر أين رأيتها من قبل.

يا رب العباد، هذه المرأة المحجبة هي...


MIHRIGUL TURSUN



10

حكاية أميرة الأويغور

ترويها: ميهريجول تورسون

«سحقًا لسانتا كلوز، كل ألعابه صُنعت في الصين،
ألا يدري كيف صنعوا هذه الألعاب بدماء شعبي؟».

أنا مسلمة محجبة وهي مسلمة محجبة...

حجابي ملقى كالشال على كتفي وشعري ظاهر لركاب الطائرة كلهم، وهي حجابها كامل على رأسها، رمقتني بنظرة ودود من ذلك النوع الذي تنظر به إلى الراكب المجاور لك، تجولت عيناها في أطفالي التوائم الثلاثة الرُّضع بجواري وأفلتت منها نظرة لحجابي المخلوع، ابتسمت ملامحها الصينية حتى كادت عيناها الغائرتان تختفيان في وجهها وقالت:

- من أين أنتِ؟

شردت عيناي قليلًا في ملامحها وحجابها وقلت لها من وسط شرودي:

- تشينج يانج، من الأويغور.

بانت على ملامحها لدغة كأنها لدغة ثعبان، لكنها أخفتها سريعًا ولم تمضِ دقائق إلا وهي قائمة من مقعدها آخذة أغراضها معها، رأيتها تكلم مضيف الطائرة، فظهرت في عينيه الصينية لدغة، وأجلسها في مكان آخر بعيدًا عني.

نزلت الطائرة في مطار الصين، مضيت بأطفالي ساهمة في حالي، يا أيها الرب الكريم، أمن العدل في الأرض أن أكون مرتدية حجابي في مصر ولما أنزل إلى بلدي الصين أكون مجبرة على خلعه هكذا أمام الناس؟ وتلك الصينية المسلمة التي كانت بجواري، لماذا من حقها هي ارتداؤه؟ ألست أنا صينية مثلها؟ هل لعنت جنس الأويغور في الصين يا رب؟ ما زلتُ لا أقدر على نسيان نظرتها وهي تقوم من جواري كأنني مصابة بالجذام.

فجأة أوقفني ضابط تتراص على كتفيه نجمات ذهبية كثيرة لا تُحصى، وقال لي كلمة واحدة:

- أويغور؟

انخلع قلبي وأومأت له برأسي أن نعم، قال لي:

- دعي أغراضك هنا وتحركي معي.

ارتجفت شفتاي حتى لم أقدر على التفوه بكلمة مفهومة وبدأت أتحرك لكنه قال بلهجة آمرة:

- اتركي أطفالك هنا في عناية الشرطة حتى ننتهي.

ظهر عليَّ شيء من التردد لكن ضابطًا آخر مد يده وأخذ عربة الأطفال من يدي عنوة وأمسكوا بيدي الأخرى وسحبوني إليهم، كنت أنظر إلى أطفالي في خوف وأتلفت حولي وكأنني أبحث عن ملجأ، كثير من الناس ينظرون إليَّ في شك، لمحت تلك المرأة المسلمة المحجبة التي كانت تجلس جواري تدفع حقائبها وتنظر إليَّ، ثم أدارت وجهها بعيدًا.

***

«حجاب القلب أولى من حجاب الشعر»

***

أربع ساعات حالكات قاتمات يرمونني فيها بسؤالات عن كل شيء، ما شعرت به من خلال أسئلتهم أن السفر إلى مصر هو الجريمة، أسئلتهم تدور حول السفر وسبب السفر ومن قابلت هناك، أخبرتهم أني لطالما حلمت بدراسة اللغة الإنجليزية بالخارج حتى حصلت على فرصة في الجامعة البريطانية في مصر، وأني هناك قابلت زوجي الصيني وتزوجت وأنجبت، وأنني هنا الآن في الصين لزيارة أهلي، لكن إجاباتي لم تكن ترضيهم، سمعت بأذني صوت الأصفاد وهي تقترب، وأحدهم يفكها، وأمسكوا بيدي وقيدوني، ودون مقدمات وضعوا كيسًا أسود على وجهي فلم أعد أرى إلا سوادًا.

سرت في دمائي دفقة من الاعتراض، وحركت يدي بنوع من العنف وكأني أريد أن أفك القيد، المرة الأولى التي أعرف فيها أن الأصفاد مؤلمة هكذا، أمسكني الشرطي بقسوة حقيقية، وبدأت أصرخ، قالوا لي إنه يجب وضعي في الحجز حتى التأكد من صحة المعلومات. كل همي هو أطفالي، قالوا إنهم سيعتنون بهم، ووضعوا على فمي شيئًا مكمِّمًا من فوق الكيس، شعر جزء من نفسي أني مجرمة، أو ملعونة، ثم فتحوا الباب وقادوني إلى الخارج.

فجأة رفعوا الكيس الأسود عن وجهي، ووجدت بابًا ينفتح أمامي ويدخلونني فيه، حجرة كبيرة مليئة بالنساء الواقفات أو القاعدات أو النائمات وهناك أسرة كثيرة منتظمة فوق بعضها، تقدمت خطوة بسيطة وكأن قدمي ترفض أن أكون أنا ضمن هذا الصنف من البشر المقبوض عليهم، لكن أحدهم دفعني للداخل وأغلق الباب، كانوا قد أخذوا مني الهاتف ومنعوني حتى من أن أستخدمه مرة واحدة لأتصل بزوجي وأخبره بما حدث، ظللت واقفة بجوار الباب هكذا لا أتحرك، وكأني ارتضيت هذا لنفسي مكانًا دائمًا.

***

«وكأن الوقوف جوار الباب سيغيِّر من الأمر شيئًا»!

***

اكتمل أسبوع واثنان ولا أحد دخل حتى ليسأل عني، وكل أسئلتي تُرَد إلى وجهي بلا إجابة، تلمَّحت من أحاديث المحتجَزات أن هناك شيئًا ما يحدث ضد الأويغور، شيء سيئ، لكن لا أحد يدري ما هو ولماذا، كانوا يلقِّنوننا ونحن صغار أنه ليس لنا تاريخ، وأن أصلنا عرق مارق من الأقليات التي استوطنت الصين، وأن جنس الهان الصيني هو الجنس النبيل، كنت طفلة أسمع كل هذا في المدرسة، وقلبي لا يقتنع، لا بد لجنسي هذا من أصل، وأصل عظيم، لكني لم أكن أدري ما هو.

قلبوا لي حياتي رأسًا على عقب، لا بد أن زوجي وأهلي قد جُن جنونهم، أتراهم عرفوا أني محجوزة؟ وماذا عن أطفالي؟ هل سلموهم لأهلي أم وضعوهم في حضانة؟ إن واحدًا منهم لا يقبل حليبًا إلا مني، وضعت رأسي على الأرض ساجدة أسأل الله الثبات، حتى أتى ذلك اليوم.

بعد ثلاثة أسابيع من الحجز، دخل رجل وصاح «أرزو فولكان»، كنت مستندة إلى الحائط وقتها تائهة في حيرتي، ولما سمعت اسمي انتفضت ونظرت، اقتادني الرجل للخارج وهو يقول لي:

- إنهم بحاجة إليك في الخارج.

نظرت برعب متسائلة:

- من هم؟

قال باقتضاب:

- أطفالك.

غزت ملامحي أقواس الأسى وبكت ثنيات عيني وأنا أسأله عما يعنيه وهو لا يجيب شيئًا. اقتادوني إلى سيارة انطلقت بي، لم أكن أعتني بالنظر إلى الشارع وأهل الشارع الأحرار، كان همي كله في أطفالي، شعرت بغصة في روحي وكأن أحدًا يقبضها، توقفت السيارة أمام مبنى جعل ملامحي تنهار وكأنها تذوب من الهم؛ مستشفى، أدخلني الرجل وأنا أشعر أن هناك مصيبة، وفجأة توقفت ورأيت المصيبة بأم عيني، داخل حجرة العناية المركزة، كان هناك طفل، مربوطة فيه كثير من الأنابيب، ابني الرضيع «نور»، في حالة بين الحياة والموت.

***

«الرضيع قطعة من الجنة، إن قتلتها عادت إلى الجنة».

***

ساعات من الليل تمضي وروحي تموء وأنا جالسة على الأرض وظهري إلى جدار غرفة العناية المركزة وبجواري طفلاي السليمان أنظر فيهما وكأني أسألهما عما رأياه في غيبتي، ولست أسمع سوى رنات طبية لأجهزة رتيبة لا تدلني على أي شيء ولا تطمئن روحي، طلع الصباح، وجاء فريق من الأطباء إلى غرفة ابني، نظرت إلى أعينهم في لهفة ولم تختلف تعبيراتهم عن برودة أجهزتهم، دخلوا وبقيت أرمقهم من وراء الزجاج، ينحنون ويضغطون أزرارًا، نظرت إلى ولدي بينهم، كان فمه مفتوحًا ورأسه مائل للخلف وأنبوب يخترق فمه.

حانت من أحدهم التفاتة إلى ناحيتي، التفاتة سريعة أدار وجهه بعدها سريعًا عني، ووقع قلبي من تفسيرها، وتطاولتُ لهم من وراء الزجاج، كانوا منشغلين أو يشغلون أنفسهم، ثم انفصلت منهم واحدة وخرجت إليَّ، في شفتها رجفة وتفر عيناها مني، حتى تمالكت وقالت لي:

- يا سيدتي، لم نستطع إنقاذ ولدك، لقد رحل.

وبلا تردد وجدت نفسي أقول لها مكذّبة:

- ما هذا الهراء؟ قولي ما به بالضبط.

أنزلت عينيها إلى الأرض وقالت:

- أنا آسفة حقًّا.

ونظرتُ إلى الأطباء بالداخل وهز أحدهم لي رأسه في أسى مصطنع، فتحركت من مكاني ماشية إلى أي اتجاه وكأني أهرب، ثم عدت إلى زجاج الغرفة أنظر إلى ولدي، كان مزرقًا سُحِبت منه كل ملامح الحياة.

تحدب ظهري وأنا واقفة عند تلك المقبرة أنظر إلى شاهد قبر ابني الرضيع «نور» الذي لم يمهله القدر حتى فرصة أن يقول لي يا أمي، لم أسمعها منك يا نور، وبكت عيناي والروح تهوي يا ولدي، وليس بداخلي شيء يصدق أن قطعة مني قد غادرتني، مشيت بتثاقل ولم يعد في الأرض شيء مهم، وضعوني على قائمة المحظورين من السفر، وتحت المراقبة، لكن صدقني يا نور لم يعد في الأرض شيء مهمًّا.

***

«إذا مات لك طفل صغير تصاغرت في قلبك كل مصائب الدنيا لتصير أصغر منه».

***

بعد عام من متاهات الحزن، وفي غفلة من كل أحد دخلت إلى المكان الوحيد في الصين الذي ترتاح فيه روحي؛ روضة أبي وقاص، في رداء أسود ونظارة سوداء كبيرة دخلت إلى ذلك المسجد الكبير في الصين «هواي تشينج»، حتى اسمه يريحني، الشوق إلى النبي، فيه قبر سعد بن أبي وقاص ثالث إنسان دخل الإسلام، وتلمست يداي ديكوراته الحمراء وناجيت سعدًا، يا سعد، يا خال رسول الله، ما عاد لي سواك أناجيه، أتيت إلى صيننا راحلًا مرتحلًا داعيًا إلى ربك من عند رسول الله، وبنى لك مليك الصين هذا المسجد، يا سيدي إني في هذا الزمان مسلمة ها أنا آتيك خفية متنكرة، لئلا يبطشوا بي، ادعُ لي الله يا أحب أهل الله إلى نفسي.

شعرت بقبضة في صدري وأنا خارجة من المسجد لمّا لمحت أضواء سيارة الشرطة، نظرت إلى الأرض واتجهت مبتعدة، لكن يدًا أمسكت بكتفي في فظاظة فنظرت برعب، كانوا عدة ضباط، رأيت في أعينهم شرًّا، الحكومة منعتنا من زيارة المساجد بعد أن منعتنا من الحجاب، هناك شيء شرير يجري للأويغور لكن أحدًا لا يفهم حقيقة الأمر، ما يصرحون به هو أنهم يعدوننا إرهابيين أو مشروعًا لإرهابيين، سمعت صوت الأصفاد الذي أكرهه، بأي ذنب تأخذونني الآن؟ أزيارة المسجد جريمة؟ لم تقوَ قدماي على حملي فسقطتُ على الأرض، وتكسرت نظارتي السوداء وسمعت صوتها تتهشم تحت أقدام أحدهم، ثم غبت عن الوعي.

أفقت على أبشع منظر يمكن تصوره، غرفة لا تتجاوز مساحتها مساحة دكان ضيق، عشرات النساء واقفات على أرجلهن وبعضهن ساقطات في وضع غير مريح كأنه مغمى عليهن، كاميرات موضوعة في كل مكان في السقف، وجَو مكتوم ليس فيه إلا فتحة تهوية واحدة صغيرة بالأعلى، مصباح صدئ واحد يتأرجح من السقف كأنه يهزأ بنا، وأنا واقفة وسط الواقفات، ويد أحدهم مغروزة في كتفي ويقول كلامًا كثيرًا لكن لم يكن عقلي قد أفاق لأسمع أو أفهم ما يقول.

***

«لن تشعر بالمصيبة إلا في منتصفها».

***

كنا واقفات على أقدامنا ممنوعات من الاتكاء على الحائط أو حتى الاسترخاء، جرت الساعات وتمكن مني جسدي فتراخى وكدت أسقط نائمة لولا أن أيقظتني صفعة على وجهي، كان هناك شيء ما خطأ في وعيي، وكأني قد سكرت ولا أشعر، أحقًّا هذا يحدث لنا؟ يوم كامل مر وأنا على هذه الحال واقفة لا أنام، وبدأت رجلاي ترتجفان، لا توجد هنا دورة مياه، الكل يقضي حاجته مكانه، الرائحة لا تُطاق، خيالات بدأت تأتيني وأهذي معها

فيصفعونني على وجهي فأعتدل، مر يوم ثانٍ، وابتلت ملابسي، ما زلت لا أشعر بشيء، وعيي نفسه مسلوب من عقلي.

فجأة انهار كل شيء، سقطت على الأرض بين أقدام وفضلات، ورأيت يدًا تمتد إليَّ بعنف، ركزت في اليد قليلًا، ثم انتقلت روحي إلى عالم اللاوعي، عالم الأحلام والرؤى، رأيت يدًا تقترب مني، يد امرأة في غاية الجمال والنعومة، بسمتها سطعت ونوَّرت جنبات روحي، حولي ردهة مزدانة بالتحف كأني في قصر، قلت لها بعين مبهورة:

- من أنت؟

نظرت إليَّ بود شديد وقالت:

- ألستِ أويغورية؟

قلت لها:

- نعم، أنا من شيرشن.

قالت لي:

- تعالَيْ سأريك شيئًا.

دخلت معها إلى بهو عظيم، مالت عليَّ إحدى خادماتها وقالت:

- أنت لا تعرفين من هذه، هذه «بيجيا» أميرة الأويغور، زوجة إمبراطور الصين.

نظرت إليها في دهشة، أفي جنسنا أميرات؟ وزوجة إمبراطور الصين؟ دخلت الأميرة بنا على إمبراطور الصين فعلًا في حُلته السوداء المذهبة.

ومالت الخادمة على أذني وقالت:

- بل إن مملكة الأويغور أجبرت إمبراطور الصين هذا على دفع إتاوة شهرية مقابل أن يحموه ولا يغيروا عليه، وها هو تزوج بأميرتهم ليشتري رضاهم.

نظرت إليها بدهشة حقيقية، وقلت:

- مملكة الأويغور؟ أحلم ساخر هو؟ أيسخر بي حلمي؟

***

«شعوب كانوا يومًا أمراء، وأمراء كانوا يوما شعوبًا».

***

نظرت إليّ الأميرة بشفقة وقالت:

- نحن لسنا حلمًا، نحن حقيقة، مملكة الأويغور اليوم ضعف حجم مملكة الصين.

اتسعت عيناي وقلت:

- اليوم؟ أي يوم هذا؟

مدت الأميرة يدها لي في رقة وقالت لي:

- تعالي يا آرزو، أنت تحتاجين إلى النوم، لتعلمي أننا لسنا حلمًا.

قادتني مع نسائها من عند إمبراطور الصين إلى حجرة كل شيء فيها باهر، وشدتني إلى الأسفل لأنام على فراش وثير موضوع على الأرض، وطلبَت من خادماتها أن يحرُسنني، فوقفت الخادمات حولي ووضعن رأسي على الفراش الوثير وتسللت الغفوة إلى عيني.

بدأت أنعس وانتقلت روحي من حيث موضعها إلى موضع مألوف، ووجدت أقدام نساء أخريات تحيط بي، نظرت إلى الأعلى فإذا أنا قد أفقت في تلك الزنزانة وحولي الأويغوريات المقبوض عليهن، واحدة منهن كانت واقفة تتحدث بصوت مكسور إلى الأرض وكأنها تشكو حالها لحالها، قالت:

- كان حولي أحبابي يوزعون أرز البيلاف وفطائر السامسا في حفل زواجي، لم نكن نشغل موسيقى في الفرح، رأينا أن هذا حرام، ولم تمض ليلتنا هذه إلا وقد نزلوا علينا كالغربان واعتقلونا كلنا، هل كل من يرفض الموسيقى متطرف يقبضون عليه؟

كنت أنا بدأت أفيق وعاد إليّ وعيي كله وأمسكت رأسي في ألم بينما أسمع كلام هذه المرأة، يبدو أني كنت أحلم حلمًا أو ربما رؤيا، قالت امرأة أخرى بصوت خافت متصدع ترد على الأولى:

- يا امرأة، شعب الأويغور تجري موسيقى المقام في دمه، لماذا جعلتموها حرامًا؟ ها أنت قد تعيشين بقية حياتك في زنزانة.

قالت المرأة بمرارة:

- شعب الأويغور هذا يشهد اليوم آخر أيامه، هم سيبيدوننا عن بكرة أبينا.

قالت أخرى:

- ليتنا ما كنا أويغور.

قالت لي إحداهن:

- أنت يا هذه، لقد أفقتِ، تعالي قفي مكان واحدة منا.

وتحاملت على نفسي وقمت لأقف.

***

«أين أنت أيها الذئب الرمادي؟ السماء سوداء والعالم أسود وكل الأقارب والأصدقاء صار قلبهم أسود، أين أنت أيها الذئب الرمادي؟»

أغنية شعبية أويغورية.

***

هل سأموت هنا؟ أشعر بتلك القبضة التي تحدث لي قبل أي مصيبة، وأي مصيبة أكبر مما أنا فيه! لا أحد يعرف أين أنا هذه المرة، واقفة في زنزانة عفنة ولا أحد يسمع لي صوتًا، لكن غصة تصاعدت من قلبي فشعرت بها في حلقي، ونزل الدمع مني مشتعلًا، وظهر صوتي بعد طول إكنان، ظهر في هيئة صرخة خافتة مكتومة متحشرجة لا أدري ما معناها، تلتها صرخة أخرى أعلى قليلًا، بدأت النساء ينظرن إليَّ في استغراب أو في تململ، لكن صرختي الثالثة كانت عالية، اتسعت لها أعينهن، وفُتِح باب الزنزانة ودخل رجال من حثالة البشر جعلوا يصفعونني ويضربونني بغل وجبروت، حتى سالت دمائي وتكومتُ في ركن الحجرة.

رأيتها مرة أخرى، تلك الأميرة، وحولها صحراء لا قصر فيها ولا بناء، وشعرها يتطاير، نظرت إلى ملامحها، كانت عجوزًا، جلدها مليء بالثنايا،

تبسمت لي بسمة حزينة، قالت لي إن إمبراطور الصين قد خان واتحد مع جيران مملكة الأويغور وأسقطوها. اقتربت منها وأنا لا أدري ما الغرض من كل هذا، إن كانت رؤيا فأنا لا أفهم التعبير، وإن كانت حقيقة فكيف؟ نظرت إليَّ الأميرة العجوز وقالت بابتسامة لم تفقد جمالها:

- لكن لا تقلقي، لقد أقمنا مملكتنا الأويغورية الثانية، أصبح اسمنا مملكة كوشو، وصرنا أقوى.

صرخت فيها بكلام غير مفهوم وأمسكت تلابيبها.

فتحت عينيَّ عن آخرهما وإحدى النساء المعتقلات تمسك بتلابيب امرأة أخرى وتهزها، تبكي وتقول:

- يا هذه، هل أنت بخير؟

كل النساء حولي في حال عجيبة، أعينهن تنظر إلى موضع واحد، نظرت إلى حيث ينظرن، كانت هناك امرأة ملقاة يحركونها ولا تستجيب، كأنها ماتت. عرفتها، هذه هي المرأة التي أخذوها في أثناء فرحها، لقد ماتت. قالت إحداهن بأسى:

- لم أسمع صوت شخيرها العالي اليوم، فهززتها مرة واثنتين وعرفت سبب كتمة صوتها، لقد ماتت أول واحدة منا.

وسرت بيننا همهمات الفجع.

***

«البعض يكمل فرحه في الجنة».

***

ما لبث الفجع أن تحول من قلوبنا إلى أرواحنا لمَّا اقتحم الحراس علينا الزنزانة لإيقاظنا لطقوس الصباح، دخلوا بأعلى ضجة وقسوة ممكنة ومعهم أشياء كالسياط يضربون بها من تتأخر عن القيام، المفترض أن نستغرق دقيقتين بالضبط للوقوف وترتيب البطاطين وإلا سنُعاقب كلنا، رأوا المرأة صاحبة الفرح لا تقوم من مكانها فضربها أحدهم بسوطه ودفع وجهها بقدمه، ووضعتُ أنا يدي على وجهي وأمسكت بجلدي بقوة كأني سأنزعه، وأصبحت أزوم بصوت كبوادر صرخة.

لم يكن لدي تحكُّم بما أفعل، كأن جسدي ولساني عجزا عن الاعتراض فاعترضت روحي بهذا الصراخ. مشى إليَّ أحد الحراس بعينين كثعبان وجد فريسته ترتمي أمام وجهه، لم يضرب بالسوط، لكنه أخرج محقنًا، وعلى الفور اجتمع عليَّ بقية الحراس يمسكونني ثم دس المحقن في معصمي عدة مرات بحماقة حتى غرزه في وريدي، كان جحيمًا متواصلًا نزل على حياتنا فجأة من حيث لا ندري، بدأ وعيي ينسحب وقواي تخور، ونزلت على ركبتي ثم على وجهي، وأنا أشعر بالامتنان لهم أن أراحوني قليلًا من الوعي، فوعيهم جحيم.

ضباب في الأفق من كل مكان وصحراء، أين الأميرة العجوز؟ مشيت بضع خطوات حتى رأيت شاهد قبر مزيَّنًا علاه التراب، كان مكتوبًا عليه: فلترقد الأميرة بيجيا بسلام، أميرة الأويغور. هل تخبرني هذه الرؤيا أن جنسنا سيموت كله؟ لمحت شيئًا يلمع وراء القبر، بل شيئين، عينين تحديدًا، واسعتين وصغيرتين، اقتربتُ فإذا هي تتضح ملامحها، طفلة ترتدي ملابس ملكية وتنظر إليَّ من وراء القبر، قلت لها:

- من أنت يا صغيرة؟

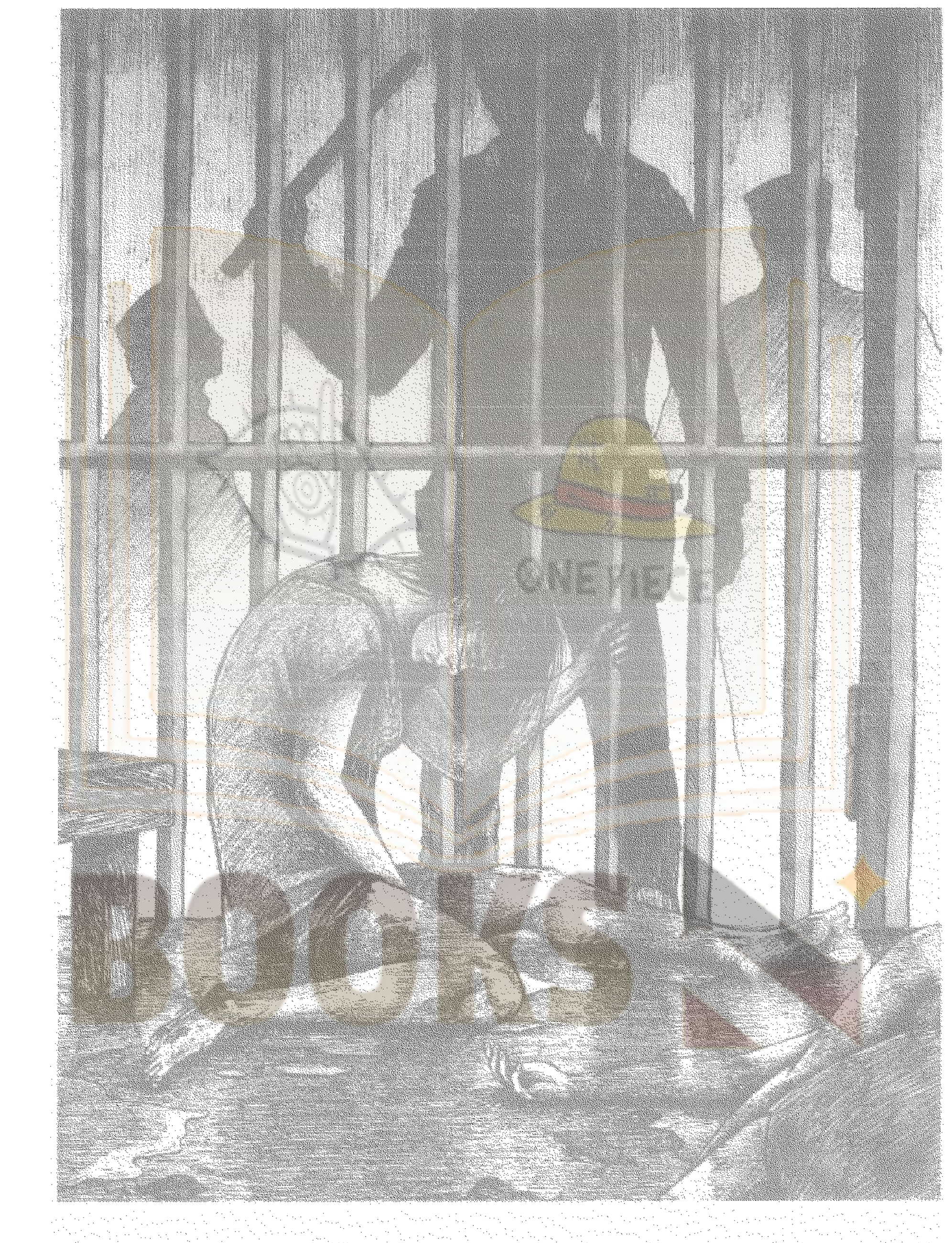
لم ترد، بل اندفعت تركض إلى ناحيتي واحتضنتني بذراعيها، فحملتها ونظرت حولي.

***

«أما الرؤى فنوافذ، تنظر إلى المستقبل والماضي».

***

شيء ما يضربني على وجهي فتهتز صورة أحلامي، كان هذا من الحراس الذين قد اجتمعوا حولي يحاولون صفعي لإفاقتي، لكن الصورة أمامي كانت لا تزال ضبابًا، كنت لا أزال أحمل تلك الطفلة ذات العينين الأويغوريتين الواسعتين الأصيلتين، ربما هي تعبر عن مملكة الأويغور الجديدة التي أخبرتني بها الأميرة العجوز، ربما الأويغور لن يموتوا. حاولت أن أمشي وأخرج بنا من هذا الضباب، ما زالت الصورة تهتز بعنف، حتى رأيت ما يشبه المنطقة الصافية من بعيد فاتجهت إليها.



أصبح اهتزاز الصورة يزداد وصراخ الحراس وشتائمهم بدأ يدخل في حلمي، لكنني لم أفق، كنت أتحدث للفتاة الصغيرة فيخرج للحراس حديثي كهذيان، والدماء كانت تسيل من فمي من صفعاتهم، تحولت هذه الدماء في الحلم لزوايا حمراء حول المشهد، ثم أفقت أخيرًا وأنا أشعر بجسدي يُسحَب على الأرض كالذبيحة وأصوات رجال يقولون لبعضهم:

- أخرجوها إلى دي شانج، هيا، مكانها ليس هنا.

ظللت أفكر بمعنى دي شانج هذه وهم ينقلونني من أرض إلى عربة إلى محفة، حتى شممت رائحة كيميائية، وأفقت لأجد نفسي في آخر مكان فكرت فيه؛ مستشفى دي شانج، مستشفى الأمراض العقلية. فتحت عيني، كل شيء صاف وأبيض، ملاءات وسرر وأطباء وممرضات وأصوات أجهزة، ورجل ينظر إليَّ بشيء من الحنان وهو يقول:

- هل تسمعينني؟

نظرت إليه دون كلام، ثم اندفعت إليه فجأة وقلت له:

- أطفالي، لقد أبعدوا عني أطفالي، لقد قتلوا طفلي.

ظهرت علامات التأثر في عينيه وقال لي:

- سأعيدك إلى أطفالك وبيتك، فقط أعينيني وتجاوبي معي، أنا الدكتور (ما – هو).

نظرت إليه بنظرة مختلفة وقلت له:

- اسمك (ما؟) هل أنت؟

أومأ لي برأسه إيجابًا، هذا الدكتور من جنس «الهوي»، يعني مسلمي الصين، لديهم كلهم عادة الأسماء التعبيرية، اسم (ما) عندهم يعني محمد، واسم (هو) عندهم يعني حسين. قال لي:

- ما الذي تشعرين به يا سيدتي؟

حكيت له ما أرى من رؤى، أميرة الأويغور والطفلة وغيره، بدا عليه التفكر وهو ينظر إليّ كمن اكتشف شيئًا مهمًّا، وتبسم ابتسامته الحانية تلك وهو يقول:

- أنت لست مختلة ليأتوا بك إلى هنا، هم المختلون المجرمون وما فعلوه فيك يجعل أي شخص يهذي، ما رأيتِه لم يكن هذيانًا، بل هي رؤى من عند الله، أنا أفهم الرؤى، تلك الرؤى من تاريخ الأويغور، أود أن أخبرك بأمر يا سيدتي، أنا مسلم، وأقول لك اطمئني، لا تكون هزيمة الإسلام إلا نصرًا، أدرستِ التاريخ؟ اعلمي أنه لولا المغول المجرمون لما أسلم قومك الأويغور.

نظرت إليه من وسط أحزاني ولم أرُد. قام الطبيب وغادر المكان تاركًا إياي مشدوهة أحدِّث نفسي بصوت خافت.

- أطفالي، ائتوني بأطفالي.

***

«لا تكون هزيمة الإسلام إلا نصرًا».

***

ضممت ركبتي وأنا أحتضنهما بذراعي وأنظر في حال من حولي من المرضى الذين ذهبت عقولهم، أراهم قد ارتاحوا من الوعي، ولقد جعلت الصين وعينا جحيمًا، أخذت أفكر، ها هم أولاء الهوي المسلمون الصينيون يعملون أطباء ويُصلون في مساجدهم ويصومون ولهم جامعتهم الإسلامية الكبيرة في الصين وحلقات تحفيظ القرآن، ويرتدون حجابهم ويذبحون أضاحيهم ويَحُجُّون، كل هذا لأنهم صينيو الأصل، أما نحن، فأويغور، ضمتنا الصين إلى أرضها لاحقًا وأعطتنا الجنسية، ثم منعونا من كل شيء، لو كشفونا صائمين يقبضون علينا، ولو زرنا مسجدًا للصلاة يأخذوننا مثلما أخذوني إلى هذا الجحيم.

نحن عشرة ملايين أويغوري مسلم نعيش في الصين، هل يريدون منا تغيير ديننا كرهًا؟ هل هذا بسبب عددنا الكبير؟ لكن هذا ليس منطقيًّا، فهم لا

يجبرون الهوي على تغيير دينهم وهم عددهم عشرة ملايين أيضًا مثلنا... قطع أفكاري دخول الطبيب بتلك الابتسامة المتواضعة وهو ينظر إلى الأرض وأزاح نفسه قليلًا فظهر خلفه أجمل شيء في أرض الله؛ أبي، الوجه الوحيد الذي أطمئن لما أراه وأعرف أن الأمور ستكون بخير، كان متلهفًا قلقًا، احتضنته بقوة ورائحة الأمان التي أعرفها فيه منذ صغري تفعم أنفاسي.

عرفت أن ذلك الطبيب قد أدار مع والدي حيلة لتخرجني الحكومة من هذا العذاب وتعيدني إلى بيتي، نظرت إليه نظرة ممتنة، طمأنني أبي أن أطفالي بخير وهم في البيت بانتظاري، شعرت أن الجحيم قد بدأ يسحب لحافه الساخن من على ظهري، يا إلهي! كل هذا من أجل أن زرت دولة إسلامية ثم زرت روضة أبي وقاص، هناك شيء أكبر من هذا أنا لا أفهمه. دخلت إلى المنزل واللهفة تجري في دمي، لكن كل الدم تجمد في مكانه، فهناك، وفي وسط بيتي، رأيت شخصين؛ رجلًا وامرأة، ولم يكونا من أهل البيت.

***

«ما دام يسكن النفط والذهب في أرض الأويغور، فلن ترحمهم الصين».

***

همس لي أبي:

- يا بنيتي، هؤلاء موفدو الحكومة، يعيشون معنا في المنزل منذ شهر.

نظرت إلى البيت بفجع، كل شيء له بوادر مظهر إسلامي اختفى، صورة الكعبة التي كانت على ذلك الجدار خُلعت ووُضعت مكانها صورة لرئيس الصين، سجادات الصلاة التي كنا نضعها على مقاعد الطاولة ليست موجودة، حتى تلك التذكارات التي أتتنا هدايا من الحجاز وكنا نضعها كزينة للمدخل أُزيلت ووُضع مكانها تمثال لكونفوشيوس، أمي واقفة في البيت أمام هؤلاء بلا حجاب، أطفالي الصغار يرمقونني بصمت، شعرت بالمرض يغزو أوصالي.

مشيت بضع خطوات في بيتنا بتردد، قال لي الرجل الصيني:

- لا تشعري بالحرج، إنا موفَدون وباقون معكم هنا فقط للحفاظ على الأمن من أي أفكار متطرفة قد تضرنا جميعًا وتضر وحدة وطننا.

وقالت لي المرأة:

- غرفتك تم تغيير مكانها وإزالة بعض ما كان فيها من رداءات وصور قد تشير إلى التطرف.

ثم أشارت إلى رأسها وقالت لي:

- الحجاب ممنوع.

كان والدي ووالدتي ينظران في الأرض، ونظرت أنا أيضًا إلى الأرض، تذكرت ما مر بي في تلك الزنزانة، وأغمضت عيني، إنهم يذلوننا، ولو رفضنا فالاعتقال مصيرنا.

عشت في المنزل الأيام الأولى متأزمة، يسيل مني الدمع كل حين، لا يوجد أصعب من أن أعيش في بيت محتل، ومراقَب، ورجل غريب في المنزل ينظر إليَّ وأنا أمضي وأروح وعيناه القذرتان لا تنزلان عن جسدي كلما مشيت من أمامه، أخبرني أنه ممنوع عليَّ أنا بالذات أمنيًّا من الحكومة أن أخرج خارج الحي، أو أن أذهب إلى الماركت القريب أو أي مكان عام، وأن هذا سيستمر شهورًا حتى يرسلا تقريرهما للإدارة بأنا غيَّرنا حقًّا من طريقة تفكيرنا المتطرفة، بأنا غيرنا من هويتنا، بأنا كفرنا.

***

«ذئاب المنازل أشد خطرًا».

***

ليلة صامتة كقبر مهجور، استلقيت على سريري في غرفتي باحثة عن خيط النوم يأتيني فأسحبه وأتنحى قليلًا عن هذا العالم، لا أسمع سوى صوت الغريبين الرجل والمرأة يتحدثان بالخارج، تقلبت يمينًا وشمالًا، حتى غزاني النعاس وأخذني معه، وأتتني الرؤى ثانية، لكن الجو العام لها كان ينبئ بمصيبة، تلك الطفلة الأويغورية ذات العينين الواسعتين رأيتها تجري، وتنظر خلفها إلى ناحيتي ثم تجري، فجريت وراءها، دخلت إلى سوق مزدحم، أناس ومنصات خشبية وبيوت على الجانبين، كنا في أرض الأويغور أيام مملكة

المغول المسلمة كما هو واضح من الطراز العام، كنت أتبع الطفلة في السوق بصعوبة، لكنها توقفت فجأة وصرخت وحق لها أن تصرخ.

رأينا فجأة تكالُب رجال على امرأة واحدة أخرجوها من متجرها وضربوها وبدؤوا يقطعون لها ملابسها وكل من حولها من قرابتها لا يتحركون، واحد منهم فقط تحرك خطوة فانهال عليه رجال آخرون بالضرب، وأمسك أحد الرجال شعر المرأة ورفع الآخر رداءها تمامًا وألقوها أرضًا واستلقى عليها أحدهم يضربها ويغتصبها وسط صرخاتها وصرخات النساء بالجوار، وانهار زوجها بجوارها يبكي ويضع جبهته على الأرض، ووقفتُ وسط كل هذا والصدمة تغشاني.

بدأ الرجال المجرمون يعدلون ملابسهم ويشتمون الرجل، ويذكِّرونه بأن يدفع الضريبة التي عليه المرة القادمة حتى لا تكون ابنته هي التالية، وأن مملكة الزونجار العظيمة ستكون رحيمة به هذه المرة وتترك متجره بلا مساس، لكن صبرهم هذا لن يطول، ومملكتهم المغولية المسلمة هذه لا بد أن تتذكر أن الزونجار هم أسيادها، وسيظلون كذلك للأبد، وتفلوا عليه وانصرفوا. أمسكت أنا بالطفلة واحتضنتها ووضعت يدي على عينيها حتى لا ترى دماء الفتاة المغتصَبة، كانت الطفلة ترجف فأخذتها إلى أقرب بيت في الجوار وأدخلتها معي وأغلقنا الباب.

***

«لا يفل الذئاب إلا الذئاب».

***

كنت أحتضنها وأرتجف لرجفتها في حضني، سمعنا ضجة رهيبة بالخارج فأشددت من احتضانها، لكن الضجة أصبحت أعلى من اللازم فتحركتُ بضع خطوات إلى النافذة أنظر، وهناك توقف قلبي، وقلبها، رأينا جندًا مجندًا من عائلة تشينج آخر عائلة ملكت الصين، عرفتهم بالعلم الأصفر ذي التنين الأزرق، نزلوا وسط السوق وأمسكوا بالرجال الزونجار المغتصِبين وقطعوهم

إربًا بوحشية عجيبة، وانتفض الجميع كبارًا وصغارًا وانقضوا على أي شخص يتبع مملكة الزونجار وذبحوه حتى فارت الدماء من الرقاب.

أغمضتُ عينَي الطفلة حتى لا تنظر، وزاد الضغط الداخلي لعينيَّ وأنا أنظر إلى كل هذا وأنا أعرف أنها رؤيا لكني لا أقدر على الخروج منها، لم أكن أفهم كيف تريني الرؤيا أشياء كهذه، هذه الفترة أنا أعرفها، احتلال الزونجار لمملكة المغول المسلمة، ثم نزول عائلة تشينج عليهم وإبادة الزونجار عن وجه الأرض بأكبر مذبحة عرفها الشرق، وإنقاذ الأويغور، وضمهم إلى مملكة الصين، وإسكانهم جميعًا في منطقة تشينج يانج لأول مرة، تكاثفت الدماء حتى رأيتها تتحرك على الأرض كأنها النهر، وأغمضت عيني.

سمعت صوت باب الغرفة يُفتح ببطء علينا، فنظرت برعب إليه فلم أجد وراءه أحدًا، ورأيت نهر الدم يدخل إلى الغرفة، ارتعشت جنباتي، لم أكن أدري أنه في واقع الأمر هناك من يفتح عليَّ باب غرفة نومي وأنا أتقلب على السرير، لكني لم أكن أعي شيئًا ولم أقدر حتى على إنهاء الرؤيا، فجأة شاهدت في الرؤيا يد رجل من وراء الباب، ولم يلبث أن ظهر أمامي، في زي أصفر كأنه الدرع المطرز، وخوذة ينتصب فوقها شيء كالذيل، هذا رداء جند التشينج، ظننت أنه دخل ينقذني، لكن وجهه لم يكن يشي بذلك، وفي ذات الوقت، كان يدخل علي الغرفة في العالم الواقعي شخص، شخص قذر.

***

«إذا اغتُصِب العرض، ضاعت الهوية».

***

أرخى جندي تشينج سلاحه وضيَّق عينيه وأغلق الباب خلفه، صحت فيه:

- أنا من الأويغور.

كان يُفترض أن يحمي التشينج الأويغور بعد أن ضموهم إلى مملكتهم، لكن الحق أنهم كانوا أسوأ من الزونجار، دمويون وفارضو ضرائب ومغتصبون، أمسكت بالطفلة وتراجعت بسرعة حتى اصطدمت بطرف السرير فوقعت

عليه، وأعجبه هذا فتقدم ومد يده إلى الطفلة وبجذبة واحدة رماها على الأرض بعنف، ثم ضيَّق عينيه القذرتين ثانية وتقدم.

شعرت بيده على ياقتي تحاول فكها، كنت أعرف أنه حلم وظللت أتلوى بوجهي حتى أخرج منه، خرجت مني صرخة مكتومة جدًّا وتحاملت على نفسي حتى أمسكت يده وحاولت دفعها، لكنه كان أقوى، وقبض بيده على رقبتي فجأة، وهنا فقط أفقت، وفتحت عيني واستيقظت من نومتي لأجد وجهًا لزجًا يطالعني في غرفتي ويداه تتلمسني، كان ذلك المندوب الحكومي القذر، دفعته بقدمي في حركة عنيفة لكنه أنزل كل ثقله عليَّ وكتم أنفاسي وبدأ يشتمني شتائم لم أسمع أحقر منها حتى الآن، حاولت عضه لكنه كان يملك يدًا قوية يضربني بها كلما حاولت.

فجأة فُتح الباب ودخلت المندوبة التي كانت معه، وصاحت تشتمه وتسحبه من فوقي، وبدأت عينا الذئب اللتان كانتا تتملكان وجهه تخفتان ويفيق، ضربته الفتاة بقدمها ووضعت نفسها حائلًا بيني وبينه، ونظرت إليَّ بشفقة وأمسكت ملابسي وأعادت ستري، ودخل والدي ووالدتي وقام الرجل القذر عن الأرض وشتم شتيمتين وانطلق خارجًا، وسمعنا صوت باب البيت يُصفق بعنف، جلست الفتاة على سريري وقالت:

- أنا آسفة، لو تعلمين أنا مجبَرون على هذا العمل البغيض، صدقيني إن الشعب الصيني لا يحب هذا، أنا نفسي كنت في مصر العام الفائت وزرت مسجد الحسين، سأقدم تقريرًا في هذا الحيوان، عسى أن تمر الأمور بخير.

***

«المجبر على فعل الشر، شرير».

***

كُتبت عليَّ الذلة والمسكنة، أخذت أفكر في الانتحار لكن منظر أطفالي وهم يحركون أطرافهم في الهواء بحثًا عني يجعلني أتراجع عن ذلك، قلبي مقبوض وروحي مقبوضة ونفسي أوصدت أبوابها على كل أمل، حتى الله لم

يستجب لدعائي، وكلما ألجأ له تأتيني مصيبة أعظم من التي قبلها، خواطر سيئة مست قلبي، وكنت أنفضها عني، ثم حدث ما جعل تلك الخواطر تتأجج وتشتعل وتسيطر على كياني كله.

دخل ضباط إلى بيتنا يصيحون باسمي في عنف، نظرت إليهم من ركن في المنزل وقد سقط من روحي كل شيء له علاقة بالأمل والإيمان، تقدموا إليَّ بغلظة وأمسكوا بي وقيدوني وأخذوني خارج المنزل، لم أتفوه بكلمة اعتراض، كل اعتراضاتي كانت في دواخل نفسي، على الرب الإله العدل، أين عدلك يا كريم؟ مضت قطع من الوقت ثقيلة على نفسي وهم ينقلونني إلى مكان ما، يبدو أن ذلك الرجل القذر قد أبلغ عني قبل أن تبلغ عنه زميلته.

أخرجوني من عربتهم إلى مبنى عليه أسلاك شائكة من الخارج وأمامه حرس وجند وليست عليه علامة ولا لافتة، دخلتُ منقادة يدفعونني دفعًا، وبدؤوا يخلعون لي ملابسي، وامرأة واقفة أمامي يجاورها رجل، لم ترتفع يدي حتى لمنعهم، جردوني من كل شيء، وقفت أمامهم عارية لا شيء علي يستر أي شيء، والمرأة تنظر في جوفي وتقلب في جسدي، والرجل ينظر معها، نظرت إليه نظرة لو لمحها لأرعبت منامه أيامًا، ثم وضعوني كما أنا على جهاز يكشف على شيء لا أدري كنهه، ثم حلقوا لي شعر رأسي كله، ولم تهتز فوق جسدي شعرة واحدة، الشيء الذي اهتز كان بداخلي، شيء كبير، شيء له علاقة بالله.

***

«إذا اهتز الأصل هوى البناء كله».

***

خواطر تجري في خاطري وتعصف بي، أنظر إلى ما صرت إليه، لم يكن هذا المبنى سجنًا وزنازين على الرغم من أننا محبوسون بداخله، كان أشبه بمعتقل تدريبي، ثلاثة مبانٍ على شكل حرف U، مبنيان للمعتقلين الرجال ومبنى للنساء، ربما هناك خمسمائة إنسان أويغوري معتَقل هنا أو أكثر، الأسوار حولنا عالية والحرس متحفزون معهم سياط يمرون في الأنحاء، هناك

أمور ندرسها هنا في المعتقل وحِرف نتعلمها وأفكار نشربها شربًا، أفكار الحزب الشيوعي الذي يحكم الصين، وتلك العلامة الحمراء منصوبة في كل مكان فوق رؤوسنا.

كل صباح يجمعوننا كقطيع الماشية ويجبروننا على أداء النشيد الشيوعي ومشاهدة مقطع على شاشة كبيرة يعرض إنجازات الرئيس (شي جين بين)، ثم يرموننا في فصول دراسية ويسقون أدمغتنا بعلوم كلها كذب وتحايل، في تلك الحصة كانوا يتحدثون عن أسرة تشينج، وكيف أنها بداية لعصر مليء بالعدل، شردت أفكاري فيما تعلمته عن التشينج بعد أن ضموا الأويغور لمملكتهم وأذلوهم ذلًّا واغتصبوا نساءهم أمامهم، وكلما ثار عليهم الأويغور ارتكبوا فيهم مذبحة تتصدع لها أبواب السماء، حتى خضع الأويغور.

الموجع للقلب أن التشينج كانت فيهم فئة كبيرة من المسلمين، بل إن جيش التشينج كانت فيه فرقة كاملة مسلحة مسلمة، وهم من أوائل الصفوف التي أخضعت كل ثورات الأويغور المسلمين، إخوانهم في الدين، وتمادى التشينج في بغيهم على الأويغور وأجبروا نساءهم على الزواج بصينيين على الرغم من أن هذا محرم إسلاميًّا، لكن الأويغوريات كن يفعلنه لأجل الفقر، وللمميزات التي تعطيها الدولة لمن تفعل هذا.

وسط أفكاري دخل اثنان من الحراس وجهاهما جامدان واتجها إلى ناحيتي، وعلى الرغم من أني صرت لا أبالي بشيء فإن قلبي قد أصابه الرعب من أعينهم، وجدتهم تجاوزوني وسحبوا امرأة كانت تجلس خلفي، سحلوها على الأرض من الفصل الدراسي وأخرجوها معهم، كنا نسمع توسلاتها وصرخاتها، هذه المرأة أعرفها، يبدو أنها لم تقدم التقرير اليومي الذي يُطلب من كل واحدة منا أن تقرأه في الصباح، تنتقد فيه ذاتها وأفكارها وتقول ما الذي تغير فيها، كلنا كنا نزيف أي كلمات ونقولها، أما هذه المرأة فعاندت، ويبدو أنها ستعاني.

***

«كثرة ترديد الكذبة يحفرها في تلافيف المخ».

***

في ذات بارحة، حدث ذلك المشهد كما وصفه لي جيراني بعد ذلك، سيارة جيب سوداء واقفة أمام منزلنا، ورجال نزلوا منها يحدثون أبي وأمي في غلظة، وعند جدار البيت من الخارج جلس طفلاي الاثنان على الأرض يخفيان وجهيهما، وامرأة غريبة تتحدث إليهما بشيء من الصرامة المنضبطة، وتحاول أن تسحبهما من يديهما لكنهما يتمسكان بالجلوس ويخفيان وجهيهما، حتى أتى الرجال وحملوهما حملًا، ولا حول لهما ولا قوة، حتى في بكائهما كانا هادئين.

تلك كانت نفس اللجنة الملعونة المسؤولة عن أخذ الأويغور غير الملتزمين لإيداعهم في المعتقلات، نفس تلك اللجنة تمر على أطفال المعتقَلين وترميهم في مدرسة داخلية لينشِّئوهم تنشئة خاصة ويغسلوا أدمغتهم الصغيرة تمامًا من كل ما هو إسلامي، حتى لا يشابهوا آباءهم، تعتصر قلبي جمرة من نار كلما فكرت في أطفالي، يا رب إن لم تكن عدلًا معي فلأحترق، لكن كن عدلًا مع أطفالي.

إني كل تلك السنوات لا أتمكن من التواصل مع أبيهم، لأنه ممنوع عليَّ الاتصال الدولي، ولا أحد يوافق أن يجعلني أتصل من عنده دوليًّا، والإنترنت مراقب على الجوال والكمبيوتر، لقد تم إجباري على الإدلاء بعنوانه في مصر في تلك الزنزانة التي كنت فيها، ربما يكونون قد قبضوا عليه هو الآخر، ربما يكون معي هنا في نفس المعتقل، أيمكن أن تكون صرخته واحدة من صرخات الرجال التي نسمعها ليلًا من المبنيين التاليين؟ أغمضت عيني في حرقة، أين أنت يا يوسف؟ يا رفيق الحياة، اشتقت إليك.

***

«الشوق يقتل إن كان بلا أمل».

***

كانوا يسمحون لنا مرة واحدة في الشهر أن نُجري مكالمة واحدة مع أطفالنا، وتكون مكالمة فيديو نجريها والجند يحومون حولنا كالذئاب، في المرة السابقة علمت من أهلي أن الحكومة ستأخذ أطفالي إلى مدرسة داخلية،

واليوم سمحوا لي أن أحدِّث أطفالي وهم في تلك المدرسة، نظرت إلى شاشة الجوال أرتقب ظهور وجهيهما، لكن ما ظهر لي هو وجه رجل صيني يبتسم في ثقل وهو ينظر إلى الشاشة وينظر خلفه وينادي باسم طفلي، وفجأة أتى طفلي في الشاشة، وفور أن رأى وجهي أخفى وجهه بيديه وجرى إلى ركن المكان.

لم يكن يريد أن يريني وجهه، وخزني الألم وأوجعني، لقد ذلوك يا ولدي في هذه السن، دارت كاميرا الجوال لتبحث عن أخيه، فرأيته واقفًا مبتعدًا في زاوية، فاقترب منه حامل الجوال وقال له:

- ماما بخير، انظر.

نظر إليَّ ابني الثاني بنظرة الطفل المحروم الذي ترينه الطعام ولا تعطينه إياه، شعرت بأنفاسي تثقل على صدري وكأن النفس قد انطفأت، وأطفأت معها كياني، فسقطتُ على الأرض كجثة لا تتنفس.

إنها عملية تغيير هوية ودين، وتغيير عرق، كأنك تمسك عرقًا إفريقيًّا من أهل الكونجو وتجبره بالقوة أن يقتنع أنه من حوض المتوسط، وإن رفض الاقتناع تعتقله وتحقنه حقنًا بأفكارك تحت وطأة التعذيب، هذا ما تفعله الصين فينا، نحن من جنس الترك، شعوب وسط آسيا، وهم جنس صيني، وعلى الرغم من أن بلادنا مجاورة لهم فإنهم ضمونا إليهم قسرًا وقهرًا، ومنذ ذلك الحين وهم يحاولون محو كياننا وثقافتنا المسلمة، على الرغم من أن فيهم مسلمين كثيرين، لكنهم يأتون عندنا نحن وتصيبهم لوثة، هل يخافون منا؟

***

«خوف الطغاة من دين الإسلام قديم قدم الإسلام».

***

دفعني الرجل بقدمه كأنه يدفع صندوقًا «تحركي»، بصوت غليظ قالها، لكني توقفت، ليس عن معاندة ولكن جسدي يرتجف، كنت واقفة في فناء المعتقل وحدي ولا أحد غيري في آخر الليل، وزفير البرد ينهش في عظامي،

«تحركي»، بصوت جلف قالها، لكن جسدي يخفق ويصطك بعضه ببعض، كانوا يريدون إذلالي بالمشي في البرد والمطر، لأني لم أكن مطيعة مؤخرًا، نزل سوط على ظهري، «تحركي»، تقدمت إلى الأمام خطوة يدفعني الألم، أين أنت يا ربي؟ هل أنت موجود؟

احتج جسدي فانثنى وانهار على الركبتين، تمنيت أن أذوق الموت، ضربة سوط أخرى، هويتُ بوجهي على الأرض المبتلة، تشكني الأمطار كأنها دبابيس، سمعت أنفاسًا من مكان ما فرفعت عيني المرتجفة التي لا تقوى حتى على النظر، رأيتها وسط المطر، واقفة وكل شيء فيها شجاع، عيناها الواسعتان وهيئتها ووقفتها، كانت تمسك بعلم أزرق سماوي عليه هلال ونجمة، العلم الذي نسيته أو تناسيته، أصلي وأصل جنسي وهويتي، كانت هي طفلة الأويغور قد كبرت، ورفعت العلم أمام وجهي عاليًا، على الرغم من كل البرودة والمطر، علم التركستان.

نظرت إليها ثانية، لا تزال صلبة، وكل شيء فيها شجاع، رأيت شبحًا بعينين صينيتين أتى إلى جوارها وصفعها صفعة عنيفة أسقطتها أرضًا وأسقطت معها علمها، لكنها استندت بيدها على الأرض وقامت، ورفعَت العلم في وجهي، وانماع الصيني الشبح في الهواء من حولها، أصابني من العزم ما أشعل فؤادي، ونوَّر عروقي، فاستندت بيدي على الأرض، وقمت، لا تنسي يا آرزو، لا تجعلي الكلاب ينالون من روحك، لا تنسي هويتك، وإن أزالوها من كل رواق في كل بيت، لكنها هنا راسخة، في منابت قلبك.

***

«دماؤنا سالت كالنهر في مجرى الخلاص، لكن لأجلك يا أرضنا تكون حياتنا فداءً».

من نشيد دولة تركستان المسلمة الضائعة.

***

تركستان، الحلم الذي ضاع كما ضاعت فلسطين، في نفس عام ضياع فلسطين، لما ورَّثت عائلة تشينج حكمهم إلى جمهورية الصين الشعبية

الغاشمة التي استمرت في منهج تغيير الهوية، ثار الأويغور عليهم ثورة رجل واحد، وعاونتهم روسيا لتُنجِح ثورتهم وينشئوا أول وطن لهم مستقل عن الصين، جمهورية تركستان الشرقية، ثم تبين أن هذه خدعة من روسيا والصين، فلما أتى العام المشؤوم، عام الـ 48، سلمت روسيا تركستان للصين على طبق من ذهب، بنفس الطريقة التي سلمت بها بريطانيا فلسطين إلى إسرائيل، وفي نفس العام، عندها مات الحلم، لكنه ظل في قلب كل أويغوري.

كان منظري كأني رجل وأنا أقف في ذلك الفناء وقد حلقوا لي شعري والمطر من حولي، مشيت الخطوات التي أرادوني أن أمشيها في الفناء، حتى حدث شيء أثار جميع الحرس، فجأة انفتح باب الفناء ودخلت سيارة سوداء فاخرة، ونزل منها رجل، عرفته لأني أراه دومًا في شاشات الأخبار، أحد المسؤولين العالين في حكومة الصين عن هذا العذاب الذي يعيشه الأويغور، كان يسير ويطمئن على سير معتقلاته حتى توقف لما رآني أمامه بمظهري الغريب ووقفتي وشعري المحلوق.

نظر إلى من حوله من مرتدي البذلات وقال:

- ماذا يفعل هذا الفتى هنا؟

واقترب مني متفحصًا، كان المطر قد توقف وظلت عيناي تلمعان في ذلك الظلام وأنا أقف ناظرة إليه بثبات قائلة:

- الصين ستغير جلدها، وستغير رجالها، هذا الذي تعملونه فينا سيصل للعالم ذات يوم، وعندما يأتي ذلك الحين ستضحي بك الصين قربانًا.

نظر إليَّ مأخوذًا، كان يظنني فتى، هب الرجال إلى ناحيتي يمسكون بي ويقولون:

- ماذا تقولين يا مخبولة؟

نظرت إليه نظرة مرعبة ثم سحبني الرجال بقوة بعيدًا وأنا أقول له:

- أكثر من ألف معسكر كهذا، هذا فيه مليون أويغوري تذلونهم، أنت ستصحو يومًا ما على كارثة.

صفعني الرجال لأصمت وسحلوني على الأرض أمامه وأنا ما زلت أنظر إليه لا تطرف عيني.

***

«تغيير الهوية يبدأ من تغيير الدين».

***

بضعة قضبان وصفائح من الحديد مثبتة إلى الحائط، تبدو للوهلة الأولى مثل كرسي وطاولة، أجلسوني على الكرسي وأنزلوا صدري حتى لمس الطاولة، ثم رفعوا يدي وقيدوها فوق ظهري، وربطوا قدمَيَّ في أرجل الكرسي، يبدو أنهم يريدون ليطفئوا كل نور من عزيمة ظهرت في نفسي. قال لي أحدهم:

- هل سمعتِ عن كرسي النمر يا عاهرة؟

لم أرد عليه ونظرت إليه في تحدٍّ، اقتلني يا قذر ولن تميت النور بداخلي، لكن وجهي تغير لما دخل رجل آخر، كان معه عصا حديدية في أعلاها أسلاك متشابكة، مكهربة.

وضع عليَّ العصا فصُعقت صعقة كأنما هي في أصل روحي، فصرخت في رهبة وألم، ثم صعقني الثانية في قدمي وهو يشتم، صحت:

- يا الله!

رأيت أسنانه الصفراء وهو يقول ويميل برأسه كالذئب:

- إن كان الله يسمعك، ألا يجب أن يخرجك من هنا يا عاهرة؟

وصعقني الثالثة، ثم انصرف بعصاه وهو يتفل علي ويقول:

- سوف أدعك لكرسي النمر، اعلمي أنك ستبقين مربوطة هكذا أيامًا، ولتقولي على أطرافك السلام.

بعد عدة ساعات فهمت مغزى كرسي النمر، الأربطة التي على الأطراف تضغط على اليد والقدم فتوجعهما وجعًا لا يُطاق، هذا النجس يقول إني سأبقى هنا أيامًا، لكن شيئًا ما في نفسي بدأ يفكر أخيرًا، لا سبيل للخروج

من هنا، إلا الخضوع، والكفر، أعلم أن الكفر تحت التعذيب مسموح عند ربنا، وقد فعله بعض الأصحاب الأولين، مر يوم ولم يأتني أحد، لم يُدخِلوا لي حتى طعامًا، بدأت أطرافي تدمى، دماء تسيل وأشعر بها، يبدو أنها المرحلة التالية من كرسي النمر، يدميك بخطوط على أطرافك كخطوط جلد النمر.

***

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [سورة النحل، 106].

***

بدأت أتظاهر بالتغيير، والندم، وأمثِّل هذا في ملامح وجهي، وبدؤوا ينظرون إليَّ في شك، ويستمرون في إذلالي وإهانتي وتعذيبي، لكني أجيد التظاهر، قلت إني كفرت بالله، وأنه لو كان موجودًا لما تركني ها هنا، وقلت إني أصلًا لم أكن أصلي ولا أنوي أن أفعل، وأنني سأعلم هذا لأطفالي، أيام ثلاثة فقط وأخرجوني من غرفة كرسي النمر وعدت إلى باحات المعتقل، وبدؤوا يأتون لي بخبراء نفسيين كل حين، لاحظوا أني أحفظ كل الأناشيد، وأقول لهم تمامًا الإجابات التي يحبونها، وتتظاهر عيناي بالندم، على الرغم من أن بداخلهما جمارًا من نار، لكني أخفيها.

بعد عدة أشهر أخرجوني، نعم أقولها أخرجوني، لكن ليس إلى منزلي، بل إلى مكان آخر هو سبب كل هذا التدريب في المعتقل، أجبروني على العمل بالسُّخرة في مصنع ما من مصانع البلاستيك الصينية، وفوجئت أن هناك مئات الأويغور هنا، مروا بكل ما مررت به تقريبًا، وهم الآن في آخر مرحلة، كلهم يتظاهرون بلا استثناء، مثلي، فهمت أن هذا مصير المليون أويغوري الذين في المعتقلات، يُشحَنون إلى المصانع ليعملوا هكذا كالعبيد، وبعد سنوات يعيدونهم لبيوتهم ويضعون مليون أويغوري آخر في المعتقلات، ثم المصانع، وهكذا.

مليون عامل أويغوري في مئات مصانع الصين، يصنعون بلاستيك الصين، وملابس الصين، وإلكترونيات الصين، تلك التي تصدِّرها الصين لكل العالم، كل شيء على طاولتك الآن مصنوع في الصين، كل شيء في مطبخك، وفي

غرفة نومك، كلها أشياء مصنوعة بدماء الأويغور، ألم تدرِ لماذا هي رخيصة؟ لأننا نعمل في المصانع دون أجر، نعمل كالعبيد، لو عرف العالم ما مررنا به، لما اشترى أي شيء مكتوبة عليه تلك العلامة البغيضة، صُنع في الصين.

***

«البضاعة الملوَّثة قليلة الجودة تقبع في كل مكان حولك».

***

سنين مرت وعدت إلى منزلي، هزيلة، بائسة، لكني تعلمت شيئًا، أن تصمت هو خير لك، ما دام يحكمك مجرم أثيم. أخبرني أهلي أن زوجي قد قُبض عليه في مصر منذ سنوات وهو مودع في أحد تلك المعتقلات، تذكرت خاطري الذي خطر لي وأنا هناك، إني شعرت بك يا يوسف، وشعرت بصراخك في روحي، فليحفظك الله فإنه خير حافظ، وبدأت جمار النار في عيني تقودني للفكر في أمر آخر، أمر سيقلب الطاولة على رأس الجميع.

السفر، لكن ليس إلى دولة إسلامية طبعًا؛ لقد تبت وأنبت، لكن إلى بلد بعيد، في أقصى الأرض، بلد حانق على الصين لكن ليس بشكل ظاهر، بلد تنقلب من عنده جميع الطاولات التي تريدها، وبدأت أنفذ بالفعل، واجهت صعوبات كبيرة في السفر بسبب مشكلاتي مع الحكومة حتى رفضوا سفري ثلاث مرات، لكني عملت حيلة بعد حيلة، حتى وجدت نفسي في طائرة أنظر إلى الصين من فوق السحاب، ووددت لو أن هذا السحاب يهبط على رؤوسهم فيعميهم جميعًا.

أمريكا، البلد البعيد، الحرية اللامعة الزائفة، قامت الدنيا هناك لمجيئي ولم تقعد منذ أن تواصلت مع الكونجرس، أعرف أن أمريكا تكره الصين، وأعرف أن أمريكا قذرة، ستقول الصالح والباطل لأجل انتقاد الصين، لكن فليفعلوا ما شاؤوا، إني أود أن يصل صوت شعبي للعالم، شعب الأويغور، فقط هذا ما أريده، أن يحدِّث العالم نفسه بمأساتنا، لأننا نمر حقًّا بانتهاك أليم، ليس أصعب على شعب من أن تُستأصل منه ثقافته وتاريخه قهرًا، علمت أن الله لا يرضى بهذا.

في جلسة الاستماع في الكونجرس حضرت وجوه كثيرة، وأُذيعت في كل أنحاء العالم، وبين الوجوه رأيت وجهها، تلك الأميرة الصغيرة تنظر إليَّ في جد واهتمام، فلم أتمالك نفسي وبكيت، هذه هي الأويغور، هذه هي التركستان، هذه هي روحنا التي تعيش في كل واحد منا، والتي يجب أن تهز أرجاء الدنيا، حتى نعود وطنًا مستقلًّا، لنا هوية وتاريخ وثقافة، هذا أبسط حق لأبسط شعب يعيش على هذه الأرض.

***

هل أحزنتك؟ هل أشعل الحزن في نفسك شيئًا؟ أن المسلمين يحدث لهم هذا، إن كنت تقرأ ستعلم أن الصين دعمت حكومة كمبوديا الشيوعية التي طبَّقت نفس الفكرة على عرق التشام وهم أقلية مسلمة تعيش في كمبوديا، فنزلت قوات الحزب الشيوعي هناك وبدأت إبادة جماعية وتطهيرًا عرقيًّا لم تسمع عنه شيئًا كانت نتيجته موت 2 مليون مسلم تشامي فقط لأنهم مسلمون والحكومة تشعر أنهم خطر.

هل تحب اليابان؟ أتدري أن اليابان الإمبراطورية في نفس السنة الـ 48 وما بعدها ذبحت وعذبت واغتصبت وطردت مئات آلاف الروهينجا المسلمين خارج اليابان، ثم أقامت حملة عسكرية على بورما وأحرقت مدينة بانجلوج البورمية بكاملها بكل من فيها من أقلية مسلمة؟ وأنها في حربها مع الصين غزت القوات اليابانية مدينة نانكينج الصينية وكانت مذبحة حقيقية لجميع مسلمي الهوي الذين يعيشون هناك الذين اغتُصبت نساؤهم وأطفالهم جماعيًّا وتم تشويه جثثهم بعد الموت بطريقة مقززة جدًّا لا تخرج من بشر، ودمرت جميع مساجدهم التي بلغت أكثر من 200 مسجد؟

في عام الـ 48 المشؤوم بدأت مشكلة مسلمي الروهينجا في بورما الذين وجدوا القوات البورمية تدخل مدينتهم وتحتلها بالقوة عبر سلسلة من المذابح الإجرامية، وظل التطهير العرقي عليهم مستمرًّا حتى الآن.

والفلبين وما فعلته في المورو وهم الأقلية المسلمة فيها؛ اغتصابات بالجملة وتقتيل ومذابح متعددة، والتبت وما فعلوه في المسلمين بها.

والحديث عن الصرب وما فعلوه بمسلمي البوسنة يغص حلقي الحديث عنه، لكنهم عدُّوه أسوأ شيء حدث على أرض أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

بلغاريا أيضًا طبَّقت تغيير الهوية على جميع المسلمين الذين يعيشون فيها وعددهم يزيد على الربع مليون شخص، أجبرتهم على تغيير أسمائهم إلى أسماء بلغارية والتخلي عن كل العادات الإسلامية بلا استثناء.

لو أنك فقط تشعر، ستسيل دموعك ساخنة على خدك، ليس فقط لأن هؤلاء مسلمون، لكن لأنهم بشر مثلك، ولهم نفس هويتك، مسلمون. ذلك المسجد الذي بجوارك تمر من عنده جيئة وذهابًا وقد لا تدخله، هو بالنسبة إليهم حلم، ذلك الحجاب الذي قد تضعينه بلا اهتمام أو تجادلين في أمره، هناك من تحطمت حياتها بسببه ولم تنزعه.

الدموع التي تنهمر داخل القلب تكون أشد من تلك التي تذرفها الأعين، عندما يبكي فؤادك من قلة حيلتك، فتاة كهذه ما ذنبها إلا أنها قالت ربي الله؟ كنت أسمع عن الأويغور وغيرهم من بعيد وأتشاغل بحياتي، لم أتصور أن يكون الأمر بهذه البشاعة، وأي ابتلاء يكون أشد من الابتلاء في الدين؟ كنت أنظر إلى الأرض ساهمًا لا أقدر حتى أن أرفع رأسي لأنظر إلى تلك الفتاة، كنت أود أن أقول لها إنها جزء آخر من نفسي، لأنني مسلم، وهذا يكفي.

كان طويبة ينتحب بصوت مسموع ويشهق ويذكر الله، هذا الرجل ذو قلب رقيق ذاكر وإني قد ظلمته.

سمعت صوت باب قفص يُفتَح في بطء فنظرت مذهولًا لأرى شارلوتان يقف أمام قفص الفتاة المحجبة ويفتح الباب ويضع عينيه في الأرض ويمد يده بإشارة لها أن تذهب حرة، من أي شيء صُنِع هذا الكائن بالضبط؟ أهو شيطان أم إنسان أم مختل نفسيًّا؟ أيحكم الشيطان بالموت على الكاذب ويحرر الصادق؟ أي عبث هذا بالضبط؟ وما هذا المكان؟ أترانا متنا وهذا من زبانية العذاب؟

استغفرت ربي وأنا أنظر إلى ميهريجول تورسون تمشي بخطوات بطيئة غير ناظرة إلى أي شيء حولها إلا إلى ذلك الباب الذي فيه النجاة، كثير من الأسئلة تنهمر في خاطري كالشلال، لو فرضنا أنه شيطان مختل نفسيًّا لماذا يتركها تمضي وهو يعلم أنها قد تبلغ عنه؟ المشكلة أنه لم ينطق بحرف وهو يمسك بباب قفصها وينظر إلى الأرض، بل إنه رفع يده ليمسح دمعًا نزل من عينه ثم تنهد وزفر زفرة عميقة وهو ينظر إليها وهي تغادر من الباب، ثم نظر إلى المرأة العجوز التي كانت جالسة في زاوية القفص ووجهها يحمل أشد علامات الحزن لسماعها لقصة الأويغورية.

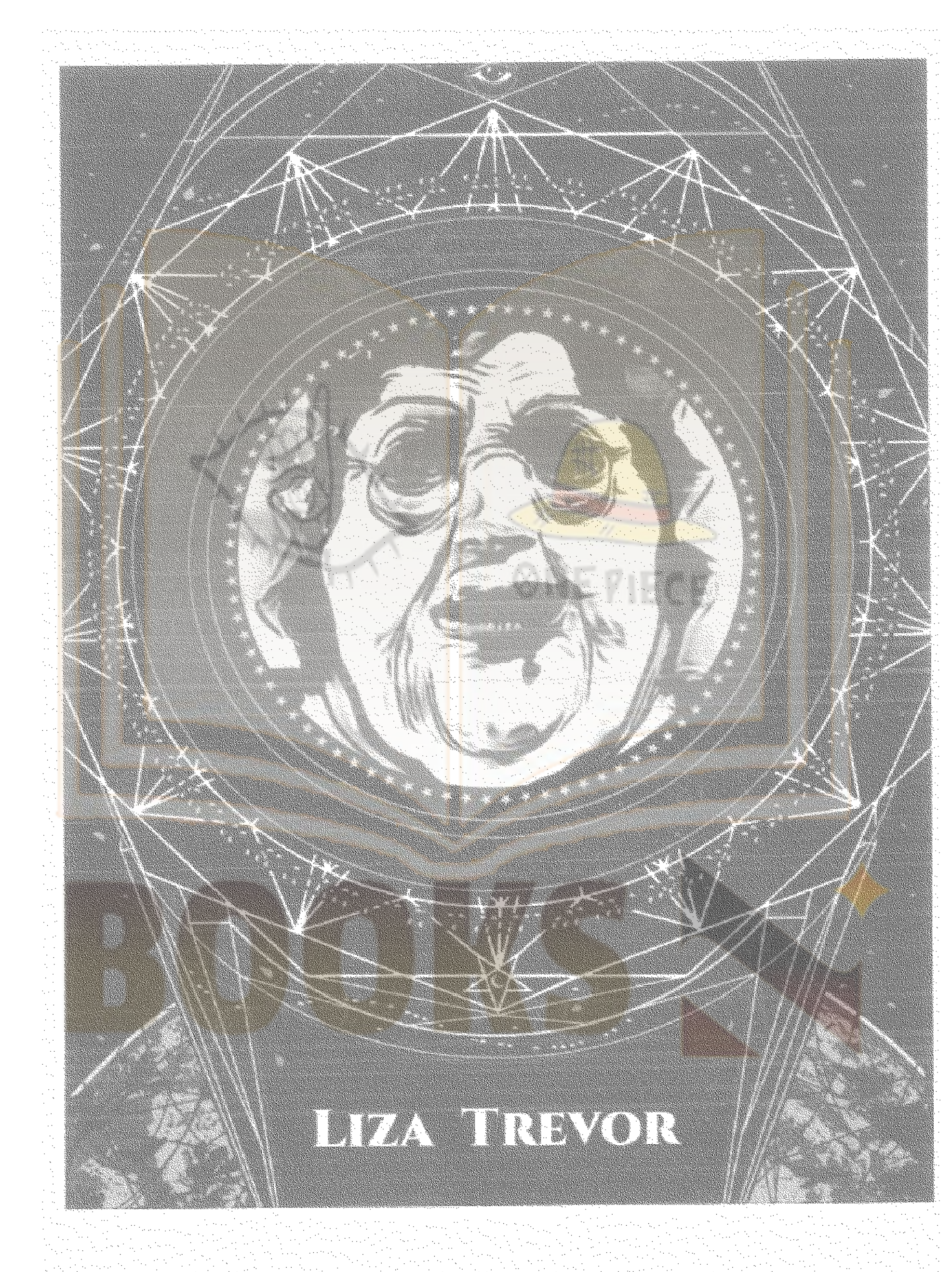
اقترب شارلوتان من العجوز وقال لها بصوت هادئ:

- لقد حان دورك يا ليزا، هل تذكرين القصة التي مرت معك أم قد محاها الزمن؟

قالت العجوز بصوتها العجوز:

- لو أني حتى بلغت ألف سنة، ما كنت لأنسى تلك القصة أبدًا، وإني سأرويها من جهتين، كما يجب أن تُروى.

أومأ شارلوتان برأسه في فهم وسمح لها بالبدء، فتنهدت بصوت يحمل ذكريات من زمن بعيد جدًّا، ذكريات مروِّعة.


LIZA TREVOR

11

حكاية العوالم الموازية

ترويها: ليزا تريفور

«فكرة العوالم المتعددة مريحة نوعًا ما لأنه لو كان هناك خطأ أنت نادم عليه فلا داعي للحزن، فهناك شخص هو نسخة أخرى منك في عالم آخر لم يعمل هذا الخطأ، ولا بد أنه سعيد الآن».

تقول ليزا:

الوحدة والبرد والليل والصمت، في فندق ملقى بجوار البحر تعلوه نجمتان فوق بابه، كنت أجلس مع نفسي وليس لي أحد في هذا العالم إلا نفسي، شابة كنت وكل شيء في داخلي ينبض شغفًا بالحياة التي جرَّتني لأعمل في فندق كهذا، لست أذكر فيمَ كنت أفكر وقتها، لكن لا بد أن روحي كانت تهيم في حكاية فانتازيَّة بلهاء أكون فيها دومًا البطلة التي يهيم بها أحدهم وتتمنع عليه، تلك الحكايات التي يسبكها خيالي ليهرب من مخلب الوحدة، الساعة مع تلك الحكايات تمضي في دقائق، ولولا هذا لشنقت نفسي على بوابة هذا الفندق الحقير الذي لم يعد أحد يأتيه، وليس الأمر غريبًا، فهو فندق قريب من حوض صناعة السفن في فيلاديلفيا، فلا يرتاده سوى البحارة المتعجرفين والعمال بمظاهرهم البسيطة ونكاتهم السمجة المكرَّرة، لكن اليوم لم يعد أحد يأتي لأن البلد في حالة حرب، بل العالم كله في حرب يضرب بعضه بعضًا، وليست أي حرب، بل هي الحرب العالمية الثانية الدامية، فلم تعد أي سفينة جديدة تُصنَع، بل السفن التي صُنِعت تذهب لتنفجر هي وبحَّارتها المتعجرفون.

هذا الانعزال مريح نوعًا ما، لكن الوحدة تورث الإدمان على الوحدة، تحولك إلى بومة تنظر إلى أي شخص عادي يمر في الطريق بنظرة ساهمة فاحصة كأنك ترى قردًا ملونًا، ويا ليتني أرى شخصًا يمر من هنا ولو بالخطأ، لا أدري لماذا صنعوا هذا الفندق بعيدًا بمسافة لا بأس بها عن المحطات والمحال، أراهن أني لو تركت الفندق وسافرت ثم عدت بعد أيام لن أجد شيئًا واحدًا تغير. فكرت أن أخرج لأتمشى قليلًا وأزور محطة البنزين القريبة لأثرثر مع

العاملين هناك، وكما هي عادة هذه الأماكن، فور أن تفكر في خاطر أن تخرج لتغيب قليلًا وتبدأ في تنفيذ الخاطر يأتيك شخص في نفس اللحظة، وبالفعل دخل شخص وكان دخوله هو أجمل شيء وأغرب شيء.

دخل من بوابة الفندق بمظهره الذي ينطق بالأناقة، الوجه الوسيم والشعر المصفَّف بعناية والبذلة المخملية الفاخرة السوداء، وفي يده حقيبة متوسطة وذراعه الأخرى تحتضن... مهلًا! ما هذا الشيء بالضبط؟ صحن معدني كبير لامع يبدو مثل تلك الأطباق الطائرة التي تأتي في أفلام الخيال العلمي البلهاء التي لا أحبها، ظللت أتأمل الصحن وأتأمل الرجل بعين البومة إياها وهو يقف أمام منصة الاستقبال ويسند الطبق على الأرض ويبتسم في إرهاق وتحية.

قال لي بأدب:

- سيدتي، هل أجد لديكم غرفة أم أن كل الغرف ممتلئة؟

قال الكلمة الأخيرة وهو ينظر بطرف عينه إلى الفراغ الفندقي الذي يخيم على المكان، فقلت له في ريبة وأنا أنظر إلى الطبق:

- نعم لدينا غرف من أجلك، لكن ما هذا بالضبط؟

قال وهو ينظر إلى الطبق في فرح لا أدري سببه:

- هذا الجرافيتون وهو من ابتكاري، يعمل بالرياح الأيونية ضد الجاذبية.

نظرت بجهل مطبق عما يعنيه إلى الطبق المعدني وقلت بحزم:

- معذرة أيها الغريب، البلد في حالة حرب ويُمنع منعًا باتًّا على جميع الفنادق استقبال أي أجسام مثل هذه وبخاصة أننا بجوار حوض بناء السفن.

نظر الرجل إلى الأرض وقال بتأدب:

- معذرة لإزعاجك سيدتي، سأبحث عن مكان آخر فورًا.

لم أكن أتوقع هذا الاستسلام المهذب من الوسيم وهذه الانحناءة التي يفعلها اللوردات، ثم إنه تأهب للانصراف مما سيعيدني إلى وحدتي القاتلة، فناديته بشغف ونظرت مليًّا في جمال ملامحه وقلت:

- أيها الغريب، هل أنت واثق أن هذا الشيء ليس خطرًا؟

مط شفتيه في براءة وقال:

- نعم سيدتي، أعدك بهذا.

قلت في استسلام وأنا أخرِج الدفتر:

- ما اسمك سيدي؟

قال بثقة:

- اسمي توماس، توماس براون.

***

يقول براون:

فيلاديلفيا لها جو المدينة الصناعية الذي يحيط بكل شيء حتى إنه يظهر في ملامح البشر، تجدهم عجولين وجادين جدًّا كأن القدر يركض وراءهم، ليست عندنا هذه الصبغة في كاليفورنيا حيث يمكنك أن ترى فتاة رائقة المزاج تتمشى في الشارع ببطء مع كلبتها تتنزه بلا أي هدف آخر. بحثت عن أقرب فندق لحوض السفن، ولولا خطورة وسرية المهمة التي استدعتني لأجلها القوات البحرية الأمريكية لأقمت في فندق من فنادق الخمس نجوم البعيدة عن الحوض. وإني حتى هذه اللحظة لا أصدق أن البحرية الأمريكية فكرت في هذا الشيء الذي استدعوني لأجله، الأمر محير جدًّا وبخاصة أنهم أجبروا آينشتاين على الخرس العلمي وأرغموه على إخفاء أهم جزء في نظريته الجديدة، لأن استخدام هذا الجزء من النظرية بالذات عسكري محض، فحجبوه عن الأعين واحتكروه لأمريكا.

وإني لأعجب من دوران الزمان، كيف كانت البحرية تهزأ بي في السابق ثم دارت الأيام وها هم يستدعونني وحدي من بين جميع علماء أمريكا؟ قبل سنوات كنت واقفًا على المسرح العلمي في الجامعة أؤدي تجربة أوقفت الشعر في رأس كل من شاهدها، عندما علّقت كرة معدنية في بندول ودفعتها لتتأرجح فصعدت مع صعود البندول وتوقفت في الهواء ولم ترجع كأنها تعاند الجاذبية، وعندما شرحت الفكرة العلمية التي كشفتها أحدثت ضجيجًا

لا بأس به في المجتمع العلمي، وفي هذا المجتمع أن تحدث ضجيجًا يعني أنك حقيقي، فهم لا يرحمون أحدًا، اكتشفت أن الجاذبية ليست قوة ساحبة كما تظنها، بل هي قوة دافعة وأنه يمكن التغلب عليها ببساطة ودون أي محركات معقدة.

زعمت أن هذه الفكرة التي كشفتها لو تم تكبيرها وتمويلها فإنها قادرة على جعل السيارات تطير، ليس فقط إلى السماء، بل إلى الفضاء الخارجي، ولن نحتاج إلى قطرة بترول واحدة، بل لن تحتاج إلى أي محرك معقد أو حتى بسيط، سميتها التقنية الجامدة، يعني التي لا تحتاج إلى أي جزء يتحرك أصلًا، ذهبت إلى البحرية الأمريكية لأنهم كانوا يهتمون بهذه الاكتشافات وقتها، فقالوا إنهم غير مهتمين بهذه الفكرة حاليًّا، فقدمت لهم أوراقي البحثية لعلهم يحتاجون إليَّ يومًا ما.

أجريت تجاربي الخاصة بمالي الخاص وصنعت أول طبق طائر صغير أسميته الجرافيتون، لأنه يعمل بقوى مضادة للجاذبية، ولا يحتاج إلا لقطبين كهربيين في طرفيه، واستدعيتُ كثيرًا من العلماء الأمريكان والإنجليز لمشاهدته وتجربته، ولقد بَهَرَ الطبق فضولهم العلمي، لكن لا أدري لماذا لم يحتفِ بي أحد، لماذا لم يقدموا لي جائزة نوبل على هذا الكشف الذي سيزيح عرش البترول والمحركات كلها على اختلاف أنواعها ويدخلنا في عصر جديد تمامًا؟ ربما لا يريد الكبار أصحاب الشركات أن يُزاح عرشهم هكذا، وإنهم والحق يقال يرتكبون أسوأ جريمة علمية في التاريخ بجشعهم وحرصهم على أموالهم وشركاتهم.

ومرت من السنين عشر على الأقل وبدأت الحرب العالمية الثانية، لأجد اتصالًا من شخص شديد الحذر يخبرني أن البحرية الأمريكية تحتاج إليَّ، فذهبت إلى مقرهم غير عالم أن ما يريدونني لأجله يتجاوز جميع تخيلاتي البلهاء وتخيلات أي أحد له عقل على سطح الأرض، عملت معهم سنوات على تجاربهم التي تتجاوز حدود الخيال، ثم حان وقت التنفيذ على عينات حية.

أخبروني أن موقع التنفيذ هو فيلاديلفيا، والتي تبعد عني في كاليفورنيا نحو خمسة آلاف كيلومتر، جهزت حقيبتي الصغيرة وأخذت الجرافيتون معي، فقد قالوا لي إنه إذا نجحت التجربة ربما يتحمس له الرؤساء هناك.

كان السفر بغيضًا جدًّا ومرهقًا جدًّا وتُهت كثيرًا حتى وصلت إلى ذلك الفندق المتواضع الذي لا يبدو أن أحدًا يسكنه أصلًا، كانت فتاة الاستقبال ريفية الطباع جميلة الملامح، ويبدو أن الحياة في المدينة الصناعية قد علَّمتها الكثير، فكانت تنظر إلى الجرافيتون بريبة وامتنعت أن تعطيني غرفة في الفندق، ثم انتصر طبعها الريفي الطيب وأعطتني غرفة وهي تبتسم وتنظر إليّ في خجل غير مفهوم.

***

تقول ليزا:

طالت الساعات وأصبحت مملة منذ أن خرج ذلك الأنيق الوسيم هذا الصباح من الفندق ولم يعد، كنت أعد الساعات وأعيد في ذهني مشهد تحيته القصيرة عليَّ في الصباح وكيف كانت نظرته، طالعت وجهي في المرآة وعدلت بعض خصل الشعر ثم نظرت إلى الساعة مجددًا، ها قد نزل الليل ولم يأتِ ذلك الغريب، فكرت في الصعود إلى غرفته لأرتبها وأتأمل أغراضه، فهذا سيذهِب الملل ويشبِع الفضول، انتعشت نفسي للفكرة فأخذت عصا التنظيف وصعدت إلى الدور الثاني حيث غرفة الوسيم.

فتحت الباب ببطء وأشعلت النور ونظرت إلى حالة الغرفة، كل شيء فيها مرتب حتى السرير، يبدو أن هذا الرجل «جنتلمان» كما يقولون هنا في المدينة، وجدت الطبق الغريب مستندًا إلى أحد الجدران وسطحه اللامع يعكس ضوء السقف، تركت العصا واقتربت منه بفضول كبير وأخذت ألمسه بحرص، ماذا كان يقول الوسيم عن الطبق؟ يعمل بالجاذبية؟ ليست هناك جاذبية أعرفها سوى في عينيه التي تسحب إليها وعيك لتغوص في نظرتها.

حملت الطبق عن الأرض ولم يكن ذا حجم كبير، بل هو مثل حجم الكعكة الكبيرة، وهناك عمودان صغيران يخرجان من أطرافه ولا توجد على سطحه

أي كتابات ولا ألوان إلا هذا اللون الفضي الشبيه بلون الصفيح، وكأن صانعه يملك ذوقًا سيئًا جدًّا في صناعة الأشياء.

بدأت أتأمل تفاصيله لمعرفة طريقة تشغيله، ثم توقفت عيناي عن النظر إلى أي شيء في الطبق وانتقلت للنظر إلى الأرض التي أمامي في رعب وذهول، وتراجعت بشكل فطري، فهناك على الأرض برز ظل كبير لإنسان يقف ورائي، صرخت وأنا ألتفت لأنظر خلفي في فزع، تجمدت لحظات ثم أطلقت صرخة أعلى وقلبي يرف من مكانه، فإن الذي ورائي لم يكن إنسانًا، ولم يكن أي كيان آخر، لقد كان... يا للهول!

إن ذلك الظل الذي رأيته على الأرض هو نفسه الذي رأيته عندما التفتُّ خلفي، فقط ظل، لكنه كان على الجدار هذه المرة، طويلًا مخيفًا يتحرك ببطء، ومن عِظَم طوله فإن بقيته كانت على الأرض، ظل بلا أي شيء يصدر ظلًّا، كأنه كيان حي منفصل، تحرك كأنه يمشي إلى الأمام وطوله يقصر على الجدار كأنه شخص قادم من بعيد يقترب، وما أفزع قلبي أن له صوتًا مثل فحيح الحية لا أدري من أين يأتي، عرفت أن صرخاتي لن تسمِع أحدًا، ففندقنا الحقير هذا بعيد عن كل شيء، وعلى الرغم من هذا أمسكت بالطبق كأنه درع وصرخت بهستيريا وأنا أرى حركة الظل الشيطاني، ثم تعثرت فسقطت على الأرض وهنا اشتغل الطبق فجأة.

وجدت الطبق يقفز من بين يدي إلى الهواء ويتحرك كأنه شيطان هو الآخر ويحوم بطريقة غير منتظمة، وتجمد الظل كأنما مسه المس ثم توتر وأخذ يتحرك يمينًا وشمالًا على الجدار وأنا أصرخ حتى كاد قلبي أن يخرج من حلقي، ثم استثارني الفزع فوقفت وتحركت وثبًا إلى خارج الغرفة، اللعنة على هذا الشيطان الوسيم ذي البذلة الفاخرة، الملعون تبين أنه ساحر، نظرت إلى باب الغرفة المفتوح في خوف ورأيت ما كنت أخشاه، ذلك الظل كان يقترب من الباب، ثم خرج...

أطلقت سبة مذعورة وتراجعت وأنا أنظر إلى الظل الذي خرج عبر الباب إلى الرواق وصدرت مني حركة تلقائية لم أقصدها، لكن تبين أن لها نفعًا عظيمًا، مددت يدي لأغلق نور الرواق فاختفى الظل على الفور كأن لم يكن،

وأصبحت أتراجع وأنزل على السلم ببطء وأنا أنظر إلى الرواق المظلم وكل دقة في قلبي ترتجف وحدها، ولم تمض إلا ثوانٍ حتى وجدت الظل يخرج من ظلمة الرواق إلى السلم ويتحرك على الدرجات نازلًا إلى أسفل، وهذه المرة كان مجسمًا فوق السلم كأنه جسد إنسان وليس ظلًّا على الإطلاق، هربت إلى الدور الأرضي وأغلقت نور السلم ثم هرعت إلى مكتب الاستقبال وعبثت ببعض الأزرار أسفله، فانطفأ نور الفندق كله والتجأتُ إلى غرفة الاستقبال وأغلقت الباب على نفسي والتصقت بالحائط في رعب، لم أعرف لماذا فعلت هذه الفعلة الغبية، ألم يكن الهرب خارج الفندق أفضل؟

مضت دقائق قصيرة وأنا أنظر إلى أسفل الباب في قلق، وهناك، بين عقب الباب والأرض كانت هناك كهيئة ظل تظهر في الظلام، كأن سواد الظل أسود من سواد الظلام، وكان يتحرك يمينًا وشمالًا كأنه لا يقدر على تجاوز الباب، وفحيحه البغيض يجمِّد الدم في عروقي، تنهدت وأنا ألعن اليوم الذي قبلت فيه أن أدخِل ذلك الوسيم اللعين إلى هنا.

***

يقول براون:

الشغف العلمي قد يجعل الفيزيائي أو الكيميائي يميل لارتكاب جرائم أخلاقية لا تُغتفر، لذلك وُجدَت في أذهان الشعوب قصص مثل فرانكشتاين وغيرها، وإن هذا الشغف يكون في ذروته عندما تكون في منتصف الطريق للوصول إلى حقيقة ستغير العالم أجمع، وبين أحيان هذا الشغف يأتيك شيء من تأنيب الضمير ثم تتذكر أن هذا لصالح البشرية، فيعود الشغف ليشتعل. كنت أفكر في هذه الخواطر وأنا خارج من ذلك الفندق في الصباح بعد أن حييت الآنسة الجميلة واتجهت مباشرة إلى حوض بناء السفن، وتحديدًا إلى بارجة حربية عملاقة اسمها المدمرة إلدريج.

ما لا يعرفه العامة ولن يعرفوه قبل وقت طويل، أن البحرية الأمريكية تعمل منذ الحرب العالمية الثانية على تجارب علمية سرية حربية، تختص بأمور يراها العالم خيالًا علميًّا محضًا، لكنهم في البحرية ينفقون بسخاء ويبذلون

كل غالٍ ونفيس لأجلها، تجارب تختص بكشف العوالم الموازية أو الأبعاد الموازية كما يسميها البعض، والسفر عبر الزمن والانتقال الآني وغيرها، ولقد منعوا آينشتاين كما قلت من الإعلان عن الجزء الأخير من نظريته التي سماها نظرية الحقل الموحد، والذي دمج بين نظريته النسبية والكهرومغناطيسية وقوة الجاذبية في معادلة واحدة.

معنى نجاح آينشتاين في دمج المجال الكهرومغناطيسي وقوة الجاذبية في مجال واحد موحد أنه يقدر دون شرح طويل على ثني الضوء حول جسم معين فيختفي عن الأنظار تمامًا، مثل فكرة طاقية الإخفاء القديمة، ولكن بالفيزياء وليس بالخرافات، وبالطبع وجدتْ البحرية أن هذا شيء عسكري تمامًا، فأخرست آينشتاين واستأثرت بالسر.

عملتُ على هذه النظرية مع علماء البحرية الأمريكية وأنا في كاليفورنيا ودمجتها مع التجارب التي كنت أصنعها على المجال الكهربي حتى نجحنا في إخفاء أجسام كاملة وبنايات كاملة لا يسكنها أحد، أخفيناها تمامًا عن ظهر الأرض كأن لم تكن، وأصبحنا نقدر على رؤية ما وراءها ثم بعد دقائق نظهِرها مرة أخرى، الأمر كان تحولًا علميًّا باهرًا أثار شغفنا كعلماء حتى كان يسيرًا أن يقنعونا بأنه قد حان الوقت لتجربة النظرية على البشر، وأن أفضل وقت لأداء التجربة هو الآن، فأمريكا في غمار الحرب العالمية الثانية ولو نجحنا في إخفاء بارجاتنا وطائراتنا سنوقِع بالعدو هزيمة سيظن أنها قد هبطت عليه من شياطين السماء.

تم اختيار البارجة إلدريج والتي ستبدأ رحلتها العسكرية التجريبية اليوم خارجة من فيلاديلفيا، ويجب أن نؤدي التجربة على البارجة بعد خروجها من حوض السفن، ويجب أن يكون طاقمها موجودين فيها ويجب ألا يعلم أحدهم أي حرف عن الموضوع، لأن التجربة نفسها سرية وإذا عرفوا سيرفضون المخاطرة بالطبع، لهذا قلت في بداية حديثي إن الشغف العلمي قد يجعل الفيزيائي يميل لارتكاب جرائم إنسانية من أجل العلم أحيانًا.

نظرت إلى المدمرة إلدريج التي بدت واقفة في قوة وهيبة وسط السفن وطاقمها يتحركون فيها بنشاط الصباح يؤدون أعمالهم اليومية، نظرت إليهم

وأنا أشعر أنني فرانكشتاين بشكل من الأشكال، دخلت إلى البارجة بحضور ضباط من البحرية وادعينا أننا نضع فيها أجهزة للتشويش على الرادار، والحقيقة أننا لم نكذب كثيرًا، فتقنية الإخفاء التي ابتكرناها تخفي الجسم عن أعين البشر وعن الرادارات بمختلف أنواعها.

كان قبطان السفينة رجلًا ضخمًا، ولم يكن مرحِّبًا بنا، بل كان متعجلًا متعجرفًا، وكان ينظر إليَّ كل حين نظرة كارهة لا أدري سببها، وكنت أقول في نفسي، ماذا لو عرف هذا الرجل ما نحن بصدده؟ ما نوع النظرة التي سيلقيها عليَّ بالضبط؟ ربما لن يكون حيًّا وقتها أصلًا. ارتجفتُ من الفكرة ودق قلبي في شيء من الإنسانية لكنني كتمتها واستمررت في أداء عملي، من أجل الوطن، ومن أجل العلم.

والحق أننا عطلنا طاقم إيلدريج كثيرًا جدًّا حتى انطلقت رحلتهم قرب الظهر بعد أن انتهينا من تركيب المجسات كافة، وكان الاتفاق أن تطير طائرة هليكوبتر فوق البارجة ويكون فيها الجهاز الذي سيطلق المجال ذا الحقل الموحد فتختفي المدمرة من على سطح البحر. وكنت أنا في الهليكوبتر أنظر من نافذتها إلى المدمرة وطاقمها الذين يبلغ عددهم أكثر من مائتي شخص، وكانت عيناي ترتجفان ويدي تنتظر على زر تشغيل الجهاز الذي مكثتُ زهرة شبابي وأنا أتفكر في التكنولوجيا التي وراءه، وعندما دقت الساعة الثالثة عصرًا، بعدما ابتعدت إيلدريج عن الميناء، ضغطت يدي على زر التشغيل، وفي ثوانٍ معدودة تلاشت إيلدريج بأكملها من تحتنا كأنما هي رسمة محاها أحدهم من وجه السبورة.

شغلنا جميع أجهزة الرصد الممكنة وأرسلنا القوارب، فوجدت القوارب نفسها تمر من المكان الذي كانت المدمرة تحتله منذ قليل وكأن المدمرة غادرت المكان أصلًا، وفشلت جميع الأجهزة في رصد المدمرة على أي رادار، ودق قلبي كثيرًا قبل أن أضغط الجهاز مرة أخرى حتى تعود المدمرة مرة أخرى.

مرت ثوانٍ بدت لي كأنها السنوات، ثم برزت المدمرة إيلدريج فجأة في مكانها الذي كانت فيه ولم يصبها خدش واحد، نظرت إلى سطح المدمرة

بلهفة إلى الرجال فانقبض قلبي، جميع طاقم المدمرة إيلدريج كانوا ساقطين على الأرض.

تحركت القوارب بسرعة إلى المدمرة وأحاطتها من كل مكان وصعد رجال البحرية إليها لاستكشاف ما حدث، وتنهدوا بارتياح وهم يرون الطاقم على قيد الحياة، ولكن لم يكن منهم واحد إلا وهو مصاب بالدوار ينحني على الأرض ويتقيأ، وبعضهم كان مغمى عليه، ولم يكن بينهم أي شخص ميتًا.

لكن كان هناك شيء في غاية الغرابة والرعب، قبطان المدمرة إيلدريج، ذلك الذي كان يكرهني، لم يكن موجودًا على المدمرة ولا في البحر ولا في أي مكان، على الرغم من أن القوارب مكثت حتى الفجر تبحث عنه، ومكثتُ معهم، ولم يظهر له أثر.

***

تقول ليزا:

خطوات بطيئة في ظلام دامس غمر الفندق بأكمله تتجه ناحية غرفة الوسيم اللعينة، انفتح باب الغرفة ببطء وشرعت الخطوات تدخل إلى الداخل في حذر ثم تجمدت الخطوات في مكانها فجأة مع صوت تكة بندقيتي التي ألصقت فوهتها في رأس صاحب الخطوات وأنا أقول في حزم:

- خطوة واحدة أخرى وأفجر رأسك اللعين أيها الدجال الوسيم.

شعرت بارتجافة الوسيم وهو يرفع يده تلقائيًّا، فصرخت به:

- مد يديك الحقيرتين خلف ظهرك.

كانت يد الوسيم ترتعش وهو يقول في توتر:

- سيدة ليزا، ما الذي...

قاطعته بثورة:

- أخرِس لسانك قبل أن أخرِسه لك.

كنت قد مررت بليلة رهيبة لا أظن أن هناك روحًا بشرية يمكن أن تتحملها، فعلى الرغم من أني حبست نفسي في غرفة مظلمة وذلك الظل لم يكن يقدر

على التجاوز، فإن مجرد رؤيته وهو يحاول ويدور وسماع ذلك الفحيح الذي ينبعث في الأجواء مع حركته جعلت قلبي يتصلب خيفة، وبخاصة في تلك اللحظة عندما بدأ الفجر يتهيأ للطلوع راميًا بأشعة من ضوء يسير على نوافذ الفندق بأكمله ودخلت أشعة بددت كثيرًا من ظلمة الغرفة التي احتبست فيها كالفأرة.

دقائق عصيبة على قلبي توقعت فيها أن يدخل الظل الشيطاني الذي يتغذى بالنور فيقبض على حلقي لكنه لم يفعل، هو فقط اختفى من المكان كله ولم يعد يظهر تحت الباب ولا بين فرجاته، ولم أعد أسمع ذلك الفحيح، وكأن النهار يطرده، فتحاملت على قلبي وقمت وأغلقت الستائر في الغرفة ثم خرجت منها بتردد وأنا أنظر في حرص إلى الرواق، ثم مررت على كل نوافذ الفندق أغلقها حتى عم الظلام الرمادي بالداخل وجلست مسندة ظهري إلى منصة الاستقبال في إرهاق، حتى سمعت صوت باب الفندق يُفتَح ويدخل الشيطان الوسيم.

قرأت كثيرًا أن الشيطان ليس بشعًا كما نظنه وله قرنان، بل هو وسيم جدًّا وأنيق جدًّا ولبق ذو لسان حلو فاتن وعين جميلة ظاهرها البراءة، ولقد عشت حياتي في سلام من هذه الأساطير كلها حتى أتى هذا الشيطان الوسيم ببذلته الفاخرة ومعه ذلك الطبق المعدني الشيطاني الذي يطير بيد الجن، قمت بحذر عندما سمعت خطواته ومددت يدي أسفل مكتب الاستقبال وسحبت البندقية التي كنت أدخرها للحماية، واستجمعت نفسي ومشيت وراءه حتى غرست رأس البندقية البارد في قفاه فتوقف في ذعر.

مد يده خلف ظهره كما طلبت منه فوضعت حول يديه عقدة من حبل جهزتها وربطتها بأقصى قوة، فأصبحت يداه معقودتين خلف ظهره، فقال في ألم:

- ما الذي تفعلينه سيدة ليزا؟ أنا أعمل في...

قلت له بصوت يكره روحه:

- أنت شيطان.

شعرت أن الكلمة آلمته بطريقة ما فظهر ذلك على ملامحه، فأغلق عينيه الوسيمتين في قوة وقال:

- سيدتي، لا تقولي هذا، أنا لست شيطانًا، أنا...

قاطعته في بغض:

- ذلك السحر اللعين الذي في هذا القرص قد جلب علينا شياطينك القذرة التي يخلق النور ظلالها و...

قاطعني الرجل بنبرة صادقة:

- أنا عالم فيزياء وهذا طبق الجرافيتون وهو يعمل بالكهرباء، ألم تلتحقي بأي مدرسة من قبل؟

غرست البندقية في رأسه بقوة شديدة وقلت:

- نعم التحقت بالمدرسة والجامعة يا شيطان وأعرف أن الكهرباء اللعينة ليس لها ظل يتحرك كالشياطين.

بدا الضيق على ملامح الوسيم وقال:

- أي ظل هذا؟ اهدئي سيدتي و...

فجأة فتحت نور الغرفة فوضع يده على عينيه في ألم فقلت له:

- فلتمرح مع شياطينك القذرة أيها الساحر القميء.

وهرعت إلى خارج الغرفة وأغلقت الباب عليه والنور مضاء وجريت بأقصى سرعة إلى الأسفل في مكتب الاستقبال وجلست على الأرض ملتصقة بالمكتب وأنا أحتضن بندقيتي إلى صدري وكل شيء في روحي يرتجف.

***

يقول براون:

ألقتني تلك الريفية العصبية مقيدًا في غرفتي وأطلقت عليَّ لقب الشيطان مع الكثير من الألقاب السيئة الأخرى، روحي آلمتني من كلمتها أكثر من أي شيء، هناك جزء بداخلي كان يرفض تجاربي ويخبرني أنها ضد الإنسانية، وأي شيء أنسب من لقب شيطان لوصف ذلك الذي انسلخ عن إنسانيته؟ لكن

الجزء الأكبر في عقلي يخبرني أن ما فعلته هو الصواب، بل إنه أكثر شيء سيفيد الإنسانية، المسألة ليست مجرد إخفاء شيء من موضعه، الأمر أكبر من هذا، و...

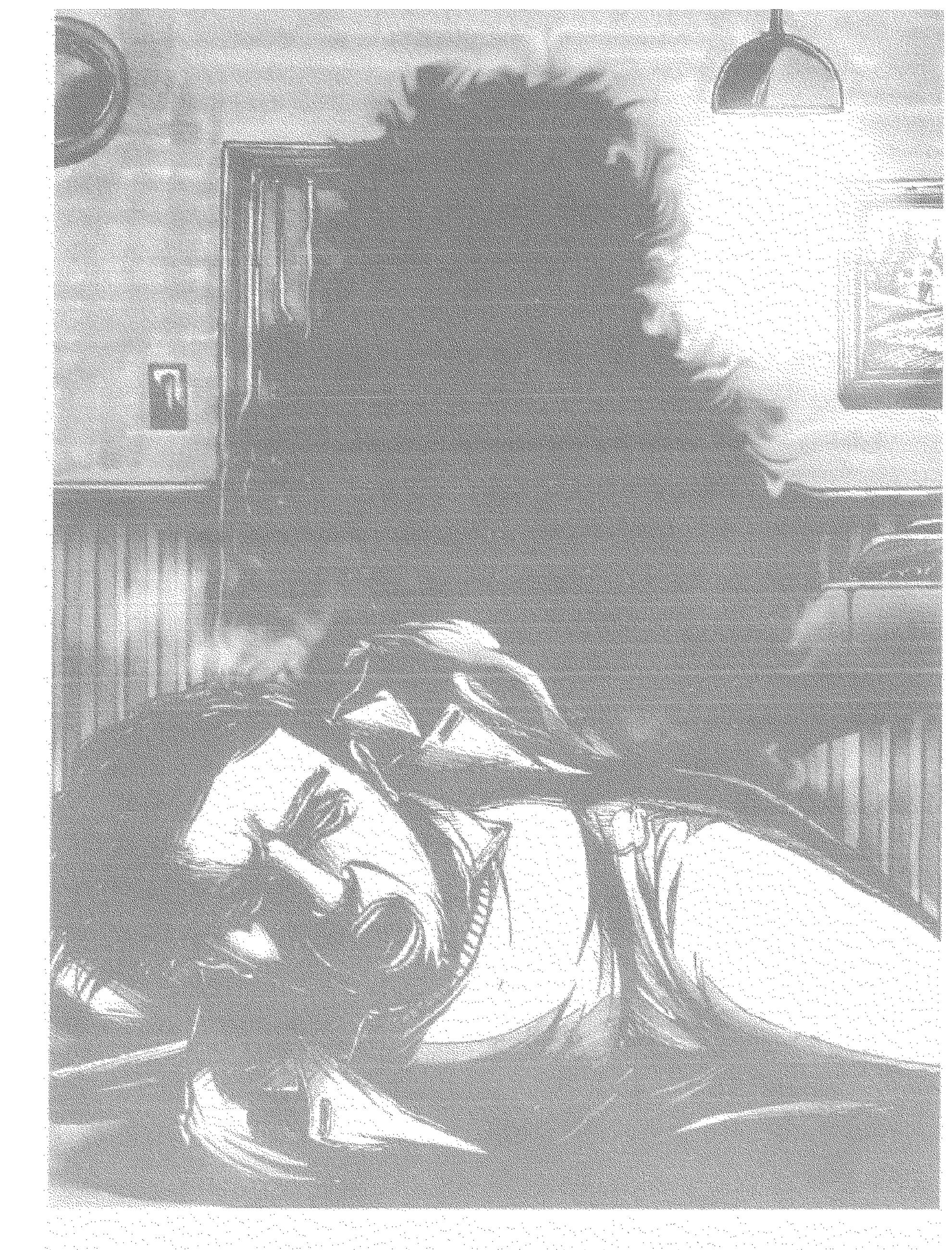
سمعت صوتًا أشبه بحفيف الأوراق عند الباب، فنظرت تلقائيًّا فوجدت كأن أحدًا يقف خلف الباب، ظِل قدمه يبدو واضحًا، ناديت بصوت متحشرج:

- سيدة ليزا، أرجو أن تكوني قد هدأتِ، فكي عني هذا الوثاق فقد آلمني جدًّا.

لم تتحرك الأقدام من عند الباب قيد أنملة، كأن من بالباب لا يسمعني، وصوت الحفيف يتصاعد ويبدو غير طبيعي بالمرة، قرَّبت رأسي قليلًا ونظرت أسفل الباب فبدأ الظل يتحرك حركة مستحيلة نوعًا ما، بدأ كأنه مشى خطوة ناحية الباب ثم اختفى تمامًا كأن لم يكن، ازدردت لعابي وقلت:

- سيدة ليزا؟ أهذا أنت سيدتي؟

توسعت عيناي إلى أقصاهما وانقبض قلبي وتراجعت على الأرض وأنا أنظر إلى شيء يستحيل حدوثه بأي حال، ذلك الظل الذي اختفى من أسفل الباب ظهر فجأة مطبوعًا على الباب داخل الغرفة كظل إنسان كامل، شعرت بلساني يرتجف في فمي ولم أقدر على التلفظ بحرف، وأصبحتُ أتراجع والفزع قد تعلق حول أضلاعي، فهذا الظل ليس له مصدر، بل هو مصدر نفسه، درت بعيني إلى أنحاء الغرفة دون أن ألتفت، عقليتي العلمية فشلت في إيجاد أي تفسير، وذلك الظل لم يرحم قلبي، فبدأ يتحرك من موضعه على الجدار لينقص طوله كأنه يقترب ثم أصبح مفروشًا على الأرض، هذا كيان يتحرك وله وعي، أي عبث شيطاني هذا؟!



كانت المرة الأولى في حياتي التي يتملكني فيها رعب حقيقي، وأنا العالِم الذي يوفِّق كل شيء على قوانين الفيزياء والطبيعة، لكن أي فيزياء هاته في ظل بلا جسد؟ كل حكايات الرعب التي أسمعها تكون عن ظلال تظهر وتختفي، أما ظل يتحرك بوعي كامل وبطء مستفز كهذا الشيء الذي...

لم تقدر فطرتي البشرية على التحمل أكثر فصرخت فزعًا وذلك الظل يقترب في الأرض، كانت حركتي محددة بسبب القيد اللعين، لكنني مددت قدمي إلى أقصاها فأسقطت كرسيًّا خشبيًّا على الأرض، ارتبك الظل لحظة عند ارتطام الكرسي بالأرض وأصبح يتحرك حركة ترددية يمينًا وشمالًا، ثم وقف مهتزًّا كأنه غضب وتحرك ناحيتي، ولم تكن حركته بطيئة هذه المرة، بل كانت حركة كيان يرغب في اقتناصك، وأطلقت صرخة حملت جميع معاني الفزع، صرخة لم تكتمل.

***

تقول ليزا:

ضربت باب الغرفة بقدمي فرأيت الوسيم يرتجف على الأرض كدجاجة قبل ذبحها، وعلى الفور تحركت يدي وضربت زر الإضاءة فانطفأ النور وأظلم المكان وسكت الفحيح واختفى الظل وبقيت تأوهات الوسيم المذعورة، أسندته بذراعي وأقمته ومسحت على شعره في اعتذار وأنا أقول:

- هذه الساعات التي اهتز فيها كيانك، أنا عشت مثلها ليلة كاملة مع هذا الشيء، هاك، اشرب بعض الماء.

أسقيته ماء وظللت أمسح على شعره وجبهته حتى يهدأ وقلت:

- لقد ظهر لي أنه لا دخل لك بهذه اللعنة أيها الغريب، فإني قد خرجت من الفندق إلى محطة البنزين القريبة، وحكايات الرفاق هناك عن الظل الذي رأوه الليلة الماضية ترهِب القلب، إنها لعنة نزلت على الأرض فيما يبدو، ولا أدري لماذا أشعر على الرغم من هذا أن لك دخلًا بها أيها الوسيم.

هز الوسيم رأسه نفيًا في إرهاق فسألته:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟ ولماذا تتخفى في هذا الفندق الرخيص على الرغم مما يبدو عليك من أمارات الثراء؟

استجمع الوسيم نفسه وقال:

- لا يمكنني أن أدلي بتفاصيل ما أفعله، فهي أمور سرية حكومية وليس لي علاقة بأي لعنات، وينبغي أن تفكي قيدي سيدتي لأنه يجب أن أذهب للعمل اليوم، كثير من الشؤون المهمة التي تهم العالم متوقفة على حضوري.

رفعت البندقية ووضعتها في جبهته مباشرة وحركت خزنتها استعدادًا للإطلاق وصحت فيه:

- وإذا أشعلت فضولي هكذا ولم تتحدث سأزين جبهتك الوسيمة بطلقة رصاص، ولن تقدر على إفادة العالم بشيء، فاحذر من غضب فتاة نوردية.

ارتعد الوسيم للحظة وكان سهل الانقياد، فبدأ يتكلم ويحكي شيئًا هو أغرب مما ينبغي وأخطر مما ينبغي، عن بارجة كاملة أخفاها من الوجود ببضعة أشياء كهربية لم أفهم منها حرفًا، قال إن الحكومة كانت تشرف على هذا كله ثم ألغت المشروع رسميًّا أمس. قلت له:

- أيها الوسيم المناور، كيف تقول إن الحكومة ألغت المشروع وفي نفس الوقت تقول إن حضورك اليوم ضروري لأجل المشروع؟

قال الوسيم بحذر:

- الحكومة ألغت المشروع رسميًّا لكنها ستستمر في إجرائه بشكل غير رسمي لأهميته الشديدة على الرغم من خطورته. أرجوكِ يا سيدتي دعيني أذهب.

وضعت يدي على شعره وفوهة البندقية على رقبته وقلت:

- ليس قبل أن أعرف ما هذه الأشياء التي تهم الحكومة بهذا القدر، ولا تختصر لي فأنا لست جاهلة.

أصدر الوسيم تنهيدة وقال:

- التجارب لم تكن خاصة بإخفاء الأشياء لأغراض عسكرية يا سيدتي، بل هي تجارب لاكتشاف العوالم الموازية والأبعاد الأخرى التي يؤمن كثير من العلماء أنها موجودة وتعيش فيها نسخ أخرى منا.

ثار كياني شغفًا لِما أسمع، فسألته:

- تقصد عوالم موازية مثل فالهالا عندنا في الأساطير النوردية التي يعيش فيها الصالحون أو الجحيم الذي يعيش فيه المجرمون؟

قال الوسيم بشيء مِن التعجل:

- نعم هو شيء كهذا لكن ليس بالضبط، فالعوالم التي نقصدها فيها نسخة أخرى منك يا سيدة ليزا ربما تعمل في مكان آخر غير هذا الفندق.

بدت عليّ جميع أمارات التعجب وأنا أقول:

- أتقول إن الحكومة تصرف أموالًا في هذا؟ هل هذا الشيء علم أصلًا؟ إنه حتى بالنسبة إلى الشخص الذي يؤمن بأعتى أنواع الخرافات أسطورة حمقاء.

رفع الوسيم حاجبه الوسيم وقال:

- كنا جميعًا كعلماء نؤمن أن هذا خرافة حمقاء حتى أجرينا تجربة احتار فيها كل عالم فيزياء شهير على وجه الأرض من آينشتاين إلى نيلز بور، عندما أطلقنا إلكترونًا إلى ناحية جدار فيه ثقب والإلكترون مصوب إلى ناحية الثقب بالضبط، وكان المفترض أن يمر الإلكترون من الثقب ليضرب شاشة الرصد في المكان المقابل للثقب بالضبط، لكن ما وجدناه أن الإلكترون مر من الثقب وضرب الشاشة في عشرة أماكن على الأقل في نفس الوقت، مما يعني أنه ليس جسمًا ماديًّا مثل الكرة، لكنه عبارة عن موجة مثل موجة البحر إذا خرجت من ثقب تنتشر.

قلت له في تساؤل:

- وما المشكلة؟ يمكن أن يكون موجة فعلًا مثل موجات الصوت مثلًا.

قال الوسيم وهو يعض شفته في حسرة علمية:

- المشكلة التي جعلتنا نقفز تعجبًا هي أنه عندما كنا نضع قرب الثقب جهازًا راصدًا لمراقبة الإلكترون لنعرف ما الذي يفعله بالضبط عند المرور من الثقب، نجد الإلكترون قد تحول إلى جسم عادي يضرب الشاشة في الموضع المقابل للثقب فقط، وإذا اطفأنا الجهاز الراصد يتحول الإلكترون إلى موجة مجددًا، وكأن الإلكترون يشعر بالمراقبة، فإذا عرف أن أحدًا يراقبه يتصرف كجسم عادي، وإذا غابت عنه المراقبة ينقلب إلى موجة، الأمر مثل أن تنظري إلى شخص فتجدينه يتحدث إليك، فإذا حوّلتِ بصرك عنه يختفي ويتحول إلى هواء، ثم عندما تنظرين إليه مجددًا يتحول إلى إنسان يحدثك، وهكذا.

التزمت الصمت بضع ثوان أفكر في هذا الشيء المعقد الذي يبدو مستحيلًا، فقال الوسيم:

- التفسير الوحيد لهذا كما اتفق أكثر الفيزيائيين أن هناك عوالم متعددة متوازية ومتصلة، عالم يكون الإلكترون فيه جسيمًا، وعالم يكون فيه موجة، ونحن نرى طبيعة واحدة للإلكترون كل مرة لأن الطبيعة الأخرى موجودة في عالم موازٍ لهذا، ونحن نعيش ونرصد بحواسنا وأجهزتنا ما هو موجود في عالمنا فقط.

قلت له باحتجاج:

- وما علاقة المراقبة؟ أنت تقول إنه عندما نراقبه يتصرف كجسيم، وإذا أطفأنا الكاميرا يتصرف كجسيم، ما الذي...

قاطعني قائلًا بحزم:

- هذا أمر معقد أرهقنا ولا مجال لشرحه الآن، وليست هذه هي مصيبة الإلكترون الوحيدة، بل وجدنا أنه يستطيع أن يكون في مكانين في نفس الوقت ويقدر على العبور من الجدران و...

صمتَ العالِم الوسيم وهو يفتح عينيه في شرود، وأخذت أهزه ببطء وأنا أنظر إليه بتعجب، كان هناك نور من الفهم يجري في عينيه فلم أحب أن أقاطعه حتى أمسك بكمي وهو يقول بذهول شارد:

- أتعلمين؟ لقد تمكنا من محاكاة ما يفعله الإلكترون على مستوى الأجسام الكبيرة كالبارجة، أخبريني يا سيدة ليزا، هل هذا الظل رأيتِه متجسدًا أمامك في شكل ثلاثي الأبعاد كأنه جسد أم أنه كان فقط مطبوعًا على الجدران والأرض؟

شعرت بالخوف من حديثه لكني أجبته:

- بل رأيته مرة يتشكل في هيئة ثلاثية الأبعاد فوق السلم كأنه بشر له جسم بلا ملامح، فقط ظل.

قال في شرود وهو يحدث نفسه:

- الأجسام ثلاثية الأبعاد تلقي على الجدران ظلالًا ثنائية الأبعاد، لكن الأجسام الرباعية الأبعاد، ستلقي علينا ظلالًا ثلاثية الأبعاد.

وظهرت لمعة في عينيه، لمعة الفهم...

***

يقول براون:

بأجفان منتفخة من أثر قلة النوم والفزع بعد ليلة رهيبة في فندق السيدة ليزا التي تركتني أعود إلى العمل بصعوبة كنت أنظر من على متن الهليكوبتر إلى المدمرة إيلدريج وطاقمها الذين خرجوا ثانية بعد التجربة الأولى في مهمة عسكرية تجريبية أخرى، ولم يقل لهم أحد إنهم ليسوا الذين سيجربون، بل إنه نحن الذين سنجرب عليهم. عضضت على شفتي بحسرة وأنا أراجع آخر التجهيزات لتشغيل الجهاز، وهذه المرة غيَّرنا كثيرًا من الأرقام ووضعنا مستقبِلات حساسة في فيرجينيا على بعد أكثر من 300 كيلومتر، فالتجربة اليوم لن تكون على الإخفاء وحده، بل على الانتقال الآني.

نزلت من جبيني قطرات من عرق بارد متوتر، فهذه التجربة لو نجحت فسيكون هذا أعظم كشف علمي عرفه إنسان، لن نحتاج أصلًا إلى بارجات تنقل الأشياء أو إلى طائرات تنقل البشر، فالأشياء ستنتقل لحظيًّا دون أي تكلفة ولا وقود ولا أي هراء من الذي نستعمله اليوم.

تلقينا اتصالًا في تمام الساعة العاشرة صباحًا، وكانت هي إشارة البدء، ودون أن أنظر إلى البارجة شغَّلت الجهاز فاختفت إيلدريج من موضعها

تمامًا، لكنها هذه المرة خلَّفت وراءها شيئًا كالضباب الأرجواني، وانطلقت زوارق المراقبة تستطلع الضباب، وأفادوا أنه شيء يبدو مثل الشبورة لكنه ملون، وأتاني اتصال من فيرجينيا فضغطت زر الاستماع في تحفز وأنا أسمع بتركيز وهناك بريق في عيني من السعادة، لقد ظهرت المدمرة إيلدريج عندهم بكامل معداتها وطاقمها و...

انقلبت سحنة وجهي إلى التجهم وأنا أستمع إلى ما حدث للطاقم، قالوا إن بعضهم قد اختفى والباقون أصابهم الجنون التام، أغمضت عيني في ألم وأنا أستمع إلى أوامر القيادة بإكمال التجربة وإعادة البارجة إلى مكانها في فيلاديلفيا، ولم تمضِ من الدقائق عشر حتى برزت وسط الضباب المدمرة إيلدريج وهبطت الهليكوبتر عليها ونزلتُ منها بسرعة لأنظر ماذا حدث للطاقم.

مأساة بشرية كاملة، الطاقم فقدوا عقولهم، رأيت أحدهم يركض بلا هدى ثم يقف أمام الجدار ويضرب رأسه بقوة شديدة حتى انفجر بالدم وسقط على الأرض ميتًا ومخه يبرز من جمجمته، وآخرون يصرخون وهم يجلسون على الأرض ويبكون في هستيريا لا تناسب سنهم ورجولتهم. أتاني رجل من فريق البحث يقول بصوت مرتعب:

- سيدي، لقد وجدنا رجلًا من البحارة... احم، إنه، يبدو يا سيدي أنه التحم في الجدار.

دقت في قلبي دقات عنيفة جدًّا كأن قلبي يريد أن يغادرني بكل وحشيتي ويلقي نفسه بعيدًا، وبخطوات مرتجفة ذهبت إلى حيث ذلك البحَّار ونظرت إليه برهة ثم أغلقت عيني في وجع حقيقي، فلم يكن إلا كومة من اللحم التي تنبض فيها بعض الأعضاء، قررت مغادرة المكان كله لكن كانت هناك مصيبة أخرى أشد وطأة من كل هذا...

رجل آخر من البحارة كان يصرخ بألم روحي وجسدي لا مثيل له، اكتشفنا أن يده التحمت مع منصة حديدية في البارجة وهو يتألم والدموع تسيل من عينيه تلقائيًّا، اقتربت منه لأنظر إلى يده، الأمر أشبه بأن هناك أحدًا بنى الجدار ونسي يدك بداخله، كان إخراج يده مستحيلًا تمامًا إلا بنشر الحديد بمعدات لا تتوفر لدينا حاليًّا.

مشيت مرتجفًا على سطح البارجة وسط المأساة الإنسانية التي تسببنا فيها، وقررت مغادرة البارجة، بل مغادرة التجربة كلها، لأن هناك غصة قد بدأت تتكون في حلقي، غصة من النوع الذي يمكن أن يخنقك من الكمد، وانطلقت بي الهليكوبتر عائدة ثم هرعت إلى الفندق لآخذ حاجياتي وأرحل من هنا. فتحت باب الفندق في عجل ثم...

كانت ليزا ساقطة على الأرض والبندقية بجوارها، انحنيت عليها سريعًا أفحص رقبتها، إنها لا تزال حية لكن يبدو من ملامحها أنها رأت شيئًا مقيتًا، اللعنة! هل عادت تلك الظلال مرة أخرى؟ أسكتَ سيلَ أفكاري صوتٌ بغيض جدًّا، يبدو مثل حفيف الأشجار أو فحيح الأفاعي، صوت الظل...

التفتُّ ورائي فوجدته، بل وجدتهم، لم يكن ظلًّا واحدًا، بل سبعة ظلال لسبعة أشخاص، لم يكن هذا حسنًا قط، أصبحت أتراجع بشكل فطري وأنا أنظر إليهم بحذر، كانوا يقتربون مني ببطء الواثق الذي يعرف أن فريسته لن تهرب، ثم اتسعت عيناي في رعب ودهشة وأنا أنظر جيدًا إلى تلك الظلال، كان أحدهم ذا رأس خرب تخرج منه أحشاؤه، وأحدهم ذو يد مقطوعة وآخر مشوه الجسد تمامًا كأنه كومة من اللحم، يا للسماء! إنهم هم...

هناك نوع من الفهم العلمي يجعلك تفرح ونوع يجعلك تفزع، ولقد فزع كياني هذه المرة من الفهم، إن الظلال التي تمشي وحدها ولها وعي خاص هي ليست جنًّا أو شياطين، إنما هي ظلال لأشخاص انتقلوا إلى بعد آخر يوازي عالمنا، هذه الظلال اللعينة هي من طاقم إيلدريج الذين اختفوا، لكن مهلًا... هذا المقطوعة يده والمفقوء رأسه لم يختفوا، بل هم هناك، على إيلدريج.

اللعنة، إن هؤلاء موجودون في البعدين في نفس الوقت، مثلما يوجد الإلكترون في البعدين في نفس الوقت. أطلقت سبة واستدرت هاربًا من كل شيء، حتى هويتي وطبقي لا أريدهما، ولو أن لي القدرة على التخلي عن درجتي العلمية فهذا حسن، فإنني لم أعمل بحقها، لم أكن عالمًا، بل كنت سفاحًا مختلًّا مثل حكومتنا الأمريكية المختلة. غادرت الفندق بسرعة وتوقعت أن تلحقني الظلال، لكنها لم تفعل، واستنتجت أنها عبارة عن بشر تائهين، ليس بإرادتهم، بل بأيدينا السفاحة.

لا أدري ما الذي يعيشونه الآن، هل يرون عالمًا آخر في بعد آخر وهم يتحركون فيه وقد أدت تجربتنا إلى أن تكون حركتهم هذه ظاهرة؟ لا أدري، ولن يدري أحد، فقد أغلقت الحكومة إجراء التجارب السرية في هذا المضمار بعد هذه الواقعة، ربما تقرأ كثيرًا من الكتب وتشاهد كثيرًا من الأفلام عن تجربة فيلاديلفيا، لكن أحدًا لن يخبرك بما حدث فيها حقًّا، لأنها جريمة علمية مكتملة الأركان برعاية البحرية الأمريكية اللعينة.

***

أمسك شارلوتان بقضبان قفص ليزا وقرَّب وجهه منها وهو يقول لها:

- عند سماع قصتك أيتها العجوز كان يتبادر إلى ذهني سؤال؛ كيف يمكن أن أحاكمك؟ الادعاء العلمي لم يأتِ منك، بل من ذلك العالم براون الذي زار فندقك.

استدار شارلوتان وأعطى ظهره للقفص وهو يقول:

- لو نظرنا إلى المبادئ العلمية التي شرحها لك سنجد أن معه حقًّا، الإلكترون يفعل كل هذا وأكثر، بل هو يدور لليمين واليسار في نفس الوقت، ولولا هذا ما نجحنا في صنع جهاز أشعة إكس مثلًا، بل إن الإلكترون يعبر خلال الحواجز حقًّا، ودون هذا العبور لكانت الشمس ستنطفئ، لكن بالنسبة إلى تجربة رصد الإلكترون فقد شرحها لك بشكل غير دقيق، ربما بسبب التوتر الذي وضعتِه فيه.

أخذ شارلوتان يقلِّب العصا بين يديه وهو يقول:

- ما حاول أن يشرحه لك هو سر من أسرار هذا الكون، سر سيضع العلماء على العتبة الأولى في اكتشاف عالم ما وراء الطبيعة الحقيقي، السر ببساطة هو أن أي جسم في هذه الدنيا كبيرًا كان أم صغيرًا يتعامل في الكون كجسم وليس كموجة، لأنه مرصود، فهذه العصا مثلًا مرصودة لأن فوتونات الضوء تسقط عليها وتنعكس، وهذا في حد ذاته رصد، والعصا مثل أي جسم؛ تخرج منها حرارة طفيفة، وخروج الحرارة منها في حد ذاته يجعلها مرصودة، أما بالنسبة إلى الإلكترون فهو جسيم صغير جدًّا بالغ السرعة غير قابل للرصد بأي طريقة طبيعية،

ولذلك هو يتعامل كموجة لأنه غير مرصود، لكن فور أن نضع له جهازًا يرصده فهو يتحول إلى جسيم مباشرة.

جلس شارلوتان على كرسيه وأسند العصا على الأرض وقال:

- جميع الكائنات الماورائية -مثل الجن- هي كائنات غير مرصودة بأي طريقة طبيعية، ولذلك فهي موجات غير مرئية، لكن ما دام قد عرف العلماء كيف يرصدون الإلكترون فسيمكنهم بنفس الطريقة أن يرصدوا الجن لو أزالوا عن أبصارهم غشاوة العداء لما وراء الطبيعة.

ثم نظر إلى ليزا وأشار إليها بعصاه وهو يتكلم ويقول:

- هذه المعلومات العلمية تفيد قصتك، لأنه لا يمكن أن تصل إلى ذهنك هذه المعلومات الدقيقة وأنتِ لم تكملي دراستك كما عرفت من سيرتك الذاتية، وهناك معلومة أخرى في قصتك تساهم في تصديقها، وهي مسألة العوالم المتعددة، وهذه معلومة شديدة التخصص لا يفهمها إلا المتخصصون في الفيزياء، وهي نظرية يسمونها قطة شرودنجر.

قام شارلوتان من مكانه ومشى ناحية ليزا وقال بلهجة موحية:

- شرودنجر قال إن ميكانيكا الكم بكل غرائبها يمكن فهمها بمثال تقريبي، لو حبسنا قطة في صندوق ووضعنا معها قارورة غاز سام تنفتح بطريقة معينة، فميكانيكا الكم تقول إنه ما دام هذا الصندوق مغلقًا فالقطة ميتة وحية في نفس الوقت، لكن في كل مرة نفتح الصندوق لننظر إلى القطة ونرصدها، سنراها في حالة واحدة فقط، إما ميتة أو حية. تفترض فيزياء الكم أن هناك عالمين مختلفين، ونحن موجودون في عالم واحد منهما حيث نفتح الصندوق ونرى القطة ميتة، بينما في العالم الآخر هناك نسخ أخرى منا تفتح الصندوق لترى القطة حية، ونحن مجبَرون على رؤية هذا العالم فقط وليس العالم الآخر بحكم إمكانياتنا المحدودة.

ضرب شارلوتان بعصاه على القفص وقال:

- يعني هناك عالم آخر فيه إصدار آخر من هذه الغرفة التي نحن فيها، وفي ذلك العالم هناك ليزا أخرى محبوسة في قفص أيضًا ولكنها في

العالم الآخر لا تكذب، ولذلك يتركها شارلوتان، أما في هذا العالم فهي تكذب على شارلوتان، وهذا يجعل شارلوتان غاضبًا.

كان يخبط بالعصا على القفص في شيء من الجنون المفاجئ وهو يقول:

- تجربة فيلاديلفيا التي أوردتِها في قصتك أنكرتها البحرية الأمريكية تمامًا، وقالت إنها هراء صادر من عقل بحار سابق اسمه كارل آلن ادعى أنه شاهد التجربة بأم عينيه لأنه كان يعمل على المدمرة المجاورة ولا يوجد أي شاهد آخر غيره، وادعى أن كل من نجا من التجربة غسلت البحرية الأمريكية مخه حتى لا يتذكر أي تفاصيل، وقال إن توماس براون العالم الفذ المعروف كان مشاركًا في هذه التجربة، ولا يوجد أي مصدر سواء في كتابات براون أو أبحاثه أو تصريحاته تدل على مشاركته في أي تجربة كهذه على الإطلاق، على الرغم من أن قصة طبقه الطائر هذه حقيقية وقد استفاد المجتمع العلمي منها كثيرًا.

فتح شارلوتان باب القفص وهو يقول:

- وجود توماس براون في قصتك وتجربة فيلاديلفيا يدل أن قصتك كاذبة، لأن هذه التجربة وهم يا ليزا، ألم تتعلمي أن الكذب هنا عاقبته القتل؟

قالت ليزا في هدوء:

- كنت أعلم أنك ستكذبني، لكن لي أمنية أخيرة، أمنية ما قبل الموت.

نظر شارلوتان إليها في تساؤل فقالت:

- أريد أن أقتل نفسي، فكما قال جيم جونز في القصة الثانية، لن أجعل أحدًا يأخذ مني حياتي، أنا الذي سأنهيها بنفسي.

ضيَّق شارلوتان عينيه ورمى إليها المسدس فجأة دون مقدمات، فسقط عند قدمها واستدار شارلوتان متجاهلًا إياها تمامًا وهي تنحني على الأرض وتأخذ المسدس بيد مرتجفة. لم أكن أدري حقًّا أي مختل كان شارلوتان هذا، كيف يترك لها المسدس وهو يعلم أنها لو أطلقت النار عليه قد تنهي كل شيء وتنقذنا؟ لكن ليزا رفعت المسدس ووضعته على صدغها وأصابعها ترتعش وقالت:

- يا شارلوتان، دون أحاديث مطوّلة حمقاء أخبرني، هل العوالم الموازية حق؟ هل فالهالا التي وعدنا بها أودين حق؟ هل أذهب لها الآن لو أنهيت حياتي؟

ابتسم شارلوتان وقال:

- ألم تعلمي بعد يا امرأة؟

نظرت العجوز إليَّ وقالت برجاء:

- أيها الشيخ قل لي، أنت لا تكذب، هل سأجد فالهالا بكل ما فيها من حسن وجمال إذا مت الآن؟

شعرت بطوفان من المشاعر يغمر فؤادي، وتذكرت حديثي مع طويبة عن مصير هؤلاء، فأغمضت عينيَّ وسمعتها وهي ترجوني وتكرر الرجاء، فقلت لها:

- يا ليزا، أنت ستجدين جنة عرضها السماوات والأرض، لكن ليس عند أودين الأعور، بل عند الله الأعظم، فآمني به واتركي أودين، فإن ربك ليس بأعور.

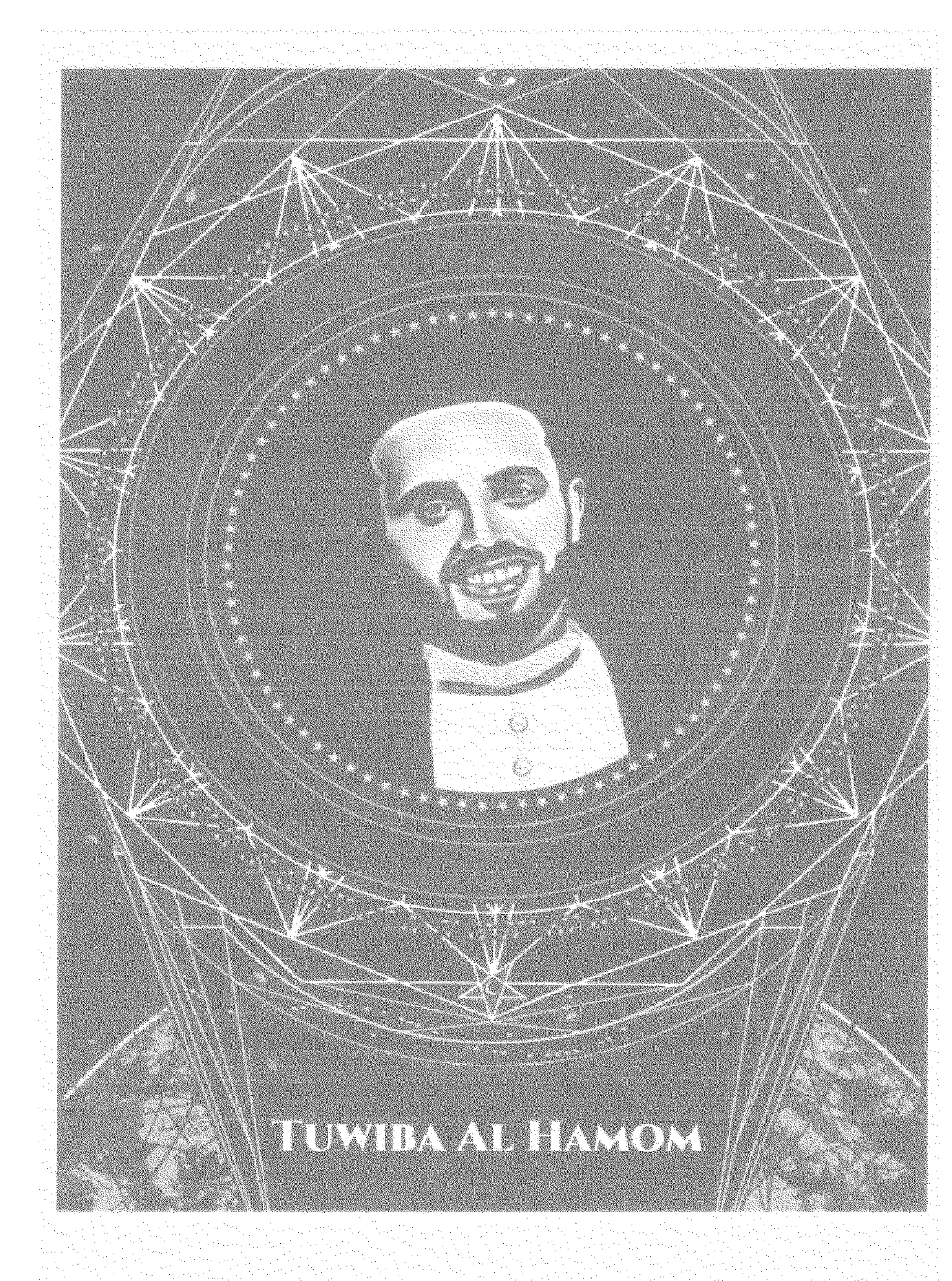
ابتسمت العجوز ابتسامة لم أفهمها وقالت:

- ليتني رأيتك من قبل في حياتي أيها الشيخ الوسيم.

وأطلقت المسدس وانفجرت الرصاصة في صدغها تاركة أعيننا ترتجف أنا وطويبة الذي وضع يده على رأسه وركع على الأرض يبكي في حسرة، ورأيت شارلوتان يتقدم ببطء من قفص طويبة ويقف أمامه ويخبط على قضبانه بعصاه فانتفض طويبة رعبًا وقال شارلوتان:

- حان دورك يا يمني، كنت قد طلبت منا قبل إتيانك للمؤتمر أن نحضر لك شاشة عرض وأرسلت لنا بعض الصور ومقاطع الفيديو لأن حكايتك تتعلق بها، ولقد جهزنا لك كل هذا.

طرق شارلوتان بإصبعه فجاء ذلك الروسي وهو يدفع شاشة كبيرة عليها صورة منظر طبيعي مكتوب عليه «طويبة الحموم»، وأعطى الروسي جهاز التحكم لطويبة في القفص، فنظر إليه طويبة في شرود وذهول كأنه لا يدري أي عالم مختل هذا الذي نحن فيه، لكنه نظر إلى الشاشة ثم نظر إليَّ وللجميع في خوف، ثم بدأ يحكي، الحكاية الثانية عشرة...


TUWIBA AL HAMOM

12



حكاية الحسد

يرويها: طويبة الحموم

«الْعَيْنُ حَقٌّ، ولو كانَ شيءٌ سابَقَ القَدَرَ سَبَقَتْهُ العَيْنُ، وإذا اسْتُغْسِلْتُمْ فاغْسِلُوا».

صحيح مسلم.

دون مقدمات ولسنا في حالة تستدعي المقدمات، لقد حضَّرت لكم فيلمًا تسجيليًّا، لم أكن أريد له أن يُعرَض في هذا الموقف اللعين، لكن ما باليد حيلة، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

هذه التي ترونها على الشاشة هي حضرموت، المدينة العربية التي تحمل نفس الاسم منذ آلاف السنين، وهذه الجنة الخضراء المترامية الأطراف هي وادي المسيلة الذي كان نهرًا عظيمًا نمت على ضفافه أعتى الحضارات في القدم، وأنا من قبيلة عظيمة تعيش في جوانب هذا الوادي اسمها قبيلة الحموم.

معذرة لأنني لم أقدِّم نفسي، طويبة الحموم، مقاول مخضرم من أهل حضرموت، ولست هنا للحديث عن نفسي ولا عن قبيلتي، أنا هنا للحديث عن ذلك الرجل الواقف هناك في الشاشة، هل رثيت لحاله من النظرة الأولى؟ رجل هزيل أعمى في الثلاثينيات يتكئ على عصا يمشي بها على غير هدى، هل تصدقني لو أخبرتك أن هذا الرجل لا يجرؤ أهل اليمن كلهم على الوقوف في وجهه؟ هذا الرجل الهزيل هو أرحب، أرحب الحموم، أخي.

سأنقل لك الصورة منذ البداية حتى تفهم كل شيء، هل ترى ذلك الطفل الجالس في فصله في انعزال إلى تلك المنضدة هناك؟ نعم، ذلك الذي تركِّز عليه الكاميرا، هذا هو أرحب أخي في سن الثامنة، إن له حاجبين صارمين نوعًا ما، ونظرات جادة بالنسبة إلى طفل في سنه، الشاشة الآن تعرض لك ست صور لأطفال صغار، كل صورة طفل منهم مكتوب تحتها اسمه كما ترى، وهذا التاريخ تحت كل صورة يمثل الفترة التي عاشها كل طفل منهم حتى مات، نعم، كلهم ماتوا وهم أطفال، ربما ستجد كلامي غريبًا نوعًا ما، لكن هؤلاء الأطفال كانوا أقرب أصدقاء لأخي أرحب في فترة الدراسة الابتدائية.

تنتقل بك الكاميرا الآن إلى مشهد آخر، هل ترى ذلك الفتى الراقد على السرير؟ هذا هو أرحب أخي في مرحلة مراهقته، كان يعاني إفراطًا في حبوب الشباب التي استعمرت وجهه لمدة طويلة، والآن ابق معي لثوانٍ، هل ترى ذلك الشاب الوسيم الواقف يتحدث هناك؟ أنت تراه من جانبه الأيمن، بعد لحظات سيستدير لتراه بوضوح، ها هو هناك يتحرك، هل رأيت؟ لا تفزع، إن الجانب الآخر من وجهه محروق، اللحم دخل على بعضه ليشكِّل منظرًا حزينًا، هذا الشاب يُدعى فاتح، وهو شاب وسيم سيئ الحظ تعرَّض لحادث سيارة رهيب احترق فيه نصف وجهه، حرق لا أمل في إصلاحه، إن فاتح هذا كان الشاب الذي أحبَّتْه وعشقَتْه فتاة تُدعى سندس، وسندس هي ابنة خالة أرحب، وهي الفتاة التي كان يهواها في تلك الفترة، بل كان يتنفسها.

دعنا نكمل قصتنا، ترى الآن مشهدًا من داخل سيارة، الشاب الذي يقود هو أرحب، إنه مسافر في طريق سريع ما وهناك سيارة فخمة جدًّا تتجاوزه بسرعة، نظر أرحب إلى السيارة قليلًا ثم أعاد بصره ليركز على الطريق، بعد أكثر من عشرة أميال نرى أرحب يرمق السيارة مرة أخرى، لكنها كانت مقلوبة على جانب الطريق السريع، تابعها ببصره حتى تجاوزها وأكمل طريقه وهو يهز كتفيه متحسرًا في فتور على طيش السائقين هذه الأيام.

الآن أخذتنا الكاميرا إلى مشهد صاخب نوعًا ما، رقص وطبول، إنه عرس كبير، كل هؤلاء الحاضرين أقربائي، يمكنك أن ترى العريس بين الحشود، ها هو هناك، نعم إنه أنا، وهو عرسي، كنت سعيدًا لأنني تزوجت فتاة كنت أريدها فعلًا، هذا الجالس هناك هو أرحب، أراك قد اعتدت ملامحه وعظام وجهه البارزة، كانت ليلة من أحلى ليالي حياتي، استيقظت في اليوم التالي لأجد زوجتي ترقد بجانبي ميتة، سكت قلبها عن الخفقان لسبب لا أدريه حتى هذه اللحظة، لقد سمعت عن موت الفجأة وأستعيذ منه دائمًا، لكن يبدو أنه أتاني في أحب الناس إلى قلبي.

هل تريد مشاهد أخرى لتفهم الحقيقة المرة أم أن هذا يكفي؟ نعم، أنا أعترف، أنا أخ شقيق لأشد عين حسودة في اليمن كلها، بل في العالم كله على حسب ظني، إن أرحب الحموم مشهور في اليمن، ولا يجرؤ شخص مهما كان عاقلًا رزينًا أن يواجهه أو يتعرف به خوفًا على نفسه، كانت هناك أوقات أرى

فيها أخي أرحب يمشي فيتباعد الناس عن مساره حتى لا يراهم، كان مرعبًا، نعم أقولها، لو كان الحقد رجلًا لكان أرحب.

لقد بلغت شهرته أن عقدت معه إحدى المجلات العربية الشهيرة جدًّا مقابلة كاملة قرأها الكثير من الناس ولم يصدقوها، كان يقول إن كل شيء يحدث رغمًا عنه، عندما ينظر إلى شيء جميل لا يقدر إلا أن ينظر إليه تلك النظرة التي قد لا تستمر أكثر من ثانية، لكنها تكون كافية، ثم ختم اللقاء بقول إن الكل يتحاشاه ولا يحبونه حتى أقرباؤه، وكل ما يفعله هو أنه يعامل الناس بالمثل، من حقك أن تكره من يكرهك، ولو كرهك كل الناس فمن حقك أن تكره كل الناس، وليس لك أدنى ذنب إذا كان كُرهك هذا يؤذيهم بهذا الشكل.

لم يعانِ أحد مثلما عانينا نحن قبيلة الحموم، لقد أسقط أرحب سمعة العائلة التي أصبحت مرتبطة باسمه المقيض حتى الآن، هذا بغض النظر عن أن أذيته طالتنا أكثر من غيرنا، لأننا أكثر الناس الذين يحتكون به، عندما تتعامل مع أرحب وتحدِّثه فإنك تتعامل مع شخص عادي جدًّا، لا تشعر بشيء مريب ناحيته إلا أنه صموت بعض الشيء وكلامه مقتضب وجيز، لكنك بعد أن تغادره تتكشف لك مصيبة لن تزال تنهش فيك حتى تهلكك. أحيانًا قد يحدث هذا إذا مررت من أمامه وألقيت عليه التحية فقط، أو حتى مررت ولم تلقها، كان أرحب والحق يُقال، شيطانًا.

ولك أن تتصور حال أرحب وشعوره، كل الذين يكرهونه ويكرههم يرتعبون منه، لذا كان يتسلط، لا يجرؤ أحد أن يرفض له طلبًا مهما كان، ارتكب أرحب كل شر يمكنك تصوره، أخذ أموال أناس أمام أعينهم، ضرب، اعتدى، اغتصب، وصل إلى مرحلة أن خرجت عليه شائعات أنه هو المسيح الدجال نفسه، البعض بدأ يصدق هذا بالفعل، وكان يجب أن نضع حدًّا لهذه المأساة قبل أن ينهار اسمنا على رؤوسنا ولا تقوم لنا قائمة مرة أخرى.

لقد أريتك إياه في البداية وهو أعمى البصر يهتدي بعصا حقيرة، لكن كيف أصبح أعمى؟ إن لهذا قصة.

لقد حاول كثير ممن نعرف ومن لا نعرف قتل أرحب، ولم يكن هذا غريبًا، فكل أهل اليمن يتمنون موته، لكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل على

الرغم من أن بعضها كان بالأسلحة النارية، لأن الله إذا كتب لك أن تعيش، فستعيش ولو اجتمع أهل الأرض كلهم للفتك بك، هذه قاعدة مسلَّم بها.

أذكر في تلك الأيام ذلك الاجتماع الكبير لقبيلة الحموم، كل الرؤوس الكبيرة حضروا الاجتماع، كانوا بالطبع يتناقشون في أمر واحد، أرحب الحموم، وما فعله بنا أرحب الحموم، كانت الآراء متضاربة جدًّا إلى حد النزاع الحاد، لكن في النهاية اتفق الكل على ما سيحدث، لا بد أن نجرده من سلاحه إلى الأبد، نعم، لقد قررنا أن نغتال بصر ابننا أرحب.

كان تفكيرنا منطقيًّا جدًّا على الرغم من بشاعته، هذا رجل سيُقتَل عاجلًا أو آجلًا، اسم الحموم أصبح في التراب، وشروره تنعكس علينا كأشخاص في تعامل الناس معنا، فلا بد أن نفعلها نحن، لن نقتله بالطبع فلسنا مجرمين، نحن فقط سنغتال بصره، ويجب أن نفعل هذا بأيدينا، وأن يكون هذا على مرأى ومسمع من كل القبائل، فيعود لنا ماء وجهنا وتعود لنا هيبتنا بينهم.

دعني أنقل لك الصورة كاملة كما حدثت في تلك الفترة المشهودة، وجد أرحب الحموم نفسه ذات يوم مدعوًّا إلى حفل عائلي بسيط، عائلة من قبيلتنا تحتفل لسبب عائلي ليس مهمًّا جدًّا، كان من الغريب أن يدعوه أحد، لكنه قبل الدعوة ببساطة وحضر الاحتفال، وفي منتصف الليلة أُصيب أرحب بدوار مباغت أجبره على أن يسند رأسه على المائدة التي كان يجلس إليها ويغيب عن الوعي بهدوء.

يمكنك الآن أن تراني في هذا المشهد قد أتيت ومعي بعض الرجال من أقاربنا لنحمل أرحب بعيدًا عن تلك الصالة وندخله إلى إحدى غرف البيت، يمكنك أن تراني أيضًا أكشف عن ذراعه وأحقنه بمادة ما بسرعة ثم ترانا نغلق الباب بإحكام وراءنا وننسحب في هدوء ونعود لنكمل الحفل.

في اليوم التالي حدث تجمع كبير في الشارع الرئيسي بوادي المسيلة، تجمهُر كبير من الناس الذين أتوا لرؤية حدث ما دعوناهم لأجله، ترى الآن مجموعة من الرجال يحملون شخصًا معصوب العينين ويخترقون صفوف الجموع متجهين إلى ساحة رملية قريبة، نعم، هذا أنا وبعض من أقربائي نحمل أرحب.

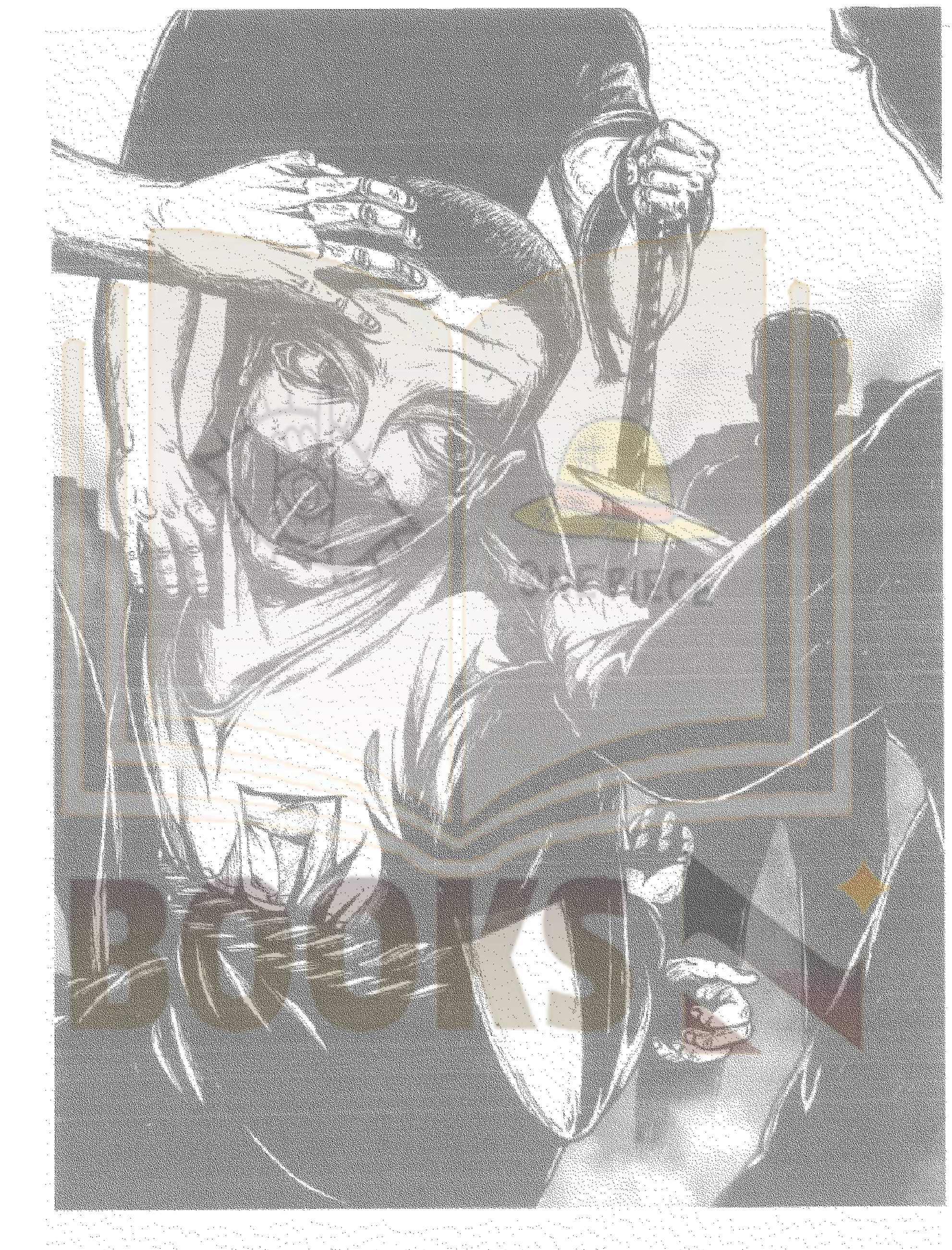
وضعناه على الأرض، كان مكبَّلًا بشكل يستحيل معه أن يحرك يديه أو قدميه، الشمس في منتصف السماء والجو حار خانق، هل تتساءل عما نفعله؟ نحن ننفذ ما اتفقنا عليه نحن أكابر الحموم، نفعل ما كان يجب أن نفعله منذ زمن، يمكنك سماع صوت أرحب مكتومًا من وراء الكمامة التي وضعناها على فمه، لا أدري لو كنت قد لاحظت أم لا، لكننا أيضًا قيدنا حركة رقبة أرحب بشكل يستحيل له تحريكها، ما زلت أسمع سؤالك عما نبتغي، تابع وستفهم كل شيء.

كان الناس ينظرون إلى بعضهم غير فاهمين، وفجأة أزلنا العصابة عن عيني أرحب واتضح كل شيء، كانت هناك حديدتان دائريتان كل واحدة موضوعة على عين، ألم تعرف ماهية الحديدتين بعد؟ إنها أداة استعرناها من عيادة طبيب العيون، وهي تمسك الجفون لتبقي العين مفتوحة دائمًا بشكل إجباري مهما حاول المريض إغلاقها، يستعملونها في العمليات الجراحية على العين عامة. سمعنا من أرحب صرخة مكتومة لكنها بدت عالية جدًّا في آذاننا، صرخة ألم، فقد وجَّهْنا جسده ورأسه وعينيه لينظر إجباريًّا إلى قرص الشمس الكبير.

حاول أن يتملص مرارًا بتحريك جسمه في محاولة للانقلاب على بطنه، لكننا طبعًا اخترنا أقوى رجالنا لتكبيله بالسلاسل السميكة وتثبيته، كان أحد مشاهد حضرموت التي لا ينساها أي يمني، لحظة اغتيال عين الشر، الناس توقفوا في أماكنهم من هول الموقف، يمكنك أن ترى رجالًا من الشرطة يقفون لمشاهدة الحدث دون محاولة للتدخل، فنحن نفعل ما نحافظ به على الأمن العام وليس العكس.

كانت هذه هي الخطة ببساطة حتى تغتال بصر إنسان دون أن تقدِم على أفعال شنيعة مثل فقء العين أو صب ماء ساخن عليها أو حتى اقتلاعها بيدك أو بالسكين أو ضربه عليها مباشرة.

كان أرحب يصرخ ويحرك كرات عينيه يمينًا وشمالًا للهرب من قرص الشمس، كان يتألم بقسوة، هل تصفنا بقساة القلوب؟ أنت لا تعرف الشر الكامن داخل هذا الرجل، إن الأمر كله يذكرني بمشهد تكرر كثيرًا في الحضارات القديمة، مشهد حرق الساحرة، لقد كانوا يأتون بها ويصلبونها أمام الكل ويحرقونها، هي عملية طبيعية يتم فيها تطهير الشر، الفرق هنا أن الشر كان متمثلًا في عيني رجل.



ظللنا على هذا الحال أربع ساعات كاملة، حتى تأكدنا أن بصره قد احترق، أُصِبنا بالإجهاد الشديد نحن وكل الحضور، في النهاية تطهر اسم قبيلتنا، لقد كانت عملية اغتيال، اغتيال بصر.

أعدنا العصابة على عين أرحب وحملناه على أكتافنا مغادرين المكان إلى منزل العائلة الكبير، كان منهارًا، وضعناه داخل حمام بارد ليغتسل بعد كل هذا الإجهاد، ثم أرقدناه على سرير ووضعنا له قماشًا مملوءًا بالثلج على عينيه لنخفف من ألمه، كان في حالة يُرثى لها، لم ينطق بكلمة على الرغم من أن كلام كبير العائلة له كان قاسيًا وهو يخبره أنه الآن قد تطهر من شره إلى الأبد، وبأنه سيسمح له بالسكن والعيش في أي بيت من بيوت العائلة يختار، وهم ملزمون باحتياجاته كافة، قال له أيضًا إنه سيزوِّجه لو أراد ذلك، كانت أيامًا لا تُنسى.

بعد شهر وثلاثة أيام بالضبط توفي أرحب لسبب غير معروف، وُجِد ملقى على الأرض في بيت العائلة الكبير، وخرجت الحموم كلها في جنازته، كنت من الذين حملوا نعشه، الجنازة مشت بهدوء حتى وصلت إلى مقابر الحموم الشهيرة حيث جهزنا له قبرًا خاصًّا بعيدًا عن القبور الأخرى، كنا نعتقد أن هذا أكثر أمنًا بشكل ما. وصلنا إلى قبره، لكن ما هذا؟ لماذا لم يحفر هؤلاء القبر جيدًا؟

رأيت راعي المقبرة يتجادل مع أحد كبار العائلة ويقسم بأغلظ الأيمان أنه حفر القبر بالحجم المعتاد في كل القبور، وهو يمارس هذه المهنة منذ عشرين عامًا، وليس من المعقول أن يخطئ مثل هذا الخطأ الغبي الآن. لم نضيِّع مزيدًا من الوقت، طلبنا منه أن يزيد حجم الحفرة لننهي هذه المهمة بسرعة، وبالفعل أمسك الرجل جاروفه وبدأ في الحفر.

لست أدري شيئًا عن الحفر، لكن إما أن هذا الرجل لا يفقه شيئًا، أو أن هذا التراب لا يتحرك فعلًا، الرجل يبذل مجهودًا هائلًا كما هو واضح وجدران القبر كما هي لا تتزحزح، أخذ يضرب الجدران بجاروفه بقوة بلا فائدة، وهنا نزل الشباب لمساعدته، البعض أمسك حجرًا ثقيلًا وأخذ يضرب على الجدران في محاولة لتوسيع الحفرة، نصف ساعة كاملة ونحن نحاول، حتى يئسنا تمامًا.

شرع الرجل في حفر قبر جديد، لكن شيئًا حدث في تلك المقبرة، الرجل أُصيبَ بالذهول العارم، هذه الأرض لا تستجيب للجاروف كأنها تأباه. تحوَّل ذهول الرجل إلى رعب وقراءة للمعوذتين، ثم بدأ اهتمامنا يعود مرة أخرى

للقبر الضيق الأول، حملنا أرحب وأدخلناه في ذلك القبر الضيق ولقد بذلنا في هذا جهدًا حقيقيًّا، كان هذا هو الحل الوحيد، لم نعد نريد شيئًا أكثر من أن تدفن هذا الرجل لننتهي من هذا العذاب.

بدأنا في ردم القبر بعد أن أدخلنا أرحب حتى سوَّينا الأرض جيدًا وبدأنا ننفض التراب عن ملابسنا، دقائق وسمعنا ما أرجف قلوبنا وأذهلنا، صوت أرضي مكتوم من النوع الذي تسمعه في وقت الزلزال، وصوت تكسر عظام واضح جدًّا، يا إله السماوات! هل أنا أهذي؟

عدنا إلى ديارنا، وهناك فهمت كل شيء كما حدَّثنا أحد الشيوخ من قبيلتنا، حدَّثنا عن ضيق قبر الحاسد وظلمته، وهو شيء ليس بغريب على روحه، ففي حياة الحاسد يكون في كدر نفساني وضيق دائم في صدره، ويستمر هذا الضيق معه في قبره، لكن أن يُضَم القبر على عظامه حتى يكسرها فهذا ربما يكون عذابًا منزَّلًا من الله لهذا الرجل الحسود بالذات دون غيره، وهكذا كانت نهاية أخي، أرحب الحموم.

مشى اللعين الأصلع ناحية قفص طويبة فهرعت أمسك قضبان قفصي وأقول بغضب:

- إياك أن تمسه بسوء أيها الشيطان، فإن كلامه حق والعين حق، ولقد تأكد هذا بالحقائق والمشاهدات والعلم، بل إن رسولنا قال إن العين يمكن أن تدخل الرجل القبر، يعني يمكن أن تَقتُل.

نظر إليَّ شارلوتان بعيني صقر واستدار لي بجسده وقال:

- الأمر بسيط إذن، انظر إليَّ بعينك واقتلني وانجُ بنفسك من هنا.

ظهر العزم على وجهي وأنا أرد عليه:

- ليت العين تعمل بمجرد الكراهية، لكنت أحرقتك مكانك أيها الشيطان، لكنها تعمل في النفس الخبيثة ولست أملكها، وإني حقًّا لا أصدق أنك بكل العلم الذي تدعيه لا تعلم أن مئات البشر يمتلكون قدرات التأثير عن بعد، أفلم ترَ يومًا أولئك الذين ينظرون إلى الملاعق فيثنونها أمام الناس؟ هذه القدرة وحدها تثبت أن هناك قوة في العين.

ابتسم شارلوتان بزاوية فمه تلك الابتسامة الكريهة التي يفعلها دومًا وقال:

- هل رأيت أمام عينيك شخصًا يثني ملعقة يا شيخ؟

قلت بغضب:

- لا لم أرَ بعيني، لكنه أمر مشهور وشاهدت كثيرًا من مقاطع الفيديو عن ذلك، وكثير من الناس رأوا هذا على المسارح.

قال شارلوتان وهو يضيِّق عينيه بطريقة مخيفة:

- سحرة المسارح الذين يفعلون هذا يا جاهل إنما يعملونه بخدعة وبخفة يد، فيستبدلون بالملعقة السليمة أخرى مثنية دون أن يلاحظ أحد، أو يحركون الأشياء ويرفعونها عن بعد بخيط شفاف، هل أنت أحمق لهذه الدرجة يا شيخ؟ لقد اعترف كمٌّ لا بأس به من سحرة التخييل على المسارح بهذا مثل جيمس هايدريك الذي قال إن كل ما فعله على المسرح كان من أجل أن يظهِر كم الغباء الموجود في عقول الأمريكان واستعدادهم لتصديق الخرافة.

دوَّر شارلوتان عصاه في يده وقال:

- لكني قد أعذر حماقتك يا شيخ، فإن فريقًا من العلماء الفرنسيين قد أبهرهم يومًا عرض الساحر جين بيير جيرارد واستدعوه لاختباره في المعمل ففشل فشلًا ذريعًا واعترف أنه يستخدم الخدع ليمتِّع الناس، وهذا هدف نبيل في رأيه، أنا الذي لا أصدق مقدار جهلك يا شيخ وأنت تصدق هذا الهراء الذي يقول إن العين يمكن أن تثني ملعقة أو تحرك شيئًا من موضعه، يبدو أنك تشاهد كثيرًا من الأفلام البلهاء.

ثم ظهرت نبرة من الغضب في صوت شارلوتان وهو يقول:

- لقد عرض ملياردير أمريكي جائزة مليون دولار على الساحر الإسرائيلي يوري جيلر الذي اشتُهِر بثني الملاعق فقط لو أنه جاء وثنى ملعقة أمام عينيه، فتهرَّب يوري طبعًا، وبالمناسبة يوري هذا كان جاسوسًا إسرائيليًّا يبهر المشاهير بعروضه حتى يصل لأغراض دنيئة، فقد نجح في التقرب من مايكل جاكسون وتسبب له بقضية التحرش الشهيرة ثم تآمر ونجح في قتله بأمر من اللوبي اليهودي.

استدار شارلوتان وأعطاني ظهره ومشى ناحية قفص طويبة وهو يقول:

- أنا لن أقتلك يا طوبية، أتعلم لماذا؟ لأن هناك حقيقة علمية تثبت أن فكرة العين الشريرة المؤذية هذه لها أساس علمي وليست مجرد أساطير، فجسم الإنسان يخرج منه مجال كهربي من الدماغ ومن القلب، وهذا المجال الكهربي نستطيع قياسه بتوصيل أقطاب إلى الدماغ أو إلى الصدر، والمفاجأة أنه يمكن قياسه عن بعد أيضًا دون أن نمس الجلد، هذا يعني أن ذلك المجال الكهربي دائمًا يخرج من الجسم ويهيم حوله، وفكرة أن هناك موجات كهربية تخرج من الجسم وتؤثر في أقطاب بعيدة تجعل من فكرة العين الشريرة هذه فكرة غير مستحيلة، وبخاصة أن هذه الموجات الخارجة من الجسم يمكن أن تسير كيلومترًا كاملًا دون أن تضعف.

وقف شارلوتان أمام قفص طوبية وقال:

- أحيانًا ننظر إلى شخص معين فنشعر بألم في المعدة أو غصة في الحلق، وقد يحدث هذا بمجرد سماع صوته يقترب، أليس هذا نوعًا من التأثير عن بعد؟ فربما أن يكون تأثير العين هو تأثير نفسي يجعل الشخص الضحية مريضًا أو خائفًا فيفشل أو يخطئ، لكن في جميع الأحوال ما نعتقده هو أن هناك أساسًا علميًّا ونفسيًّا وراء تأثير العين الشريرة، ولكن...

فتح شارلوتان القفص ببطء وقال لطوبية الذي كان يضع وجهه في الأرض:

- أنتم اجتمعتم كقبيلة الحموم وقمتم بعملية اغتيال عين إنسان، وهذا جهل مُطْبق، فالعين لا تخرج منها أي إشارات كهربية ولا أي إشارات أخرى، بل إنه حتى لو كان الحاسد أعمى فهو يقدر على الحسد، فالموجات الكهربية تخرج من الدماغ والقلب وليس من العين، فهذا الذي فعلتموه كان جريمة.

طرق شارلوتان بإصبعه فجاء الروسي فمال عليه شارلوتان وهمس له بشيء فهرع الروسي إلى أحد الدواليب وأخرج حقنة كبيرة سقط قلبي عند قدمي فور رؤيتها، وأمسكتُ القضبان في غضب وقلت:

- إياك يا لعين، إياك يا قذر أن تفعل شيئًا أحمق.

اتسعت ابتسامة شارلوتان الكريهة وقال:

- العين بالعين، والسن بالسن، أليس هذا كلام دينك؟ نحن نريد حق أرحب الحموم ممن خربوا له عينيه.

قبضت بشدة على القفص وصرخت:

- أيها القذر، اتـــ...

قبضت الأساور على معصمي بقوة فهبطتُ على الأرض في ألم رهيب حاولت مقاومته بكل شكل لكني لم أقدر، واستلقى جسدي على الأرض وأنا أنظر بطرف عيني إلى الروسي وهو يمسك بطويبة ويخرجه من القفص ويغرز الحقنة في عنقه، صرخ طويبة من الألم وقلة الحيلة وهو لا يدري ماذا يُفعَل به، ثم انهار على ركبتيه على الأرض وهو يمسك وجهه في ذهول وينظر حوله في عدم فهم ويقول:

- يا شيخ... يا شيخ... أنا لا أرى يا شيخ.

انتفض جسدي بالعزم وقمت متحاملًا على ألمي الذي كاد يدمر معصمي وحاولت المشي ناحية باب القفص المغلق، لكني سقطت في الخطوة الثالثة على الأرض وأنا أسمع صوت طويبة يبكي وينتحب ونظرت إليه والدمع ينزل منه أسود من الغبار الذي على وجهه، لم يحتمل طويبة فسقط على الأرض مغشيًّا عليه، ثم نظر إليه شارلوتان باحتقار وقال:

- طويبة سيخرج من هنا حيًّا، لكنه لن يخرج من هنا بصيرًا، فكما اغتال بصر أخيه فقد اغتلنا نحن بصره.

نظر إليَّ شارلوتان في ثبات وقال:

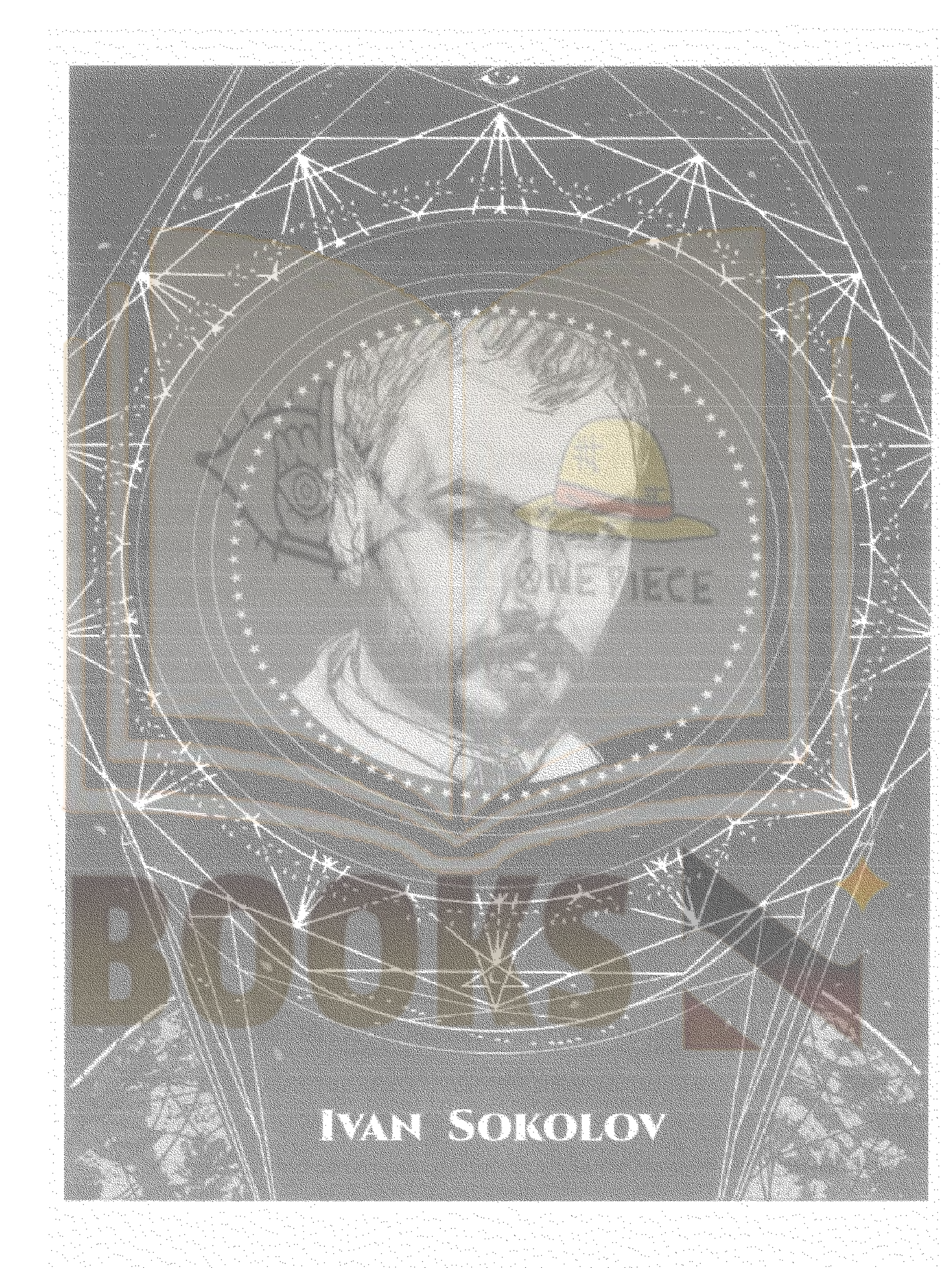
- لم يأتِ دورك بعد يا خالد موسى، بل أنت الأخير، وإن هناك شخصًا قبلك.

نظرت حولي في ألم وحزن وحيرة، لم يبقَ أحد غيري، ما الذي...

قال شارلوتان:

- إيفان سوكولوف، حان دورك لتلقي ما لديك.

تقدم الروسي النحيل من أحد الأقفاص الفارغة ودخل فيه وأغلق الباب عليه وأنا أنظر إليه في دهشة وحيرة والدمع ينزل من عيني من الحزن على طويبة، والحق أنه لم يعد شيء في هذا المكان يعنيني أو يدهشني، لكن هذا الروسي حكى قصة ضربت جميع القصص التي قيلت من قبل وضربت جميع المنطق الباقي في عقلي، ضربته بمطرقة من حديد.


Ivan Sokolov

13

حكاية مهرجي السيرك

يرويها: إيفان سوكولوف

«لعمري إن مهرجي السيرك كائنات قذرة،
خذها كلمة من رجل نام مع هذه المخلوقات
في غرفة واحدة».

حياتي كانت غاية في القصر والتفاهة، سنوات حياتي السبع والعشرون لا أذكر منها شيئًا ذا قيمة، كل شيء كان تقليديًّا؛ المدرسة، البيت، فتاة الجيران الحسناء، حلم العمل في موسكو، سجائر «كازبك» الروسية الداكنة التي يخرج دخانها مني بنسق رتيب مثل حياتي الرتيبة.

أنا من مدينة ساحلية لا يهمك معرفة اسمها حاليًّا، فنحن ميتون على أي حال. الشهر الأخير من حياتي كان ملحمة تعلمت فيها أن الدنيا لم تكن قط بخير، وأن البشر هم أكثر السلالات العاقلة غرورًا وغطرسة.

هربتُ من المدرسة العليا وشرعتُ في البحث عن عمل، قمت بعرض نفسي كثيرًا على أشخاص ربما يجدونني ذا نفع في مؤسساتهم، وفشلت حتى وجدت عملًا في النهاية كخادم لعائلة تسكن في أحد البيوت الراقية، عملت معهم أكثر من سنة حتى اعتادوني واعتدتهم، هل يهمك معرفة اسمي؟ أنا لا أهتم، ففي العالم الذي أنا فيه لا نعتني بالأسماء مطلقًا، لكن دعني أقول إن اسمي في عالمكم كان إيفان، إيفان سوكولوف.

ربما يكون الشيء الوحيد المختلف في شخصيتي هو أنني أعشق السيرك منذ صغري، لم أفوت أي عرض سيرك أسبوعي قط في أي بلد روسية أسكن فيها، فالتذكرة عندنا بثمن زهيد، رأيت عروضًا من سيرك باروم في ألمانيا، وسيرك دو هيفير الباريسي، وسيرك بيلاروسيا المذهل، وأنا لا أملُّ أبدًا على الرغم من أن العروض ربما تبدو مكررة للبعض.

قديمًا كان السيرك وحشيًّا، قتال ودماء وآلاف المشاهدين تصيبهم نشوة القتل، كان اسمه الكولوسيوم، واليوم أصبح الأمر أكثر تحضرًا، لكن صدقني، ليس أكثر متعة.

الشهر الأخير من حياتي كان غامضًا جدًّا ومقبضًا، سافرت مع العائلة التي أخدمها في إجازة سنوية قصيرة، ومفهوم الإجازة عند هذه العائلة المدلَّلة هي شهر من الاستجمام في موسكو، المدينة التي أحببتها وكانت قبري في النهاية.

من الصعب جدًّا أن تأخذ شخصًا ساحليًّا مثلي وترمي به في موسكو وتفترض أنه سيكون مسؤولًا عن عائلة من أم وثلاثة أطفال. وصلنا إلى مطار دوموديدفو الكبير، أنهينا الإجراءات في نحو ساعتين لأنهم فتشوا كل حقائبنا بلا استثناء، ولولا هذا لكنا أنهينا أمورنا في عشر دقائق، لا بد أنني لم أرُق لهم، فمن سيفتش على عائلة مسكينة كهذه لو لم يكن معهم أحمق مثلي.

أمضينا الليلة في فندق ما لا أذكر اسمه، رحلتنا إلى موسكو كانت أسبوعين، قضيت مع العائلة أسبوعًا منهما والباقي قضته العائلة والشرطة في البحث عني، مسكينة هي هذه العائلة، أعرف تمامًا كم أفسدت إجازتهم التي لا يحظون بها إلا مرة في العام.

إن موسكو بديعة حقًّا، تشعِرك أنها متحف للمباني الواقفة أمامك كعارضات الأزياء، قصور سانكت، قصر الملكة إيكاترينا الأحمر، كاتدرائيات، متاحف. أمضينا وقتًا جميلًا بين معالمها حتى أتت ليلة الجمعة الأولى، والأخيرة بالنسبة إليَّ.

ارتدينا أفضل حلة لنزور سيرك موسكو الكبير، ولك أن تتخيل سعادتي، كنت متحمسًا حتى ليمكنك أن تسمع دقات قلبي.

كل عروض السيرك التي شاهدتها في حياتي كانت مجرد لعب أطفال أغبياء بالنسبة إلى هذا الحفل الخيالي الذي رأيته في آخر ليالي حياتي، مدرجات مبنية مثل المسرح الروماني، قاعة عرض متحركة تتحول إلى خمسة أشكال، جليد، ومياه، ورمال، وجمباز، وأرضية فيلم ماتريكس السوداء. كنت مشدوهًا، رأيت عروضًا كثيرة متتابعة غاية في الرقي والإتقان، أذكر أنه كانت هناك دراجات نارية تدور داخل كرة خشبية عملاقة، لاعبو جمباز يقفزون في السماء بينما الخلفية وراءهم تتحول لتماثل الفضاء الخارجي بنجومه

وكواكبه، كان كل شيء ساحرًا جدًّا، حتى جاء عرض المهرجين، وهي فقرة محببة لمعظم الناس، ولست منهم.

والحق أن هؤلاء لم يكونوا مهرجين عاديين كالذين تراهم على التلفزيون، كانوا شياطين، رأيت كبيرهم يلبس عباءة حمراء طويلة ويضع قرنين على رأسه، يا له من شكل شيطاني لمهرج! حتى عروضهم لم تكن كوميدية كما هو مفترض، بل مرعبة مستحيلة تساقطت لها أذقان الجالسين ذهولًا، شعرت أنه يجب أن أذهب لأقضي حاجتي، فقمت من مكاني وبحثت عن الحمام.

أنهيت أموري بالداخل سريعًا ثم خرجت، المشكلة أنني لم أحفظ مكان مقعدي، ومن المستحيل في هذا المكان أن تعرف أين كنت تجلس في قاعة تسع عشرين ألف إنسان.

لكن ما هذه الضجة؟

هناك صوت مزعج جدًّا على الرغم من أن كل شيء يبدو على ما يرام، والناس حبست أنفاسها استعدادًا لشيء باهر حيث تحولت الأرضية لأرضية فيلم ماتريكس السوداء.

اكتشفت أنه لا توجد ضجة في أي مكان، إنما الضجة التي أسمعها هي في دماغي، فهناك دوخة غريبة أشعر بها وصوت غريب لا أدري ماهيته يضرب في رأسي بقوة، حتى سقطت على الأرض.

آخر ما أذكره هو أنني جاثٍ على ركبتي أنظر إلى المسرح الذي استعمره مهرجون مرعبو المنظر يؤدون عرضًا ما.

أصابتني غيبوبة متقطعة، وكلما أفتح عيني منها أرى ستارًا أخضر غريبًا ومجموعة من الأصوات تتحدث بالروسية، ثم أغيب مرة أخرى عن الوعي.

- تي مني ڤيريش؟ (هل تثق بي؟).

- گنيشنا (نعم).

- پرْدَلــچيتي ســڤَيو رابوتو پــچالستا (إذن تابع عملك وتمتع به).

فتحت عيني ببطء، هناك بعض المهرجين يقفون أمام مرآة كبيرة يبللون منديلًا ما بمادة ما في كأس ما ثم يمسحون به المساحيق الملونة

على وجوههم، ورئيسهم ذو العباءة الحمراء يتكلم ببضع كلمات آمرة لواحد منهم ثم يشرع في إزالة المساحيق عن وجهه بدوره، ثم أخذ يخلع القرنين القطنيين اللذَين كان يضعهما على رأسه، هناك شيء ما لا أفهمه، أم أنه تأثير الغيبوبة؟ هؤلاء المهرجون، إنهم ليسوا بشرًا، يبدو أنهم... وفقدت الوعي مرة أخرى.

فتحت عيني فجأة، ظلام تام، صوت جهاز المدفأة الرتيب، أصوات شخير مقززة، أنا راقد على الأرض وهناك ما يقرب من أربعة أجساد نائمة على أربعة أسرَّة حولي، يبدو أنني كنت أحلم، أذكر أنني رأيت مجموعة من الرجال حمر البشرة جدًّا ذوي أسنان صفراء مقززة يتحدثون في ثياب المهرجين، وها أنا أفقد وعيي للمرة الثالثة.

استيقظت على أصوات عالية جدًّا صمَّت أذني، أشعر أنني نمت مائة سنة، هناك ظلام وأضواء ملونة تتتابع على وجهي، أشعر أنني معلق في السماء بشكل ما، لا أرى شيئًا تقريبًا مما هو حولي، لكني أسمع صوت موسيقى من النوع الذي يميز أفلام الحركة.

بدأت عيناي تعتادان البيئة من حولي، هناك صوت شخص يتحدث عبر الميكروفون، تبعته أصوات هتاف وتصفيق من عدد رهيب من الناس لا أراهم بوضوح، وفجأة أضاء المكان كله دفعة واحدة، ورأيت كل شيء.

أنا معلَّق على ارتفاع متوسط بحبال محكمة في وسط مسرح السيرك وهناك نحو عشرين ألف متفرج ينظرون ناحيتي ويهتفون ويصفقون وينتظرون شيئًا ما، نظرت إلى المسرح من تحتي، هناك أربعة مهرجين يدورون حول القاعة بشكل استعراضي ويحثون الجمهور على الهتاف بصوت أعلى. أمسك كبير المهرجين بالميكروفون وقال شيئًا ما بنبرة ساخرة ثم أشار إليَّ، المفاجأة التي عرفتها هي أنني كنت معلَّقًا هكذا مرتديًا ملابس المهرجين، شعرت بالأنف الأحمر الكبير المثبت على أنفي، لم أستوعب الأمر، كنت قد أصبحت فجأة مهرجًا معلَّقًا وسط سيرك موسكو الكبير.



شيء ما أشعر أنه جامد في ملامحي كلها، كأنها ضاحكة بشكل إجباري، وكلما حاولت تحريك عضلات وجهي أفشل ويظل التعبير الضاحك هو الغالب، كان عقلي أصغر من أن يستوعب شيئًا وقتها، سمعت ضحكات الجمهور على دعابة ما قالها أحد المهرجين ثم بدأت الموسيقى الحركية مرة أخرى، تلك الموسيقى التي تجهزك لأمر جلل سيحدث بعدها، الجمهور مترقب، المهرجون وقفوا على شكل دائرة تحتي بحيث تكون وجوههم إلى الجمهور، ما الأمر؟ لا أشعر أنني على ما يرام، ثم حدث شيء رهيب.

اشتعلت ملابسي بالنار فجأة، مع صرخات الدهشة من الجمهور، عشرون ألف صرخة دهشة سمعتها مع حرارة مفاجئة شعرت بها في أطرافي، إنني أشتعل، لا لست أشتعل، إن أطرافي هي التي تشتعل، النار شبت فجأة في أكمامي وساقيّ الاثنتين، ولم تمس باقي الملابس، لا أفهم شيئًا، ملامحي ما زالت ضاحكة، الحرارة تتزايد ببطء، النار تأكل الملابس التي اكتشفت أنها ثقيلة فحجبت جلدي عن النار لفترة وجيزة، باقي الملابس على صدري وحوضي لا تصل إليها النار لسبب ما، الجمهور تحولت دهشته إلى تصفيق إعجاب على ضحكتي الظاهرة لهم، مهلًا أيها الحمقى، إن ملابسي تذوب، شعرت بلسعة النار على أطرافي، الجمهور يصفق، صرخت صرخة عالية جدًا ظهرت كضحكة مجلجلة في السماعات، وشرعت الموسيقى تصم الآذان، ثم تصفيق حار، وأنا أحترق.

أنظر إلى الناس، وجوه ضاحكة مستمتعة، أطفال مدهوشون، مهرِّجون يستعرضون حركات استعراضية على المسرح، وأنا أحترق، أطرافي تحترق أيها السفاحون، ألا تشعرون؟ صرخت بألم رهيب، لكن بلا جدوى، ما زالت ملامحي ضاحكة جدًا، وصوت ضحكاتي يملأ الأجواء، نزلت دموعي الساخنة على وجنتيّ الملتهبتين، كانت أطرافي تحترق فعلًا.

نظرة حانت مني إلى الجمهور رأيت فيها أمرًا لا يُصدَّق، رأيت العائلة التي أعمل خادمًا لديهم يضحكون ويأكلون الفيشار ويستمتعون بالعرض جدًا ويصفقون مع الناس، لكن من هذا الذي يجلس بجانبهم هناك؟ أي عبث هذا؟ إنه أنا، رأيت نفسي جالسًا مع العائلة، بملامحي المتحمسة والمدهوشة من تلك العروض الروسية التي لطالما حلمت برؤيتها، كنت أضحك وأقهقه بملء شدقي.

أنا أموت ببطء، أموت من الألم والحرقة، قدماي ويداي يذوبون بالنيران، ألم لا يصفه ألف حرف، المهرجون لا يزالون يقولون دعابات تضحِك الجمهور، أرى نفسي بينهم أصفق، والعائلة تصفق بجانبي، ثم نزل بي الحبل فجأة على الأرضية التي تحولت لحوض ماء كبير جدًّا، غطست في المياه الباردة ثم أخرجني الحبل مرة أخرى عدة مرات وأنا أسمع ضحكات الجمهور، وضحكاتي، ثم أخرجني الحبل وعلّقني مرة أخرى أمام الكل، لم أكن أشعر بأي شيء، ببساطة لأن روحي كانت قد فارقت جسدي صاعدة إلى السماء.

إن ما تعرفونه أيها البشر عن المهرجين لا يكاد يُذكر، هل منكم من أحد له صديق أو قريب يعمل مهرجًا في سيرك؟ هل سمعتم من أحد أصدقائكم أن له قريبًا أو صديقًا يعمل مهرجًا في السيرك؟ أعرف أن الإجابة بالنفي القاطع، أنتم تنظرون إلى المهرج في السيرك وتظنون بتفكيركم البشري القاصر أنه شخص عادي له عائلة ويعيش حياة طبيعية خارج السيرك كأي شخص، لكن دعوني أخبركم سرًّا.

هذه الكائنات ليست من البشر في شيء، إنهم شياطين، شياطين خُلِقَت من نار كبقية الشياطين وتنزلت مع بقية الشياطين لتعمل عمل بقية الشياطين، الفارق أنهم شياطين ذوو كيان مرئي، يؤدون عملهم على أتم وجه، يمتِّعون البشر بحركات وأقوال سخيفة تافهة، والبشر يعلمون بسخافتها لكنهم يستمتعون بها ويضحكون عليها ضحكات سريعة لا تدري مدى صدقها.

لقد أحرقوا روحي البريئة التي لم تفقه شيئًا بعد قربانًا لإضحاك بعض البشر الذين رأيت نفسي أضحك بينهم، وهذا هو المبدأ أيها الإنسان، نحن الشياطين نضحِك ونمتِع، لكنك تضحك على أمر نفسك التي تتعذب بالنار في الدار الآخرة حتى البكاء.

نعم، هم في كل مكان، بل إن منهم من يجري منكم مجرى الدم ولا تشعرون بهم، يحدِّثونكم وتحدِّثونهم، يناقشونكم وتجادلونهم، هم مهرجون من الطراز الأول، يصوِّرون لكم أفعالكم كأنها غاية في الإمتاع، بينما هي غاية في الخطورة، نعم هم شياطين، يتنزلون كل ليلة إلى قاعات السيرك، يؤدون دورهم اليومي ثم لن تدري عنهم شيئًا حتى الليلة التالية.

- تي مني ڤيريش؟ (هل تثق بي؟)

- گنيشنا (نعم).

- پرْدَلــچيتي ســڤَيو رابوتو پــچالستا (إذن تابع عملك وتمتع به).

دون أي مقدمات اندلعت النار في جسد الروسي الذي رفع رأسه وانثنى وصرخ صرخة ضبع يتعذب، لم تقوَ قدماي على حملي أكثر من هذا فهويت على الأرض حابيًا ببطء إلى القضبان حتى أمسكت بها وألصقت وجهي فيها ناظرًا إلى ما حولي، لم يعد في الأمر شك، هذه ليست الدنيا التي أعرفها، يستحيل أن يحكي ذلك الروسي حكايته وهو ميت، وجدت قدمَي شارلوتان القبيحتين تقفان أمام وجهي فرفعت رأسي إليه في يأس، فمد عصاه ووضع طرفها على رأسي وقال:

- فكِّر يا شيخ، أم أن لقب شيخ هذا يعني أن عقلك قد شاخ وجمد من قلة التفكير؟

هذا اللعين لو أنه لا يملك تلك الأساور لجعلت رأسه يصدأ مثل قضبان هذا القفص، لكن ما باليد حيلة، ضرب اللعين بعصاه على قضبان القفص بعنف وهو يقول بثورة:

- فكِّر، استخدم هذا العقل، إنه مجاني لو لم تكن تعلم، فكر أيها الشيخ، أين أنت؟ قل أين أنت.

نظرت إلى المأساة البشرية التي حولي ثم نظرت إليه بعينين خبا منهما بريقهما ورغبتهما في الحياة، فوجدته يقول:

- أنت حيث ينساك أحبابك ويفرح فيك أعداؤك، ولا يبقى لك مخلوق إلا عملك، هل تعلم أن عملك مخلوق؟

نظرت إليه في فزع وأنا أذكر حديثًا للنبي عن أن العمل الخبيث يصاحب الرجل في قبره، ابتلعت ريقي وشعرت بالعرق البارد على جبهتي وأنا أنظر حولي، هذا مستحيل، لا يمكن أن يكون هذا هو الـ...

قاطعني اللعين وهو يشير إلى ذلك الروسي الذي تأكله النار:

- كل لذة قضيتها في شهوة تعني هنا صرخة ألم، كل ضحكة بذلتها في شر إنما تضحكها على نفسك التي تحترق ها هنا، هذا الروسي عرف، وما من بشر إلا سيعرف، وسيكون لديه زمن إلى الأبد ليعترض فيه كيفما يحلو له، وليس له من أحد يسمعه، ولا أحد ينجيه.

ارتجفت كل ذرة في كياني وأنا أنظر إليه وأقول:

- من... من أنت؟

تحركت زاوية فمه بالابتسام وقال:

- أنا شارلوتان، وإنك ستنسى في حياتك كل شيء إلا اسمي.

أفاق طويبة على صوت الروسي الذي يصرخ محترقًا، فأخذ يتحسس ما حوله ويقول في فزع:

- يا شيخ، ما الذي يحدث؟ هل أنت بخير يا شيخ؟

قال شارلوتان:

- هذا النزل الذي نزلتم فيه ولم تعتنوا باسمه هو النزل الذي سيكون مستقركم ومستودعكم، كل الغرف والزينة التي كانت فيه هي مثل الزينة والورود التي توضَع على شواهد القبور، بينما يقبع بالداخل جسد متعفن يأكله الدود.

صرخ طويبة فزِعًا وهو لا يفهم، فضربه شارلوتان بالعصا على أم رأسه وقال:

- اصمت قبل أن أبطل لك لسانك كما أبطلت عينيك.

وضع طويبة رأسه على الأرض وشارلوتان يقول:

- كل من شاهدتم هنا هم أناس حقيقيون، بعضهم أحياء، وبعضهم... أموات.

شعرت بضغط دمي ينخفض، هل هذا اللعين يقول أموات؟ هناك دوار يتكون في رأسي، الأمر أكبر من احتمال البشر، العذاب النفسي أقسى على الإنسان من عذاب الجسد.

مشى شارلوتان إلى قفص الهندية التي ما زالت تأكلها الخفافيش ومد قدمه بداخل القفص حتى وضعها في وجهها، فرأيت عينها تطرف وتحرك يدها لتمسك قدمه في رجاء فضربها بقدمه ثم سحب القدم ونظر إليها في اشمئزاز وقال:

- في دنياكم تتعلقون بأذيال الشياطين وفي أخراكم تتعلقون بأحذية الشياطين لتلوموهم على ضلالكم، لكنكم لا تلومون إلا أنفسكم ويتبرأ منكم كل شيطان، هذه الفانية البشرية كانت تمارس شذوذها النفسي على مرضاها بمستشفى العائلة المقدسة في بومباي، وتم إعدامها لأنها تسببت في قتل أحد المرضى، أما هنا فكان جزاؤها من جنس العمل.

ثم رفع يده إلى القفص المعلق في السقف فسقط فجأة على الأرض محدثًا دويًّا رهيبًا جعل طوبية يركض من مكانه بغير هدى، كان ذلك المؤلف إياه متفحمًا بداخل القفص ولم يبق منه سوى رأسه وجزء من كتفه اليسرى وعين واحدة تنظر حولها في ألم. قال شارلوتان:

- الكذب خطيئة، وتحري الكذب خطيئة أعظم، وكتابة الكذبة في كتاب يؤثر في أجيال هو جريمة، وعذاب الكذب ينبغي أن يكون من عين الكذبة التي كذبها الكذاب في الدنيا، وهذا اللعين بعد أن أفنى حياته في أدب الجريمة كتب كتابًا سماه «نار من السماوات»، وهو كتاب عن الاحتراق الذاتي، ولقد أثَّر كتابه هذا الذي حشاه بالكذب في أجيال كاملة.

ثم مشى وعدا بحذائه فوق جثة جوزيف ليستر وهو يقول:

- حقًّا أقول، لطالما كان الإنسان يدهشنا، فلقد تفوق على أجناسنا كلها في الخطيئة، ربما لأن خلقه من طين حقير، لكن أن يأكل الإنسان جسد أخيه الإنسان ويطهوه ويضع عليه البهارات وينشئ سلسلة مطاعم عالمية من أجل هذا فهو قد تجاوز قدرتنا حتى على التخيل، وإنا قد علمنا بشأن ليستر هذا من الأساطير التي تُقال على المافيا، ولم يعرف أحد صدق الأمر من كذبه، فقد تم اغتياله مباشرة بلا دليل واحد يمكن تصديق القصة به أو تكذيبها، لكن في كل الحالات فإن العاقبة واحدة وهي الموت، الكذاب عاقبته الموت ومن يطبخ لحم البشر عاقبته الموت.

ثم وقف شارلوتان أمام قفصي وقال:

- كل الذين ماتوا ها هنا في هذا البورجاتوريوم إنما هم أموات من عهد سحيق، فليزا موظفة الاستقبال مثلًا كانت تحكي قصتها أيام الحرب العالمية الثانية، ألم ينتبه أحدكم لهذا؟ كذلك ذلك اليهودي الذي حكى عن مخلوقات جوف الأرض إنما هو رجل مختل مات في السبعينيات وهو مؤلف كتاب «الأرض المجوفة» الذي لعب في أدمغة ملايين من البشر، بينما القصص الواردة فيه هي أصلًا قصص مفبركة، وقبل أن يموت هذا اليهودي المختل اشترى أرضًا في البرازيل من أرباح كتبه وبدأ يقيم فيها مشروعًا لعمل الجنس البشري السامي بالتزاوج مع العرق النبيل في جوف الأرض، وزعم أن هذه الأرض التي اشتراها فيها فجوات تؤدي إلى باطن الأرض.

هز شارلوتان رأسه أسفًا وهو يقترب مني فهرعت أبتعد في خوف إلى نهاية القفص، فأخذ اللعين يدور حول القفص ليدنو مني ويقول:

- هل أنت حي أم ميت يا خالد موسى؟

ظللت أبتعد عنه بكل طريقة بشكل فطري وأقول:

- أنا حي أُرزق، أنا لا أذكر أنني مت، ابتعد عني.

ظهرت أسنانه القبيحة وهو يقول:

- حقًّا؟ وهل تذكر اليوم الذي وُلدتَ فيه؟

سكت لساني من الخوف ولم أعتد هذا في نفسي على الإطلاق، لكن مجرد ذكره لفكرة أن أكون ميتًا جعلت قلبي يرتجف من الرعب، فقال لي:

- في بعض الرؤى نرى مشاهد من المستقبل، أليس هذا يعني أنه ربما تكون أحداث المستقبل تحصل الآن ونحن فقط نشاهدها على نهر الزمن حين ننام؟ ربما تكون هناك نسخة منك الآن في المستقبل تعمل أعمالك التي ستعملها.

سقطتُ جالسًا على الأرض غير عالم ما الذي يمكن أن يقال لهذا الشيطان الذي أكمل قائلًا:

- ربما تكون أنت الآن هو هاته النسخة التي في المستقبل، لكنه مستقبل بعيد نوعًا ما، في البرزخ.

فتح الشيطان باب قفصي ودخل إليه وأنا أزحف للوراء ببطء وقال:

- لقد رأيت بأم عينيك أن الذي يقول الصدق ها هنا يخرج بسلام، فمم أنت خائف يا شيخ؟ أليس قلبك عامر بالإيمان والصدق؟ أم أنك...

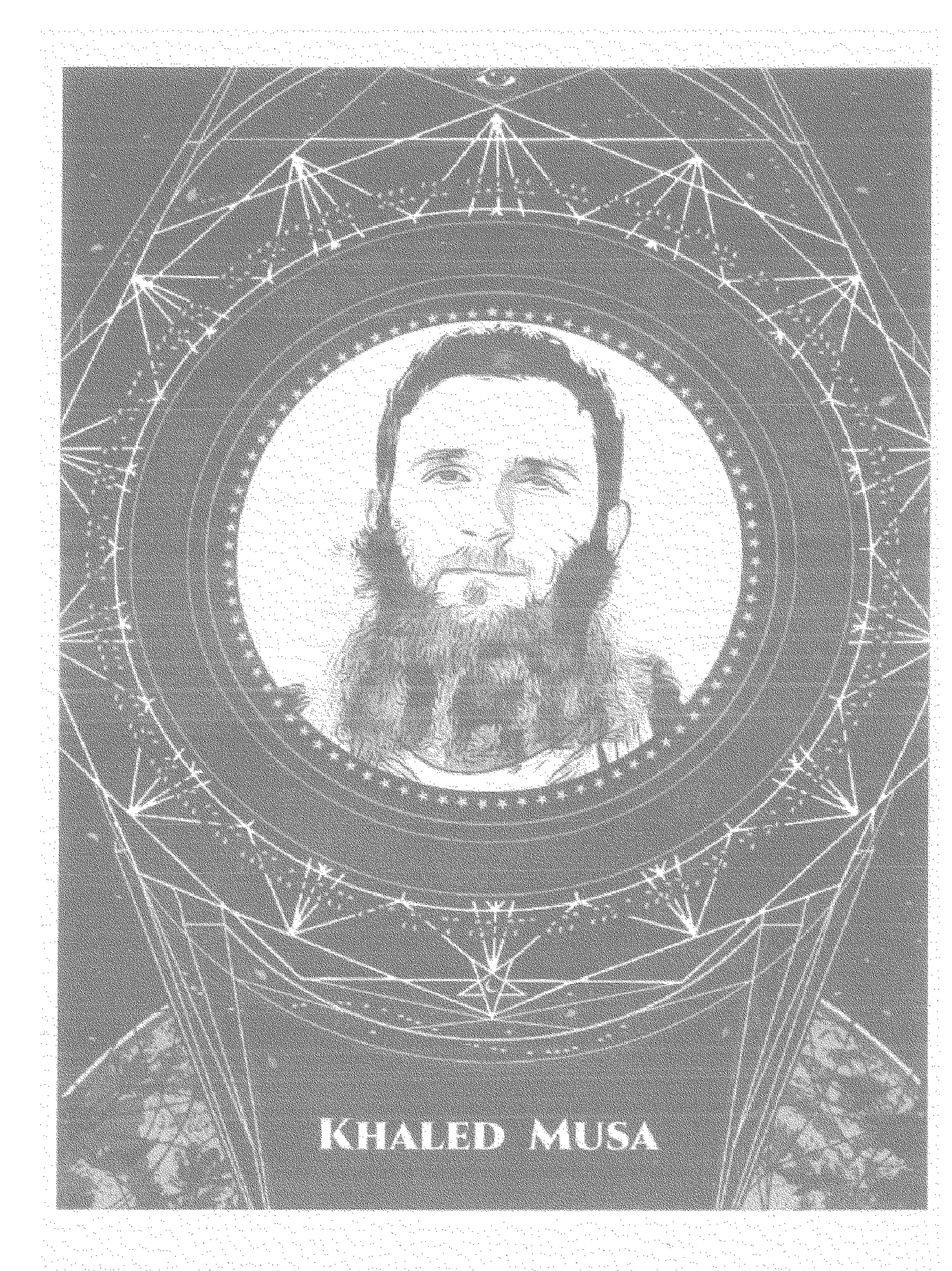
قلت بأكثر لهجة حازمة استطعت أن أخرجها:

- أنا لا أكذب أبدًا.

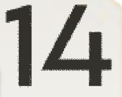
ابتسم الأصلع بزاوية فمه وقال:

- فتكلم، فإن لسانك اليوم هو نجاتك.

استندت على القفص واستغفرت ربي وأنا أسترجع في ذهني أحداثًا هي السبب في كل شيء، أحداث شيطانية.


KHALED MUSA

14



حكاية تلبُّس الجن

يرويها: خالد موسى

«هذه الفتاة لا يوجد خلل طبي في دماغها،
أنا الذي أسكن فيه».

جني.

قلوب ضباع وأعين بشر، لا يتركون أنثى تمشي في طريق إلا كشفوها بأعينهم من أسفلها إلى أعلاها، فإذا وجدوا رداء معقولًا ينظرون إليه نظرة لا مبالية، وإذا وجدوه واصفًا ينظرون إلى ما يصفه نظرة محرومة خاطفة كي لا يفقدوا وقارهم الرجولي العتيد، ثم تشتعل نفس الضبع فتخطف نظرة أخرى قبل أن تختفي الفتاة عن مجال الرؤية، وإذا ركزتَ ستجد أنهم يختلفون في الطبائع والطبقات المجتمعية والسن وكلهم يملكون نفس الضبع إياه، ودومًا يبدؤون النظر من الأسفل إلى الأعلى، إلا في حالة فاتن.

كانت الوحيدة التي إذا مرت في الطريق ينظرون إليها من الأعلى ولا يتجاوزون بالنظر إلى أسفل حتى لا تضيع لحظة واحدة من تأمل هذا الجمال الصارخ، محجبة الرأس، ذات شعر ذهبي ينحسر عنه الحجاب بشكل متعمَّد، ترتدي ملابس ضيقة فاتحة تصف كل شيء لكن لا أحد يهتم، فالنظر إلى وجهها فقط يشبِع ويسكِت نفس الضبع إلى نفس أخرى شاردة في مملكة الجمال.

من أجل هذا الجمال اصطف المريدون على باب والدها لكنها رفضتهم جميعًا، فقلبها معلَّق بإنسان واحد لا تريد دونه إنسانًا، وإنها لتهبه أي شيء يريده فقط لو أنه أتى، من أجله كانت تقف أمام المرآة كثيرًا وتفرد شعرها الطويل وتتفنن في تزيينه، وتتنهد في شوق، كانت تحدِّث نفسها وتغني، لقد أطلت الغياب يا لص المشاعر، تأتي وتسرق قلبي ثم تغيب...

كانت إذا أغلقت على نفسها باب غرفتها ارتدت أقصر ثوب تملكه ثم تضع مكياجها الكامل وتتعطر وتقف أمام المرآة وتتمايل وتحدِّثه كأنه يسمعها، ثم تنادي باسمه، وربما يكون هذا معتادًا من الفتيات إذا اختلين بأنفسهن، لكن أن ترتدي الفتاة في منتصف الليل فستان سهرة وتضع المكياج الكامل الذي

لا تضعه عادة إلا في مناسبات الزواج ثم تنتعل حذاءها الأنيق وتغمر نفسها بالعطر، ثم تمشي إلى السرير ببطء وترقد عليه، ثم تأخذ لحافها وتغطي نفسها ثم تغلق النور وتنام، فهذا أمر وراءه قصة.

***

شعر فاحم يصففه كأحسن النجوم، عينان تحويان دفئًا يكفي العالم أجمع، ابتسامة تشرق إذا رأت عينيها، كانت تدخل معه في عوالم ليست على هذه الأرض، كان يراقصها تارة ويحملها إلى السماء تارة، ثم تصحو من نومها شاعرة بأكمل معاني اللذة، ثم ترتدي أفضل ما عندها وتذهب إلى الجامعة شاعرة بالنشاط، لم تكن تراه إلا في أحلامها، وكلما رأته أشرق وجهها بنور لا ينطفئ إلا حينما يغيب عنها ليالي، كانت تؤمن أن الرؤية المتكررة لشخص في المنام تعني أنه حقيقي، وأنها ستقابله يومًا، فأبوها رأى أمها في المنام قبل أن يخطبها بسنوات، ثم لما ظهرت أمامه على أرض الواقع عرفها جيدًا، كذلك هي، ستراه يومًا، وستعيش لأجل هذا اللقاء ولو انتظرته قرونًا.

رأته في أول منام منذ سنة وشهقت فرحًا، ثم رأته مرة ثانية وثالثة ثم غاب عنها عدة أشهر، ثم جاء، ومن غيابه المتكرر وحضوره القليل أصبحت تعلم الظروف التي تجعله يأتي، فإذا انتظمت في صلاتها بضعة أيام تجده يغيب، وإذا تركت الصلاة يقبل عليها مبتسمًا، ولم تكن هذه مشكلة بالنسبة إليها، فهي لا تصلي في غالب الأيام إلا إذا سمعت صديقتها ريم وهي تعظها بحب، عندها تصلي يومًا أو اثنين ثم تنقطع.

ثم لاحظت أنه يغيب عنها إذا شغَّلت والدتها القرآن في البيت، فكانت تطفئه معتذرة بأدب بأنها لا تقدر على المذاكرة، ثم أنها عندما تتزين وتغني وترتدي أكثر الملابس إغراء كان يأتيها وأحيانًا لا يأتيها، فأصبحت تعرف الفساتين التي إذا ارتدتها فإن احتمال مجيئه لها يزيد، أما الفساتين الأخرى التي لا يأتيها بارتدائها مطلقًا جمعتها ورمتها في القمامة على الرغم من غلاء ثمنها.

كانت فاتن إذا خرجت من بيتها لا تخرج إلا في أحلى صورة وأكثرها أناقة، لربما تراه صدفة ويكون هو اليوم المنتظر، ولولا خوفها من أهلها لرمت الحجاب وخرجت دونه، فهو على الأغلب لا يحبه.

وفي ليلة من الليالي المقمرة كانت تتقلب على سريرها وتنظر في المنام إلى مشهد غاية في العجب، رأت نفسها ترتدي ذلك الفستان القصير الذي نامت به وهي تمشي في الشارع وسط الناس الذين كانوا ينظرون إليها تلك النظرة النهمة التي تعرفها وتراها في الشارع طيلة الوقت، لكنها هنا في الحلم كانت نظرات ضباع صريحة لا يخفيها أصحابها، لم تكن معتادة هذا، فمشيت في الحلم متجهة إلى مبنى ذي قباب بيضاء كأنه القصر، ورأت على سلم المبنى ذلك الوسيم الذي تعشقه، كان يرتدي بذلة سوداء وحوله مجموعة من الراهبات يرتدين السواد، نظر إليها بطريقة لم تعتدها، ثم دقت أجراس غريبة على مسامعها فنظرت إلى أعلى المبنى، والتجم لسانها، فهذا لم يكن مبنى عاديًّا، بل كان أشهر مبنى في محافظة بلقاس بأكملها، كنيسة القديسة دميانة.

***

دفقات من الدمع من عينيها الجميلتين وشهقات من الحسرة، وريم تحتضن كل هذا وتهدِّئ من روعها وتربت على ظهرها بحنان، لم تكن ريم تدري كيف تقول لها الذي تريد أن تقوله دون أن يزيد من حسرتها، فاعتدلت قليلًا ثم ألقت بالكلمة:

- حبيبتي، هذا الذي كنتِ ترينه ليس شخصًا ستقابلينه بعد حين ولا في أي وقت، بل إنه ليس شخصًا أصلًا، أنا أعرف ما هو. لكن عديني ألا تفزعي.

هدأت شهقات فاتن وأنصتت فقالت ريم:

- إن لنا صديقة حدث معها نفس الشيء بالضبط، هذا جن، وليس أي جن، بل هو جن عاشق مسيحي، وهذا من أشد أنواع الجن.

شعرت ريم بارتجافة سرت في جسد فاتن، كأنما صعقتها بسلك مكهرب، فهي من أشد الناس جبنًا فيما يتعلق بهذه الأمور، وشعرت فاتن بمزيج من الرعب والحزن من أن يكون هذا الحلم الجميل الذي عاشته إنما هو في الحقيقة شيطان، وظهرت عليها علامات الانهيار وكانت سريعة التأثر تصدق أي شيء، فسالت دموعها على وجنتها كالسيل الملتهب وقالت:

- لكن هو يحبني، أنت لم تريه، هو جميل جدًّا و...

أسرعت ريم تحتضنها وتقول:

- أنا أحدِّثك عن خبرة يا فاتن، فقط شغِّلي القرآن في المنزل وداومي على الصلاة وسترين كيف أنه شيطان وسينصرف عنك.

اتسعت عينا فاتن رعبًا، فهذا يذكرها بالطريقة التي كانت تستدعي بها هذا الرجل ليأتي عندما تكف عن صلاتها أو تطفئ القرآن، ثم إن هناك ملابس معينة تجذبه، فقالت:

- نعم، هو مستحيل أن يأتي إلا إذا أطفأت القرآن.

بدا على وجه ريم القلق والخوف ووضعت يدها على وجه صديقتها تطمئنها وتقول:

- عليك ألا تكفي عن تشغيل القرآن طوال الليل، واتركي هذه الملابس الضيقة، سآتيك اليوم بعد المغرب وسأحضر لك شيئًا إذا ارتديتِه سيغيب عنك إلى الأبد، ولا تخافي، فلن ترَيه ثانية أبدًا.

انصرفت فاتن والخوف يتلاطم على جدران قلبها ودخلت إلى المنزل وهي ترتجف، وسلمت على أهلها وهي ترتجف، ودخلت غرفتها ناظرة إلى كل شيء بريبة، وخافت أن تبدل ملابسها فارتدت عباءة والدتها وجلست تصلي حتى غربت الشمس، وجاءت ريم ومعها كيس أخرجت منه نوعًا من الملابس يسمى الإسدال، اختارته بالألوان التي تحبها فاتن وألبستها إياه ونظرت إليها في سعادة وهي تتحول تمامًا إلى مظهر مختلف، لكنه لم ينقص من جمالها شيء.

قضت ريم معها وقتًا لا بأس به وقرأت عليها قرآنًا وبخَّرت الغرفة وفعلت كل الأمور التي تسمع أنها تطرد الجن، ثم انصرفت وتركت فاتن وحدها، ومرت الساعات وتأخر الوقت وهدأت الشوارع وانطفأت جميع أنوار المنزل، حيث دخل أبواها للنوم وبقيت هي في تلك الغرفة لا تجرؤ على إغلاق النور، وقلبها يدق ألف دقة خوف بعد أن كان يدق في ذات الوقت ألف دقة شوق.

ومرت ساعات أخرى ثقيلة شعرت بعدها أن وعيها يغفو وتسحبها حبال النوم حتى انقادت ونامت، وهنا رأته...

كان في وضع لم تره فيه حتى في أشد لحظاتهما حميميةً، رأته جاثمًا على صدرها كأنه قط كبير وعيناه الوسيمتان تقتربان من وجهها في شهوة، كانت هي تصرخ وتتلوى وتحاول التملص، وكلما حاولت الفكاك ضغط على صدرها بقدميه الجاثمتين فتشعر بانقطاع تام في النفس، وبدأت شهقاتها تخرج مسموعة للعالم الخارجي.

كانت أمها قائمة تصلي في الغرفة المجاورة، فدخلت بسرعة وقلبها يهتز قلقًا، فوجدت ابنتها بظهر متقوس على وجهها أشد علامات الألم، فحاولت أن توقظها برفق ولم تستطِع، فأخذت تهزها بقوة ثم رمت على وجهها ماء فانتفضت فاتن قائمة وصرخت بعنف ألقى الفزع في قلب أمها التي احتضنت ابنتها وهي تُبَسمِل وتُحَوقِل، ثم قامت وشغَّلت القرآن وعادت لتهدج ابنتها وتربت على شعرها لتهدأ.

لاحظت الأم أن فاتن وضعت يدها على أذنها بألم شديد عند سماع القرآن، وتحرك رأسها يمينًا وشمالًا في تأوه، مدت الأم يدها لتفحص الأذن لكن فاتن قبضت على أذنيها بقوة وكل شيء فيها يرتجف، فقامت الأم فاغرة فاها في شيء من الفهم المرتعب، ومدت يدها لتطفئ القرآن، فكفت فاتن عن الألم ونامت في سكينة.

***

لم يعد من يرى فاتن يعرفها بسهولة، من شحوب وجهها وعينيها التائهتين على الدوام، لم تعد رشيقة الحركة، بل أُصيبت بتشنجات عصبية غريبة جعلتها تمشي بثقل وصعوبة وتبدو مريضة جدًّا، وعلى الرغم من صراخ أمها طيلة الوقت أن هذا شيطان تمكن منها، فإن الأب أصر على أن يأخذ ابنته إلى المستشفى، فحالة أذنها أصبحت سيئة جدًّا، وعلى قدر الألم وشدته إلا أن جميع فحوصات الأذن والجسم كانت سليمة تمامًا.

وفي المستشفى بدأ الطبيب النفسي يتكلم مع فاتن فتخبره بأمور لم يستطع تفسيرها، قالت إنها عندما تضع رأسها في السجود تشعر أن أحدًا يدوس على رأسها بقوة، وإذا سمعت القرآن فإن ألم أذنها يشتد عليها ثم

يسكت الألم إذا انطفأ، لكن الطبيب طمأنها كثيرًا وقال إنه لا علاقة للجن بالأمر، وأنه شاهد حالات مثل هذه عولجت بلا مشكلات.

استأذنه الأب أن يأتي لزيارة البيت عندهم لأن الذهاب إلى عيادة الطبيب النفسي يجعل الناس تتكلم عن البنت وهذا غير مقبول.

وجاء الطبيب وبدأ يعاين بنفسه كل شيء حكوا عنه، فوجد اختلافًا كثيرًا، وهو معتاد هذا، فالمرضى النفسيون المؤمنون بالأساطير يحكون لك دائمًا الحالة بصبغة أسطورية لا تلبث أن تفشل عند التجربة العلمية، فهو في البداية جعلها تصلي أمامهم لينظر إلى حكاية هذا الذي يدوس على رأسها، فصلَّت ولم يحدث لها شيء، كأنها شعرت بضع مرات في أثناء الصلاة بثقل في الرأس فوصفت الأمر على إطلاقه أنه يحدث لها دائمًا، وشبَّهته بشخص يدوس عليها تقريبًا للصورة إلى الصبغة الأسطورية.

لكنه لاحظ أن الفتاة يصيبها هياج وألم غير طبيعي عندما تشغِّل لها أمها القرآن، وعلى الرغم من غرابة الأمر، فإنه نزل من البيت واشترى شريط قرآن آخر لقارئ آخر تمامًا يختلف في صوته وطريقته، وجاء إلى البيت وشغَّل القارئ الجديد، فلم يحدث للبنت أي شيء، فعرف أن الأمر يتعلق بصوت شيخ معين أو ربما يتعلق بموقف معين حدث في أثناء تشغيل صوت ذلك الشيخ في طفولة البنت، فأحدث عقدة استمرت ثم ظهرت فيما بعد.

بدأ الأهل يشعرون بالاطمئنان وذلك الطبيب يتردد على المكان كل حين ليتابع الحالة، حتى جاءت ليلة لن تُمحى من ذهن ذلك الطبيب إلى الأبد...

كانت فاتن تتشنج في سريرها ويتصلب جسدها ويتقوس ظهرها وتموء ناظرة إلى السقف بألم، ولم يقدر الطبيب النفسي على فعل شيء إلا أنه أخرج من حقيبته مهدِّئًا فملأ به الحقنة وكشف ذراعها ووضع الحقنة فيها بخفة، وهنا توقفت فاتن عن التشنج وتصلبت في موضعها وتحول صراخها إلى صوت أجش لا علاقة له بصوتها الرقيق، ونظرت إلى المحقن بغضب متوحش وسحبته من ذراعها وغرسته في عنق الطبيب المرتعب الذي سقط على الأرض مغشيًّا عليه.

وعادت فاتن من تصلُّبها هذا لينة على السرير كأن ما أخذها قد تركها، ونظرت إلى الطبيب نظرة باردة وسحبت على نفسها الغطاء ونامت.

***

دخل البيت رجل ذو لحية طويلة لا يهذِّبها متصلة بشارب يكاد يخفي فمه الذي كان يردد تسبيحات واستعاذات بعضها معتاد وبعضها لم يسمع به أحد، كان الشيخ مشهورًا بأنه روحاني يطرد الجان ويعالج المس ويجلب الحبيب ويبعد الحسود وكل هذه الأمور التي تأتي مجتمعة عادة، وهذا النوع من الرجال تجد عينيه سارحتين في أماكن لا تستدعي كل هذا الشرود، مثل زاوية السقف مثلًا، ولا يحدِّثك ناظرًا في عينيك، بل يتحدث وهو يرمق الفراغ ويقول كلمات حكيمة أو هي فقط تبدو كذلك.

قاده والد فاتن إلى غرفتها وهو له كاره، لكن الأمر كان قد خرج عن السيطرة تمامًا ولم يعد الطبيب يأتي وأصبحت فاتن تتراوح بين حالة الهياج الشديد والضعف الشديد، وكلامها في حالة هياجها لا يكاد يمت لشخصيتها بصلة.

دخل الشيخ ونظر إلى الجمال الملقى أمامه على السرير في حالة ضعف وقلة حيلة، ولقد كانت فاتن فاتنة حتى في أشد حالات ضعفها، طلب الشيخ من الأب والأم أن يغادرا الغرفة وأن تبقى معه مساعدته فقط، وعلى الرغم من كراهية الأب لهذا فإن وجود المساعدة طمأنه، فغادر الغرفة هو وأمها وتركاها في حضرة الشيخ، أو تركا الشيخ في حضرتها.

جلس الشيخ ينظر إلى شفتي فاتن واحمرارهما، وأطلق عينيه بجرأة في رقبتها وساعِدَيْها، ثم وضع يده على جبهتها وأخذ يقرأ بعض الأشياء بصوت هامس وهي تزداد ضعفًا على ضعف وفتنة على فتنة، وبدأت يده تتحسس وجهها ورقبتها، كانت تملك بشرة ناعمة لم يرَ لها مثيلًا، فأطلق سهام الخسة من عينيه لينظر إلى ما هو أبعد من ذلك، وحرَّك يده حتى كادت أن تصل إلى صدرها و...

- هل يعجبك ما ترى يا داعر؟ أتحب أن ترى المزيد؟

تجمدت حدقتا الشيخ الدجال على جسد الفتاة، فلم يكن ذلك صوت مساعدته ولا صوت أي أنثى، كان صوتًا خبيثًا رجوليًّا منبعثًا من ناحية فاتن، نظر الدجال إليها في فجع فرأى ما جعله ينتفض إلى الوراء حتى سقط على ظهره، فتلك الفاتنة الساكنة المتألمة الملتصقة على السرير أصبحت تعلو وجهها كشرة تشبه الشياطين، وظهرت في عينيها ظفرة بيضاء غير مفهومة وهي تطلق عليه نظرة ساخرة كالحية، فقفز الدجال من مكانه هو ومساعدته وصرخ، فاندفع الباب بضربة من قدم الأب ونظر إلى الحالة فوجد ابنته مستلقية في ضعف واستكانة والدجال ومساعدته يهرعان إلى الباب، وقال الدجال وهو خارج:

- أقسم بالعظيم المعظم ما هذا ببشر ولا حتى شيطان، هذا لعنة.

نظر الأبوان إلى بعضهما في يأس وصرفا الشيخ الذي رفض أن يأخذ مليمًا، ولم يكن على الأرض أحزن من قلب والدها الذي قلّت حيلته وأمها التي نزلت دموعها ساخنة ولم تدرِ ما تفعل، فهذا الشيخ كان بارعًا خبيرًا كما يُقال عنه، وهي لا تعرف أحدًا غيره.

في اليوم التالي قامت فاتن من سريرها كأنه ليس بها بأس، وبدأت تتجمل عند المرآة وتمشّط شعرها وتفرده بتلك الطريقة التي تحبها، وأخرجت أقصر فستان سهرة لديها وارتدته وتزينت بذهبها، فجاءت الأم وشاهدت ابنتها أمام المرآة ففرح قلبها وقالت:

- يا قطعة من قلبي أنتِ اليوم قمر، شكلك يقول إنك شُفيتِ.

نظرت إليها فاتن نظرة جامدة ثم نظرت إلى المرآة وأكملت ما تفعله، هرعت الأم ودموع الفرح على خدها تنادي الأب الذي أتى متعكزًا على ضعفه وعجزه ونظر إلى ابنته في أجمل حلة وترقرقت عينه بالدمع. قالت لها الأم:

- إلى من تتجمل حبيبتي فاتن؟ من صاحبة الحظ التي ستزورنا؟

نظرت فاتن إليهما بطريقة سيئة وقالت:

- أنا خارجة.

شهقت الأم وهي تنظر إلى الأب الذي بدأت رقرقة دموعه تجف وهو يقول:

- أتخرجين بهذا؟ هل فقدتِ عقلك أم فقدتِ احترامك يا فاتن؟

نظرت فاتن إلى الفستان الأسود الضيق القصير الذي يرسم جسدها وقالت:

- وماذا فيه؟ إنه يبرز جمالي، من حقي أن أظهِر جمالي الحقيقي.

قالت الأم:

- فاتن، أنت محجبة، هل جننتِ؟! اخلعي هذا الشيء الآن قبل أن يعمل أبوك مشكلة.

أخذت فاتن زجاجة العطر وتعطرت وتهيأت للنزول وهي تقول ناظرة إلى ضعف أبيها:

- دعيه يقف في طريقي إن كان رجلًا.

كانت صدمة الأب بالغة تكاد أن تفقِده اتزانه، فكلمة مثل هذه وفعل كهذا لا يُقال لأب ولا يخرج من فاتن أصلًا، وهي الحنون التي لم ترفع عينيها عليه مرة. تحركت فاتن بثقة ناحية الباب فتحرك الأب وهو لا يصدق نفسه ووقف أمام الباب ليمنعها، ولم يكن ما حدث بعدها حسنًا.

صفعة حادة نزلت على وجه فاتن من أبيها الذي كان يرتجف غضبًا تبعتها نظرة غضب واشمئزاز ظهرت على وجه فاتن التي أمسكت بتلابيب الأب ودفعته ليصطدم ظهره بالجدار، ثم رفعت يدها لتصفعه لكنها لم تحتج إلى هذا، فأبوها كان يجاهد ليتنفس، فضربة الظهر هذه أسكتت مجرى التنفس عنده وسقط الأب على الأرض وسبقته دموعه، ونظر إليها نظرة لو أنها وُجِّهَت لصخر لانشق، واندفعت الأم الباكية تربت على وجه الأب وتبكي وتنظر إلى ابنتها ولم تقل حتى كلمة، وظهر على وجه فاتن شيء من الارتجاف وهي تنظر إلى أبيها الذي لم تكن تحتمل عليه الشوكة يُشاكها، وبدأت الدموع تغزو عينيها الذاهلتين المرتجفتين، وتحوّلت الرعشة إلى ارتعاد وتشنُّج وتصلُّب في بعض الأطراف، ثم سقطت على الأرض وغابت عن الوعي.

***

لم يعد الأمر قابلًا للسكوت عنه، فنهضت ريم وتعهدت بحل هذا الأمر وإيجاد شيخ أمين، وبخاصة أن أبوي فاتن قليلا الحيلة في هذا الأمر بالذات، والحقيقة أن العثور على رجل صادق في بئر من الدجالين والموهومين هو أمر يشبه العثور على إبرة في كومة من القش.

أول خطوة عملتها ريم هي الاعتماد على كلمة شخص ثقة واستبعاد نصائح الغرباء الذين لا تعرفهم أو الذين سمعوا عن فلان أو علان، لا بد أن تكون تعاملت مع فلان وجربت طريقته ثم تحكي عنه، وعلى الرغم من صعوبة الأمر، فإن ريم وصلت للشيخ خالد موسى وعرفت أنه يحفِّظ القرآن الكريم في إحدى الجمعيات، فانتظرته خارجها.

كان خالد موسى شابًا فتيًا وليس في سن الكهولة كما كانت تظن، فلم تدرِ أتطمئن لهذا أو تقلق، لكنها اعتمدت على كلام الناس عن أخلاقه العالية، ولقد ظهر هذا في لطفه واهتمامه الشديد حينما عرف المشكلة وقرر أن يذهب حالًا للزيارة والمساعدة وجميع كلماته تنبعث منها الحماسة والفتوَّة.

قالت ريم إن صاحبتها فاتن تلبَّسها جن مسيحي، فقال لها خالد بهدوء:

- لا يوجد شيء اسمه جن مسيحي، الجن ليس فيهم مسيحيون أصلًا، ألم تقرئي قوله في سورة الأحقاف عندما قالوا عن القرآن أنه نزل بعد موسى وكأنهم لا يعترفون بعيسى؟ ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ [آية 30].

قالت له ريم:

- مسيحي أو غير مسيحي يا شيخ، إن فاتن حاليًا تمر بحالتين، فمرة تكون مرتجفة ضعيفة ومرة تتعامل بشكل قبيح جدًا، حتى إنهم يضطرون إلى تقييدها في سريرها بالحبال حتى لا تخرج وتتسبب في فضيحة.

لم تزِد ريم عن هذه التفاصيل ولم يسأل خالد، وبدا على محياه أنه فهم كل شيء.

كانت فاتن جالسة على سريرها استعدادًا لدخول الشيخ خالد الذي قوبل بنظرات غير مشجِّعة من الأب والأم، لكنه حيَّاهما بأدب جم ودخل مع ريم إلى الغرفة وظل صامتًا يستمع إلى حديث ريم معها. قالت ريم:

- قولي للشيخ يا حبيبتي كيف تشعرين، وما الذي كنتِ ترينه في منامك؟

ردت فاتن وهي جالسة على السرير دون أن تنظر إليها:

- ليس بي شيء، وإن عليكم أن تتحضروا وتتركوا هذه التخاريف وهؤلاء الدجالين الذين تحضرونهم هنا كل حين، فلا فائدة فيهم.

قالت لها ريم بلطف:

- عزيزتي، هذا رجل حافظ لكتاب الله وهو يؤدي الرقية الشرعية.

نظرت إليه فاتن بكراهية وقالت:

- كلهم كذابون مخادعون أنجاس.

توقعت ريم أن يرد خالد ردًّا قاسيًا وبخاصة أنه قام من مكانه واقترب من فاتن ببطء، لكنه قال كلمة واحدة بدت عجيبة جدًّا:

- يهودي أم كافر؟

صمتت فاتن وشردت لثوانٍ وهي تنظر إليه بتركيز لا ترمش ولا تحوِّل عينيها عنه، وظهرت ارتجافة على خدها ثم قالت بلهجة جريئة بصوت مغاير:

- لم أعلم أن المساجد أصبحت توظِّف شيوخًا ذوي أعين ملونة وسيمة كهذه.

اضطربت ريم فجأة ونادت بصوت عالٍ أقارب فاتن الجالسين بالخارج صارخة:

- الحبال، محمد، إبراهيم، الحباال.

قامت فاتن واقفة ومشت ناحية خالد وهي تقول بنفس الصوت:

- لماذا وقفت خطوتك أيها الشيخ الوسيم؟ أتريدني؟



بدأ خالد يتراجع خجلًا ثم انفتح الباب ودخل شابان من أقارب فاتن أمسكاها بعنف يبدو أنهما اعتاداه، فبدأت تزوم وتحاول التملص لكنهما قيَّداها سريعًا في حبال كانت مجهَّزة ومعلَّقة على السرير مسبقًا، التفت خالد إلى حقيبته التي تركها على الأريكة وأخرج منها قارورة ماء فتحها ووضع قليلًا منها على يده واقترب من فاتن التي أصبحت تتلوى على السرير وتصدر زمجرة تبدو وكأنها تأتي من أعماق الجحيم، وقال خالد بصوت حاد صارم:

- ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الرحمن].

ثم بدأ يرمي الماء من يده على وجهها ويقول:

- ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الرحمن].

تحوَّلت الزمجرة إلى صوت متحشرج متألم وبدت على ملامح فاتن أعتى درجات الألم وهي تصرخ بصوت لا علاقة له بصوتها البتة:

- ريم، أخرجي هذا النجس يا ر...

قاطعها خالد وهو يضع يده على حجابها ويقرأ:

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة القمر].

تقوس ظهر فاتن وتصلب محله وهي تخرِج صوتًا أشبه بالغرغرة التي بدأت تخفت شيئًا فشيئًا، وعينها بدأت تتحول من الوحشية إلى الذهول، وظهرت شهقاتها ودموعها فهرعت ريم إليها وهي تبسمل وتحوقل وتحتضن رأسها وتهدهدها، فوضع خالد الزجاجة على الطاولة وأخذ حقيبته متهيئًا للرحيل وهو يقول:

- هذا ماء زمزم، وهو شفاء، اسقِها منه كل يوم ثلاث رشفات تدعو لها فيها الله أن يشفيها، فإذا نفد الماء اتصلي بي وسآتيكم للجلسة الثانية.

وأعطى لريم بطاقة فيها اسمه ورقمه ثم استأذن وانصرف.

***

نار محرِقة استعرَّت فأيقظت جميع النائمين على كارثة، كانوا ينظرون إلى نافذة بيت فاتن فرأوا وهجًا ناريًّا في وسطه ظل فتاة تمشي بثقة ثم عملت الفتاة حركة عنيفة فتحطمت النافذة وخرجت منها أشياء محترقة أصابت المارين في الشارع برعب، حتى اكتشفوا أنها كُتب، مجلدات ذات صبغة إسلامية تُرمى مثل قذائف اللهب المتتالية التي لا تتوقف مع صرخات من أم فاتن التي ظهرت وراء ابنتها في النافذة تحاول الإمساك بها، فتدفعها الفتاة دفعًا قاسيًا جعل الأعين التي ترى هذا المنظر يهرعون إلى المبنى لإيقاف هذه المحرقة التي بدأت تخرج ألسنتها الغاضبة وتهدد نوافذ الشقق المجاورة.

ظهرت فاتن من بوابة العمارة وهي في ملابس نومها ممسكة بماسورة طويلة ضربت بها زجاج مدخل العمارة فحطمته، واقترب منها أحد الشباب وأمسك بذراعها يحاول أخذ العصا منها فانفتحت أعين الناس رعبًا ودهشة محاولين فهم المشهد المستحيل الذي رأته أعينهم، فقد صفعت فاتن الفتى بيدها الثانية فارتد إلى الوراء كأنما هو طفل صغير واختل توازنه وسقط على الأرض متراجعًا في رعب، فالفتاة الوديعة التي كانوا يرونها تروح وتجيء كل يوم أصبحت فيما يبدو متلبسة اليوم بأبشع شيطان ظهر على ملامحها التي كشرت على الجميع بهيئة كالضواري، وظهر على عينيها اللتين تحملان كراهية بالغة، وصوتها الذي تخرجه من داخلها كأنه رغاء الضباع.

ضربت فاتن بماسورتها زجاج كل سيارة تقف في مجال رؤيتها، وخرج أبوها وأمها ضعيفَي الحال مكسورَين، فانطلق كثير من الرجال إلى باب العمارة لمحاولة إطفاء الحريق الذي تنامى وأخرج أدخنة سوداء أصبحت ظاهرة في الشوارع المجاورة التي تكدست بالسيارات الغاضبة، وبذلت سيارة الإطفاء جهدًا حقيقيًّا في المرور من كل هذا والعبور إلى العمارة، ونجحوا في السيطرة على الحريق، ثم ظهرت ريم ووراءها الشيخ خالد الذي تقدم من فاتن بثقة وهو يمسك في يده غطاء قماشيًّا وأخذ يتلو قرآنًا بصوت ندي عالٍ فيقول:

- ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾ **[سورة الجاثية].**

التفتت له فاتن ورمقته بنظرة شيطانية أرعبت الناظرين لكنه علا بصوته وتلا بقوة:

- ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ **[سورة الإسراء].**

بدأت فاتن تتراجع وترتجف يدها وهو يمشي ناحيتها بلا خوف ويقول:

- ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ **[سورة الحشر، 21].**

هوت فاتن على الأرض وسقطت الماسورة من يدها فأسرع خالد ووضع عليها الغطاء ليسترها وهي ترتجف وتبكي بكاء مريرًا والناس تنظر إلى كل هذا في حزن، وانطفأت النار من المنزل وبقيت في قلبَي الوالدين اللذَين شعرا أن ابنتهما ذهبت ولن تعود لهما إلى الأبد.

***

نظر الطبيب النفسي إلى فاتن المقيَّدة على سريرها وهو يقول للأب:

- سيدي، إن ابنتك ليس بها جن أو شيطان، إنما هذا مرض نفسي معروف لنا يُدعى مرض تعدد الشخصيات.

رمقه الأب بنظرة غير راضية وهو يقول:

- لقد رأيناها تفعل أمورًا مستحيلة، حتى إنها فكت الحبال الغليظة التي قيدناها بها فاضطررنا أن نقيدها بالسلاسل كما ترى.

نظر الطبيب إلى السلاسل في أسف وقال:

- صدقني أنتم تزيدون الحالة ولا تعالجونها.

بدا على وجه الأب الانزعاج والدهشة والضيق وهو يسأل بصدق:

- نحن لا نفهم شيئًا سيدي الطبيب.

تنهد الطبيب وقال للأب:

- كما سمعت من الدجالين يا سيدي أستأذنك أن تسمع لرأي العلم والطب في هذا الأمر، إن مرض تعدد الشخصيات هذا يبتكر فيه العقل الباطن شخصية تخالف تمامًا شخصية المريض، فيعيش المريض وبداخله شخصيتان، لكل واحدة منهما صفاتها وصوتها وأفكارها وأهدافها وحتى أحلامها، بل يمكن أن يكون المريض رجلًا فيبتكر عقله الباطن شخصية أنثى فتراه يرتدي فساتين ويضع مساحيق التجميل، أو يبتكر شخصية طفل فتجد المريض يتكلم ببلاهة ويلعب بالدمى، ويمكن بنفس الطريقة أيضًا أن يبتكر العقل الباطن شخصية شيطان.

كانت المرة الأولى التي يسمع فيها الأب هذا الكلام، فقال للطبيب:

- أكمل، أكمل أرجوك.

قال الطبيب:

- العقل الباطن يبتكر الشخصيات من المعلومات الموجودة مسبقًا في عقل المريض ووعيه، فإذا تربى المريض منذ صغره أن الشيطان يزمجر ببشاعة ويصدر أصواتًا كالضواري ويكره القرآن ويحترق، فعندما يبتكر عقله الباطن شخصية شيطان ستكون فيه كل هذه الصفات، بل إن المريض لو كان مسيحيًا مثلًا يعيش في أمريكا فعقله الباطن سيبتكر شخصية شيطان يختلف تمامًا عن شيطاننا الإسلامي، فهو تربى هناك أن الشيطان يحترق بالصليب، فتجده يتألم إذا أبرزت الصليب أمام وجهه، صدقني يا سيدي الأمر كله مرض نفسي ولا أكثر من ذلك.

شعر الأب بالتوهة وهو ينظر إلى ابنته النائمة على السرير في إرهاق وقال:

- وما الذي يجعل العقل الباطن يبتكر شخصيات كهذه أصلًا؟ ما الحاجة إلى ذلك؟

نظر الطبيب إلى فاتن وقال:

- صدمة تحدث للإنسان في حياته، أو عدة أحداث تمر على الشخص ولا يحسن التصرف فيها ويكون ضعيفًا، فيبتكر عقله الباطن شخصية ثانية قوية ومختلفة، وهو أسلوب دفاعي يتخذه العقل الباطن في مواجهة الأزمات.

سأله الأب:

- وما علاج هذا المرض؟

قال له الطبيب:

- أن تتابع حالتها مع الطبيب النفسي ومع الاختصاصي النفسي، وهما شخصان مختلفان عن بعضهما، فالأول يصف الأدوية والثاني يقدم الحلول النفسية والاجتماعية.

تدخلت الأم وقالت:

- مستحيل، الساكن في ابنتي هذا ليس شيئًا منها، أنا سمعتها وهي تتحدث بعبارات من لغة أجنبية عند احتراق البيت، رأيتها بعيني ترفع يدها إلى السقف وتردد تلاوات كثيرة بلغة أوروبية لا أعرفها.

قال الطبيب بحكمة:

- سيدتي، هذا شائع في مرض تعدد الشخصيات، فالعقل الباطن هو مثل الكمبيوتر، يخزن كل كلمة سمعها الإنسان في حياته بأي لغة غريبة حتى لو سمعها في فيلم، يخزنها وكأنها ملف صوتي بداخل مكتبة عقلية كبيرة، وعندما يبتكر العقل الباطن شخصية شيطان فهو يستدعي هذا الملف الذي سمعه قديمًا ويردد نفس العبارات التي فيه، وكل حالة تعدد شخصيات نختبرها بوجود خبير لغويات نجدها تفشل فشلًا فاضحًا، بل إنها لو كانت تدّعي أن الذي يسكن فيها هو جن عراقي مثلًا وسمعتِها تتحدث باللهجة العراقية وأتينا لك بشخص عراقي هنا وتكلم معها لن ترد عليه بطلاقة بالعراقية، لأنها ستكون فقط تردد بضع جمل سمعَتها من مسلسل ما.

طرق الباب في هذه اللحظة ودخلت ريم ووراءها الشيخ خالد موسى الذي ظهر احترام الجميع البالغ له بعد حادثة الحريق، فأحنى الأب والأم رأسيهما

له تحية وتقديرًا، بينما نظر الطبيب إليه نظرة ضيق والتقت عيناه بعيني خالد الذي نظر إلى معطفه الطبي لحظة ولم يعلّق، فقال الأب وهو يتنحنح:

- معذرة يا شيخ خالد، هذا الدكتور بدوي، طبيب نفسي.

سلَّم عليه خالد ببرود ثم التفت إلى الأم وأعطاها قنينة صغيرة كقنينات العطور وقال:

- هذه قنينة مسك، ادهني منها على وجهها الآن، فالمسك رائحة طيبة يكرهها الجن، وقيدوها جيدًا، فنحن سنؤدي طقوس طرد الشيطان اليوم.

هنا تكلم الطبيب كأنه لم يحتمل السكوت، فقال:

- مسك؟ وطرد شيطان؟ سألتك بالله العلي العظيم يا شيخ، هل فعل ذلك رسول الله أو أحد من أصحابه؟ أم أنه دين اخترعته من عند نفسك أنت وأمثالك؟

تردد الشيخ لحظات وكاد أن يرد لولا أن قاطعه الطبيب:

- لم يطرد النبي شيطانًا من أحد يا شيخ، اتقِ الله، هذا دجل وكذب في دين الله، اتقوا الله.

قال الشيخ خالد بغضب:

- أتنكر التلبُّس يا هذا؟ ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [سورة البقرة، 275].

انحنى الطبيب وأمسك بحقيبته متهيئًا للانصراف ونظر إلى الشيخ في عينيه قائلًا:

- أنا حافظ لكتاب الله يا شيخ، ومس الشيطان هو الوسوسة، ألم تسمع أنت قول الله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [سورة الأعراف]. هذه آيات صريحة عن المس، أم أنت تأخذ من القرآن ما تشاء؟ اتق الله يا شيخ، اتق الله، ولن أقول أكثر من هذا.

ثم مشى ناحية الباب ونظر إلى الأب وقال:

- شخصية الشيطان التي ابتكرها عقلها الباطن ستعيش كلما أعطيتها اهتمامًا، وستتطور وتنمو ما دام هناك رجل مثل هذا يأتي ويقوم بخرافاته عليها، لأنك هكذا تكون أعطيت السمك ماء، أعطيت تلك الشخصية الغذاء الوحيد الذي يبقيها حية، إذا أردت أن تقتل هذه الشخصية من ابنتك ابتعد عن هؤلاء الدجاجلة وأودِع البنت في المستشفى النفسي لعلاجها بالدواء الذي أنزله الله، وليس بالمسك والخرافة.

انصرف الطبيب فقامت الأم كأنه لم يقُل حرفًا وبدأت تضع المسك على وجه فاتن، وتنهَّد الشيخ خالد ومد يده بداخل حقيبته وأخرج شيئًا شهق له الأب والأم، أخرج عصا.

***

اقترب الشيخ خالد من فاتن النائمة وأمسك بزجاجة زمزم التي على الطاولة وأخذ ينثر منها على وجه فاتن ويقول:

- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾ [سورة الفلق].

كان يكررها وينثر الرذاذ حتى بدأت فاتن ترتجف وهي مغمضة العينين، ثم قرأ آيات أخرى من القرآن بصوت ترهيبي ثم قال:

- انطق باسمك يا أنجس الدواب.

لم يجد الشيخ إلا ارتجافة تسري في جسد فاتن كأنها ترتعد بردًا، فاقتربت منها أمها شفقةً، لكن الشيخ هوى بالعصا على قدم فاتن بضربة مؤلمة وقال:

- من الذي أمرك لتتجرأ على أسيادك من البشر؟

هنا توقف الارتجاف دفعة واحدة وانتقل إلى عين فاتن التي انفتحت ببطء، ولم تكن قط عين خير، كانت فيها تلك الظفرة الشيطانية التي تطلع على العين كأنها جزء منها، ونطق الشيطان بصوت قبيح:

- أنا العالي عليك وعلى قبيلتك كلها أيها البشري القميء، أما هذه العاهرة فلن أخرج منها حتى أقتلها وستصرخ عليها دموعكم.

صرخت الأم وبكت على صدر الأب وقالت:

- هذه ليست ابنتي، هذا ليس صوت بنيتي، إن ذلك الطبيب كان يهذي.

تحرك رأس فاتن حركة إلى اليمين بشكل بطيء ناظرة إلى أمها بتلك العينين والابتسامة الوحشية وقال الشيطان:

- نعم يا امرأة، لا تصدقي أحدًا سواي، وأنا أفي بوعودي، وإنك ستشهدين نهاية هذه الفتاة العاهرة.

هوى خالد بالعصا على قدم فاتن وهو يقرأ المعوذات وأدعية الحفظ من الشرور، فقام الشيطان من السرير محاولًا الفكاك من القيود، فعمل بجسد فاتن كهيئة القوس على السرير وبدأ يشد بيد فاتن بأقصى قوة ممكنة ليفك القيد، وتحولت عينا فاتن إلى اللون الأبيض الكامل وأصدرت صوتًا كأنه خوار عالٍ والقيود الحديدية تشتد على يدها وتؤذي جلدها، وظهر على وجهها تعبير سادي وهي تشد أكثر وأكثر حتى بدأ الدم يخرج من جلد يدها عند القيود ووثبت الأم إلى ابنتها لتحتضنها، وكاد خالد أن يحذِّرها لكن فات الوقت، نشبت فاتن أسنانها في رقبة أمها كأنها نمر مفترس، فجذب الأب أمها بعيدًا فزمجرت فاتن في وجهه والدماء تسيل من شدقها ويديها، فصرخ خالد في ريم وهو يعطيها كيسًا أخرجه من الحقيبة:

- املئي مغطس الحمام بالماء وأفرغي فيه هذا الكافور بسرعة.

أخذت ريم الكيس وانطلقت لتنفذ، وبين رغاء الشيطان وصرخات الأم ودموع الأب ودقات قلب خالد، نادت ريم من بعيد أن الحمام جاهز، فنادى خالد أفضل شباب الأقارب والجيران وأمسكوا بيدها في عناية وقوة بالغة ثم فكوا القيد وحاول الشيطان التملص بأقصى قوة يملكها، لكن الشباب تكالبوا عليه وأمسكوا جسد فاتن وألقوه في المغطس إلقاءً، فتصاعد دخان كالذي تصدره أعتى المداخن مع صوت أشبه بإلقاء الماء على النار، وهمد جسم فاتن في الماء كأنما فقدت قواها كلها، وانحنت ريم لتحتضن رأس صديقتها وتقبلها، وهنا قال الشيخ خالد:

- لا بد أن ننقلها للمقرأة، فهذه الحالة أكبر مني، أما الشيوخ الرقاة الكبار هناك فهي لن تعجِزهم.

***

كانت شاحبة الوجه حائرة العين، تستمع إلى أذان الفجر وتسند رأسها على حجر صديقتها ريم التي أخذت تمسح على شعرها في رفق، قالت لها فاتن:

- يا ريم، إني رأيت فيما يرى النائم غربانًا ثلاثة ينهشون في جسدي كأنني جثة بالية وهم يأكلونني.

احتضنتها ريم وقبَّلتها على جبينها وقالت:

- لا تقلقي يا حبيبتي، فستذهبين بعد قليل إلى المقرأة وهناك سيعالجك كبراء الشيوخ مما أصابك، لا تقلقي يا أغلى الناس.

طلع الصباح بعد ساعة ونزلت ريم من البيت ومعها فاتن التي تمشي بترنح وتوجهتا إلى المقرأة.

وهناك وجدا الشيخ خالد في استقبالهما ولقد تكفل بتقديم كل شيء إلى الشيخ المعلِّم الذي علم منذ النظرة الأولى إلى فاتن أن الجن قد تمكن منها غاية التمكين.

وبعد سماع القصة المروعة كاملة أدخلوا فاتن إلى غرفة صغيرة ملحقة بالمقرأة وتم تقييدها خوفًا مما سيحدث، وبدأت القراءات تتوالى، وكشر الشيطان عن أنيابه وعرَّف بنفسه وبصق على المقرئين وسب وشتم، ثم اعترف أن هذه الفتاة قد عمل لها أحدهم سحرًا أسود يتعلق بالغيرة، وأن هذا السحر مدفون في دير دميانة، وهذا النوع من السحر مستحيل إخراجه، لأنه يُدفَن في مكان مقدس ممنوع أصلًا المساس به من العامة، ومن عظيم الخطر أن يدعي أحد أن هناك سحرًا مدفونًا هناك، فإن هذا قد يحدِث فتنة طائفية.

حاول ثلاثة مقرئون إخراج الشيطان بكل طريقة ممكنة، وبدأت طقوس الضرب لإخراجه، وصرخت ريم فيهم أن يكفوا عن ذلك لكنهم قالوا لها ألا تقلق، فالضرب لا يقع على الفتاة بل يقع على الشيطان ولا تشعر به الفتاة مطلقًا، ولم يكن هذا شيطانًا عاديًّا، فقد كان يفلت من القيد ويرد لهم الضرب، حتى إنه أدمى رأس أحد الرقاة بدفعه على الحائط بقوة يستحيل أن يملكها جسد الفتاة.

لم تنجح الجلسة على الإطلاق، وانصرفت ريم وهي تسحب فاتن المغمى عليها من بين الشيوخ الرقاة الذين كان الإجهاد قد بلغ منهم مبلغه، حتى إنهم

رفضوا أن يستقبلوا فاتن ثانية، ونصحوا بزيارة الشيخ خالد لها من وقت إلى وقت ليقرأ عليها القرآن لعل الله يأذن لذلك الشيطان أن ينصرف.

ومضت كثير من الأيام وفاتن ملقاة على سريرها في غرفتها لا تفارقها، وريم تزورها كل حين، لكن فاتن لم تعد فاتن، فمع الأيام زاد وزنها كثيرًا وتغير وجهها واختفت ملامح جمالها وأُصيبت باكتئاب حاد، وكان الشيخ خالد يحاول كل أسبوع أن يقرأ عليها بلا فائدة، وحتى الطبيب النفسي ظل يحاول إقناع أهلها بأخذها إلى المصحة النفسية، ولكن لم يستمع له أحد، فهذه الأمور غير مقبول أصلًا الحديث فيها، لأن كلام الناس لا يرحم.

وفي فجر أحد أيام السبت، صعدت روح فاتن إلى ربها، وانطفأت عيناها الجميلتان اللتان كانتا تقلبان الشوارع رأسًا على عقب إذا مشت فيها، وعاد جسدها الفاني إلى التراب الذي خُلِق منه، وفي جنازتها مشى كثير من أهل بلقاس وكان منهم الشيخ خالد الذي تصادف أن يمشي بجواره الطبيب النفسي الذي قال له بلا حرج:

- هذه الفتاة رسالة من ربكم لكم يا شيخ خالد، لقد قتلها جهلكم.

قال له الشيخ خالد بحدة:

- استغفر ربك يا هذا، فلكل أجل كتاب.

وأخرج المسواك يستاك به بسرعة استعدادًا للصلاة.

سكتت أصوات المعذَّبين كلها ولم يعد إلا أنا، ورجل قبيح أصلع ينظر إلى عيني بأكثر طريقة بشعة يمكن أن تنظر بها إلى أحد.

تلوتُ الشهادتين همسًا وأنا أدير عيني فيما حولي، طوبية ساقط على الأرض مغشيًّا عليه، لا أثر للهندية ولا لذلك المتفحم في القفص، حتى جثة ليستر وليزا لم تعودا هناك، ولم يعد هذا مدهِشًا، فقد عرفت أن هؤلاء موتى على أي حال، ولا أدري كيف استدعى هذا الشيطان أرواحهم إلى هنا، أم أنني أنا الذي ذهبت إليهم في البرزخ؟ لست أدري، قطع شارلوتان سيل أفكاري بضربة على وجهي أرجعت رأسي للوراء ليصطدم بالقفص بعنف، فصرختُ من الألم وقبضتْ الإسورة على معصمي في قسوة وحشية لتزيد من ألمي أضعافًا، وإن كان ألم روحي أشد وأنكى، قال شارلوتان بصوته الكريه:

- ملايين البشر البسطاء زرعتم هذه الأكاذيب النجسة في عقولهم فتبعوكم كالعميان ورأوا فيكم الأمل، ملايين البشر تركوا المستشفيات والعلاج الموثوق بالطب النفسي المدعم بالبحث العلمي وهرعوا إلى دجاجلة أمثالكم ليسقوا عقولهم بالسُّخف. أتظن أن المسكينة «فاتن» ماتت بسبب جن أو شيطان؟ إنما قتلها جهلكم، ماتت لأنها رمت الطب النفسي والعلم جانبًا وألقت بنفسها في أيديكم هي وأهلها، وكيف لا يصدقكم البسطاء وأنتم تتحدثون بالدين؟ لكنكم لم تقتلوا فاتن وحدها، بل قتلتم ملايين غيرها، ملايين هزمتهم أمراضهم النفسية وجعلتهم ينتحرون أو يتسببون لأنفسهم في الموت على الرغم من أن بضع زيارات للطبيب النفسي كانت ستنقذهم، لكن كيف يحدث هذا وهراؤكم يملأ عقولهم؟

قلت له في اعتراض:

- أنت لا تعـ...

هوت ضربة أخرى بالعصا على فكي شعرت بها تكسر أسناني، فأجفلت ومذاق الدم يملأ حلقي بينما هو يقول:

- هل كان نبيك وصحابته يفعلون مثل هذا الذي تفعلونه يا شوالات الجهل؟

حاولت أن أقيم نفسي لكنه هوى بضربة أخرى على أذني آلمتني كثيرًا وهو يقول:

- أتفعلون ما لم يفعله النبي وصحابته يا حثالة؟ أتفعلون البدعة؟ أليس ما تفعلونه هذا هو البدعة التي تتشدقون بالاعتراض عليها طيلة الوقت؟

حاولت أن أجد ردًّا على كلامه لكن هذا لم يكن مفيدًا، فهو لن يسمع على أي حال، رأيته يستدير ويمشي إلى خارج القفص ويقول:

- كل الذين ذكروا حكايتهم من قبلك هم بالنسبة إليك لمساكين، فأذاهم لم يبلغ إجرامك أنت ومن على شاكلتك، أنتم تجعلون ملايين البشر كل عام يعيشون في ألم وعذاب نفسي هم وأهلوهم بتركهم العلاج واللجوء إلى بدعتكم التي ما أنزل الله بها من سلطان.

قلت له بضعف:

- من أنـــ... من أنت؟

قال لي في كراهية:

- أنا العمل الذي عملته في حياتك يا خالد موسى، أنا البدعة التي زرعتها في قلوب المساكين فآذتهم وجرحت أرواحهم، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وأسرع في مشيه حتى خرج من القفص وأغلق بابه بعنف ثم نظر إليَّ نظرة أخيرة:

- أمثالك لا يكفيهم العذاب ها هنا، بل إن موعدك هناك، في البرزخ الحقيقي.

ومشى حتى بلغ باب المستودع فخرج منه وصفقه من خلفه. بقيت بضع ثوانٍ متجمدًا لا أصدق أن هذا اللعين قد غادر، وتوقعت أن يضرب الباب بقدمه في أي وقت ويدخل عليَّ بآلة تعذيب جديدة من آلاته وطرائقه التي لا تنتهي، لكن الدقائق مرت ولم يأتِ أحد، قمت من موضعي إلى باب القفص أمسكه وأحاول فتحه في لهفة لكنه كان مغلقًا بإحكام، كان طويبة مستلقيًا بالقرب من القفص فناديته بصوت خرج مني خافتًا ضعيفًا، لكنني تمالكت نفسي ورفعت صوتي عاليًا أنادي باسمه حتى بدأ يستفيق، قلت له:

- يا طويبة، لقد غادر ذلك الشيطان وتركنا هنا، تعال وأخرجني من هذا القفص ولنهرب من هنا.

رأيت الدموع تنزل من عيني طويبة وهو يقول:

- يا شيخ، أحقًّا ذهب الشيطان الملعون؟

قلت له:

- نعم، لقد غادر منذ دقائق، ولست أدري ماذا ينتوي، لا تتحرك ناحيتي الآن يا طويبة، عليك أن تتوجه إلى يمينك مباشرة حيث موضع جثة ذلك الروسي، فإن مفاتيح الأقفاص ملقاة هناك.

تحرك طويبة بصعوبة خطوة تتبعها خطوة وهو يتبع ما أوجِّهه به حتى وصل إلى المفاتيح والتقطها، ثم توجه إلى ناحية القفص وأنا أشجعه حتى وصل إلى باب القفص، وبدأ يجرب المفاتيح بيد مرتجفة حتى سمعنا صوت

انفتاح القفل، فتنهدت أرواحنا شاكرة لله وفتحت الباب واحتضنت طويبة حضنًا وضعت فيه جميع مشاعري وأنا أقول:

- الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن يا طويبة.

لكن طويبة تغيرت ملامحه فجأة وقال:

- يا شيخ، هل تسمع هذا؟

أصغيت السمع، يا رب السماوات والأرض وعظيمهما، هذه أصوات سيارات الشرطة. ضحكت ملامحي وأنا أقول:

- إنهم هنا يا طويبة، سينقذوننا.

قال طويبة:

- لكن تلك الأساور ستقبض على معاصمنا فور أن نتجاوز المنطقة.

قلت له مطمْئِنًا:

- سيجدون لهذا حلًّا بالتأكيد.

فجأة انكسر الباب ودخل رجال يرتدون زي الشرطة الرومانية وينظرون إلينا وإلى المكان في ارتياب، ثم اقترب مني قائدهم وهو يقول:

- هل أنتما بخير؟ أين المجرم الذي كان يحتجزكم ها هنا؟

قلت له بسرعة:

- لقد غادر من هذا الباب منذ دقائق.

التفت الرجل ليلقي أوامره إلى الجنود بالرومانية، فانطلق فريق منهم خارجين من الباب يبحثون عن الشيطان الأصلع، وبقيت فرقة تتفقد المكان هنا. قلت للرجل:

- سيدي، من أبلغكم بأمرنا؟ لقد ظننا أنه قد قُضي علينا.

تنهد الرجل وقال:

- تلك الفتاة.

كان يشير إلى باب المستودع فنظرت ووجدتها واقفة هناك، فتحركت منابع الدمع في عيني فرحة وأنا أنظر إليها بذلك الحجاب الذي ترتديه، وتلك الملامح البريئة المملوءة بالقلق على حالنا، تلك الأويغورية، لقد أنقذتنا.

قال لي طويبة:

- يا شيخ، من هذه الفتاة التي يتحدث عنها؟

قلت له وأنا أنظر إليها في امتنان:

- ميهريجول تورسون.

فتح طويبة فمه دهشة وفرحًا ونزلت الدموع من عينيه وهو يذكر الله ويحمده، فذهبت إليه واحتضنته بذراعي ومشيت معه إلى باب المستودع حتى خرجنا. نظرت إلى الدنيا كأني أراها أول مرة، جنات خضر وأشجار ونسائم تحيي منابت الروح.

كثير من التحقيقات تمت وكثير من البصمات رُفعت ولم يجد أحد أي أثر لذلك المدعو شارلوتان، حتى ذلك الفندق قال الأهالي إنه مهجور منذ شهور ولم يُستخدم لأن صاحبه عرضه للبيع منذ فترة ولم يجد أحدًا يشتريه.

لم أنسَ كلمة واحدة قالها لي هذا الشيطان، ولقد وهبت نفسي للبحث عن أي معلومات تدل عليه حتى رأيت بالصدفة في أثناء بحثي لوحة اتسعت لها عيناي رعبًا..

لوحة من عصر النهضة أو نهاية العصور الوسطى على ما يبدو، تظهِر رجلًا قصيرًا سمينًا يقف على طاولة ويرفع يده بشيء ما، وتقف أسفل الطاولة ثلاث نساء ريفيات تجلس أمامهن امرأة بالغة الثراء بذلك الفستان المفروش...

لوحة رسمها فنان إيطالي من مدينة البندقية اسمه «بييترو لونجي»، لوحة شهيرة جدًّا عنوانها «شارلوتان» The Charlatan.

كلمة شارلوتان بالإنجليزية تعني الدجال أو المحتال، الشخص الذي يشتهر بين الناس بامتلاك قدرة أو علاج ما لكنه مخادع كذاب. ظللت أنظر إلى اللوحة وإلى وجه الشخص المرسوم فيها وقلبي ينتفض ندمًا ورعبًا، لو أنني فقط كنت أعرف معنى هذه الكلمة لغادرت المكان كله، فهذه اللوحة رأيتها في أول مشهد دخولي للفندق، لكن حتى لو كنت علمت معناها، ما كان ذلك ليغيِّر شيئًا، بل كنت سأكمل المؤتمر اللعين حتى النهاية، فليس الإنسان في النهاية إلا كيسًا كبيرًا من السذاجة مهما وُضِعت أمامه من إشارات.

***